
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
العميد الركن
د. ياسين سويد
معارك
خالد بن الوليد

معارك
خالد بن الوليد

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب : ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس : LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧ .

الطبعة الرابعة ١٩٨٩ مزيدة ومنقّحة

العميد الركن
د. ياسين سويد

معارك
خالد بن الوليد

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

الإهـداء

من جيلنا المنهزم ،
إلى الأجيال المؤمَّلة ،
لعلها تنتصر على جهلنا وتقاعسنا ،
فتمسح عن جباهنا وحول الهزيمة ،
وتزيح عن صدورنا عار الاحتلال .

بيروت ١٩٨٨
العميد الركن د. ياسين سويد

مقدمة الطبعة الرابعة

بعد خمسة عشر عاماً على صدور الطبعة الأولى من كتابنا « معارك خالد بن الوليد » عام ١٩٧٣ ، وطبعتيه التاليتين (الثانية والثالثة) ، ها نحن نقدم الى القارىء العربي الكريم الطبعة الرابعة ، مقدرين ، كل التقدير ، اهتمامه بالكتاب ، وإقباله عليه .

ولقد سعينا في تقديم الكتاب بطبعته الجديدة ، منقحة ومزيدة ، الى المحافظة على الجودة العلمية والموضوعية مع الاستزادة في مجال التحقيق والتوثيق ، فانتزعنا من الكتاب بعض الشوائب ، وهي غير ذات اهمية ، وأضفنا إليه أموراً هي بحدّ ذاتها مهمة ، واستبدلنا أموراً كان استبدالها ضرورياً ، وذلك كي نأتي به على مستوى من الكمال والجودة يرضي القارىء ويرضينا ، دون الخروج على ما هو منطقي وموضوعي وعلمي في مجال التحقق من الأحداث وتحليلها واستقرائها .

واما اهم ما أُدخل على هذه الطبعة من تعديلات ميّزتها عن الطبعات السابقة فهو :

١ ـ اضافة فصل في « الاستراتيجية العسكرية » في العصر الاسلامي الأول (وهو الفصل الخامس من الباب الأول) .

٢ ـ تغيير نص معركة « اليرموك » تغييراً أساسياً ، وذلك بناء على رؤية جديدة للمعركة اعتمدناها بعد إعادة النظر في روايات المؤرخين ، حيث رأينا ان نعتمد رواية « الواقدي » أساساً ، فاستندنا اليها في تشكيل مجريات المعركة بتفاصيلها التكتيكية والعملياتية ، واعتمدنا على خارطات عسكرية مفصّلة ودقيقة لدرس ارض المعركة وميدان القتال دراسة حسية وواقعية، بحيث يأتي تقديرنا لتحرك الجيوش ومناوراتها على أرض المعركة ضمن المنطق والمعقول .

ولكن ما يهمنا ان نشير اليه في هذه المقدمة ، وبعد مرور خمسة عشر عاماً على صدور الطبعة الأولى من الكتاب وما تصدّرها من اهداء « **من جيلنا المنهزم الى الأجيال المؤمَّلة** » ، هو ذلك الشعور بالذل والخزي والمهانة، وتلك المعاناة المضنية، لأن امتنا لم تستطع ، طيلة هذه الفترة من الزمن ، ان تقف وقفة عز مشرّفة تتيح لنا ان نغيّر ، ولو حرفاً ، من ذلك « الاهداء » الذي صدّرنا به تلك الطبعة ، « **فتمسح عن جباهنا (بعض) آثار الهزيمة** » و« **تزيح عن صدورنا (بعض) عار الاحتلال** » .

فإلى غدٍ نرجو أن يكون أفضل ، وإلى أملٍ نرجو أن يكون اكثر اشراقاً .

والله ولي التوفيق

بيروت في ٢٩/٩/١٩٨٨

العميد الركن د. ياسين سويد



تمهيد

أول ما يتبادر إلى الذهن عند التفكير في موضوع الفن العسكري عند العرب في العصر الاسلامي الأول ، أي عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، هو السؤال التالي : هل كان عند العرب في ذلك العصر فن عسكري بالمعنى الصحيح ؟

إذا عرفنا أن الباحث الفرنسي (غوستاف لوبون) ينفي وجود فن عسكري عند العرب على الاطلاق في ذلك العصر ، فيقول إنهم « كانوا يجهلون فن الحرب جهلاً تاماً »[1] ، وإنهم تعلموا هذا الفن واتقنوه في بضع سنين وفي خلال حروبهم مع الفرس والروم في الربع الأول من القرن الأول الهجري ، كان علينا ان نتساءل بدهشة واستغراب كبيرين : وهل يعقل أن يتمكن هؤلاء العرب ، في بضع سنين فقط[2] ، من أن يتقنوا هذا الفن الصعب وينتصروا بواسطته على أولئك الذين كانوا له ارباباً وكان العرب فيه مقلدين ؟ أي على أكبر

---

(١) حضارة العرب ، تعريب عادل زعيتر ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ و١٤٠ ـ ١٤١ و٦٠٥ .

(٢) يقول المؤلف : « خسر الروم في سبع سنين بلاد سورية التي ظلوا حاكمين لها سبعمئة سنة » ـ المصدر نفسه ـ ص ١٤١ .

امبراطوريتين عرفهما ذلك العصر ؟ بل أن يخضعوا جزءاً كبيراً من العالم خلال ربع قرن من الزمن بالرغم من حداثتهم بهذا الفن وضعف شأنهم فيه ؟

إن نظرة واحدة الى التراث الذي خلفه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون ، والمتمثل بما روي عن النبي من أحاديث وسنن ، وعن خلفائه الراشدين من أقوال وأعمال ذات علاقة بشرائع الحرب وتنظيم الجند وتدبير الجيوش ، ونظرة أخرى الى ما خلفه قادرة جيوش المسلمين في الربع الأول من القرن الأول الهجري من فتوح ، تدحضان دحضاً قاطعاً ما اورده الباحث الفرنسي (لوبون) عن جهل العرب للفن العسكري في ذلك العصر .

وقد لفت نظري قول (لوبون) في أثناء بحث كنت أعده عن معارك خالد بن الوليد ، فرأيت أن أتناول الفن العسكري عند العرب في العصر الاسلامي الأول بباب خاص أقدمه على معارك خالد في هذا الكتاب وأتناول فيه : صفات المقاتل العربي جندياً وقائداً ، وغايات الحرب ووسائل القتال عند العرب ، ثم التنظيم والاستراتيجية والتكتيك ، وأخيراً : المبادىء العامة في القتال عند العرب ، لعل القارىء يخلص منها بنتيجة أو بموقف من حكم (لوبون) .

إلا أن ذلك لا يمنعني من أن أقول كلمتي في هذا الصدد ، وهي أنه إذا كان غوستاف لوبون يقصد بـ « فن الحرب » التكتيك العسكري فقط دون سواه من الشؤون المتعلقة بالحرب ، أو يقصد « التعبئة » من الوجهة التكتيكية كما أخذها خالد بن الوليد عن الروم قبل اليرموك وطبقها لأول مرة في اليرموك ضدهم وانتصر بها عليهم (وأغلب الظن

أن ذلك هو قصد لوبون) فهو على حق ، نسبياً ، وليس على وجه الإطلاق ، إذ ان العرب لم يعرفوا التكتيك المتطور للقتال والذي كان مستخدماً عند الفرس والبيزنطيين إلا بعد الاسلام وفي أثناء حروبهم مع هؤلاء ، وذلك لما تضمنه القرآن الكريم ، في الكثير من آياته ، من فكر عسكري ، وما تمتع به قادة المسلمين ، نبياً وخلفاء وعسكريين ، من حسّ عسكري رفيع ظهر واضحاً في ما كانوا يصدرون من توجيهات وتوصيات وأوامر الى جيوشهم وقادتها . إلا ان قصد (لوبون) ، وبالتالي حكمه ، يصبح موضع نقاش اذا قررنا أن فن الحرب ليس هو « التكتيك العسكري » فحسب ، ولا هو « التعبئة التكتيكية » فقط كما نقلها خالد عن الروم ، بل هو كل ما يتعلق بالحرب من شؤون تبدأ منذ لحظة الإستعداد لها وحتى الإقدام عليها والفروغ منها . وعلى هذا الأساس أقدم « معارك خالد بن الوليد » كنموذج رائع للفن العسكري المتطور عند العرب في العصر الإسلامي الأول .

ولكن الذي يثير الاستغراب حقاً ، والأسف ، هو أن يجد المؤرخ العربي المعاصر أنه لم يهتم بالناحية العسكرية من التاريخ العربي سوى القلة النادرة من المؤرخين العرب السابقين ، وأن قلة من المحدثين حاولت جاهدة، ومشكورة ، أن تستنبط بعضاً من المبادىء والقواعد والخطط العسكرية التي عرفها العرب واتبعوها في ذلك الحين[1] . لذا جئت ، بدوري ، أحاول أن أضيء بعض هذه الجوانب الهامة من

(١) من المؤرخين السابقين : الهرثمي الشعراني صاحب (مختصر سياسة الحروب) في عهد المأمون ، ومن المؤرخين المحدثين : اللواء الركن محمود شيت خطاب ، القائمقام احمد اللحام ، والضابط الركن محمود الدرة ، والمقدم عبد الحميد السامرائي ؛ والصاغ محمد فرج وغير هؤلاء ممن سيرد ذكرهم في هذا الكتاب .

تاريخنا ، في وقت نحن أكثر ما نكون حاجة إلى مثل هذه المحاولة التي لا بد وأن نجد فيها ما يشحذ هممنا ويشد عزائمنا ويحثنا على مضاعفة الجهد للنهوض بهذه الأمة المغلوبة من كبواتها وإقالتها من عثراتها .

وقد حاولت في دراستي هذه أن أتبع الاسلوب العلمي الرصين في البحث والتقميش والتحقيق . . ثم التحليل والمقارنة بمبادىء الحرب الحديثة ، فعمدت إلى كل ما عرفت وما هو في متناول يدي من مراجع ومصادر تبحث في الفن العسكري عند العرب في ذلك العصر ، وفي سيرة خالد بن الوليد وشخصيته وسلوكه في معاركه ، فدرست كلاً منها على حدة ، محاولاً استنباط خططه العسكرية وتكتيكه الحربي في كل معركة ، وذلك بعد أن وَفقت بين ما جاء في هذه المصادر والمراجع من أخبار ومعلومات ، معطياً الأولية في الترجيح إلى المنطقي والمعقول ، ثم إلى ما يقره إجماع المؤرخين أو معظمهم . فعسىٰ أن تكون المحاولة مرضية ، وعسى أن أكون قد وفيت هذا القائد العظيم قسطاً مما له على الأمة العربية والأمم الإسلامية من فضل ، وعسى أن يجد العسكريون العرب والمسلمون في خططه وتراثه العسكري ما هو جدير بالتدريس في المعاهد العسكرية أسوة بما يدرَّس فيها من تراث عسكري عالمي .

وقبل أن أنتهي من هذا التمهيد أود أن ألفت نظر القارىء الكريم الى ملاحظتين هامتين :

أولاً : إنني قد تعمدت ، في سياق البحث في معارك خالد بن الوليد ، أن أسمي الجيوش العربية الغازية والفاتحة في كل من الجزيرة العربية والعراق والشام باسم « الجيوش الاسلامية » ، وذلك رغبة مني في إظهار حقيقة تاريخية هي أن الجيوش التي خاضت الحرب ضد المرتدين عن الاسلام في الجزيرة العربية ، وضد الفرس في العراق

والروم في الشام ، إنما كانت جيوشاً إسلامية تخوض القتال في سبيل نشر دعوة الاسلام ، فتكون تسميتها بالجيوش العربية ، والحالة هذه ، أمراً مخالفاً للتاريخ والواقع ، خاصة إذا ما علمنا أن هذه الجيوش قد حاربت المرتدين عن الاسلام في الجزيرة وهم عرب ، وأن كثيراً من القبائل العربية قد حاربت ضد هذه الجيوش والى جانب كل من الفرس في العراق والروم في الشام .

ثانياً : ان أي بحث في تاريخ الفتوح الإسلامية يظل ناقصاً ما لم يأخذ بالاعتبار رأي الفئة المغلوبة بالإضافة إلى رأي الفئة الغالبة ، وذلك ما لم نتمكن من الحصول عليه ، بكل أسف ، لندرته من جهة ، ولوجوده بلغات انقرضت ولم ينقل منه إلى اللغات الحديثة سوى القليل[1] من جهة اخرى . فإذا كان التاريخ العربي المكتوب اليوم ، والذي منه نستقي ، هو تاريخ العرب المنتصرين . . فماذا عن تاريخ الفئة المغلوبة من الفرس والروم وسواهم من الأمم التي قهرها العرب وأسسوا من أقطارها امبراطوريتهم الكبرى ؟

أقول هذا لأن المؤرخ ، في نظري ، هو ذلك القاضي الذي يتقدم الصفوف مبادراً إلى تحمل المسؤولية الكبرى وإعطاء أحكام مبرمة في مجريات التاريخ وحركة الزمن ، لذا عليه أن يزن أحكامه بميزان من العدل والتجرد لا حد لهما ، وفي ذلك فقط بقاء أحكامه وخلودها .

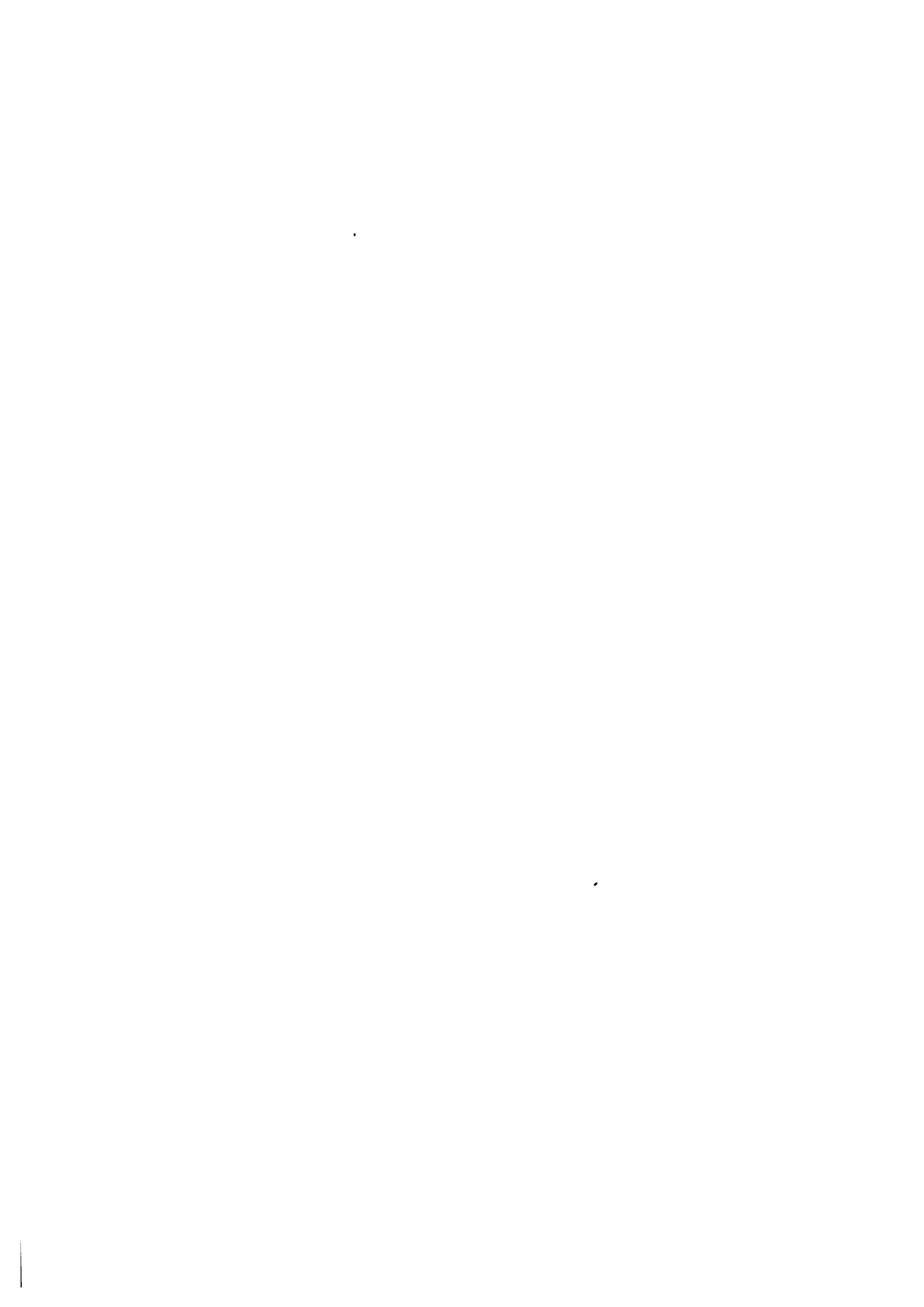
---

(١) مثل المؤرخين اليونانيين تيوفانس Théophanes ، ويوتيشيوس Eutychius ، ونيسفورس Nicephorus وغيرهم من مؤرخي الفرس والروم .



الباب الأول

الفن العسكري عند العرب
في العصر الاسلامي الأول



الفصل الأول

صفات المقاتل العربي

تحدث المؤرخون بإسهاب عن صفات المقاتل عند الإنسان العربي ، سواء كان قائداً أو جندياً . فالعربي ، بطبيعته ، فارس شجاع ، كما هو ، بالسليقة ، شاعر مجيد وخطيب بليغ . وإذا كانت حياة البداوة قد فرضت على العرب ، في عصور بداوتهم ، أن يعيشوا في جزيرتهم القاحلة متنقلين في أرجائها الواسعة ، باحثين بين رمالها الملتهبة عن واحة خضراء تشبع إبلهم وتروي ظمأها ، فإن هذا التنقل ، بما يحمل من تعرض للمخاطر والمهالك ، قد فرض عليهم التمرس بأنواع من القتال تناسب ظروفهم وبيئتهم ، حماية لهم ، ودرءاً لكل خطر يتهددهم .

إلا أن ما يهمنا في هذا المجال هو درس صفات المقاتل العربي في أول عهده بالاسلام ، مع ملاحظة أنه وإن كان العصر الأول للاسلام امتداداً زمنياً لآخر عصور الجاهلية ، فإن ما بعثه الدين الجديد في نفوس معتنقيه الأوائل من مناقب وأخلاق جديدة على الإنسان العربي ، وما

فرضه من تبدل في غايات الحروب ، خلق لدى المقاتل العربي المسلم صفات قتالية جديدة لم يعرفها المقاتل العربي الجاهلي من قبل ، وان لم يفرض تبدلاً في وسائل القتال .

أولاً : صفات القائد :

روي عن النبي ﷺ أنه قال : « اني لأؤمّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب » . كما روى السيوطي[1] أن النبي بعث عمرو بن العاص على سرية فيها أبو بكر وعمر بن الخطاب . وحدد الهرثمي[2] صاحب المأمون فضائل الرئيس في الحرب بخمس وعشرين منها : التحضيض (أي الحض على القتال) والتشجيع ، والتزاحف (أي الزحف نحو العدو) والإزدلاف (أي التماس به) والمشاولة (أي رفع السلاح بوجهه) والمساورة (أي الوثوب عليه) والعطف بعد الحملة (أي رجوع الجند إلى مواقعهم بعد الهجوم) والطلب بعد الهزيمة ، والركوب للمنهزمين ، والإلحاح عليهم (وهو ما يسمى اليوم باستثمار النصر أو متابعة العدو ومطاردته بعد احتلال مواقعه) وأضاف : « أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة وأكملهم عقلاً وأطولهم تجربة وأبعدهم صوتاً وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة وتسييرهم أوان المسير وإنزالهم أوان النزول وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه -أصحابه

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٦ .

(٢) مختصر سياسة الحروب ص ١٧ ـ ١٨ . ورغم ان هذا التحديد قد ورد على لسان الهرثمي في عصر عباسي متأخر عن العصر الاسلامي الأول ، فإنه ولا شك يشكل حصيلة معرفة عسكرية ناتجة عن حروب المسلمين في العصور المتقدمة كلها .

من العدو ، وأن يكون حسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً » .

ويقول غوستاف لوبون[1] ان الصفات اللازمة للفارس العربي تتلخص في عشر هي : « الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة في ركوب الخيل والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب » . ويعتبر عبد الرؤوف عون[2] أن هذه الصفات هي مجمل الشروط اللازمة للقيادة ، مضيفاً إليها ما يلي :

١ ـ السبق في الاسلام والتفاني في العقيدة الاسلامية .
٢ ـ التجربة والخبرة في الحروب .

ويحاول الصاغ محمد فرج[3] أن يستنتج من القرآن الكريم شروطاً يجب توافرها لدى القائد المسلم ، وهذه الشروط هي أن يكون القائد عالماً بكتاب الله ، فقيهاً ، حافظاً ، عارفاً بالحرب ومعداتها واساليبها ، قوياً ، شجاعاً ، موضع ثقة رجاله ، ثابت الجنان صلب العود ، قادراً على قيادة الجند ، ضابطاً لعواطفه ومشاعره ، عادلاً حتى مع أعدائه ، ووفياً لعهده حتى معهم ، حازماً يتحرى الأمور ولا يندفع وراء أخبار غير محققة ، واثقاً من نفسه ومن مقدرته فلا يخشى عدوه ، متدبراً أمره على أساس سليم ، متصلاً دوماً بجنده ، رحوماً بهم ، عطوفاً عليهم ، سامعاً لشكواهم ، محباً للتشاور غير مستبد برأي ، متحرياً أخبار عدوه قبل ان يلقاه ، قادراً على المناورة والمحاورة والخداع .

---

(١) حضارة العرب ص ٢٧٨ .
(٢) الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٣) السلام والحرب في الاسلام ص ٥٧ .

مما تقدم يمكننا أن نوجز الصفات العامة للقائد المسلم في العهد الاسلامي الأول بما يلي :

١ ـ أن تتوافر فيه شروط المسلم المقاتل (أي أن يكون مسلماً عاقلاً بالغاً حراً سليماً من الأمراض)(١) .

٢ ـ أن يكون من السابقين في الاسلام .

٣ ـ أن يكون ذا خبرة في الحروب وتجربة في القتال .

٤ ـ أن يتحلى بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة وأهمها العفة والشجاعة والتروي .

٥ ـ أن يكون عالماً بأمور الدين والدنيا معاً(٢) .

ثانياً : واجبات القائد :

يحدد أبو الحسن الماوردي(٣) ، واجبات القائد بستة أحكام :

١ ـ تسيير الجيش ، وعليه في هذا أن يرفق بهم ويتفقد خيلهم ويعرّف عليهم العرفاء وينقِّب النقباء ، وأن يجعل لكل طائفة من المقاتلين شعاراً يتميزون به ، وأن يُخرج من جيشه المرجفين والمتخاذلين

---

(١) سوف نتحدث عن هذه الشروط في حديثنا عن صفات الجندي .

(٢) يستنتج اللواء الركن محمود شيت خطاب ، من سيرة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) واقواله ، الصفات التي كان يشترط توافرها في القائد المسلم وهي أن يكون « ذا ماض مجيد في الحرب وفي خدمة الاسلام ، له تجربة عملية في القتال ، مكيثاً غير مقهور . . . قوي الشخصية مسيطراً على رجاله ، شجاعاً رامياً ، عالماً فقيهاً » . (الفاروق القائد ، ص ٩٩) .

(٣) الأحكام السلطانية ، ص ٣٥ ـ ٥٤ .

والجواسيس ، وأن لا ينحاز إلى من هو من نسبه أو رأيه أو مذهبه ضد من خالفه في النسب أو الرأي أو المذهب .

٢ ـ تدبير الحرب ، وعليه في هذا أن يميز بين صنفين من المشركين في دار الحرب : من بلغتهم دعوة الاسلام فامتنعوا عنها ، وهو مخير في مبادرتهم بالقتال دون إنذار أو مقاتلتهم بعد إنذارهم بالحرب ودعوتهم للقتال . ومن لم تبلغهم دعوة الاسلام ، وقد « حرّم » عليه أن يقاتلهم « غرّة وبياتاً » أو أن يبدأهم بالقتال « قبل إظهار دعوة الاسلام لهم » .

٣ ـ سياسة الجند ، وعليه في هذا أن يحرسهم من مفاجأة عدوهم لهم ، وأن يعدَّ لهم ما يحتاجون إليه من زاد وعلوفة ، وأن يقوي نفوس جنده ويعد كلاً منهم بما يتناسب وطموحه ، يعد أهل الدنيا بثواب دنيوي مباشر ويعد أهل الآخرة بثواب الله ، ويشاور أولي الرأي منهم ويطبق عليهم ما أوجب الله من حقوق وحدود ، ويمنعهم من التشاغل بالتجارة أو الزراعة كي لا يصرفهم اهتمامهم بذلك عن مصابرة العدو وقتاله . كما عليه أن يختار المكان الملائم لملاقاة عدوه وأن يتحرى أخباره وأن يرتب جيشه الترتيب الملائم للقتال .

٤ ـ حقوق الجهاد ، ومنها ما هو حق لله عليه وما هو حق له على جنده ، فأما حق الله عليه فهو أن يصابر العدو عند لقائه ، وأن يبتغي مرضاة الله ونصرة دينه في القتال ، وأن يؤدي الأمانة في الغنائم دون أن يغل[1] منها شيئاً ، وأن لا يحابي من المشركين ذوي

---

(١) الغلول : الخيانة في المغنم .

قربى أو مودة . وأما حقه على الجند فهو التزام طاعته والدخول في ولايته وتفويض أمرهم إليه والامتثال لأوامره وعـدم منازعتـه في الغنائم عند تقسيمها عليهم .

٥ ـ مصابرة العدو ، وعليه في هذا أن يصابر العدو وإن طـالت مدة قتاله معه ، وأن لا يولّي عنه ما دام فيه قوة .

٦ ـ السلوك في قتال العدو ، ويجوز له في هذا أن ينصب على العدو المجانيق والعرادات ، كما يجوز له أن يهدم على الأعداء منـازلهم ويقـطع نخلهم وشجرهم إذا رأى في ذلـك صـلاحـاً وإلا فـلا يفعل[١] .

وكـان النبي ﷺ يحرص عـلى أن يعين لكـل قـائـد خليفـة أو أكثر حتى إذا قُتل في المعركة تولى خليفته قيادة المسلمين فيها دون أن يفسد فقدان القائد عليهم أمرهم ، ففي مؤتة مثلاً ، جهز النبي جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل وأمّر عليه زيد بن حارثة « فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس » ، وكذلك فعل الخليفة عمر من بعده ، فقد روي أنه كتب الى النعمان بن مقرِّن يأمره بالتوجه الى نهاوند ، فإن حدث به حدث فليؤمّر

---

(١) يرى الاستاذ مجيد خدوري انه كان في ذلك العهد نوعان من القـادة العسكريـين في الاسلام :
ـ القائد العام ، وهو الخليفة ، ويتولى شؤون الدبلوماسية الحربية .
ـ القائد الخاص ، وهو قائد جيش ما من جيوش المسلمين ، ويتولى الشؤون العسكرية لجيشه (التدريب العسكري والعناية بالسلاح والخيل ووضع الخطط اللازمة للهجوم والدفاع وتوقيع معاهدات السلم مع الأعداء وتوزيع الغنائم) .
War and peace in the Low of Islam P. 88

على الجيش حذيفة بن اليمان ، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرِّن[1] .

ثالثاً : صفات الجندي :

يقول الماوردي[2] إن الشروط التي كانت مطلوبة لإثبات المقاتل المسلم في ديوان الجند خمسة :

١ ـ البلوغ : فلا يكون صبياً .
٢ ـ الحرية : فلا يكون مملوكاً .
٣ ـ الاسلام : فلا يكون ذمياً أو مرتداً .

٤ ـ السلامة من الآفات المانعة من القتال ، فلا يكون زمِناً ولا أعمى ولا أقطع ، ويجوز أن يكون أخرس أو أصم ، فأما الأعرج فيكون فارساً فقط .

٥ ـ الإقدام على الحروب والمعرفة بالقتال[3] .

ويجمع المؤرخون على أن النبي لم يكن يشترط في المقاتل المسلم سناً معينة، بل كان يشترط فيه الرغبة في الجهاد والقدرة على القتال فقط ، وهذا الشرط الأخير يتطلب ولا بد صفات معينة أقلها اللياقة

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٤ : ٢٣٩ .
(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
(٣) يحدد الاستاذ مجيد خدوري صفات المقاتل المسلم بأن يكون مؤمناً بالغاً عاقلاً ذكراً قادراً ، مستقلاً مادياً وحراً . اما العبد فلا يعد مجاهداً إلا اذا اعتق ، واما المرأة فيستعان بها لإسعاف الجرحى . ويمنع مسلمان من القتال : الطفل حتى يكبر ، والمجنون حتى يشفى .

War and peace in the Low of Islam P:84-87.

البدنية والبلوغ ، وهو ما لا يتم للذكر عادة قبل سن الخامسة عشرة ، لذا يمكن القول إن النبي كان يشترط على المقاتل المسلم أن يكون بالغاً (أي لا يقل سنه عن الخمسة عشر عاماً) وسليماً من الأمراض ، وراغباً في القتال . أما الاسلام فشرط أساسي للمقاتل المسلم ، إذ لم يعرف عن النبي أنه قبل ذمياً في صفوف المقاتلين معه . ويؤكد تمسك النبي بهذه الشروط ما روي عنه أنه أجاز يوم أحد (سمرة بن جندب ورافع بن خديج) في الرماة ، ورد سواهما (زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر) لأنه استصغرهما[1] . ولم يكن النبي يهتم بالسن قدر اهتمامه باللياقة البدنية والطاقة على القتال ، وسبب ذلك أن المسلمين كانوا قلة في عهده ، حيث لم يزد عددهم في وقعة الخندق عن ألف وخمسماية مقاتل ، بينما نرى الخليفة عمر ، وقد كثر المسلمون في عهده ، يتشدد في انتقاء المقاتلين وقبولهم في ديوان الجند الذي كان هو أول من أنشأه ، فيفرض الشروط الخمسة التي سبق للماوردي أن أوردها ، وهي أن يكون المقاتل (بالغاً ، حراً ، مسلماً ، سليماً ، مقداماً) ، وهؤلاء هم الجنود النظاميون الذين يسجلون في ديوان الجند ، أما المتطوعون فلم يكن لهم شروط محددة ولا أسنان معينة ، فكان يخرج من هم في الخمسين أو الستين أحياناً ، وكان يخرج بعض الموالي والعبيد وغير المسلمين[2] .

ومما يلفت النظر أن النبي ﷺ ، رغم قلة المسلمين في عهده ، لم يكن يجبر احداً على القتال ، وإن كان يحضهم عليه ، فجعل (الرغبة

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ : ١٢ ـ ١٣ ، وابن هشام ، سيرة النبي ، جـ ٣ : ٩ إلا ان ابن الأثير اورد في كتابه (الكامل في التاريخ) ، جـ ٢ : ١٥١ ، ان الرسول اجاز هذا اليوم جابر ابن سمرة ورافع بن خديج .

(٢) عون ، الفن الحربي ص ٨٨ .

في الجهاد) شرطاً أساسياً . وقد روي عنه أنه كان يقول لأصحابه إذ يخرج في غزوة من غزواته : « لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد » ، كما كان يأمر قادة سراياه أن لا يكرهوا أحداً على المسير معهم . ولكن المسلم ، في عهد النبي ﷺ ، لم يكن ملزماً (مادياً) بالخروج للقتال ، إلا أنه كان هناك نوع من الإلزام (المعنوي) لكل قادر على حمل السلاح ، إذ كان يكفي أن لا يرضى رسول الله عن تخلف المسلم القادر على القتال حتى يشعر بالعزلة والقطيعة بين المسلمين . كما ان النبي ﷺ لم يكن يرضى من المسلم القادر أن يتخلف عن القتال علانية ودون عذر كي لا يكون قدوة سيئة لباقي المسلمين ، إلا أنه كان يقبل من المنافقين أعذارهم وهو يعلم بكذبهم .

ويروى أن النبي ﷺ كان يرد المسلم الوحيد لأبويه إن كان أحدهما ، أو كلاهما ، حياً ولم يكن لهما من معيل سواه ، فقد ورد في مسند ابن حنبل[1] أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني قد أردت الجهاد معك أبتغي وجه الله والدار الآخرة . فقال رسول الله ﷺ : هل من أبويك أحد حيّ ؟ قال : نعم يا رسول الله ، كلاهما . قال رسول الله ﷺ : إرجع فأبرر أبويك .

ولقد استمرت الحال في عهد ابي بكر (رضي) كما كانت عليه في عهد النبي ، أي أن الخليفة الأول في الاسلام لم يخرج عن سنة النبي ﷺ في ترك الحرية للمسلمين ، إذا أرادوا خرجوا للقتال وإلا فلا إكراه في ذلك ، بل ظل يستنفر الراغبين ولا يكره المتخلفين ، وأكثر من ذلك ، فقد أبى على المسلمين الذين عادوا إلى الاسلام بعد ارتدادهم عنه أن

---

(١) جـ ١٠ ، حديث رقم ٦٥٢٥ و٦٥٤٤ .

يشتركوا في الحملات التي أوفدها لفتح الشام والعراق ، خشية أن لا يكون إيمانهم قد صفا واستقام فيفسدوا بذلك على المؤمنين الصامدين صمودهم وصدق إيمانهم ، وقد كتب إلى قائديه في العراق ، خالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، أن يأذنا لمن شاء بالرجوع ، ولا يستفتحا بمتكاره[1] .

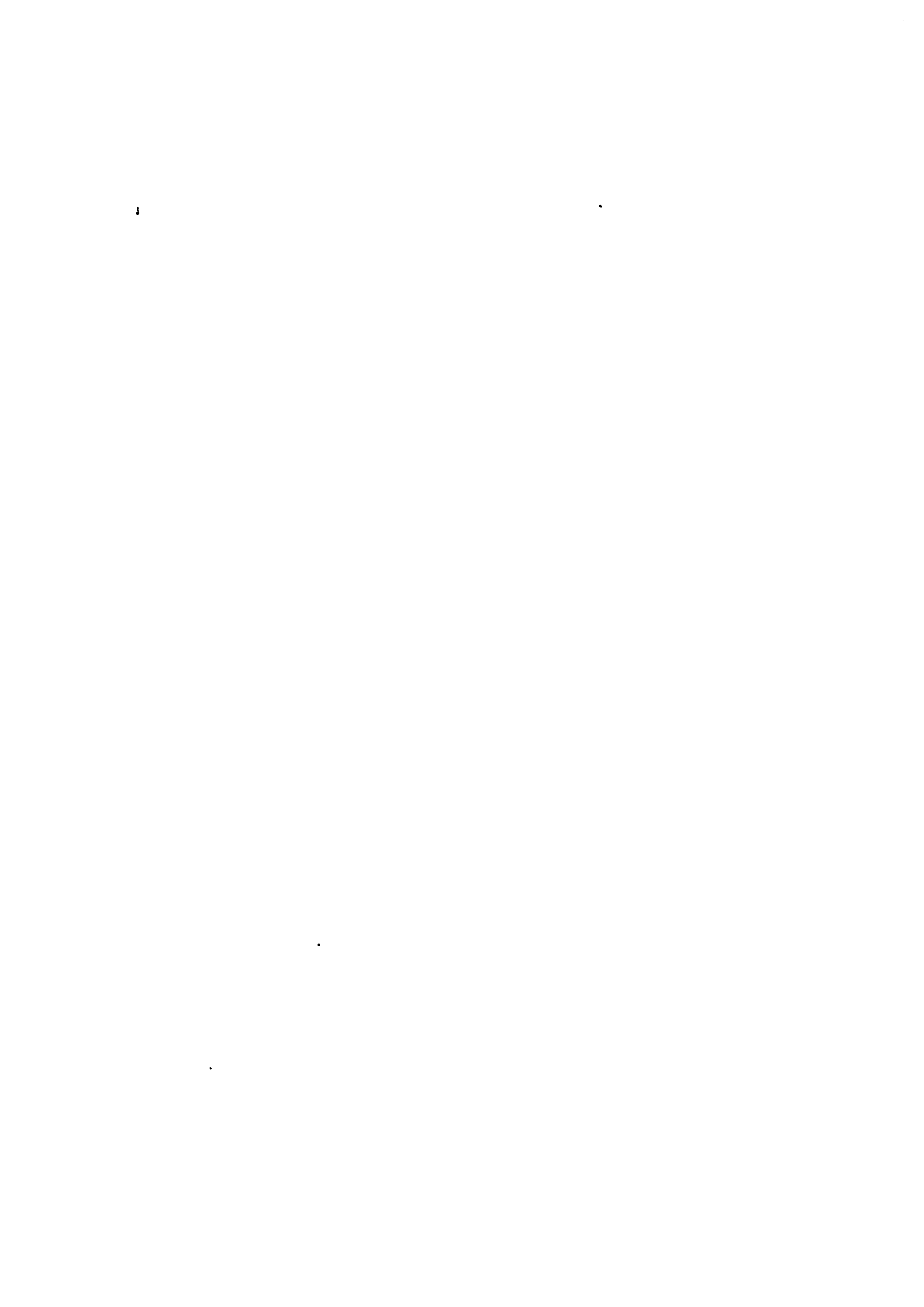
إلا أن الحال تغيرت في عهد عمر بن الخطاب (رضي) وقد ذهبت الجيوش الاسلامية بعيداً في أرض فارس وبيزنطية واتسعت رقعة الفتوح الاسلامية، فكان لا بد من انشاء ديوان للجند ينظم امورهم ورواتبهم، وينظم بالتالي شؤون الجيش في الامبراطورية الاسلامية العتيدة .

وكان عمر أول خليفة في الاسلام فرض التجنيد الإلزامي على المسلمين ، مستعملاً في ذلك أساليب الترهيب والشدة تارة وأساليب الترغيب والإغراء تارة أخرى . فبينما هو يأمر عماله بأن « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلي ، والعجل العجل » ، وبأن « لا تدعوا في ربيعة أحداً ، ولا مضر ولا حلفائهم احداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه »[2] ، إذا به يغري المسلمين بفيء العراق إذا تم فتحه ، وذلك عندما رأى ترددهم في اللحاق بالمثنى لمقاتلة الفرس بالعراق ، فيقول لهم : « ان الحجاز ليس لكم بدار إلاّ على النجعة[3] . . . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٤ .
(٢) م. ن. جـ ٤ : ٨٢ .
(٣) النجعة : طلب الكلأ في موضعه .

الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها »[1] . وكان لا بد من هذا التطور في ظروف ابرزت بجلاء أبعاد الدين الجديد وغاياته ومراميه ، وطموح الخلفاء والقادة الذين تولوا أمر نشره والدعوة إليه بعد الرسول ﷺ .

(١) الطبري ، م. ن. ، جـ ٤ : ٦١ .



الفصل الثاني

غايات الحرب عند العرب

أولاً ـ في الجاهلية :

لا تطلق كلمة (الحرب) على ما كان يقع من منازعات بين العرب في الجاهلية إلا من قبيل المجاز ، إذ لم تكن (حروب) العرب في هذه الفترة من الزمن سوى مناوشات بين أفراد تتعداهم احياناً الى القبائل[1] ، ولم تكن تدور حسب نظام معين بل كانت تشن لفترات قصيرة ثم تتوقف ثم تشن من جديد دون سابق إنذار أو اعلان ، باستثناء بعضها الذي اشتهر في تاريخ الجاهلية كحروب الغساسنة والمناذرة وحرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان وحرب الفجار بين كنانة وقيس وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، إذ يمكن اعتبار هذه المنازعات حروباً بالمعنى الصحيح .

وتتميز غاية الحرب عند العرب في الجاهلية انها لم تكن ذات صلة

---

(١) الطيباوي ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ، جـ ١ : ١٦٧ .

بأية مثل عليا[1] ، فلم تكن تشن في سبيل نصرة مبدأ أو بقصد الدفاع عن عقيدة ، بل كانت في الواقع تجسيداً صارخاً لأنانية الإنسان العربي فرداً كان أم قبيلة ، الى أن جاء الاسلام فقضى على تلك النزعة البدوية المتأصلة بابن الجزيرة واستبدلها بنزعة إنسانية نبيلة هي الجهاد في سبيل نشر الدعوة الاسلامية والدفاع عن الدين الجديد. ولا ريب في ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي ـ وهي ظروف سادها الكثير من الجهل والحرمان والطبقية ـ قد ساعدت الى حد كبير في إحداث التغيير الجذري المشار اليه في هذا المجتمع ، فبالاضافة الى أن الاسلام وعد الإنسان المسلم « بدولة تحكم وفق المبادىء الموحى بها من الله ، وتعامل جميع المؤمنين بالتساوي تجاه الشريعة السماوية » فقد وعده كذلك بدولة « تحقق في قلب الجماعة الاسلامية تكافلاً واسعاً على حساب المحظوظين ولمصلحة الفقراء »[2] .

وتتلخص غايات الحرب عند العرب قبل الاسلام بثلاث : الغزو والثأر والدفاع .

١ ـ **الغزو** . وهو نوع من القتال دعت إليه ضرورات اقتصادية في الغالب وأحياناً اجتماعية ، كالتنافس على الكلأ والمراعي والتزاحم على موارد الماء[3] ، وهو وان قرب في مفهومنا الحديث من أعمال القرصنة ، إلا أنه كان ، عند العرب الأقدمين وقبل الاسلام خاصة ، ضرورة لا

---

(١) الطيباوي ، م.ن. ص ١٦٨ .
(٢) رودانسون ، الاسلام والرأسمالية ، تعريب نزيه الحكيم ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) الزحيلي ، آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

يمكن للقبيلة بدونها أن تستمر في الحياة . ورغم أن الغاية الأولى للغزو هي الكسب والربح باعتباره الوسيلة الأساسية للعيش ، فكثيراً ما كان الأخذ بالثأر غاية ثانية له ، مما دفعه الى مرتبة النظام القومي الذي لا يعلوه نظام عند مختلف القبائل ، كما اصبح عادة متأصلة يألفها العرب ويأنسون اليها بل ويفتخرون بممارستها .

ومن شروط الغزو ان لا يراق فيه دم الا عند الضرورة ، كما يحق للقبائل الضعيفة أن تلجأ الى طلب الحماية لدى القبائل الشديدة البأس فتعقد معها معاهدة (حسن جوار) تضمن بواسطتها القبيلة القوية حماية القبيلة الضعيفة لقاء بدل يسمى (الخوة) .

ويخفف ما للغزو من حدة فضيلتان أصيلتان في خلق العربي وطبائعه هما : كرم الضيافة ، وحسن الجوار . فالعربي مهما يكن شريراً وقاسياً ، والبدوي مهما يكن غازياً ومغواراً ، تلطف نفسه ويكرم خلقه ساعة يستضيفه ضيف أو يستجيره مستجير[1] .

٢ ـ **الثأر** : وهو غير الغزو وان يكن أحياناً غاية من غاياته ، وهو واجب القبيلة المصابة لا تتخلى عنه مهما كلفها ذلك من ثمن ، وقانون العرب في ذلك : الحد أو الانتقام أو الدية ، إنطلاقاً من المبدأ العام الذي عرف في ذلك الزمن وهو (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)[2] .

أ ـ **الحد** : ويقع على أحد أفراد القبيلة الذي يقدم على قتل

---

(١) حتي ، تاريخ العرب ، جـ ١ : ٣١ ـ ٣٢ .
(٢) مثل في الجاهلية كان قاعدة من قواعد عصبية القبيلة ، جاء النبي ﷺ وأثبته مفرغاً فيه معنىً يتفق مع مثالية الاسلام ، ولما سئل ﷺ : « كيف ننصره يا رسول الله ؟ » قال : « بأن تضرب على يده عن الظلم » .

(مواطن) من قبيلته ، أي انه إذا أقدم شخص على قتل شخص آخر من أبناء قبيلته يقام عليه الحد دون أن يحق لأحد من انسبائه أو من أفراد تلك القبيلة حمايته أو الدفاع عنه ، وإذا فر يعتبر طريداً ويستباح دمه .

ب ـ **الانتقام** : ويقع على القبيلة بأجمعها دون تمييز بين المذنب من أفرادها وغير المذنب ، أي انه إذا أقدم شخص على قتل شخص آخر من قبيلة غير قبيلته يصبح جميع أفراد قبيلة الجاني عرضة للقتل من قبل كل فرد من أفراد قبيلة المجني عليه ، إذ تعتبر القبيلة المصابة أن أفراد قبيلة الجاني مسؤولون جميعهم عن الجريمة المرتكبة بحق (مواطنها) وان أفرادها هي ، جميعاً ، مسؤولون عن الانتقام للدم الذي أهدر منها .

ج ـ **الدية** : وهي شريعة أقرها العرب قبل الاسلام ، فرغم أن السن بالسن والعين بالعين ، وان القتل لا يمحو عاره سوى القتل ، وان العرب لم يكونوا ليصفحون عن إهانة لحقت بهم أو يتنازلون عن الثأر لدمٍ أهدر منهم ، إلا أنهم قبلوا بالدية حلاً سلمياً يمنع التقاتل بين القبائل ويفض المنازعات[1] .

٣ ـ **الدفاع** : وأهم غايات الدفاع التي كان العرب يعرفونها هي « حماية القوافل التجارية » . فقد كانت قوافل العرب هذه تقوم برحلات طويلة الأمد سوَاء باتجاه الشام أو اليمن ، وهي التي كانت تسمى رحلتي الشتاء والصيف . وكان عرب الحجاز يقومون بهذه الرحلات في قوافل مسلحة تبلغ أحياناً الفاً وخمسماية بعير مُحمّل[2]

---

(١) نص الاسلام كذلك على قبول الدية كمبدأ من مبادئه ، كما نص على الحد كعقوبة دينية . ولكن قواعد الحد في الاسلام تختلف عنها في الجاهلية .

(٢) أمين ، أحمد ، فجر الاسلام ، ص ١٤ .

يحيطونها بالفرسان المسلحين لحمايتها من غزوات القبائل الأخرى .
ومن المعلوم أن النبي ﷺ كان يقوم برحلتي الشتاء والصيف قبل نبوّته ،
كما أنه صار يهاجم قوافل قريش بعد ظهور دعوته .

ثانياً ـ في الاسلام :

لقد أحدث ظهور الدعوة الاسلامية في الجزيرة العربية ثورة في المجتمع العربي وتطوراً جذرياً في نفسية الإنسان العربي وعقليته . إذ بدأت مظاهر الجاهلية ، من أنانية وتسلط وحب للثأر ، بالزوال ، لتحل محلها مظاهر أخرى بديلة حملها الدين الجديد ، وأهمها التضحية والتسامح ونكران الذات في سبيل أخوّة رابطتها الاسلام ولحمتها العقيدة السماوية الجديدة ، فكان لا بد لغايات القتال إذن من أن تتطور بتطور المجتمع العربي وتلتصق بمبادىء الاسلام وأهدافه ، فإذا بالدين الجديد يفرض القتال لغايات وأهداف ومثل عليا لم يعرفها عصر الجاهلية ، ويمكن تلخيصها بثلاث غايات :

١ ـ الجهاد في سبيل الله ،
٢ ـ الردع أو صد الفتنة عن دين الله ،
٣ ـ التطلع الى حياة أفضل ،

١ ـ الجهاد :

لقد كان الهدف الأول للقتال في الاسلام هو (الجهاد في سبيل الله ونشر دينه) . فقد كان النبي يوصي قادة الغزوات بقوله : « اغزوا باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا

تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً . . . »[1]. كما كان يوصيهم بدعوة المشركين الى الاسلام ، فإن استجابوا فهو القصد والغاية، وإن لم يستجيبوا فقد وجب قتالهم . ويروى أنه كان يقول لقادته كلما بعث جيشاً الى القتال : « تألّفوا الناس وتأنّوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم » . وسار الخلفاء الراشدون على سيرة النبي ﷺ في الدعوة الى الجهاد واعتباره الغاية الأولى للقتال ، فكان عمر بن الخطاب يوصي امراء جيوشه عند عقد الألوية لهم بقوله : « باسم الله وبالله وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنصر ، وبلزوم الحق والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »[2] . وبقيت هذه الدعوة الدافع الأول الى حروب المسلمين في مختلف أصقاع الأرض ، فقد اوصى عمر بن عبد العزيز احد قادته ، بقوله : « إنه بلغني ان رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال : اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا . فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك . . . »[3] .

وكان لا بد لهذا الدافع أو هذه الغاية من سند قرآني يستند اليه الرسول وخلفاؤه كي يدعوا المسلمين الى الجهاد ، فكان لهم ذلك في آيات عديدة نذكر بعضها على سبيل المثال : ﴿ **وجاهدوا في الله حق جهاده** ﴾ [الحج ٧٨] و﴿**جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾

---

(١) ابن القيم الجوزية، احكام اهل الذمة ، جـ ١ : ٤ ؛ وقارن : صحيح مسلم ، جـ ٥ : ١٤٠ ، والخراج لابي يوسف ، ص ١٩٣ .

(٢) الدينوري ، عيون الأخبار ، جـ ١ : ١٠٧ (كتاب الحرب) .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ١ : ١٢٨ ؛ وانظر غيرها من الوصايا في المصدر نفسه ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

[التوبة ٤١] و﴿قاتلوا المشركين كافة ﴾ [التوبة ٣٦] و﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ [البقرة ٢١٦] ، و﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة ٢٩] .

٢ ـ الردع وصد الفتنة :

في الأصل ، كان الأمر بالقتال في الاسلام يهدف الى ردع المشركين وصد عدوانهم عن المسلمين ، فالآيات القرآنية التي نزلت في بدء ضهور الدعوة الاسلامية كانت تدعو الى الرفق واللين والحسنى ، وقد أجمع الفقهاء المسلمون أن (الأصل في الدماء الحظر إلا بيقين الإباحة)[١] ، والمقصود بالدماء هنا ، دماء الناس عامة دون تخصيص . كما ان النبي ﷺ كان يقول لأصحابه : « أيّها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية »[٢] . ونزلت الآيات الكريمة التي تدعو الى السلم ، مثل : ﴿ **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾ [الأنفال ٦١] ومثل ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ [النساء ٩٠] و﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ** ﴾ [البقرة ٢٥٦] و﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ [الكهف ٢٩] و﴿ **لو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾ [يونس

---

(١) ابن رجب الحنبلي ، القواعد ، ص ٣٣٨ .
(٢) منتخب كنز العمال (من مسند ابن حنبل) ، جـ ٢ : ٣٢٣ .

٩٩] . وقد ورد عند ابن تيمية قوله : « لا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله أكره أحداً على الإسلام »[١] .

وقد ظل النبي ﷺ في مكة زهاء ثلاثة عشر عاماً يدعو الى الاسلام متحملاً أذى القرشيين واضطهادهم ، منفذاً أمر الله له : ﴿ **وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ [النحل ١٢٥] دون ان يرد العدوان أو يردع المعتدين ، ولم يكن في كل حال قادراً على ذلك ، ولكن ما أن كثر أتباعه وقويت شوكته بهم ، وقدّر أن بإمكانه الوقوف في وجه ظلم القرشيين وتعسفهم ، حتى عزم على القتال درءاً لعدوانهم ، وأذن الله له بذلك إذ نزلت عليه الآية الكريمة ﴿ **أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾ [الحج ٣٩] . وتبعتها آيات أخرى تحضُّ المسلمين على قتال المشركين وتدعوهم الى ذلك ، مع شرط أساسي هو ان تكون غاية القتال إما دعوة المشركين الى الاسلام او رد أذاهم عن المسلمين . ولا يقصد بالأذى ، هنا ، الأذى الجسدي او المادي فقط ، بل يشمل ما يلحق بالمسلمين من أذىً معنوي ينتج عن محاولة تضليلهم وافتتانهم عن دينهم ، وهكذا أذن الله للمسلمين أن يقاتلوا :

أ ـ المرتدين : وهم الذين ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ﷺ ، وقد قاتلهم المسلمون في عهد الخليفة ابي بكر حتى أعادوهم الى الاسلام بعد ان قتل من أبى العودة اليه منهم .

ب ـ أهل البغي : وهم الذين يخرجون على الامام ينوون خلعه أو يمنعون الدخول في طاعته[٢] .

---

(١) رسالة القتال (من مجموعة رسائل ابن تيمية) . ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢) الزحيلي ، آثار الحرب ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

كما أذن لهم برد أذى المشركين وصد عدوانهم مع تذكيرهم دائماً بأن الأصل هو السلام وعدم الاعتداء فقال لهم : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾ [البقرة ١٩٣] وقال : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ [البقرة ١٩٠] . وقال كذلك حاثاً المسلمين على الدفاع عن دينهم وعن أنفسهم ونسائهم وأولادهم : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان . . .** ﴾ [النساء ٧٥] .

وهكذا يكون الردع وصد الاعتداء ودفع الفتنة عن الدين والدفاع عن النفس وعن العقيدة مجمل الغاية الثانية من غايات الحرب في الاسلام .

٣ ـ التطلع الى حياة أفضل :

ربما يعترض كثير من المؤرخين والمفكرين المسلمين على القول ان التطلع الى حياة أفضل كان غاية من غايات الحرب في الاسلام ، ولكن الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي انه وان لم تكن الدوافع الاقتصادية غاية الحروب الاسلامية في الأساس ، إلا انها أصبحت ، بعد النهضة الاسلامية في الجزيرة العربية ، وانفتاح عرب هذه الجزيرة على العالم الخارجي بفضل عقيدتهم الجديدة ، تمثل حافزاً هاماً من حوافز الحرب عند المسلمين ، تلك الحوافز التي دفعت بجيوشهم الى خارج الجزيرة العربية كالسيل الجارف تشدها الى النصر والفتوح عقيدة صلبة ورغبة تبلغ حد الاستماتة في سبيل نشر الدين الحنيف والدعوة اليه ، وكذلك تطلع متلهف الى كنوز كسرى واهراء بيزنطية .

وكان لا بد من هذا التطلع الذي أصبح ضرورة لسد حاجات اقتصادية فرضها ازدياد عدد المسلمين ونمو جيشهم والظروف المعيشية القاسية التي كان يعيشها الإنسان العربي في جزيرته . فالغاية الأخيرة اذن هي نتيجة حتمية للغايتين الأوليين ، وهي متفرعة عنهما وليست متساوية بهما أو موازية لهما . ويكفينا في هذا المجال ، لكي نؤكد الدوافع الاقتصادية التي حدت بالمسلمين الى خوض المعارك خارج حدود الجزيرة العربية ، بالاضافة طبعاً الى الدوافع العقيدية ، ان نورد ما جاء في خطبة الخليفة عمر بن الخطاب يوم ولي الخلافة إذ قال : « لكم علي أيها الناس خصال اذكرها لكم فخذوني بها : لكم عليَّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم من وجهه ، ولكم عليَّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم عليَّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ، ولكم عليَّ ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم ، واذا غبتم في البعوث فأنا ابو العيال »[1] . وما روي عن المثنى بن حارثة الشيباني انه ، لما رأى تردد الناس في اللحاق به لمحاربة الفرس في أرض العراق ، وقف فيهم خطيباً وقال : « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه[2] ، فإنا قد تبحبحنا[3] ريف فارس وغلبناهم على خير شِقَّيّ السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ مَنْ قِبَلَنا عليهم ولها إن شاء الله بعدها » ، فلما سمع الخليفة عمر قول المثنى وقف بدوره يخطب في الناس ويقول : « ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النُّجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطُّرّاء المهاجرون عن

(١) هيكل ، الفاروق عمر ، جـ ١ : ٩٦ .

(٢) أي وجه فارس ، وكان من اكره الوجوه على المسلمين لشدة بأسهم وسطوتهم (هيكل ، الفاروق عمر ، جـ ١ : ٩٧) .

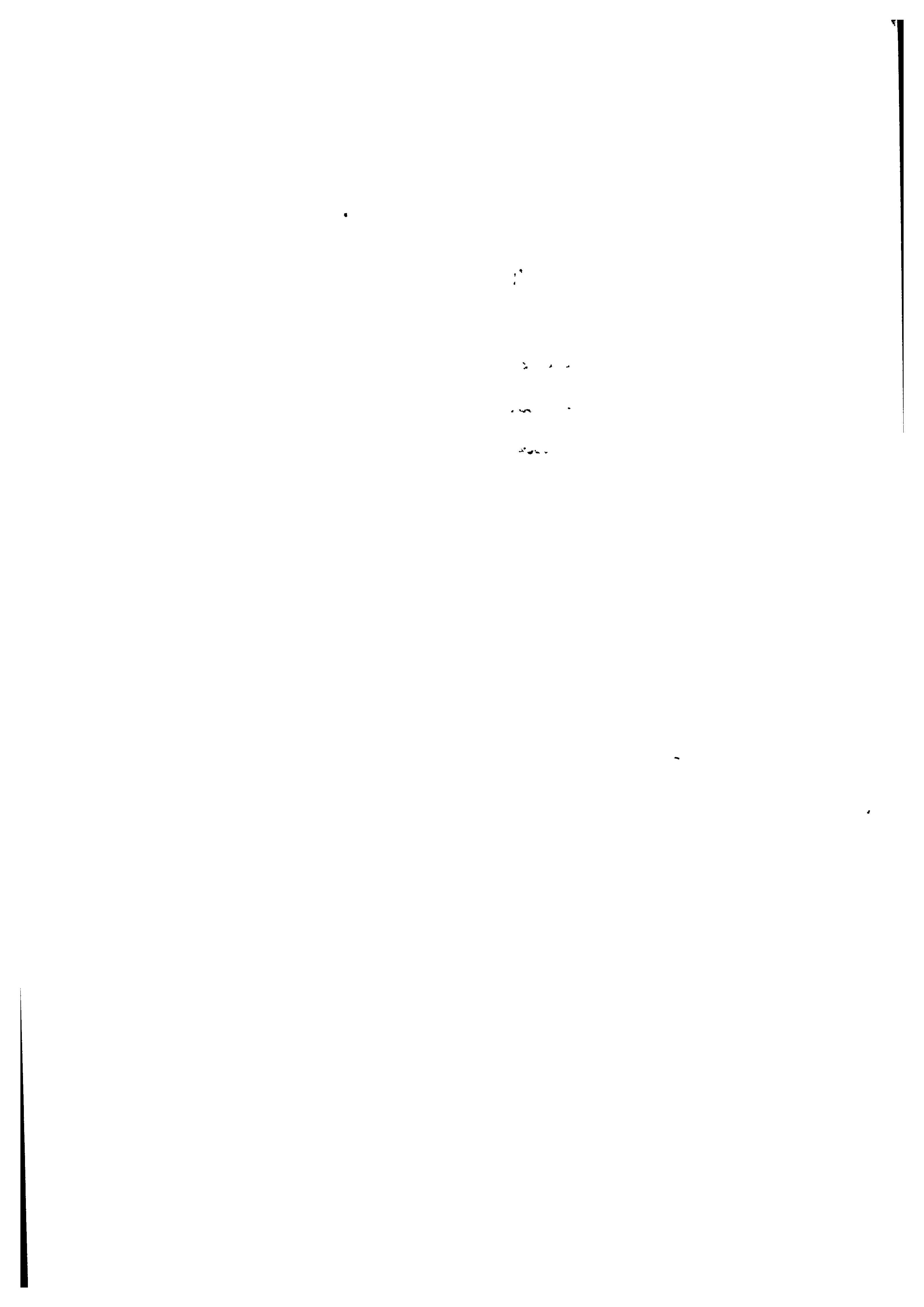
(٣) أي توسطنا وتمكنا من . . .

مـوعـود الله ؟ سيــروا في الأرض التي وعـدكم الله في الكتــاب أن يورثكموها »[1] .

كل هذا يؤكد ما ذهبنا إليه من ان الدوافع الاقتصادية (وهي التطلع الى حياة افضل) أضحت ، بالإضافة الى الـدوافع العقيـدية (وهي الجهاد في سبيل الله ونشر دينه وصدّ الفتنة عن دعوة الإسلام) ، من أهم الحوافز التي دفعت بالمسلمين الى الفتوح والتوسع خارج حدود الجزيرة العربية ، مع اعتبار ان الدوافع العقيدية بقيت هي الأساس والأصل في هذه الحوافز .

---

(١) هيكل ، م. ن. ص ٩٧ ـ ٩٨ .



الفصل الثالث

وسائل القتال

ونعني بها كل ما استعمل في القتال من وسائل دون الرجال ، أي الأسلحة والمعدات والتحصينات والحيوانات ، ولم تتعد هذه الوسائل التي استعملها المسلمون في حروبهم ما استعمله خصومهم من وسائل تقليدية كانت معروفة في ذلك العصر .

أولاً ـ الأسلحة ، وتقسم إلى :

أ ـ **الأسلحة الافرادية** ، أي التي لا يتطلب استخدامها أكثر من مقاتل واحد ، وهي :

١ ـ القوس ، ٢ ـ الرمح ، ٣ ـ السيف ، ٤ ـ الدبوس ، ٥ ـ الفأس ، ٦ ـ الخنجر .

ب ـ **الأسلحة الاجمالية** ، أي التي يتطلب استخدامها أكثر من مقاتل واحد وهي :

١ ـ المنجنيق والعرادة[1] ، ٢ ـ الدبابة أو الضبر .

ثانياً ـ المعدات ، وتقسم كذلك الى :

أ ـ **المعدات الافرادية** ، وهي :

١ ـ الدرع ، ٢ ـ الترس أو المجن ، ٣ ـ البيضة (أو الخوذة) .

ب ـ **المعدات الاجمالية** ، وهي :

١ ـ سلم الحصار ، ٢ ـ الحسك الشائك .

ثالثاً ـ التحصينات ، وهي :

١ ـ الخنادق (خندق الحصار وخندق الدفاع) .
٢ ـ الحصون والأسوار .
٣ ـ المسالح والثغور .

رابعاً ـ الحيوانات ، وهي :

١ ـ الحصان ، ٢ ـ الجمل .

وإذا أردنا تقسيم وسائل القتال هذه الى وسائل هجومية وأخرى دفاعية لتبين لنا أن الأسلحة جميعها ، بما فيها المنجنيق ، هي اسلحة استعملت في الهجوم والدفاع معاً ، ما عدا الدبابة أو الضبر التي استعملت في الهجوم فقط . أما المعدات والتحصينات فمنها ما استعمل في الهجوم فقط كسلم الحصار وخندق الحصار ، ومنها ما استعمل في الدفاع فقط كخندق الدفاع والحصون ، ومنها ما استعمل في الحالين معاً كالحسك الشائك والدرع والترس والخوذة .

---

(١) منجنيق صغير سيأتي شرحه فيما بعد .

وأما الحيوانات، فالحصان وسيلة من وسائل الهجوم والدفاع معاً ، أما الجمل فهو على العموم وسيلة من وسائل النقل لا القتال ، وما ذكره هنا إلا لأن النقل يعتبر من العوامل الاستراتيجية الهامة في القتال وان لم يكن له دور في تكتيك المعركة في ذلك الحين .

أ ـ الأسلحة الافرادية :

١ ـ القوس :

مؤنثة ، وقد تذكَّر ، وهي « آلة نصف دائرية يرمى بها »[١] أو « عود من شجر جبلي صلب يحنى طرفاه بقوة ويشد فيهما وتر من الجلد أو العصب الذي يكون في عنق البعير ، وهو يشبه الى حد ما قوس المنجّد في هذه الأيام »[٢] . وذخيرتها هي (السهم) أو (النبل) أو (النشاب) ، ثلاثة اسماء لمسمّى واحد . وتحفظ السهام في جعبة تسمى (كنانة) أو (جعبة) أو (جفيراً) ، ويسمى مستعملو هذا السلاح في القتال (رماة) .

والقوس فارسية الأصل اجاد الفرس استعمالها فكانوا أمهر من العرب في ذلك بكثير . لذا كان النبي يحض المسلمين باستمرار على استعمال القوس واتقان الرمي به فيقول : « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممد به . فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا »[٣] كما كان يفسر الآية الكريمة ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾

---

(١) محيط المحيط ، جـ٢ : ١٧٧٣ (قوس) .
(٢) عون ، الفن الحربي ، ص ١٣٠ .
(٣) ابن القيّم الجوزية، الفروسية ، ص ١٥ ـ ١٦ .

بقوله : « ألا ان القوة الرمي » ، مردداً ذلك ثلاث مرات[1] . وقد تمكّن العرب خلال حروبهم مع الفرس والروم من اتقان الرمي بالقسي حتى فاقوا خصومهم وامتازوا عليهم ، وبلغ من مهارتهم انهم « لو أراد أحدهم أن يرمي إحدى عيني الغزال دون العين الأخرى لرماها، لذا سموا مهرة الرماة (رماة الحدق)»[2] .

اجزاء القوس : تتألف القوس من عدة اجزاء هي :

البدن : جسم القوس أو هيكلها .

الكبد : الموضع الذي يمر منه السهم عند الرمي ، وهو وسط القوس .

المقبض : موضع اليد اليسرى ، تحت الكبد مباشرة ، ويسمى ايضاً (العجس) .

السِيَّتان : طرفا القوس المحنيان ، وهما : السيّة العليا (يد القوس) والسيّة السفلى (رجل القوس) .

القابان ، أو الذراعان : القاب العلوي وهو ما بين السية العليا وكبد القوس ، والقاب السفلي وهو ما بين المقبض والسية السفلى .

الوتر .

الفرضتان ، أو معقدا الوتر : وهما الموضع من السيتين العليا والسفلى الذي يربط فيه الوتر .

---

(١) صحيح مسلم ، جـ ٦ : ٥٢ .
(٢) زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٦٩ ؛ وانظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ١ : ١٨٧ ، حاشية (٤) .

الظفران : وهما الجزء المتبقي من طرفي السيتين العليا والسفلى من الفرضة حتى نهاية السية (الظفر العلوي والظفر السفلي) .

الحمالة : وهي مثل حمالة البندقية والسيف[1] .

(أنظر الرسم رقم (١) - رسم القوس)

السهم واجزاؤه :

السهم ذخيرة القوس ، وهو « عود من شجر صلب بطول الذراع تقريباً ، ينحته الرامي ويسوّيه ، ثم يحزّ فيه حزوزاً دائرية يركّب فيها الريش ويشدّه عليها بالجلد أو يلصقه بالغراء ويربطه ثم يركّب في قمته نصلاً من حديد مذَبَّب له سنّتان في عكس اتجاهه ، يجعلان إخراجه من الجسم صعباً إذا غرز فيه »[2] . ويتألف السهم من عدة أجزاء هي :

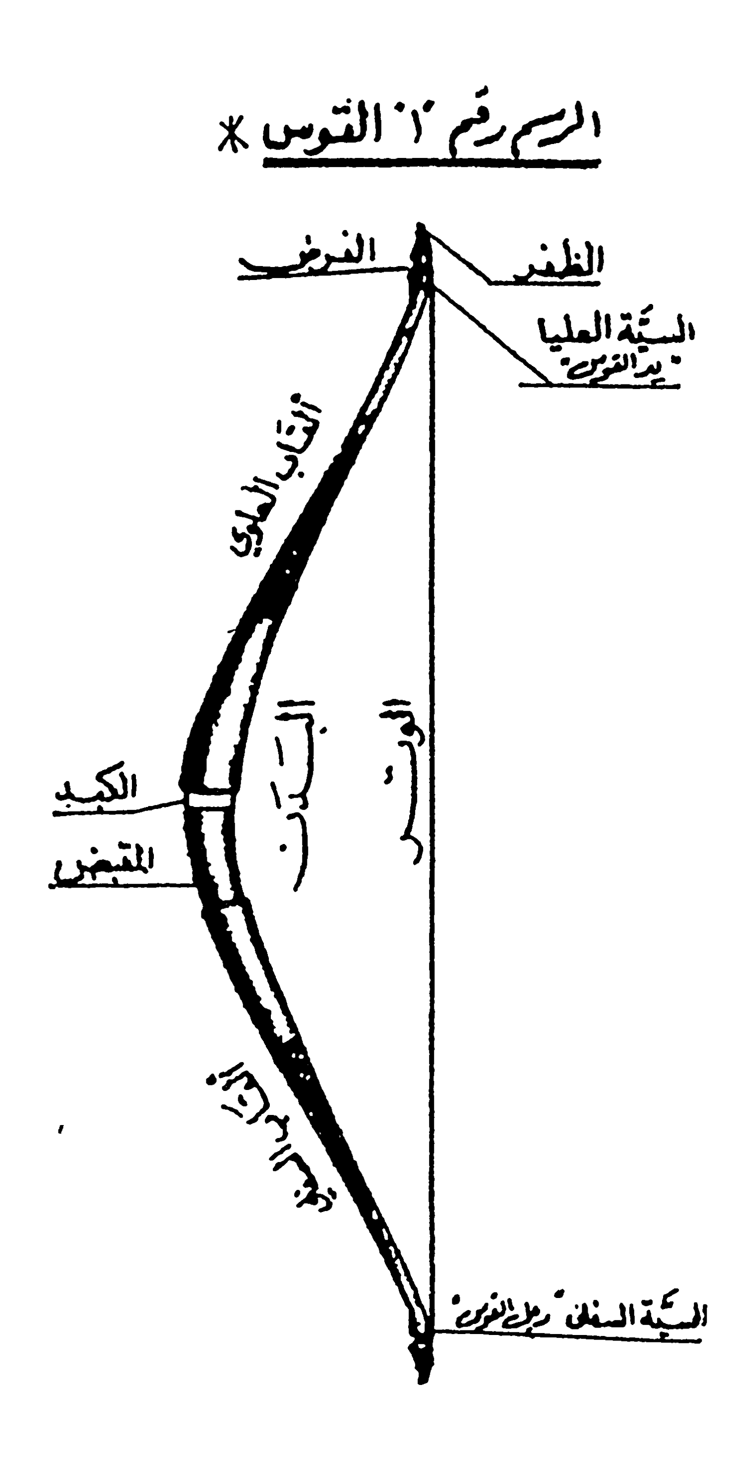
القِدْح : جسم السهم قبل أن يريَّش ، فمتى وضع عليه الريش سمي (المريَّش) ، ومتى وضع فيه النصل سمي (السهم) .

النصل : جسم حديدي مروَّس من طرفه الأمامي ، يركّب في رأس السهم المتجه نحو العدو .

---

(١) عون ، الفن الحربي ، ص ١٣٠ - ١٣٢ . والدكتور علي الجندي ، شعر الحرب في الجاهلية ، ص ١٣٣ - ١٣٥ . ويختلف الدكتور الجندي مع الاستاذ عون في وضع المقبض بحيث يعتبره الأول تحت وسط القوس الذي هو الكبد بينما يعتبره الثاني في وسط القوس دون ان يذكر الكبد ، والأصح هو ما ذكره الدكتور الجندي (انظر النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ : ٢٢٢ - ٢٢٣) .

(٢) عون ، الفن الحربي ، ص ١٣٧ .



* انظر : عون ، الفن الحربي في صدر الإسلام ، وقارن : الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي .

الظُّبَة : الرأس المدبب للنصل .

سِنخ النصل : الحديدة التي تدخل من النصل في السهم .

الرُّعظ : مدخل النصل في السهم أو الطرف المجوف من القدح حيث يولج النصل . وجاء في المخصص انه يسمى أيضاً الفتح ، وكذلك المقدح ، وهو ثقب لمدخل السنخ .

العقبة : أو الرصفة (وجمعها عقب ورصاف) : لفائف من جلد أو عصب تلف حول الرعظ لربط النصل بالقدح .

كليتا النصل : ما عرض منه مما يلي الرصاف .

المتن : الجزء من السهم ما بين النصل والزافرة .

الزافرة : الجزء من السهم ما بين المتن والحفو أو الكظامة .

الحفو أو الكظامة : موضع الريش من السهم .

الريش : ريش من طير يركّب على جانبي السهم لحفظ توازنه وعدم اضطرابه في اثناء انطلاقه الى الهدف ، وعدده ريشتان أو ثلاث فقط .

الشريجة : العقبة التي يلصق بها ريش السهم على القدح .

المذبح أو الخصر : ما بين اصول الفوق والريش .

الفُوق : موضع الوتر ، أو التجويف الخلفي من القدح حيث يثبت الوتر قبل الرمي .

الشرخان : مثنى شرخ ، وهما فلقتا الفوق يثبت بينهما الوتر ، ويسميان ايضاً (زَنْمتا الفُوق أو رجلاه) .

الأطْرة : العقبة التي تلف حول الفُوق[1] .

(أنظر الرسم رقم (٢) - رسم السهم)

٢ - الرمح :

عود من شجر صلب مثل النبع والشوحط وبعض الأشجار الصلبة الأخرى ، أو من القصب الهندي المجوف (Bamboo) احياناً ، يسوّى رمحاً بعد أن يركَّب في رأسه نصل من حديد[2] . وقد كان النبي ﷺ يحث المسلمين على استعمال الرمح واقتنائه بقوله : « جعل رزقي تحت ظل رمحي »[3] .

وتختلف تسمية الرمح باختلاف طوله ، فالقصير وهو ما دون الأربعة أذرع يسمى (النيزك أو الحربة أو العنزة أو المزراقة أو المطَّرد) ، كلها أسماء لمسمى واحد هو الرمح القصير . والطويل أو المطَّرح وهو ما بين الأربعة أذرع والعشرة ، تختلف كذلك تسميته باختلاف طوله . وقد ورد في البيان والتبيين للجاحظ أن هذا النوع من الرماح ذو طبقات هي : المربوع (أربعة أذرع) ، ثم المخموس (خمسة أذرع) ، ثم التام ، فإذا زاد طول الرمح عن عشرة أذرع سمي (الخطل) لاضطرابه

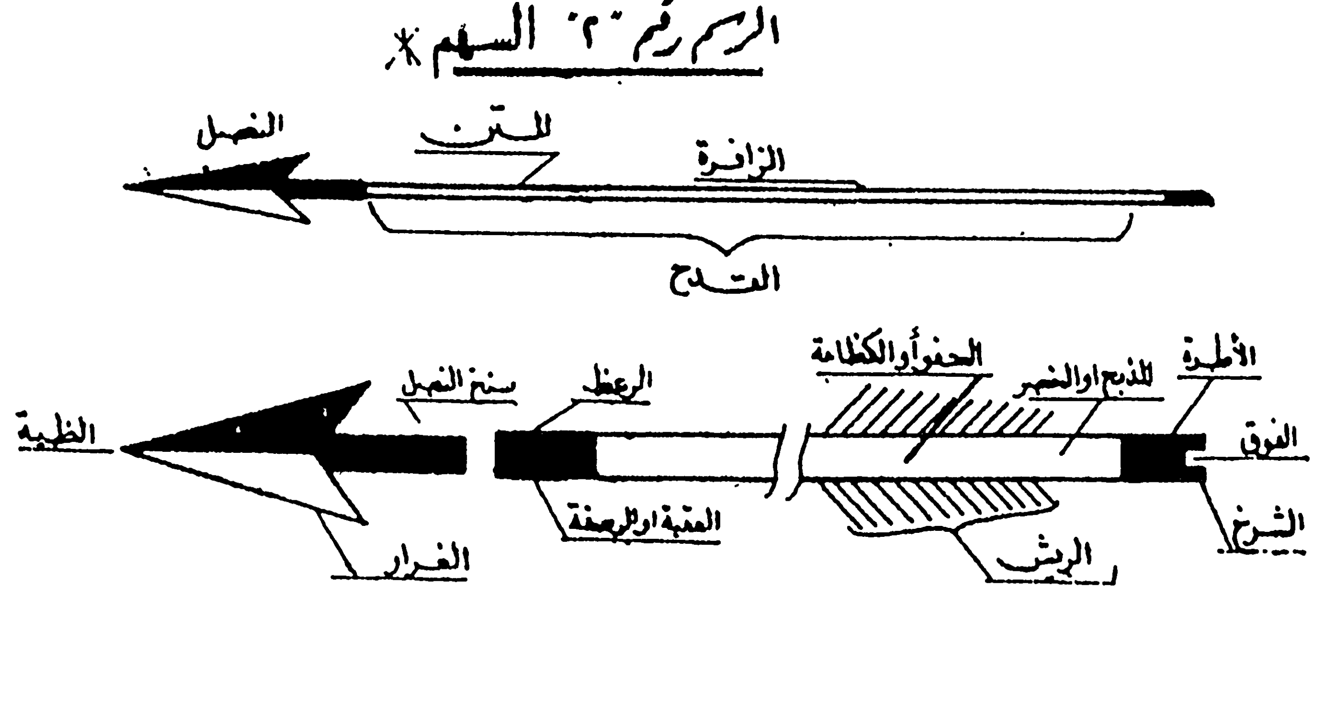
---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ٦ : ٥٣ - ٦٠ ؛ وقارن : عون ، الفن الحربي ، ص ١٣٨ - ١٤٠ ، والجندي ، شعر الحرب ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) عون ، م. ن. ص ١٤٣ .

(٣) النويري ، نهاية الارب ، جـ٦ : ٢١٤ .

الرسم رقم "٢" السهم *



* انظر : عون ، الفن الحربي في صدر الاسلام؛ وقارن : الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي.

فى يد صاحبه بسبب طوله المفرط[1] .

وقد عرف العرب كذلك من الرماح : القناة الصماء والقناة الجوفاء ، وكانوا يفضلون الأولى على الأخيرة اذ يدهنونها بالزيت لتظل لدنة يثبتون في رأسها حربة واحدة للطعن او حربتين واحدة مستقيمة واخرى ملتوية لنقب الأسوار[2] .

ونسب العرب الرماح الى انساب مختلفة حسب مصدر كل نوع منها ، فقيل :

الرماح السمهرية : نسبة الى رَجل عرف بتقويم الرماح اسمه سمهر .

الرماح الزاعبية : نسبة الى زاعب[3] .

الرماح اليزنية : نسبة الى ذي يزن (وربما قيل أزنية)[4] .

الرماح الردينية : نسبة الى امرأة تسمى ردينة ، كانت تبيع الرماح .

الرماح الهندية : نسبة الى الهند[5] .

---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ٦: ٣١ ، والجاحظ، البيان والتبيين، جـ٣: ١٨ ـ ١٩ .

(٢) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص ٥٠٥ .

(٣) جاء في المخصص لابن سيده ، جـ ٦ : ٣١ : « الرمح الزاعبي هو الذي اذا هز اضطرب من اوله الى آخره » . وفي نهاية الارب للنويري ، جـ ٦ : ٢١٥ : « الرمح الزاعبي هو الذي اذا هز تدافع كله » . ثم يعود النويري فيقول : « الزاعبية رماح منسوبة الى زاعب : رجل او بلد » . كما يقول : « وفي الأساس : رمح زاغبي ورماح زاعبية نسبة الى رجل من الخزرج كان يعمل الاسنة . عن المبرد » (نهاية الارب ، جـ ٦ : ٢١٥ . حاشية رقم ٢) .

(٤) ابن سيده ، جـ ٦ : ٣٣ .

(٥) وجدناها عند الجندي ، شعر الحرب ، ص ١٤٦ ، دون ذكر المصدر ، ولم نجدها في نهاية الارب ولا في المخصص .

الرماح الخطية : نسبة الى (الخط) وهي ارض في البحرين تنسب إليها الرماح الخطية (حسبما جاء في معجم البلدان لياقوت) .

وهذه الرماح جميعها إما أن تكون (جوفاء) ، وهي التي كان العرب يستوردونها من الهند وتصنع من القصب المجوف كما ذكرنا ، وإما ان تكون (صماء) وهي التي كان العرب يصنعونها بأنفسهم .

أجزاء الرمح : يتألف الرمح من عدة أجزاء هي :

القناة : جسم الرمح كله قبل تركيب النصل عليه .

المتن : وسط الرمح[1] .

الكعب : جمعها كعوب ، وهي العقد التي تكون في العود ثم تسوى حتى تصير ملساء ، وهي ، عند ابن سيده ، طرف الأنبوب الناشز أو العقدة ما بين الأنبوبتين في القنا والقصب .

الزّج : جسم حديدي يركّب في الطرف الخلفي من القناة ، يساعد على تركيز الرمح في الأرض ويطعن به عند الحاجة .

السِّنان : حد الرمح ، أو نصله ، أي الجزء الذي يطعن به ، وهو جسم حديدي يركّب في الطرف الأمامي من القناة ، وله أشكال مختلفة منها المسنون الجانبين ، ومنها ذو الشعبتين واحدة مستقيمة والأخرى ملتوية ، ومنها الرفيع الملتوي الذي يحدث ثغرة في الجسم المطعون .

العالية : النصف الأعلى من القناة الذي يلي السنان مباشرة ، ويسمى أيضاً (صدر القناة أو ذراعها) .

---

(١) عند ابن سيده .

السافلة : النصف الأسفل من القناة الذي يلي الزج مباشرة .

الجبة : ما دخل الرمح فيه منِ السنان ، أو الطرف المجوف من السنان حيث يولج الرمح .

الثعلب : ما دخل من الرمح في جبة السنان .

القارية : من السنان ، أعلاها ، وقيل : حد الرمح .

الظنبوب : مسمار يكون في جبة السنان حيث تـركّب في عاليـة الرمح[1] .

الظبة : نهاية السنان المدببة .

(انظر الرسم رقم (٣) ـ رسم الرمح)

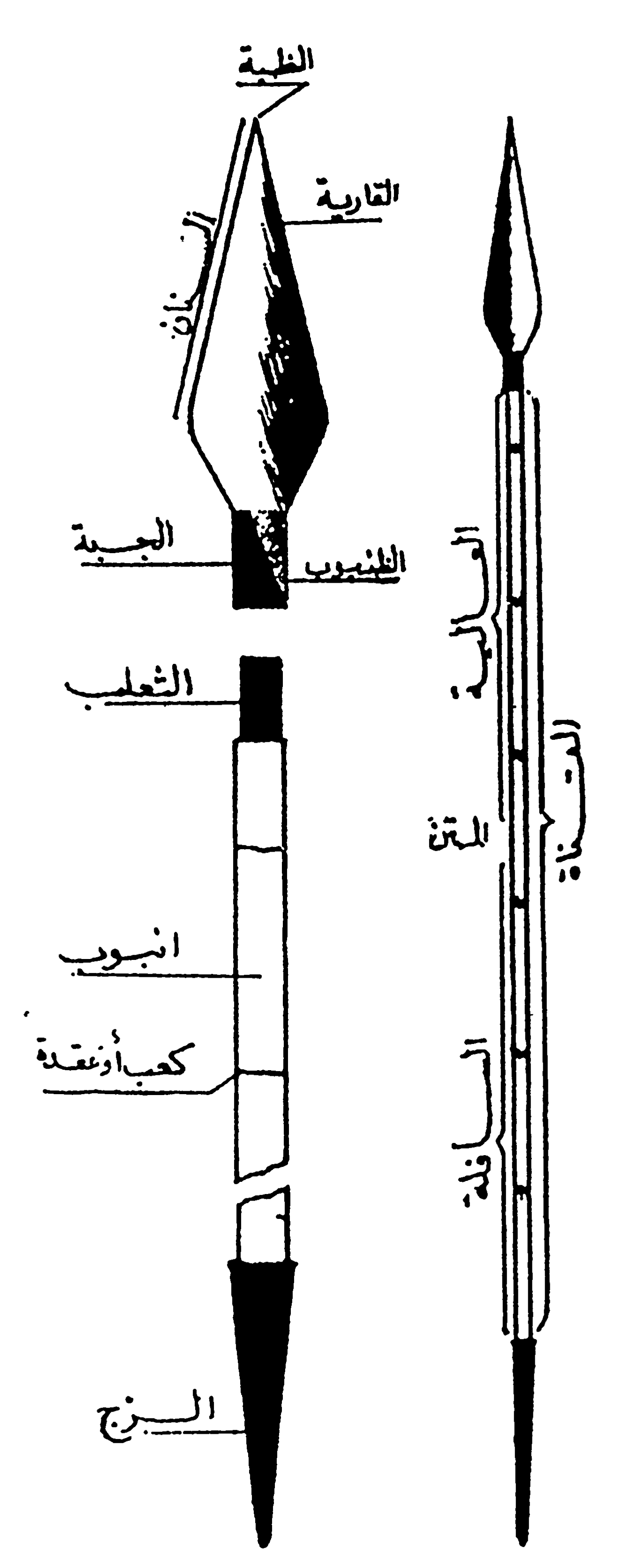
٣ ـ السيف :

أشرف الأسلحة عند العرب وآخرها استعمـالاً في المعركـة بعد القوس والرمح ، إذ يبدأ القتال البعيد برمي السهام بواسطة القسيّ ، حتى اذا ما تقاربت صفوف المتقاتلين ولم يعد مكان في المعركة لـرمي السهام استعيض عنها بـالرمـاح . واذا ازداد التقارب حتى الالتحـام سلت السيوف واشتبك المتقاتلون بما نسميه اليوم (القتـال بالسـلاح الأبيض) .

---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ ٦ : ٢٩ ـ ٣٠ .

الرسم رقم "٢" الرمح *



* انظر : عون ، الفن الحربي في صدر الاسلام ؛ وقارن : الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي .

والسيوف ، كالرماح ، أنواع ، تختلف تسميتها باختلاف مصادر صنعها ، فيقال :

السيوف اليمانية : نسبة الى اليمن ، ويبدو أنها كانت أجود السيوف .

والسيوف الهندية ، أو الهندوانية ، أو المهندة : نسبة إلى الهند ، وتأتي في الجودة بعد السيوف اليمانية .

والسيوف المشرفية : نسبة إلى المشارف وهي قرىً من أرض العرب تدنو من الريف[1] ، أو إلى « مشرف » وهو رجل من ثقيف[2] .

والسيوف البصروية : نسبة إلى (بصرى) بالشام .

السيوف القَلَعية : نسبة الى (القلعة) بفتح القاف واللام ، وهي عند النويري وابن سيده ، كما في معجم البلدان لياقوت ، موضع بالبادية تنسب السيوف إليه[3] .

والسيوف السليمانية : وربما سميت كذلك نسبة إلى السم

---

(١) ابن سيده ، م.ن. ، جـ ٦ : ٢٥ ، والنويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ : ٢٠٦ .

(٢) الجندي ، شعر الحرب ، ص ١٥١ .

(٣) النويري ، نهاية الارب ، جـ ٦ : ٢٠٥ ؛ وابن سيده ، المخصص ، جـ ٦ : ٢٥ ؛ وياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٧ : ١٤٧ - ١٤٨ . كما قال ياقوت في مكان آخر ، عن مسعر بن مهلهل الشاعر في خبر رحلته الى الصين ، ان القلعة (بفتح القاف وسكون اللام) هي « قلعة عظيمة » موجودة في « كَلَه » ، اول بلاد الهند من جهة الصين ، « فيها معدن الرصاص القلعي لا يكون إلا في قلعتها . وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهي الهندية العتيقة » - ياقوت ، م.ن. جـ ٧ : ١٤٨ .

(السليماني) الذي كان يسقى به هذا النوع من السيوف لكي يزداد صلابة ومضاء[1] .

والسيوف السريجية : نسبة إلى قين يقال له (سريج)[2] .

والسيوف الحنفية : نسبة إلى أحنف لأنه أول من عملها .

والسيوف الحارية : المصنوعة بالحيرة[3] .

أجزاء السيف : يتألف السيف من عدة أجزاء هي :

القائم : أو المقبض (بفتح الميم أو خفضها)، وهو الموضع من السيف حيث يمسك ، ويسميه النويري كذلك (النصاب) ، كما يسميه ابن سيده ، عن الأصمعي (الرئاس) ، وفيه :

القبيعة : حديدة عريضة تغطي الطرف الأعلى من القائم ، وتسمى أيضاً (قلة) وتكون احياناً من الفضة .

الشاربان : حديدة معترضة في أسفل القائم على فم الجفن ، لها طرفان يُنظران من على يمين وشمال .

الكلبان : مسماران معترضان في القائم ، ويسمى الأعلى منهما (ذؤابة السيف) .

السَّفَن : جلدة محببة يلبسها القائم .

---

(١) عون ، الفن الحربي ، ص ١٥٠ ـ ١٥١ .
(٢) النويري ، م. ن. جـ٦ : ٢٠٣ .
(٣) ابن سيده ، م. ن. جـ٦ : ٢٦ .

النصل : حديدة السيف ، أو جسم السيف كله ما عدا القائم ، وفيه :

السِّيلان : سنخ النصل الذي يدخل في القائم .

الشفرة ، أو الغرار : وهو الحد المسنون من السيف ، ومن السيوف ما له شفرتان أو غراران .

الكَلّ : وهو الحد غير المسنون من السيف ، أو قفاه الذي ليس بحاد .

المتن ، أو الصفحة : أحد وجهي النصل . وللسيف متنان ، أو صفحتان .

المضرب : الموضع من النصل الذي يضرب به ، وهو (نحو شبر من طرفه) كما يرى النويري .

الظبة : نهاية النصل ، مدببة أو مروسة ، وهي (الذباب) عند النويري .

الرونق ، أو الماء ، أو الفرند ، أو الشطب ، أو الطرائق أو الأثر : وهي ما تزدان به صفحة السيف أو متنه من وشي ونقوش .

الغمد أو الجفن ، أو القراب .

الحمائل : واحدتها حميلة ، أو النجاد .

الحُلى ، أو الرصائع : وهي نوع من الحلق مستدير تحلّى به السيوف[1] .

---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ ٦ : ١٧ ـ ١٩ ؛ وقارن : النويري ، نهاية الارب ، جـ ٦ : ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

(أنظر الرسم رقم (٤) ـ رسم السيف)

منزلة السيف عند العرب :

كان السيف أشرف الأسلحة عند العرب وأكثرها مدعاة للاعتزاز والافتخار والمباهاة ، وقد بلغ اعتزاز العربي بسيفه وافتخاره به أن كان يسميه باسم يختاره له فيشتهر به ، ومن أسماء السيوف التي اشتهرت عند بعض القادة المسلمين :

ذو الفقار : وهو سيف الإمام علي (رضي الله عنه) ، وقد توارثه آله حتى المهدي العباسي فالهادي فالرشيد ، وقيل إن النبي ﷺ غنمه في وقعة بدر من أحد المشركين هو (منبه بن الحجاج) ووهبه لعلي[1] .

القَرطبق ، أو الأولق ذو القرط : وهو سيف خالد بن الوليد .

الوشاح : وهو سيف عمر بن الخطاب :
الملاء : وهو سيف سعد بن أبي وقاص .
الصدى : وهو سيف أبي موسى الأشعري[2] .

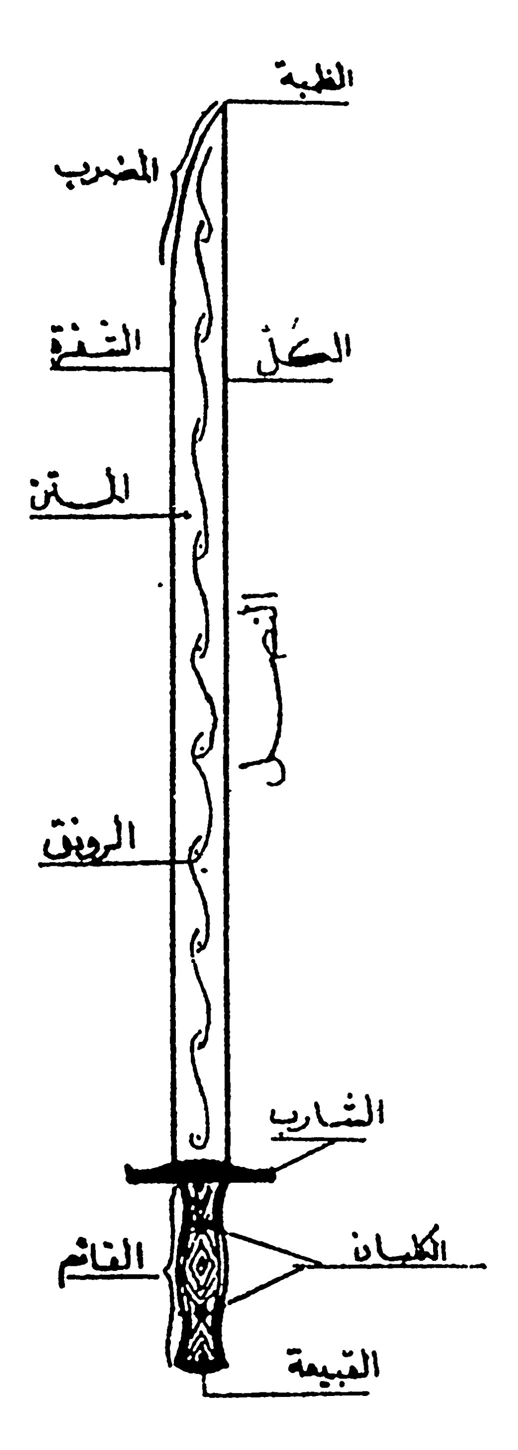
٤ ـ الدبوس :

عصاً قصيرة من الحديد ذات رأس مصنوع من كتلة حديدية مربعة أو مستديرة ، وهو سلاح يحتفظ به الفارس في سرج حصانه ويستعمله عند الالتحام إذا نبا به سيفه ، وقد أكثر الفرس من استعمال هذا السلاح في جيوشهم .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ١٣٧ .
(٢) عبد الرحمن ، زكي ، السلاح في الاسلام ، ص ٣٤ .

الرسم رقم "٤" السيف*



* انظر : عون ، الفن الحربي في صدر الإسلام ، وقارن : الجنـدي ، شعر الحـرب في العصر الجاهلي .

٥ ـ الفأس :

وهو سلاح شبيه بالدبوس ومأخوذ مثله عن الفرس ، إلا انه يختلف عنه بشكل رأسه الحديدي المؤلف من كف حديدية مسنونة ومشحوذة تنتهي في الجهة المقابلة بسن حديدية مروَّسة . ويستعمل الفرسان هذا السلاح كما يستعملون الدبوس تماماً .

٦ ـ الخنجر :

وهو معروف ، وكان بعض نساء المسلمين يتمنطق به في الغزوات ، بالإضافة إلى الفرسان والمشاة[١] .

ب ـ الأسلحة الاجمالية :

١ ـ المنجنيق والعرادة :

« المنجنيق آلة ترمى بها الحجارة ، مؤنثة وقد تذكَّر ، فارسيتها (من جه نيك) أي (ما أجودني) ، وجمعها : منجنيقات ومجانق ومجانيق »[٢] ، وتستخدم لهدم الحصون بالحجارة الضخمة ، أو لرمي الأعداء بالنبال ، أو لاحراق مواقع العدو بالنفط ونحوه[٣] .

والعرادة « أصغر من المنجنيق ، ترمي بالحجارة المرمى البعيد »[٤] ، أو « منجنيق صغير كان يستعمل لرمي السهام الكبار دفعة واحدة وإلى مسافات وأهداف بعيدة لا تطالها القسي العادية »[٥] .

---

(١) عون ، الفن الحربي ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٢) انظر (جنق) ، محيط المحيط ، جـ ١ : ٣٠٢ .
(٣) زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٧٦ .
(٤) انظر (عرد) ، محيط المحيط ؛ جـ ٢ : ١٣٦٦ .
(٥) عون ، الفن الحربي ، ص ١٥٦ .

وأقرب أسلحة القتال الحديثة الى المنجنيق والعرادة هما المدفع بالنسبة الى الأول ، والهاون أو الرشاش بالنسبة إلى الثاني .

ويصف عون[1] شكل المنجنيق في حالتـه الأولية فيقول : « جعل أول أمره على شكل قاعدة من الخشب السميك مربغة أو مستطيلة ، يرتفع في وسـطها عمـود خشبي قوي[2] ، ثم يـركَّب في أعلاه ذراع المنجنيق قابلاً للحركة كذراع الشادوف بحيث يكون ربعه تقريباً ناحية السفل ، يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها ، ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق ، وتكون ثلاثة أرباع الذراع من ناحية العلو ، تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية يوضع فيها الحجر المراد قذفه ، وعند القذف يجذب أعلى الذراع الى الأرض بقوة الرجال فيرتفـع الثقل المقـابل من الحجـارة والرصـاص والحديد الذي بالصندوق ثم تترك الذراع فجأة فيهوي الثقل ويرتفع أعلى الذراع بالشبكة قاذفاً ما فيها من الحجارة إلى الهدف المعين » .

(أنظر الرسم رقم (٥) ـ رسم المنجنيق)

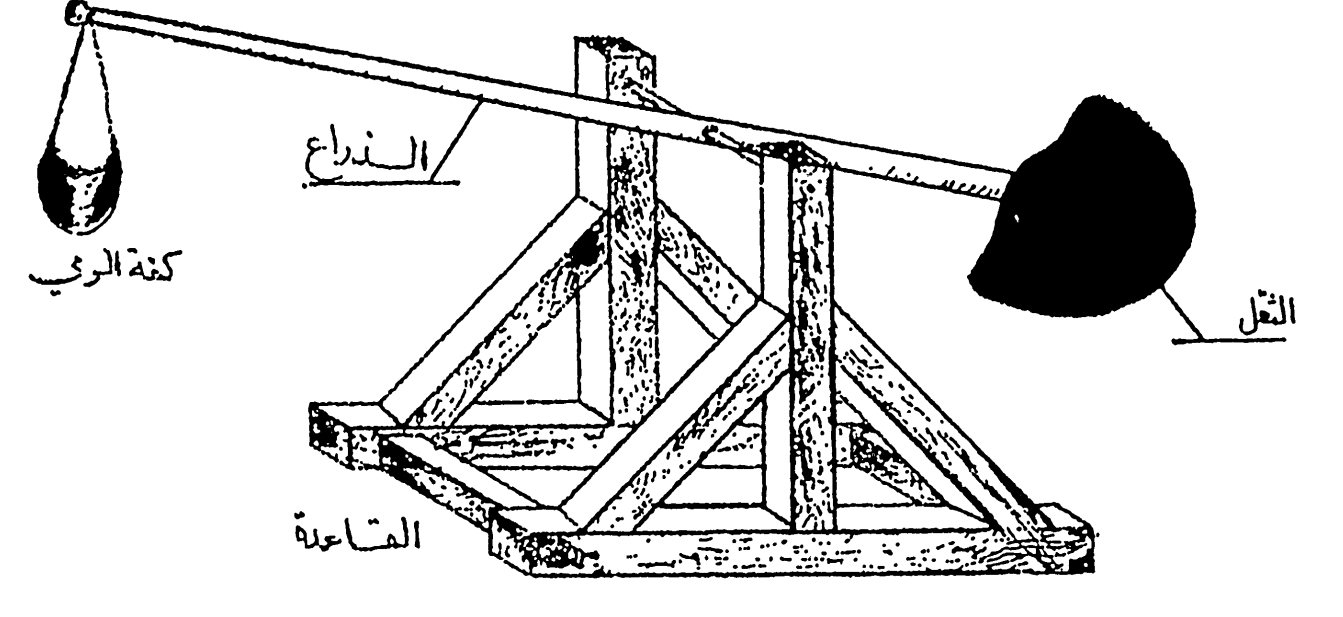
ويكـاد المؤرخـون يجمعـون عـلى أن العـرب في جـاهليتهم لم يستخدموا هذا السلاح وإن كانوا قـد عرفـوه عند الفـرس والروم . ويعتقـد معـظمهم أن الـرسـول ﷺ كـان أول من رمى في الاسـلام

---

(١) م . ن . ص، ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) الأصح: يرتفع وسط الضلعين المتوازيين للمستطيل او المربع عمودان خشبيان قويان ثم يركب في أعلاهما عمود افقي يرتكز عليه ذراع المنجنيق (انظر الرسم) .

الرسم رقم "٥" المنجنيق *



* – عن كتاب « الفن الحربي في صدر الاسلام » لعبد الرؤوف عون .

بالمنجنيق ، فقد نصبها في خيبر[1] ، وهمّ بذلك ليرهب اليهود ، إلا أن أحداً من المؤرخين لم يذكر انه استعملها ضدهم يومذاك . أما في الطائف فكان المؤرخون بين مؤكد للقول ان النبي ﷺ استخدم المنجنيق ضد بني ثقيف في حصاره إياهم وبين نافٍ لذلك ، مع تأكيد معظمهم أن النبي ﷺ قد نصب المنجنيق في حصاره الطائف . فبينما نجد ابن سعد[2] يقول : « ونصب (أي الرسول) عليهم (أي على ثقيف) المنجنيق » ، دون أن يبيّن ما إذا كان الرسول ﷺ قد رمى أو لم يرم بها ، نجد ابن خلدون[3] يقول بدوره ، في حديثه عن حصار النبي ﷺ للطائف : « ورماهم ﷺ بالمنجنيق » . ويؤكد ابن هشام[4] ذلك قائلاً : « ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق . حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق ، رمى أهل الطائف » . وأما النويري[5] فيقول : « فقد نصب رسول الله ﷺ على أهل الطائف منجنيقاً » . كما يقول الماوردي[6] : « وقد نصب رسول الله ﷺ على أهل الطائف منجنيقاً » ، دون أن يؤكد أي منهما الرمي أو ينفيه . ويلفت النظر ما يذكره الطبري[7] من أن ثقيفاً أرسلت على المسلمين « سكك الحديد محماة بالنار » . فإذا ما علمنا أن نفراً من بني

---

(1) السيرة الحلبية ، جـ ٣ : ٤٨ .
(2) الطبقات الكبرى ، جـ ٢ : ١٥٨ .
(3) تاريخ ابن خلدون ، جـ ٢ : ٨١٥ .
(4) سيرة النبي ، جـ ٤ : ٩٨ .
(5) نهاية الارب ، جـ ٦ : ١٦٥ .
(6) الأحكام السلطانية ، ص ٥٢ .
(7) تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ : ١٣٣ .

ثقيف كانوا يقصدون « جرش » ليتعلموا صنع المنجنيق[1] ، أفلا يجب أن يتبادر إلى الذهن فوراً وجود المنجنيق عند بني ثقيف في ذلك الحين ، وان « سكك الحديد المحماة بالنار » ما هي إلا قذائف هـذا السلاح الذي عرفته ثقيف وخيبر[2] قبل غيرهما من قبائل الحجاز على ما يبدو ؟

وقد شاع استعمال المنجنيق بعد ذلك في حروب المسلمين كلها في العراق والشام ، وفي عهد الخليفة عمر وبعده ، وقد أدخلوا عليها كثيراً من التعديلات والتحسينات . ويذكر الطبري أن المسلمين نصبوا على مدينة بهرسير عند حصارهم اياها عشرين منجنيقاً[3] ، كما يذكر أن أبا عبيدة وخالد بن الوليد قد حـاصرا أهـل دمشق سبعين ليلة حصـاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق[4] ، وأن عمرو بن العـاص قد صنع المنجنيق بمصر عند فتحه لها .

وينسب الكثير من المؤرخين اختراع هذا السـلاح إلى الفرس ، ويعتقد معظمهم أن سلمان الفارسي هـو الذي أشـار على النبي ﷺ باستعماله في حصار الطائف[5] . وتكاد تكون نسبة أصل هذا السلاح الى الفرس مؤكدة باعتبار أن لفظة «منجنيق» فارسية الأصل كما أسلفنا ، نقلاً عن محيط المحيط ، إلا أن ذلك لا يعني أن البيزنطيين لم يكونوا على

---

(١) الطبري ، م . ن . جـ ٣ : ١٣٢ ؛ وجرش اسم مدينة كانت شرق جبل السواد من أرض البلقاء وحوران ، من عمل دمشق (معجم البلدان ، جـ ٣ : ٨٦) .

(٢) جاء في السيرة الحلبية ، جـ ٣ : ٤١ ، ان خيبراً كانت تختزن في بيت تحت الأرض المجانيق والدبابات والدروع والسيوف عند حصار النبي لها .

(٣) الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ١٦٨ .

(٤) م . ن . جـ ٤ : ٥٧ .

(٥) زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٧٤ .

معرفة به ، إذ يكفي انْ نعرف ان « جرش » كانت مدينة من أعمال دمشق في ذلك الحين ، وان بني ثقيف كانوا يؤمونها ليتعلموا صنع هذا السلاح على أيدي أبنائها، حتى نعلم أن استعمال المنجنيق ، بل وصنعها ، لم يكونا مقتصرين على أهل فارس .

والأمر الذي يكاد يكون مؤكداً لنا هو أن اليهود من قبائل العرب ، وخيبر وثقيف بالذات ، كانوا أول من عرف سلاح المنجنيق .

٢ ـ الدبابة أو الضَّبر :

عرَّف القاموس المحيط[1] الدبابة بقوله : « آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها » . وعرّف الضبر بقوله : « جلد يغشى خشباً فيها رجال تقرب الى الحصون للقتال » ، كما عرَّفهما محيط المحيط[2] بتعريف مشابه .

فالدبابة إذن ، في ذلك العهد، كانت عبارة عن صندوق خشبي أشبه ببرج مربع مسقوف ولا أرض له، يسير على أطر أو عجلات، ويلجه في القتال عدد من الرجال يدفعونه إلى سور الأعداء كي يعملوا به نقباً وتهديماً من خلال فرجات أو كوى وجدت خصيصاً لهذا الغرض في جدار الصندوق الخشبي المتحرك ، فكانوا يتقون بالدبابة هذه نيران العدو في أثناء مهاجمتهم له ، إلا إذا صب العدو فوقها ، ومن أعلى الأسوار ، سبائك الحديد المذاب أو ما شابه ذلك من النيران فتحترق

(١) الدبابة ، جـ ١ : ٦٥ .
والضبر ، جـ ٢ : ٧٤ .
(٢) دبب : جـ ١ : ٦٢٠ .
وضبر : جـ ٢ : ١٢٣١ .

حينئذ بمن فيها . ولا بد أن يكون العدو الأول للدبابة هو المنجنيق بما يرميه عليها من لهب .

وقد عرف العرب هذا السلاح في عهد النبي ﷺ ، فقد مر معنا أن خيبراً يوم حاصرها النبي ﷺ كانت تختزن المجانيق والدبابات والدروع والسيوف في بيت تحت الأرض دل الرسول عليه يهودي قبض عليه في أثناء الحصار . كما نعلم أن الرسول ﷺ استعملها في حصاره بني ثقيف في الطائف ، قال الطبري في ذلك : « دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم زحفوا بها الى جدار الطائف ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل »[1] .

وطوّر المسلمون الدبابة بعد ذلك وأدخلوا عليها الكثير من التعديلات والتحسينات ، فغطوا اخشابها بالجلد المشبع بالخل كي لا تشتعل ، كما صار الصندوق أشبه بعمارة ضخمة تسير على عدد من العجلات أكثر وأضخم وتنتهي ببرج مرتفع بارتفاع السور المحصَّن المهاجم ، وتثبت في داخلها سلالم تنتهي بشرفات تقابل شرفات الحصن حيث يصعد الرجال فيتسلقون بواسطتها سور الأعداء ويطردون رماتهم . وزاد حجم الدبابة بصورة مطردة ، فأصبحت تتسع لعشرة رجال أو أكثر ، وتسير على ست عجلات أو أكثر . وفي القرن الثاني للهجرة صار العرب يستخدمون في الدبابة عتاداً خاصاً لنقب الأسوار يدعى « رأس الكبش » .

والدبابة ، في كل عهد ، بالنسبة الى المنجنيق ، كدبابة اليوم

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ : ١٣٣ .

بالنسبة إلى المدفع . أما الضبر فهو الدبابة نفسها أو أحد أنواعها ، إذ لا تختلف طريقة صنعه وطريقة عمله عن الدبابة بشيء .

ثانياً ـ المعدات :

أ ـ المعدات الافرادية :

١ ـ الدرع :

تذكَّر وتؤنث ، وهي قميص من حلق حديدية رفيعة ، وتكون إما من زرد الحديد أو النحاس أو الفولاذ . وقد عرف العرب جميع أنواع الدروع مثل :

السابغة : وهي درع تغطي البدن بأكمله وذات أكمام طويلة وحاشية تصل إلى نصف الساق .

البتراء : وهي درع قصيرة بلا أكمام ولا تبلغ أسفل الركبة ، وتسمى أيضاً (الشليل)[1] .

الغلالة : وهي ما يلبس تحت الدرع من ثوب أو غيره ، وربما كانت درعاً صغيرة تلبس تحت العليا[2] .

الذائلة : الطويلة الذيل .

المفردة : وهي التي تنسج من حلقة داخل حلقة .

المضاعفة : وهي التي تنسج من حلقتين داخل حلقتين ، وتسمى أيضاً (الموضونة)[3] .

---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ٦ : ٧٠ .
(٢) م . ن . جـ٦ : ٧٠ .
(٣) م . ن . جـ٦ : ٧١ .

أجزاء الدرع : تتألف الدرع من الأجزاء التالية :

الزرد : حلق الدرع ، جمعها زرود ، وصانعها يدعى (الزرّاد) .

المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس ويلبس تحت القلنسوة .

الرفرف : زرد يشد بغطاء من الدروع على قدر الرأس أو (البيضة) فيطرحه الرجل على ظهره .

الريع : فضول كمّي الدرع على أطراف الأنامل .

الجِربان : (بكسر الجيم وتسكين الراء) أو الجُرُبان (بضم الجيم والراء) ، جيب الدرع .

الغلائل : مسامير الدرع التي تُجعل بين رأسي الحلقة .

القتير ، أو الحرباء : رأس المسمار في الحلقة ، وقيل : المسمار نفسه .

الدخاريص : ما يوصل به البدن ليوسعه ، واحدتها دخريصة .

المطاوي : غضون الدروع ، واحدها مطوى[1] .

وكان العرب يتباهون بأنواع الدروع التي يلبسونها ، كما كان أبطالهم يتباهون بعدم لبس الدرع في القتال ، أو بلبسها دون ظهر كما كان يفعل الإمام علي (رضي) .

---

(١) ابن سيده ، م.ن. جـ٦ : ٧٢ - ٧٣ .

ومن أسمائهم : الدارع ، وهو لابس الدرع . والكافر ، وهو الذي يلبس فوق الدرع لباساً آخر . والمسبغ ، وهو لابس الدرع السابغة . والحاسر ، وهو الذي يأبى لبس الدرع شجاعة .

وكان الإمام علي يأمر بأن يقدم الدارع في القتال على الحاسر إذ يقول : « قدموا الدارع وأخروا الحاسر »[١] . ومن ملحقات الدرع : الأذرع والسيقان والأكف والأحذية الحديدية[٢] .

٢ ـ الترس ، أو المجن :

ويسمى كذلك الجُنة أو الدرقة أو الجحفة ، وهو آلة يقي بها المقاتل نفسه من سهام الأعداء أو رماحهم أو سيوفهم . ولكل سلاح ترس يناسبه ويستعمل ضده . وقد صنع العرب الترس أولاً من جلد البقر أو الإبل دون خشب ، وكانوا يسمونه درقة أو جحفة ، ثم صنعوه بعد ذلك من الخشب وألصقوا عليه جلدة مساوية له[٣] .

والترس أنواع منها :

المسطح : الذي يتقى به الرمح .

المستطيل. **المخصرّ الوسط** : الذي يتقى به السهم. إذ يستر رأس الفارس وجسمه ، بينما يسمح التخصير في وسطه بالنظر والمراقبة .

المقبَّب المنحني الأطراف إلى الخارج : ويتقى به السهم والسيف دون الرمح[٤] .

---

(١) ابن خلدون ، جـ ١ : ٤٨٧ . ونهج البلاغة للامام علي ، ص ١٨٠ .
(٢) عون ، الفن الحربي ، ص ١٨٥ .
(٣) م. ن. ص ١٨٦ .
(٤) زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٧٣ .

٣ ـ البيضة :

وهي خوذة من الحديد أو الفولاذ تلبس على الرأس لرد ضربات الخصم عنه ، وهي مستديرة حسب استدارة الرأس . وفي البيضة : **القونس** وهو مقدمها ، فإذا لم يكن لها قونس سميت (تركة) ، وفيها : **الحبك** ، أو **الطرائق** ، وهي خطوطها ، و**السابغ** وهو الزرد الذي يستر العنق[١] .

ويلبس **المغفر** عادة تحت البيضة ، أما **الرفرف** فيشد بها من الخلف ويطرح على الظهر .

ب ـ المعدات الاجمالية :

١ ـ سلم الحصار :

سلم من حبال مجدولة بشكل درجات تنتهي بوهق أو أنشوطة يرميها المحاصرون على أعلى السور وشرفاته لتعلق بها ، ويتسلقون السور بواسطة السلم بعد تثبيته . وقد عرفه العرب منذ فجر الإسلام ، واستخدمه خالد بن الوليد في فتح دمشق[٢] ، كما استخدمه الزبير بن العوام في فتح حصن بابليون بمصر . وقد تطورت صناعة هذه السلالم فيما بعد ، فأصبحت تصنع من الخشب والحديد وترتفع بارتفاع السور تقريباً[٣] .

---

(١) ابن سيده ، المخصص ، جـ ٦ : ٧٣ ـ ٧٤ ، والنويري ، نهاية الارب ، جـ ٦ : ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(٢) قال ابن الأثير في ذلك : « اتخذ (أي خالد) حبالاً كهيئة السلالم واوهاقاً . . . فلما وصل واصحابه الى السور ألقوا الحبال فعلق بالشرف منها حبلان » (الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤٢٨) .

(٣) عون ، الفن الحربي ، ص ١٧٣ .

٢ ـ الحسك الشائك :

في الأصل ، هو نبات له شوك صلب ذو ثلاث شعب ، أشهره ما يسمى بحسك السعدان . وقد استعير شكل هذا الشوك لصنع أداة خشبية في البدء ، ثم حديدية مشعبة تغرز شعبتان منها في الأرض وتبقى الثالثة فوق سطحها لتعيق تقدم المغيرين من فرسان ومشاة . وقد كان المقاتلون يبثون هذا النوع من العتاد الحربي ويزرعونه حول الخنادق ، وهذا ما فعله النبي في حصاره للطائف ، فقد صنع الحسك الشائك من خشب على شكل صليب بحيث تتألف كل حسكة من اربع شعب مدببة ، وزرعه في الأرض حول الخندق . جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد[1] قوله : « ونصب (أي الرسول ﷺ) عليهم (أي على ثقيف) المنجنيق ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن » . وكما استعمل المسلمون هذا النوع من العتاد في حروبهم فقد استعمله الفرس والروم كذلك للدفاع عن حصونهم وخنادقهم ، فهو عتاد يستعمل في الدفاع كما في الهجوم ، ويستعمله المحاصر والمحاصَر معاً .

ثالثاً ـ التحصينات :

١ ـ الخنادق :

الخندق ـ ولعل اللفظة فارسية الأصل من « كندة » ومعناها « المحفور » ـ وسيلة من وسائل الدفاع القديمة عند الفرس والروم ، ولكن العرب لم يعرفوها إلا في عهد النبي ﷺ . ويقول الطبري ان سلمان الفارسي هو الذي أرشد النبي إلى حفر خندق حول المدينة اتقاء منه

---

(١) جـ٢ : ١٥٨ .

لقريش وحلفائها في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق (كما سميت نسبة إلى الخندق الذي حفر) . وأعجبت الرسول الفكرة فجعل جبل سلع وراءه وأمر أصحابه بحفر خندق من الحرّة الشرقية الى الحرّة الغربية ، على أن يحفر كل عشرة منهم أربعين ذراعاً[1] . وكان عددهم يوم الخندق ثلاثة آلاف رجل ، فكان طول الخندق الذي حفر في غزوة الأحزاب إذن إثني عشر ألف ذراع حفرها القوم في عشرين يوماً[2] .

وكما عرف العرب « خنادق الدفاع » عرفوا كذلك « خنادق الهجوم » ، فكثيراً ما كانوا يحفرون خندقاً حول خندق العدو المحاصَر ليجبروه على الإستسلام[3] .

وعرف العرب ، كذلك ، « الخنادق المائية » ، فتحصنوا بها على الطريقة الرومية إذ كانوا يحفرون الخندق حول موقعهم ثم يملأونه ماء كي يتعذر على العدو اجتيازه ، وكانت وسيلتهم لاجتياز هذه الخنادق طمرها في أضيق موضع منها بالبرادع وبالإبل الهزيلة ينحرونها ، وبجلود الإبل الملأى بالرمال ، ثم اجتيازها فوق هذا كله ، وذلك ما فعله خالد بن الوليد في الوقعة المشهورة « ذات العيون » أو « الأنبار » بالعراق . قال الطبري في ذلك : « أتى خالد أضيق مكان في الخندق برذايا الجيش فنحرها ثم رمى بها فيه فأفعمه ثم اقتحم الخندق ، ـ والرذايا جسورهم ـ ، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق »[4] .

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ : ٤٥ .
(٢) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص٢٠٣ .
(٣) الطبري ، م. ن. جـ٤ : ١٨٨ .
(٤) م. ن. جـ٤ : ٢٠ .

٢ ـ الحصون والأسوار :

يغلب الظن أن العرب تعلموا بناء الحصون والأبراج والآطام والأسوار من اليهود الذين تعلموا ذلك بدورهم من الرومان ونقلوه الى الجزيرة العربية بعد تشريدهم . وقد عرفت الجزيرة العزبية في هذه الحقبة من الزمن حصوناً عديدة وهامة أكثرها لليهود ، وبعضها للعرب مثل : حصن كعب بن أشرف وحصن أبي رافع اليهوديين ، وحصن حسان بن ثابت الأنصاري ، وحصون بني حراثة . وأما حصون خيبر السبعة وحصن بني ثقيف في الطائف ، وكلها حصون يهودية ، فهي أشهر من أن تعرّف ، وقد سبق ذكرها .

ولم يبن العرب في عهد النبي من الحصون إلا ما هو أوليّ وبدائي ، ولكنهم أتقنوا هذا الفن وأجادوه فيما بعد ، وخاصة في أوائل العصر العباسي بعد أن اتسعت افتوحهم وأنشأوا الأمصار والثغور والمدن .

وكان العرب يستخدمون في فتح الحصون والأسوار ، كما أسلفنا ، الآلات الحربية المختلفة مثل المجانيق والدبابات وسلالم الحصار ، ورأس الكبش فيما بعد (في القرن الثاني للهجرة) . فكان على المجانيق أن تدكّ الحصون ، وعلى الدبابات أن تحمي المتقدمين الى تلك الحصون ، وكانت سلالم الحصار تسمح للمهاجمين بتسلق الأسوار . وكان ذلك كلّه يتم تحت حماية الرماة ، وخاصة المهرة منهم ، الذين كانوا يتصيدون رماة العدو أو يشلون دفاعهم بفقء عيونهم بالسهام كما حدث في وقعة ذات العيون بالعراق مما سنراه فيما بعد .

٣ ـ المسالح والثغور :

يجدر بنا ، قبل أن ننتهي من الحديث عن وسائل القتال ، أن

نذكر ، بكلمة وجيزة ، المسالح والثغور في ذلك العهد باعتبارها وسيلة من وسائل الدفاع . فالمسالح ، جمع مسلحة ، وهي المراكز التي يقيم فيها الجند المسلحون المعدون للقتال . والثغور ، جمع ثغر ، وهي المراكز التي كانت تقام على الحدود بين البلدان التي يفتحها المسلمون والبلدان المجاورة لها ، وهي أشبه بما نراه اليوم في فلسطين المحتلة من مستعمرات يسميها العدو « كيبوتز » ، إذ كان المسلمون ، كلما تقدموا في فتوحهم ، أقاموا في نهايتها ثغوراً تشحن بالجند لحراسة الحدود ، ويتولى أمر هذه الثغور قادة أكفاء . ويذكر أنه ، عام ١٧ هـ ، وفي عهد عمر بن الخطاب ، بلغت ثغور الكوفة وحدها أربعة : حلوان وعليها القعقاع بن عمرو ، وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب الفهري ، وقرقيسيا وعليها عمرو بن مالك ،والموصل وعليها عبدالله بن المعتم . وكان لكل قائد نائب ينوب عنه إذا تغيب عن الثغر[١] . وقد جرت العادة في عهد عمر بن الخطاب أن يرسل الجند إلى هذه الثغور مع عائلاتهم ، مع زيادة في أرزاقهم ومراتبهم ، حيث يتولون بأنفسهم بناءها وحمايتها من هجمات الأعداء ، كما هي الحال تماماً في المستعمرات الصهيونية التي تقام حالياً على تخوم الدول العربية المجاورة للأرض المحتلة .

رابعاً ـ الحيوانات :

١ ـ الحصان :

كان الحصان عماد الطلائع والجناحين في السرايا والغزوات ، ووسيلة أساسية من وسائل القتال عند العرب ، بالإضافة إلى أنه موضع

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٥٣٠ .

فخرهم وتباهيهم واعتزازهم . فقد كان الحصان « سيد الميدان ، الصالح للكر والفر في الأراضي المكشوفة ، ظهره حصن لراكبه ، لخفة حركته عند المجاولة وسرعة عدوه عند الفرار »[1] . وقد اعتنى العرب بخيولهم وفرسانهم كثيراً ، فكانت الطلائع والجناحان في كل جيش نصيب الفرسان في القتال ، وكان للفارس من الغنائم ضعفا ما للراجل[2] . وكان قادة الجيوش يسهرون على خيل جندهم ويعاقبون من يهمل من الفرسان حصانه بالاقتطاع من راتبه وإنقاص مكافآته . وكان عمر بن الخطاب يعنى بخيل المسلمين قبل القتال ويدرب فرسانهم ، وكان يصحب معه (سلمان بن ربيعة الباهلي) الذي كان يسمى (سلمان الخيل) لخبرته بها ، فكان سلمان هذا يفتش خيل المسلمين ويشرف على تجديد حذواتها .

وقد قيل الكثير في الحصان عند العرب ، وأهمه ما روي عن رسول الله ﷺ انه كان يلوي ناصية فرسه باصبعه ويقول : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنمية »[3] . وقيل انه قد نهى عن إذالتها ، أي إذلالها وإهانتها[4] .

وبالإضافة إلى الدور الأساسي الذي كان الحصان يؤديه في المعركة ، فقد كان يستخدم لنقل الإغاثة للمحتاجين ونقل البريد بين المعسكرات

---

(١) عون ، الفن الحربي ، ص ١٢٤ .

(٢) هذا عند ابي حنيفة ، اما عند الشافعي فللفارس من الغنائم ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد ، ولا يعطى سهم الفارس إلا لأصحاب الخيل خاصة (الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٤٠ ؛ وقارن : ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٨ ـ ١٩) .

(٣) وفي رواية أخرى (الأجر والمغنم) ، (صحيح مسلم ، جـ ٦ : ٣٢) .

(٤) ابن سيده ، المخصص ، جـ ٦ : ١٨٥ ؛ وقارن : ابن حنبل ، المسند ، جـ ٧ ، حديث رقم ٤٨١٦ و٥١٠٢ و٥٢٠٠ .

والوحدات والقادة، وغير ذلك من الأمور والمسائل الحربية التي تتطلب سرعة في الانتقال .

٢ ـ الجمل :

إذا كان الحصان عماد الطلائع والجناحين في الجيش الإسلامي فقد كان الجمل عماد مؤخرة هذا الجيش وعماد انتقاله . وإذا عرفنا ان المؤخرة في أي جيش في العصر الإسلامي الأول تعني الظعن (النساء في الهوادج) والأمتعة والطعام والعلف والماء وآلات الحصار ومعدات القتال الثقيلة، أدركنا كم كانت المؤخرة ذات دور أساسي في المعركة ، وكم كان الجمل ، بالتالي ، عنصراً هاماً من عناصر المثابرة والصمود عند المقاتل العربي .

وإذا أردنا أن نتبين ، بصورة أوضح ، دور الجمل في القتال في ذلك العهد وما كان يؤديه من خدمات ، سواء في تنقل الجيوش حيث يحمل ما سبق وأوردناه من ظعن ومؤن ومعدات ، أو في مؤخرة الجيش في أثناء القتال حيث يحمي تلك المؤخرة من مفاجآت العدو ، ما علينا إلا أن نذكر تلك « الإبل الصهاريج »[1] التي ساعدت خالد بن الوليد في مسيره الشاق من العراق إلى الشام يوم دعاه أبو بكر لمساعدة جيوش المسلمين فيها ، والتي لولاها لما تمكّن من القيام بتلك المعجزة في تاريخ الحروب في ذلك العهد وبعده ، إذ كانت الإبل ، في تلك الرحلة ، بالنسبة إليه ، وسيلة لاستمرار الحياة له ولجنده وحيواناته في تلك

(١) الابل الصهاريج ، ابل تملأ بطونها ماء وتكم أفواهها كي لا تجتر ثم تنحر عند الحاجة لتشرب بقية الابل ما في بطونها من ماء ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

الصحراء القاحلة ، يأكل لحمها ويشرب لبنها ويسقي بقية الإبل والحيوانات مما تحمل من ماء في بطونها .

فالجمل عند العربي ، في قتاله ، ذو فوائد عديدة، استراتيجية وتكتيكية . وتتلخص الفوائد الاستراتيجية بتأمين النقل والانتقال سواء للجند أو المعدات أو المؤن ، وتتلخص الفوائد التكتيكية بالدور الذي يمكن أن يقوم به الجمل في المعركة من حماية لمؤخرة المقاتلين ، كما سنرى في (اليرموك) .

واننا لنبخس الجمل حقه إن لم نذكر أنه كان يضحّى به احياناً في ساحة القتال ، سواء لدرء سهام العدو عن المقاتل الذي يتترس به ، أو لطمر خندق كي يمر الجيش فوق جثث الإبل المنحورة ويصل بواسطتها إلى العدو في حصونه (الأنبار) ، حتى قيل بحق إن الجمل « عماد العربي في حياته السلمية والحربية ، يساعده على عبور الصحراء في الأسفار الطوال ، يأكل لحمه ويشرب لبنه ، ويتخذ خيمته من وبره ، ودرعه وترسه من جلده ، ويدربه على القتال فيغزو عليه ، ويحتمي من السلاح به ، ويصفّه حول المعسكر إذا أقام ليلاً ، فيبيت الجند في حصن من الجمال وأحمالها »(١) .

وخلاصة القول إنه كان للخيل والإبل، في الفتوح الإسلامية ، فضل كبير ، فقد ساعدتهم تلك الحيوانات الجسورة ، بجلد وثبات ، على فتح الشام ومصر والعراق ، فكانت لهم ، بالإضافة الى ما تؤديه من خدمات في الانتقال والقتال ، نموذجاً للصبر ومثالاً للمصابرة .

---

(١) عون ، الفن الحربي ، ص ١٢٢ .

الفصل الرابع

التنظيم والتكتيك

أولاً ـ التنظيم (L'Organisation) :

لغةً ، ومن الوجهة العسكرية ، « الطريقة التي يكوَّن بها جيش ما »[1] .

١ ـ التنظيم عند الفرس والبيزنطيين :

يجدر بنا ، قبل أن نتكلم عن التنظيم العسكري عند العرب في العصر الإسلامي الأول ، أن نلم بإيجاز بما كان عليه هذا التنظيم عند أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم آنذاك وهما : فارس وبيزنطية ، لما لهذا التنظيم خاصةً من تأثير على التنظيم العسكري الذي عرفه العرب سواء قبل الإسلام أو بعده ، ونظراً للعلاقات التي كانت سائدة بينهم وبين هاتين الامبراطوريتين .

والمعلومات التي وصلتنا عن التنظيم العسكري في فارس وبيزنطية ضئيلة تكاد لا تذكر ، ويمكن ، بالاستناد إلى ما لدينا من هذه

(١) Larousse XXe Siècle, V. 5. (L'Organisation) .

المعلومات ، أن نتبين ترتيب القيادات والوحدات في كل منهما على الشكل التالي :

في بيزنطية :

عرفت بيزنطية نظام الكتائب القائمة على سلاحي المشاة والفرسان ، وذلك بعد أن أخذته عن اليونان . إلا أنه ، في العصر الإسلامي الأول ، كانت جيوش بيزنطية تقسم إلى فرق تسمى (كراديس) يضم كل منها زهاء ٦٠٠ جندي ، وكانت القيادات في الجيش ترتب على النحو التالي :

الامبراطور : وهو القائد الأعلى للجيوش التي تضم زهاء ١٥٠ ألف جندي (في عهد اسرة جوستنيان ، أي قبل الفتح الإسلامي مباشرة) .

قائد الولاية (البطريق) : قائد ثيما Thema أو بند ، والبند هو الولاية أو الفرقة من الجيش التي تقوم بحماية الولاية ، ويضم عشرة آلاف جندي . ويقسم البند إلى فرقتين تسمى كل منهما (تورماي Turmai) .

الطورمرخاي Turmarchai : قائد فرقة (تورماي) تضم خمسة آلاف جندي ، وتقسم هذه الفرقة إلى خمس عصبات (باندا Banda) .

الدرانغريوس Drungarius ، ويأمر عصبة (باندا) تضم ألف جندي . وتقسم العصبة إلى خمس وحدات (بنتارخيا Pentarkhia) .

القمطس أو القومس Komites ، ويأمر وحدة (بنتارخيا Pentarkhia) تضم مئتي جندي .

آمر الفصيلة (**بنتكنتارخيا** Pentekontarkhia) ، ويأمر فصيلة تضم عشرين جندياً .

آمر العشرة (ديكارخس Dekarches) ، ويأمر عشرة جنود[1] .

ويضيف المؤرخان جرجي زيدان وعبد الرؤوف عون على هذا التقسيم رتبة قائد المئة (القمطرّخ أو القمطارخيا) Centurion ، وهو قائد لوحدة تضم مئة جندي[2] .

وهكذا نرى ان الامبراطور يأمر ١٥ بطريقاً ، وكل بطريق يأمر طورمرخايين اثنين ، وكل طورمرخاي يأمر ٥ درانغريوس، وكل درانغريوس يأمر ٥ قوميس ، وكل قومس يأمر قمطارخيين اثنين أو قائدي مئة ، وكل قمطارخياً يأمر ٥ بنتكنتارخيا أو امراء فصائل ، وكل بنتكنتارخياً يأمر ٢ ديكارخس أو آمري عشرة .

في فارس :

لم يكن تنظيم الجيش الفارسي في أواخر عهد الدولة الساسانية يختلف كثيراً عن التنظيم الذي عرفناه عند البيزنطيين آنذك ، ويمكن إيجازه على الشكل التالي :

أولاً : أنواع المحاربين :

كان الجيش الفارسي مؤلفاً من أربعة أنواع من المحاربين :

١ ـ الفرسان . ٢ ـ الفيّالة . ٣ ـ المشاة . ٤ ـ الردائف .

---

(١) بينز، نورمان، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب حسين مؤنس ومحمود زايد ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٢) عون ، الفن الحربي ، ص ١١٢ وقارن : زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٤٢ ـ ١٤٣ ، مع ملاحظة أن عون اعتبر القمطرخ قائداً لخمسين جندياً بينما اعتبرناه قائداً لمئة نظراً لورود اسمه بالفرنسية عند زيدان Centurion . والمعروف في المعاجم ان هذا الاسم يعني (قائد المئة) (Centurion) .Larousse XXe Siècle, V. 2

١ ـ **الفرسان** (اسواران أو الاساورة ، مفردها أساور) ، وهم الهيكل الأساسي للجيش وقوّته الضاربة ، وهم أيضاً أنواع :

أ ـ **الفرسان الدارعون** ، أو الفرسان النبلاء ، وهم النخبة الممتازة في الجيش ، يسيرون في مقدمته بحيث تقوم المعركة عليهم ويتوقف النصر على قوتهم وشجاعتهم ، ويحمل رئيسهم لقب : قائد الفرسان (أسواران سالار) .

ب ـ **فرقة الخالدين** ، وهي فرقة من الفرسان المختارين، تضم عشرة آلاف فارس ويحمل رئيسهم لقب (ورهرانيكان خواذاي (Varhranighan Khvadhay) .

ج ـ **الفدائيون** (أغان ـ أوسبار Agan-Auspar) ، وهي فرقة من الفرسان الذين يمتازون بالجرأة واقتحام المخاطر .

٢ ـ **الفيّالة** ، وهم راكبو الفيلة ، يأخذون مكانهم في المعركة خلف الفرسان ، ويحملون سكاكين طويلة المقابض يستعملونها لطعن الفيل طعنات قاتلة في رقبته إذا ما ذعر وارتد نحو صفوف الفرس خشية أن يدوس خيلهم ورجالهم .

٣ ـ **المشاة** (بايكان) ، وهم مؤخرة الجيش ، يجمعون من الفلاحين الفقراء ، ويعملون خلف صفوف المحاربين حيث يهدمون الأسوار ويسلبون القتلى ويخدمون الفرسان . ولم يكونوا مهرة في القتال ، بل كانوا يولون الأدبار فور مواجهتهم للعدو . ويحمل رئيسهم لقب (بايكان سالار) .

٤ ـ **الفرق الرديفة** ، وهي الفرق المؤلفة من الشعوب المحاربة التي

تقطن أطراف الدولة ، وتضم عادة مخاربين ممتازين يرئسهم قادة وطنيون منهم . وكان بعض هذه الفرق يقاتل راكباً كالأساورة الفرس .

ثانياً ـ إصلاحات كسرى أنو شروان العسكرية .

أجرى كسرى أنو شروان إصلاحات واسعة في المجال العسكري ، فعزّز سلاح الفرسان ، وكوَّن جيشاً منهم ومن المهاجرين الغرباء ، وألغى وظيفة (ايران اسبهبذ) وهي وظيفة وزير الحربية وقائد الجيش في العهود التي سبقت عهده ، ووزع مسؤوليات هذه الوظيفة على أربعة (اسبهبذين) : واحد للمشرق وخراسان وما والاها ، وثان من العراق حتى حدود بيزنطية ، وثالث لنيمروز أي بلاد اليمن ، ورابع لاذربيجان وما والاها حتى بلاد الخزر . فأصبح الاسبهبذ ، بالإضافة إلى كونه حاكماً إدارياً لربع الامبراطورية الفارسية ، حاكماً عسكرياً لهذا الربع . وعيّن لكل (اسبهبذ) خليفة اسماه (مرزبان) ، فكان هنالك أربعة مرزبانات خلفاً لأربعة اسبهبذين . وقد تميزت هذه الإصلاحات بأنها سارت بالدولة شيئاً فشيئاً نحو الحكم العسكري ، إذ استبد كل حاكم بمقاطعته كأنما هي إقطاع وراثي له ، خصوصاً بعد أن تدهورت أوضاع الأسرة المالكة فكثرت أطماع الحكام ومحاولاتهم لاغتصاب العرش ، مما سهل أمام المسلمين سبيل الفتح .

ثالثاً : الرتب العسكرية :

نستنتج مما تقدم ان الرتب العسكرية في جيش الامبراطورية الفارسية أضحت ، منذ عهد كسرى أنو شروان ، كما يلي :

الشاه : وهو القائد العام لجيوش فارس .
الاسبهبذ : وهو الحاكم العام للولاية وقائد جيشها .
المرزبان : وهو نائب الحاكم العام للولاية ونائب قائد جيشها .

- **السالار** : وهو قائد وحدة عسكرية ، ويسمى :

- اسواران سالار : اذا كانت الوحدة من الفرسان .
- وبايكان سالار : اذا كانت من المشاة .
- وكندسالار : اذا كانت وحدة كبيرة .
- ودرفْش.سالار : اذا كانت وحدة صغيرة .
- ووشت سالار : اذا كانت وحدة اصغر[1] .

٢ - التنظيم عند عرب الجاهلية :

إذا كان هناك شبه إجماع لدى معظم المؤرخين على أن العرب في الجزيرة العربية ، وفي جاهليتهم ، كانوا يجهلون سبل التنظيم العسكري المعروفة في ذلك العصر ، فمما لا يرقى إليه الشك ان القبائل العربية التي كانت متاخمة لحدود فارس وبيزنطية ومتعاملة مع هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين سواء بحكم الجوار او بحكم التحالف العسكري والمدني، ونعني بها قبائل اللخميين أو المناذرة حلفاء فارس ، وقبائل الغساسنة حلفاء بيزنطية ، قد تأثرت الى حد كبير بمن حالفها أو جاورها ، من فرس أو بيزنطيين ، في تنظيماتها العسكرية . وفيما يلي بعض المعلومات عن التنظيم العسكري عند هذه القبائل :

---

(١) كريستنسن، آرثر ، ايران في عهد الساسانيين ، تعريب يحيى الخشاب ، ص ٨٦ و٩٤ و١١٨ - ١٢١ و١٩٦، - ٢٠٠ و٣٥٢ - ٣٥٦ .

المناذرة : كان للمناذرة جيش دائم منظم يتألف من خمس كتائب هي :

أ ـ **الرهائن** : مجموعة من ٥٠٠ رجل كانوا رهائن من قبائل البادية ويقيمون على باب الملك اللخمي ، حيث يتم استبدالهم كل فترة ، فكأنهم يكوّنون جيشاً خاصاً .

ب ـ **الصنائع** : وهي فرقة مؤلفة من بني قيس وبني تميم وكأنها حرس الشرف الخاص بالملك .

ج ـ **الوضائع** : جمع وضيعة ، وهي كتيبة من ألف رجل من الفرس يضعهم كسرى في خدمة الملك اللخمي ملك الحيرة ، ويبدلون كل سنة .

د ـ **الأشاهب** : كتيبة من قبيلة الملك نفسه ، وتسمى « الشهباء » .

هـ ـ **الدوسر** : وهي أقوى الكتائب وأشدها بأساً ، وتؤلف من مختلف القبائل في المملكة .

الغساسنة : كان رجال هذه القبائل يجندون في وقت الحرب ، حتى اذا ما وضعت الحرب أوزارها ردوا الأسلحة إلى مستودعاتها (في بصرى أو دمشق) وعادوا إلى ممارسة أعمالهم اليومية المعتادة .

عرب الجزيرة العربية :

يقول جرجي زيدان[1] ان العرب قبل الاسلام « كانوا أهل بداوة لا نظام للجند لهم . . . إلا ما كان من نظام الجند في الدول العربية التي

---

(١) التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٤٤

تمدنت قبل الاسلام كالتبابعة . . والمناذرة» . وليس لدينا ما ينفي هذا القول ، إذ كان عرب الجزيرة قبل الاسلام يقاتلون مجتمعين قبائل أو بطونا . وظلوا على هذا الترتيب بعد الاسلام حتى معركة اليرموك ، فكان خالد بن الوليد أول من غيّر نظام القتال في الجيش الاسلامي وأوجد نظام الكراديس ، محتفظاً بترتيب القبائل ضمن الكراديس ، كما سنرى .

٣ ـ التنظيم في الاسلام :

التنظيم في عهد النبي ﷺ

عرف المسلمون في زمن النبي رتب العريف والنقيب وأمير الجيش . فقد طلب ﷺ من الذين بايعوه ليلة العقبة الثانية[1] من الأوس والخزرج أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً « ليكونوا على قومهم بما فيهم » ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وكان النقباء يشرفون على العرفاء ، أما العرفاء فكان كل واحد منهم يأمر عشرة جنود . وأما أمير الجيش فكان النبي ﷺ يختاره ، كما سبق وقدمنا ، من أهل السابقة في الاسلام والتجربة في القتال ، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يقود الجيش بنفسه[2] .

---

(١) ليلة العقبة الثانية (أو الآخرة ، أو الكبرى) قبل هجرة الرسول ، وقد كان عدد من بايع النبي من الأوس والخزرج في تلك الليلة سبعين رجلاً وامرأتين (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ : ٢٣٨ ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٩٨ ـ ١٠١) ، او ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين (ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ ٢ : ٤٧ ـ ٥١) .

(٢) يرى المؤرخون (العبادي وزيادة والعدوي) ، في كتابهم (الدولة الاسلامية ، ص =

وقد بلغ جيش النبي في فتح مكة عشرة آلاف مقاتل[١] . وازداد هذا العدد باطراد إلى أن ناهز في أواخر حياة النبي ﷺ ، وفي غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة ، وهي آخر غزواته ، ثلاثين الفاً منهم عشرة آلاف فارس[٢] .

التنظيم في عهد ابي بكر :

لم يشذ ابو بكر كثيراً في ترتيب الجيش عما خلّفه النبي ﷺ له ، إلا أن المعارك التي خاضها الجيش الاسلامي في هذا العهد ، في حروب الردة ، أكسبته كثيراً من التجربة والخبرة التي شجعت أول خليفة في الاسلام على ان يتطلع إلى إتمام رسالة النبي بنشرها خارج حدود الجزيرة العربية . وقد بلغ عدد الجيش الاسلامي في عهد الخليفة ابي بكر زهاء أربعين ألف مقاتل ، أرسل منهم نحو ثمانية آلاف مقاتل لفتح العراق بفرقتين : فرقة خالد بن الوليد ، وفرقة المثنى بن حارثة الشيباني ، كما أرسل لفتح الشام نحواً من عشرين ألف مقاتل موزعين على أربع فرق بقيادة كل من يزيد بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة وابي عبيدة بن الجراح وعمر بن العاص ، واستبقى عكرمة بن ابي جهل على رأس من تبقّى من جند المسلمين احتياطاً في المدينة . وسنرى ذلك

= ١٠٥) ، ان الرتب العسكرية في الجيش الاسلامي اتضحت تماماً في العصر العباسي ، فصار على كل عشرة رجال عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء بجنودهم (أي مئة رجل) نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء بجنودهم (أي الف رجل) قائد وعلى كل عشرة قواد بجنودهم (أي عشرة آلاف رجل) أمير ، وانه ربما ظهرت شارة للرتبة على البستهم كما هو الحال في أيامنا هذه .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٢٤٤ .

(٢) لوبون ، حضارة العرب ، ص ١٠٨ ، وزيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٥٩ . والدرة ، تاريخ العرب العسكري ، ص ٢٠٩ .

كله بالتفصيل خلال درسنا لمعارك خالد بن الوليد في العراق والشام .

التنظيم في عهد عمر :

يجمع المؤرخون على أن عمر بن الخطاب هو أول منظم للجيش الاسلامي ومنشىء له ، وان من الصحيح القول إن جيشاً رسمياً ظهر الى الوجود في عهده . فقد كان اول خليفة اهتم بتنظيم هذا الجيش على الأسس التي كانت سائدة عند الفرس والروم في ذلك العصر ، مع الكثير من الإبداع والتجديد ، وكان دافعه الى ذلك اتساع رقعة الفتوح ، والنمو الكبير المطرد لهذا الجيش[1] بحيث أصبح تنظيمه ضرورة لازمة وإلا وقع في الفوضى والارتباك .

ورغم ان عمر قد حافظ على الكثير من الأسس التي ورثها عن سلفيه ، النبي وابي بكر ، فقد زاد عليها وعدلها ، إذ روى الطبري أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية يقول : « إذا جاءك كتابي هذا فعشّر الناس وعرّف عليهم وامّر على اجنادهم وعبّهم . . . واجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة » . ويضيف الطبري ان سعداً « عرّف العرفاء ، فعرّف على كل عشرة رجلاً كما كانت العرافات أزمان النبي ﷺ »[2] . ولكن أحداً لا ينكر فضل القائد

---

(١) يقول الطبري ، في تاريخ الأمم والملوك (جـ ٤ : ١٩٦) ، ان عمر اتخذ في كل مصر على قدره خيولاً ، فكان بالكوفة من ذلك اربعة آلاف فارس ، وكان في كل مصر من الأمصار الثمانية كما في الكوفة . نستنتج من ذلك ، كما استنتج الدكتور صبحي الصالح في كتابه « النظم الاسلامية » (ص ٤٩١) ، ان مجموع الفرسان في جيش المسلمين في عهد عمر كان ٣٢٠٠٠ ألف فارس ما عدا المشاة والمتطوعين .

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٨٧ .

خالد بن الوليد في هذا المجال ، لما أدخله على الجيش الاسلامي في الشام ، وعشية معركة اليرموك بالذات ، من تعديل في تشكيل الوحدات وتكوين الكراديس ووضع الجيش في تعبئة لم يعرفها العرب من قبل حتى سميت باسمه « التعبئة الخالدية »[1] . ويستنتج عبد الرؤوف عون ، مما رواه المؤرخون[2] ، ان قيادات الجيش الاسلامي أخذت تظهر في اليرموك والقادسية وما بعدهما بالشكل التالي :

أمير الجيش أو القائد العام : ويأمر عشرة آلاف جندي وما فوق .
أمير التعبئة : ويأمر خمسة آلاف جندي .
أمير الكردوس : ويأمر ألف جندي .
القائد أو قائد السرية : ويأمر مابة جندي .
الخليفة : ويأمر خمسين جندياً ،
العريف : ويأمر عشرة جنود[3] .

---

(١) سوف نبحث هذا الموضوع بالتفصيل خلال درسنا لمعارك خالد بن الوليد في الشام .

(٢) عون ، الفن الحربي ، ص ١١٤ ـ ١١٥ ، وتاريخ ابن خلدون ، جـ٣ : ٦٣١ ، والطيباوي ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ، جـ١ : ١٧٨ . ويمكن ان يستنتج شيء من هذا القبيل مما ذكره الطبري في تاريخ الأمم والملوك ، جـ٤ : ٨٧ ـ ٨٨ .

(٣) عون ، المصدر نفسه ص ١١٥ ، والجدير بالذكر ان النبي ﷺ كان يستعمل اسم « السرية » أو « الكتيبة » للمجموعات التي يبعثها للغزو ، وكان معظمها لا يزيد عدده عن المئة وان نقص عنه (والسرية في معجم محيط المحيط : الجماعة من خمسة أنفس الى ثلاثماية أو أربعماية ، وفي الصحاح : قطعة من الجيش . والكتيبة في معجم محيط المحيط : الجيش أو القطعة منه مجتمعة . . . أو جماعة الخيل اذا اغارت من المئة الى الألف) . انظر استعمال كلمتي السرية والكتيبة في عهد النبي ﷺ عند : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٢٢٩ (سرية غالب بن عبدالله الليثي) ، وص ٣٠٣ و٣٠٤ (ذكر غزوات النبي ﷺ وسراياه) ، وص ٢٤٥ (الكتيبة الخضراء ، وهي =

وقد شمل التنظيم العسكري للجيش ، في ذلك العهد ، الأجهزة والوظائف التالية :

الجهاز الاداري :

صاحب الاقباض : الذي يتولى جمع الغنائم وتزيعها .

مفتش الخيل : الذي يتولى التدقيق في الخيل والركاب ، ويسمى أيضاً (ناعت الخيل) .

الساعي : الذي ينقل الرسائل والبريد .

الكاتب : الذي يسجل الوقائع ويكتب الرسائل .

المترجم : الذي يترجم رسائل الملوك والقادة من الأعداء .

الجهاز الاعلامي والمعنوي :

الداعي : الذي يدعو الأعداء إلى الدين .

القارىء : الذي يتلو على الجند سورة الأنفال لما فيها من ذكر الحرب .

القاص : الذي يقص على الجند ملاحم البطولات وأشعار الحرب والحماسة .

الجهاز القضائي :

القاضي : الذي ينظر في مشاكل الجند ويقضي بها .

= كتيبة الرسول) . وذكر الطبري ان القعقاع بن عمرو كان يقود كتيبة تسمى « الكتيبة الخرساء » (جـ ٤ : ١٧١) ، وقد ابلت في القادسية بلاء حسناً (جـ ٤ : ١٢١ - ١٣٣) .

الجهاز الطبي :

الطبيب : الذي يعتني بالجرحى والمرضى .

الممرض : الذي يساعد الطبيب في مهمته ويضمد الجراح ، وكانت هذه وظيفة النساء عادة[1] .

ووظائف أخرى . . مثل :

الرائد : الذي يرتاد مكان نزول الجيش قبل وصوله لاختيار بقعة النزول .

صاحب الساقة : الذي يبقى في مؤخرة الجيش لسوق المتخلفين من الجند وإعانتهم[2] .

ديوان الجند :

أما أهم أثر يمكن أن ينسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب في تنظيم الجيش فهو (ديوان الجند) . إذ لم يعرف العرب ، قبل إنشاء هذا الديوان على يده ، وسيلة من وسائل تنظيم شؤون الجند سواء من حيث ما يترتب لهم من حقوق أو ما يترتب عليهم من واجبات . أما الحقوق

---

(١) عرفت مهنة التمريض منذ زمن النبي ﷺ ، فقد ضمدت بنت الرسول جراحه يوم احد (ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٥٨) . وكان للسيدة (رفيدة) خيمة بمسجد المدينة يوم غزوة بني قريظة تداوي بها الجرحى (ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ٣ : ١٩٢) .

(٢) عون ، المصدر نفسه ، ص ١١٦ ـ ١١٩ ، والطيباوي ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ، جـ١ : ١٨٧ ـ ١٨٩ ، مع اختلاف بين المؤلفين حول وظيفة كل من القاضي والداعي وصاحب الاقباض .

فهي الاعطيات والتسريح والبدال ، وأما الواجبات فهي التجنيد الإلزامي الذي اقترنت نشأته بنشأة هذا الديوان .

الأعطيات :

كانت أعطيات الجند في عهد النبي ﷺ وأبي بكر تتخذ شكلاً رمزياً بالنظر لقلتها ، إذ كان يتم توزيع الغنائم والفيء على جند المسلمين وفقاً لأحكام القرآن فيها . وتعرّف الغنيمة بأنها « مال من أموال الكفار ظفر المؤمنون به على وجه الغلبة والقهر »(1) ، وهي تشمل الأسرى والسباء والأراضي والأموال . وكانت الغنائم تجمع بعد المعركة ويتم تقسيمها إلى خمسة أخماس ، يوزع الخمس الأول منها وفقاً للآية الكريمة : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ [الأنفال ٤١] ، أما الأخماس الأربعة الباقية فتوزع على الغانمين ، أي المقاتلين . ويعرّف الفيء بأنه « المال الذي أصابه المسلمون عفواً دون قتال ودون إيجاف بخيل ولا ركاب »(2) ، ويقسم أيضاً ، كالغنيمة ، إلى خمسة أخماس ، يوزع الخمس الأول منها وفقاً للآية الكريمة : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ [الحشر ٧] ، أما الأخماس الأربعة الباقية فتوزع على الجند لشراء الخيل والأسلحة(3) . فلما توسع المسلمون في فتوحهم وجلبت

---

(1) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص ٣٦٦ .

(2) م . ن . ص ٣٦٨ .

(3) راجع ما كتبه الماوردي في « الأحكام السلطانية » ، ص ١٢٦ ـ ١٤١ ، وابو يوسف في « الخراج » ، ص ١٨ ـ ٢٧ ، عن الفيء والغنائم .

لهم هذه الفتوح مالاً وفيراً وغنائم كثيرة ، فكّر عمر بتدوين الدواوين واستشار اصحابه ، فقال له عثمان : « أرى مالاً كثيراً يسع الناس ، وإن لم يحصوا حتى يعرف من اخذ ممن لم يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر » . وقال الوليد بن هشام بن المغيرة : « قد جئت الشام ، فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً وجندوا جنداً ، فدوّن ديواناً وجند جنداً »[1] . وأعجبت فكرة الوليد الخليفةِ عمر ، فتبناها ونفذها . وكان من الطبيعي أن يحدد عمر أعطيات الجند بعد أن أنشأ لهم ديواناً ، دون أن يخرج في ذلك عن تعاليم الاسلام الأساسية . فبينما كانت الأعطيات في عهد أبي بكر تقوم على أساس المساواة بين الناس في العطاء ، نراها تقوم في عهد عمر على أساس التفاضل بين الناس في العطاء ، ويكون التفاضل على أساس القرابة من الرسول ، والسابقة في الإسلام . وحدد عمر ذلك في إحدى خطبه قائلاً : « فالرجل وتلاده في الإسلام ، والرجل وقدَمه في الإسلام ، والرجل وغناه في الإسلام ، والرجل وحاجته في الإسلام»[2] . وقد حدد أعطيات الجند على الشكل التالي :

• ٥٠٠٠ درهم سنوياً لكل من حضر بدراً من المسلمين ، أي نحو ٢٠٠ جنيه ذهباً في السنة[3] .

• ٤٠٠٠ درهم سنوياً لكل من جاء بعد بدر إلى الحديبية .

---

(١) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(٢) وردت عند الطبري : « الرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته » .

(٣) العبادي وزيادة والعدوي ، الدولة الاسلامية ، ص ١٠٤ . ويرى هؤلاء المؤرخون ان عطاء الجندي المسلم كان سخياً بالنسبة الى عطاء الجندي البيزنطي يومذاك (المصدر نفسه) .

٣٠٠٠ درهم سنوياً لكل من جاء بعد الحديبية حتى انتهاء حروب الردة .

٢٠٠٠ درهم سنوياً لكل من أهل الشام وأهل القادسية .

١٠٠٠ درهم سنوياً للذين جاؤوا بعد اليرموك والقادسية .

من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ درهم سنوياً للروادف من الذين لم يحضروا إحدى معركتي اليرموك والقادسية .

وحدد عمر لنفسه راتباً هو مقدار الراتب الذي كان أبو بكر يتقاضاه قبله[١] ، كما فرض تعويضات عائلية للنساء والأطفال ، واحتفظ للفارس بسهمين مقابل سهم واحد للراجل ، كما في عهد النبي وأبي بكر .

وقد زيدت رواتب الجند في عهد عثمان بعد فتح اذربيجان وإيران وجزء من أرمينية ، فارتفع راتب الجندي مئة درهم عما كان عليه في عهد عمر[٢] .

التسريح والبدال : لم يعرف المسلمون ، حتى في عهد عمر ، نظام التسريح النهائي من الخدمة العسكرية ، ولكنهم عرفوا بديلاً عنه : نظام « البدال » أو التسريح المؤقت . وقد عرف هذا النظام ، أول ما عرف ، في عهد أبي بكر[٣] ، يوم سرح جنود اليمن واستبدلهم

---

(١) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، جـ ٤ : ١٦٢ ـ ١٦٥ ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٥٠٢ ـ ٥٠٥ . ويقول الطبري ان عمر « قعد على رزق ابي بكر الذي كانوا فرضوا له ورفض اية زيادة عليه » .

(٢) الصالح ، م. ن. ص ٤٩٦ .

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٢٩ ـ ٣٠ .

بسـواهم ، لذا سمي جيش عكـرمة يـوم عـاد من اليمن بـ « جيش البدال » . وأخذ عمر هذا النظام عن أبي بكر ، واعتمده وتوسع به حتى عرف عنه انه لم يكن يطيق ان « يجمِّر الناس في ثغورهم » ، وأن يطيل مدة غيبتهم عن منازلهم ، رحمة بهم وبنسائهم وأهلهم . وتحقيقاً للعدالة بين الجند كان يعمد الى استبدالهم بسواهم كل ستة شهور . وقد روي عنه أنه سأل حفصة أم المؤمنين عن المدة التي يمكن للمرأة ان تبقى فيها بعيدة عن زوجها، فأجابت : « ستة شهور » ، واعتمدها عمر كحد أقصى لاستبدال الجند[1] .

التجنيد : سبق وقلنا في حديثنا عن الصفات التي يجب ان تتوافر في المقاتل المسلم ان النبي ﷺ لم يكن يشترط فيه سوى الرغبة في الجهاد والقدرة على القتال ، وانه لم يشترط سناً معينة بل كان ينظر في الجنود قبل المعركة ، فمن رأى لياقته للقتال أجازه وإلا رده[2] ، وان أبا بكر لم يشذ عن هذه القاعدة ، وانه وان كان يحضّ المسلمين على القتال فقد كان ينصح قادته « أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع ولا يستفتحوا بمتكاره » .

ولكن عمر لم يرض بذلك ، خاصة وانه رأى المسلمين قد بدأوا

---

(١) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن الخطاب ، ص ٧٢ . روى ابن الجوزي ان عمر مر بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهي تقول : « تطاول هذا الليل تسري كواكبه (وفي رواية : واخضل جانبه) وأرّقني ان لا ضجيع الاعبه » ، الى آخر القصيدة . ثم قالت ، وعمر واقف يسمع قولها : « لهان على عمر بن الخطاب وحشتي وغيبة زوجي عني ؟ » . وانصرف عمر بن الخطاب ليسأل حفصة أم المؤمنين : « كم تحتاج المرأة الى زوجها ؟؟ فقالت : في ستة أشهر . فكان لا يغزي جيشاً له أكثر من ستة اشهر » .

(٢) يروي ابن الأثير في تاريخه الكـامل ، جـ ٢ : ١٥١ ، ان النبي عـرض المقاتلة يـوم احد ، فأجاز بعضهم ورد البعض الآخر . وكان قد فعل كذلك في بدر (م . ن . ص ١٣٦ - ١٣٧) .

ينصرفون عن الحروب إلى البذخ والترف بعد أن غمرتهم الفتوح بخيراتها الوفيرة ، فعمد إلى تحديد رواتب الجند والقادة كما أسلفنا ، وعمد ، مقابل ذلك ، الى تطبيق التجنيد الإلزامي تطبيقاً صارماً[1] ، محدداً بوضوح الشروط التي يجب ان تتوافر في المقاتل المسلم وهي : ان يكون مسلماً عاقلاً بالغاً حراً سليماً من الأمراض ، والشروط التي يجب ان تتوافر في القائد المسلم وهي : القدم في الإسلام ، والبصيرة في الحرب، والخبرة بأساليب القتال . وكان عمر يطلب الى الجند ، بل ويفرض عليهم الانصراف الى القتال انصرافاً تاماً ، فمنعهم أن يتعاطوا ، اينما حلوا ، أي نوع من أنواع المهن الأخرى مثل الزراعة والتجارة وسواهما . حتى انه كان يمنع على جند المسلمين الاختلاط بسكان البلدان المفتوحة ، فيبني لهم المعسكرات يقيمون فيها بعيداً عن المدن . ثم أخذ يبني بعد ذلك الثغور على تخوم تلك البلدان وحدودها ، يستعمل فيها جنده لحماية الدولة الإسلامية من هجمات الأعداء . وكان يشرف بنفسه على تدريب الجند ، فرساناً ومشاة ، وإعدادهم للقتال ، وذلك في الحمى أو المعسكر .

وخلاصة القول ان التجنيد كان في عهد النبي ﷺ وأبي بكر تطوعاً واختيارياً ، وغير ملزم للمسلم القادر إلا معنوياً ، فأصبح ، مع عمر ، ومع نشأة الدواوين وتحديد الرواتب ، إلزامياً على كل مسلم عاقل حر بالغ قادر .

---

(١) كتب عمر الى المثنى وجنده ، قبل القادسية ، يأمرهم ان « لا تدعوا في ربيعة احداً ، ولا مضر ولا حلفائهم احداً من أهل النجدات . . ولا فارساً إلا اجتلبتموه ؛ فإن جاء طائعاً وإلا حشرتموه » ، كما كتب الى عمال العرب على الكور والقبائل ان « لا تدعوا احداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الي ، والعجل العجل » . (الطبري، م. ن. جـ ٤ : ٨٢) .

ثانياً ـ التكتيك :

لغةً ، ومن الوجهة العسكرية ، « فن ترتيب الجند واستعماله على أرض المعركة . حيث اقتيد إليها بعمليات يشكل مجموعها ما يسمى بالاستراتيجية »[1] . وبكلمة أخرى ، يعني التكتيك « فن القتال ، أو فن إدارة المعركة » .

التكتيك عند عرب الجاهلية :

أجمع المؤرخون على أن لا تكتيك عند عرب الجاهلية في حروبهم ، فقد كانت حروباً بدائية من غير نظام سوى النظام الذي يرتئيه شيخ القبيلة . وكانت كل حرب تبدأ بمبارزة بين أبطال من الطرفين ، وكثيراً ما كانت المبارزة هي التي تحسم المعركة دون أن يكون هنالك تلاحم بين الجيشين ، أو القبيلتين . فإذا لم يتفق القائدان على أن تكون نتيجة المبارزة هي الحاسمة يتوالى المتبارزون واحداً تلو الآخر ، ثم يتراشق الجيشان بالنبال وتبدأ المعركة .

وكانت المعركة كناية عن سلسلة من الكر والفر بين المتقاتلين دون أية فكرة مناورة ، وهو ما يسمى عندهم نظام الكر والفر . فكانوا إذا هموا بالقتال كروا على عدوهم وتبادلوا معه التراشق بالسهام . حتى اذا احسوا ضعفاً فروا من وجهه دون أن يصيبهم أو يصيب اعداءهم ضرر كبير ، ثم أعادوا الكرة من جديد دون نظام أو قاعدة ودون هدف ، حتى ييأسوا أو يكلوا . لذا كان العرب يمنعون رجالهم من الفرار بأن

(١) Larousse XXe Siècle., V. 6. (tractique) .

يضعوا ظعائنهم وإبلهم خلف ظهورهم كي تحول بينهم وبين الهرب وتثبت اقدامهم في القتال[1] .

وكانت حروب العرب في الجاهلية أقرب الى المنازعات والخلافات المحلية منها الى الحروب الحقيقية ، فقد كانت تجري ، من حيث العدد ، بين متخاصمين لا يزيد عددهم عن المئة في معظم الحالات . لذا كان فن الحرب عندهم ساذجاً بدائياً بسيطاً ، مستثنين من ذلك حروب الرومان ضد زينب ملكة تدمر ، وحروب الغساسنة ضد المناذرة على تخوم الشام والعراق ، وحروب الغساسنة ضد الفرس أو المناذرة ضد الروم على هذه التخوم[2] ، إذ ان احتكاك هذه القبائل والممالك العربية بالروم والفرس ، سواء حرباً أو سلماً ، نقل اليها الكثير من مبادىء الحرب المتبعة لدى هاتين الامبراطوريتين الكبيرتين . ويكفي أن نذكر وقعة « ذي قار » وما اظهرته قبائل بكر بن وائل وبني شيبان وسواها في قتالها مع الفرس في هذه الوقعة من تكتيك وفن لندل على المدى الذي وصلت إليه هذه القبائل في فن الحرب من جراء علاقتها بامبراطوريتي الفرس والروم . فقد قاتلت الفرس وهي (على تعبئة) ، وقسمت جندها كتائب في صفوف تشكل القلب والميمنة والميسرة محتفظة بالظعن خلف الصفوف ، وحركت كتائبها في مناورة بارعة فواجهت الفرس بواحدة منها واستبقت الكتائب الأخرى في منجىً من سهامهم كي تفاجئهم بها فيما بعد وتربح المعركة[3] . ولقد عرفت هذه القبائل ،

---

(١) العبادي وزيادة والعدوي ، الدولة الاسلامية ، ص ١٠١ ، وانظر ايضاً :زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٢) أبو النصر ، عمر ، سيوف أمية ، ص ٩ و١١ .

(٣) ابو النصر ، سيوف أمية ، ص ١٨ ، وذو قار ، معركة وقعت بين قبائل بكر من =

وغيرها من قبائل المناذرة والغساسنة ، الترتيب الخماسي للجيش (القلب والميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة) ، كما عرفت نظام الكراديس . فقد ذكر الاصفهاني[1] ان ربيعة بن غزالة نصح بني شيبان في هذه الوقعة بأن « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكردسوا لهم كراديس ، فيشد عليهم كردوس ، فإذا أقبلوا عليه شد الآخر . قالوا : فإنك قد رأيت رأياً » ، ففعلوا ، وكانت لهم الغلبة بفضل هذا الرأي .

التكتيك في حروب المسلمين :

نظام الصفوف والكر دون الفر :

لم يخرج المسلمون ، في أول أمرهم ، عن مبادىء القتال التي عرفوها في جاهليتهم[2] ، إلا أن طموح قادتهم ، والنبي ﷺ على رأس هؤلاء القادة ، جعلهم يفتشون ، وهم قلة ، عن الوسائل التي تقودهم إلى النصر على الكثرة المشركة . ويعتبر ترتيب المقاتلين صفوفاً أول تجديد أوجده الإسلام في التكتيك العسكري عند عرب الجزيرة ، إذ أخذت الآية الكريمة : ﴿ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً

= العرب ، وبين الفرس وحلفائهم من العرب ، قبل الفتح ، وبين غزوتي بدر واحد ، والمكان ماء لبكر قريب من الكوفة . ويعتبر هذا اليوم من مفاخر بكر إذ انتصرت فيه انتصاراً ساحقاً وحاسماً ، وقد قال فيه النبي ﷺ : « اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم » (جاد المولى ، ايام العرب في الجاهلية ، ص ٦) .

(١) الأغاني ، جـ ٢٣ : ٢٣١ ، كما ذكر الرواية نفسها جاد المولى في كتابه (ايام العرب في الجاهلية ص ٣٠) .

(٢) يقول ابن خلدون في تاريخه ، جـ ١ : ٤٨٤ ، « وكان الحرب اول الاسلام كله زحفاً ، وكان العرب إنما يعرفون الكر والفر » .

كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف ٤] ، والحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » بمعناهما المادي البحت ، فرصَّت صفوف القتال رصاً[1] ، واقترن نظام الصف بتعديل آخر هام في تكتيك القتال إذ اتخذ نظام « الكر دون الفر » بديلاً . وكان ذلك ولا شك من أهم أسباب انتصار الأقلية المسلمة على أهل الكر والفر من خصومهم الكثر في الجزيرة العربية ، أولئك الذين فوجئوا بالتكتيك الجديد في القتال ، تكتيك لا عهد لهم به ولا دراية . فقد تعود أصحاب الكر والفر أن يؤمِّنوا الفر قبل المبادرة بالكر ، أما هؤلاء المسلمون فقد ألغوا الفر إلغاءً تاماً فكان ذلك مفاجأة صاعقة لخصومهم . وكانت « بدر » ، سنة ٢ هـ ، أول معركة طبق المسلمون فيها هذا النظام الجديد في القتال ، فكان المقاتلون في عهد النبي ﷺ يرتبون صفوفاً تسوى كما تسوى صفوف الصلاة ويزحفون نحو العدو دون فكرة تراجع ، جاعلين خلفهم إبلهم ونساءهم وأولادهم وأحمالهم كحاجز معنوي يمنعهم من الفرار أو التقهقر . ويروى أن النبي ﷺ كان يستعرض الصفوف قبل القتال فيسويها ، وقد استعرض جيشه يوم بدر الكبرى ، فأشار الى « سواد بن غزية » ، وقد ظهر ناتئاً أمام صفه ، فقال له : « إستوِ يا سواد بن غزية »[2] . ولا شك في ان المسلمين عرفوا المناورة في القتال حتى في أوائل عهدهم ، وكان ذلك واضحاً في (أحد) ، أولى معاركهم الهامة ، كما سيتضح لنا فيما بعد .

---

(١) العبادي وزيادة والعدوي ، الدولة الاسلامية ، ص ١٠١ .

(٢) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤٤٦ .

نظام الخميس :

وعرف المسلمون كذلك نظام (الخميس) ، إذ أخذوا يعبّئون جيوشهم في خمسة اجزاء سبق ان أشرنا إليها ، وقد عرفت عند الفرس والروم وحلفائهم المناذرة والغساسنة ، وهي الطليعة والميمنة والقلب والميسرة والساقة أو المؤخرة ، فكان الفرسان عادة في الطليعة أو الميمنة والميسرة ، وكانت الظعن والإبل والعيال والأحمال في المؤخرة ، وكانت قيادة الجيش في وسط القلب . وقد ظلوا على هذه التعبئة طيلة حروبهم ، مع الكثير من الابداع والتجديد ، ومع الكثير من البراعة في فن المناورة[1] .

إلا أن ترتيب الجند في القتال بقي على أساس انتمائهم القبلي ، فكانت كل قبيلة تحارب مستقلة وبالتعاون مع القبائل الأخرى . حتى أن خالداً ، في حروب الردة ، وفي قتاله ضد مسيلمة الكذاب ، اضطر لأن ينادي جنده قائلاً : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ، ولنعلم من أين نؤتى » ، فامتاز المهاجرون والأنصار عن بقية الأعراب في القتال .

---

(١) حدد الهرثمي في كتابه (مختصر سياسة الحروب) ، ص ٤١ ـ ٤٢ ، عمل الجيش (الخميس) عند التقاء الزحفين فقال :

ـ عمل الميمنة ان يبدأوا بالحملة على ميسرة عدوهم ليغلبوهم على العسكر أو يزيلوهم عن مراكزهم .

ـ عمل القلب ان يمد مجنبتيه ولا يتحرك إلا في اتباع عدوه إذا ولى أو لدفعه إذا أقبل .

ـ عمل الميسرة ان يقفوا بمكانهم ويمنعوا من الدخول عليهم ، ولا يدفعوا ارضهم ، وليس عليهم ان يحملوا ما وجدوا من ذلك بدا .

ـ المبارزة على اصحاب الميمنة والقلب ، ولا يبارز من الميسرة ، إن بارز ، إلا من كان ايسر .

التعبئة :

كانت « التعبئة » في مجال التنظيم والتكتيك مبدأً أساسياً من مبادىء الحرب عند المسلمين ، إذ كان القتال فرضاً على كل مسلم « عاقل بالغ حر سليم من الأمراض » ، كما عرف المسلمون حرب الجماعة ، أو حرب « الأمة المسلحة » كما سنبين فيما بعد .

وكان المسلمون يستنفرون للقتال بطريقتين[1] :

النفير العام : لصد هجوم أو دفع عدوان « على الدين والحرمة والأنفس » ، وفي هذه الحالة يكون القتال فرضاً واجباً على المسلمين جميعاً دون استثناء ؛ « على المقصودين كلهم ، وعلى غير المقصودين . . لاعانتهم »[2] ، عملاً بالآية الكريمة : ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ [الأنفال ٧٢] ، وعملاً بأمر النبي ﷺ ان ينصر المسلم أخاه المسلم ويشد أزره ، ويسميه الفقهاء فرض عين أو « قتال اضطرار » ، ومن يتخلف عنه من المسلمين يعد منافقاً ويعاقب .

- **النفير الخاص** : لقتال الممتنعين عن اداء الفرائض الدينية والخارجين على الشرائع الاسلامية والمعتدين وقطاع الطرق، وهو فرض كفاية « اذا قام به من يكفيه سقط الفرض عن الباقين ، وكان الفضل لمن قام به »[3] ، ويسميه الفقهاء « قتال اختيار » يجزى من يقوم به ولا يجازى من يتخلف عنه .

---

(١) خطاب ، محمود شيت ، الرسول القائد ، ص ٣١ .

(٢) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .

أما إذا أردنا التعبئة بمعناها التكتيكي ، فيعتبر خالد بن الوليد اول قائد أدخل نظام التعبئة في الجيش الاسلامي طبقاً للأساليب التي كانت متبعة في الجيش الرومي . فقد خرج يوم اليرموك في « تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك »[1] ، إذ لم يكن لدى المسلمين قبل اليرموك اسلوب حديث في القتال ، وكانوا يعتمدون عنصر « المباغتة » للتعويض عن قلتهم تجاه كثرة العدو .

ولكن خالداً ، وقد حارب امبراطورية لا يستهان بها في العراق ، تعلم كثيراً من حروبه معها، فاستنبط في اثناء تلك الحروب ، ومن دراسته لأسلوب الروم في الحرب ، أسلوباً جديداً في القتال يمكن تسميته (التعبئة الخالدية) ويلخص بما يلي :

ترتيب الجيش على شكل القمز في يومه التاسع أو العاشر وعلى شكل حذوة الحصان ، وتقسيمه خمس فرق : الأولى طليعة الجيش ، أو مقدمته ، وهي للمراقبة والإنذار حتى لا يؤخذ الجيش على حين غرة ، والثانية القلب ، وهي القوة الضاربة في الجيش ، وتنتظم في ثلاثة صفوف متتابعة ، والثالثة الميمنة ، وهي من الفرسان والرماة ، وكذلك الرابعة وهي الميسرة . وكانت هذه الفرق مرتبة بدورها بشكل كراديس كما سيتبين معنا عند درسنا لأول معركة خاضها خالد بالتنظيم الجديد ، وهي معركة اليرموك . اما الخامسة ، وهي المؤخرة ، ففيها الظعن وحماته . ويكون مركز القائد في وسط الجيش ، وأمامه راية الجيش[2] ، وحوله أهل النجدة فيه وأركان حربه .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤١١ .

(٢) كان النبي ﷺ يعقد راية الجيش بنفسه للقائد الذي يحملها الى مسجد المدينة ليجمع =

فإذا تقدم الجيش فإنه يتقدم بالترتيب الذي تم وصفه ، وإن توقف للقتال فإنه يتوقف بهذا الترتيب أيضاً ويكون مستعداً دوماً للقتـال . والمعروف أن خالداً لم يكن يسير للقتال إلا وهو (على تعبئة) .

أشكال التعبئة :

يعدد الاستاذ جرجي زيدان[1] أشكال التعبئة التي عرفها المسلمون في هذه الحقبة من الزمن ، فيحددها بسبعة أشكال هي :

١ ـ شبكل الهلال المرسل أو الحاد ،وهو بسيط مثل هلال السماء ، وهي التعبئة التي اعتمدها خالد والتي أشرنا اليها آنفاً .

٢ ـ شكل الهلال المركب ، أي أن يكون عند طرفي الهـلال هلالان آخران جانبيان كأنهما جناحان .

٣ ـ شكل المربع المستطيل .

٤ ـ شكل الهلال المقلوب (عكس الهلال المرسل أو الحاد) .

٥ ـ شكل المعيّن (Losange) أو المربع المنحرف .

٦ ـ شكل المثلث .

= حولها المقاتلين . وفي عهد الخلفاء ، وبعد ان اتسعت الفتـوح الاسلامية ، اخذ الخلفاء يرسلون راية الجيش الى قادتهم بالبريد (عون، الفن الحربي، ص٨٢ ـ٨٤) .

(١) التمـدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٨٧ ـ ١٨٨ . وتحـدث الهرثمي الشعـراني في كتابـه (مختصر سياسة الحروب) ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، عن :
ـ الصف المستوي ، وهو مستحب ،
ـ الصف الهلالي ، وهو الخارج الجناحين الداخل الصدر ، وهو اوثق للقلب وأضعف للجناحين ،
ـ الصف المعطوف ، وهو الداخل الجناحين الخارج الصدر ، وهو مكروه ولا يكون إلا عند الضرورة لأنه ضعف على القلب وقوة للجناحين .

٧ ـ شكل الدائرة المزدوجة ، وهي دائرة كبيرة تحتوي دائرة أصغر منها (أنظر الأشكال المبينة في الرسم : **أشكال التعبئة**) .

وفي كل من هذه الأشكال السبعة كان الجيش يرتب حسب نظام الخميس .

نظام الكراديس :

الكردوس كلمة ذات أصل يونـاني (Koortis) ، وأغلب الظن أن الروم أخذوها ، كما أخذوا سواها من التنظيمـات العسكريـة ، عن اليونان ، وهي تعني فرقة من الجيش أو كتيبة يراوح عددها بين ستماية رجل (عند الروم)[١] وألف رجل (عند المسلمين)[٢] . وتنقسم هذه

---

(١) زيدان ، التمدن الاسلامي ، جـ ١ : ١٤٢ ـ ١٤٣ « قسم الرومان الفرق كراديس ، وجعلوا الكردوس ثلاثة اقسام وكل قسم فصيلتين عدد رجال كل منهما مابة رجل » .

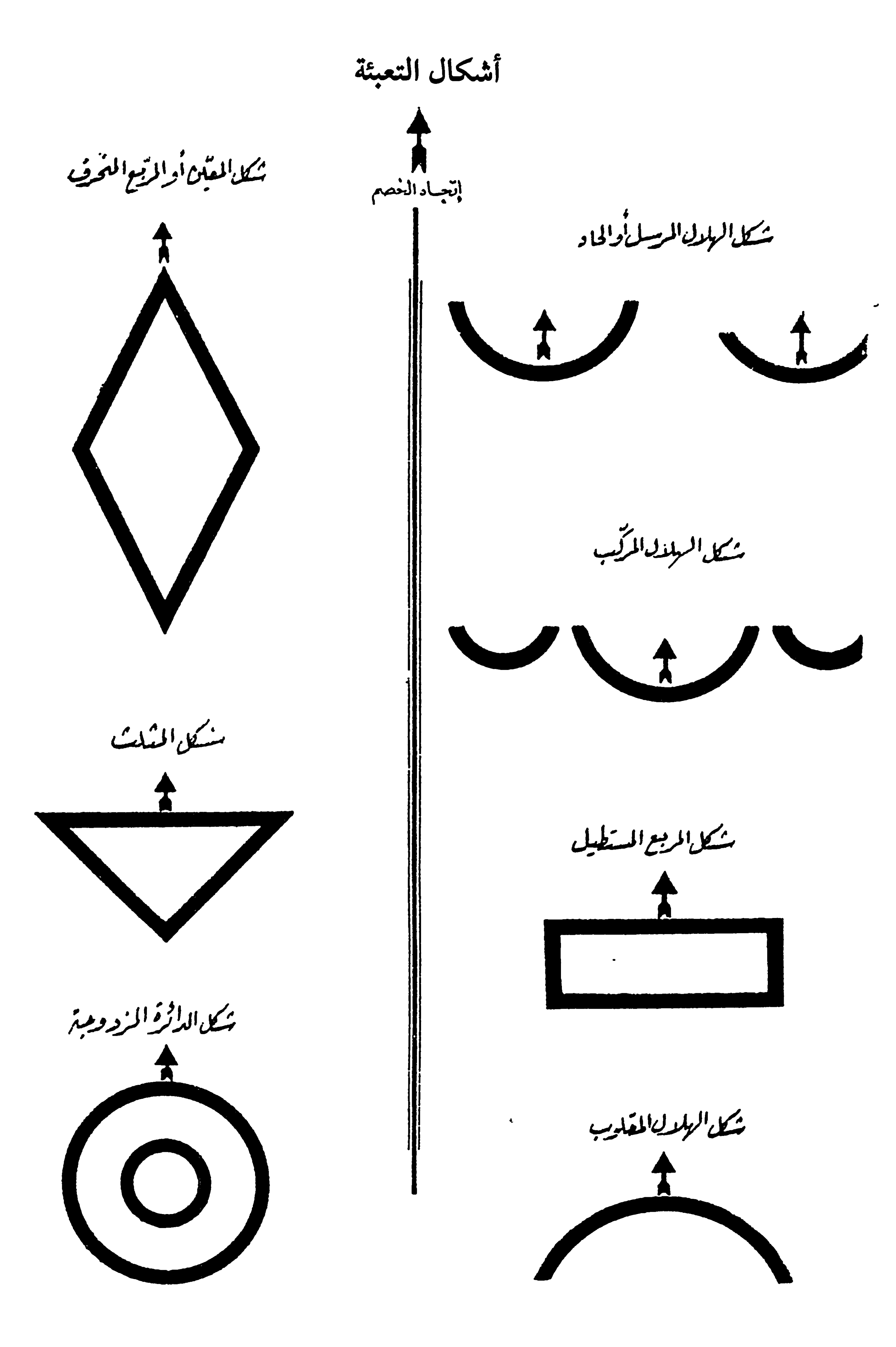
(٢) عون ، ص ١١٥ وقد ورد في كتاب « مختصر سياسة الحروب » للهرثمي الشعراني ، تحقيق عون نفسه ، ذكر « الكردوس » (ص ٣٤ ـ ٣٥) دون تحديد عدد جنده ، إلا أن المحقق اوضح في الحاشية رقم (٥) من الصفحة (٣٤) ان الكردوس « هو الجماعة من الخيل فوق الماية ، والاسم فارسي الأصل » . ولا نعلم إذا كانت هذه الحاشية من صلب كتاب الهرثمي او توضيحاً من المحقق . فإن كانت توضيحاً منه فربما تناقضت مع ما ورد عن عديد الكردوس في كتابه « الفن الحربي » ، ص ١١٥ . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان ابن خلدون في تاريخه (جـ ١ : ٤٨٤) يعتبر ان « اول من ابطل الصف في الحروب وصار الى التعبئة كراديس مـروان بن الحكم في قتال الضحـاك الخارجي والجبيري بعده » ، مستنداً في ذلك الى كلام ورد عـلى لسان الـطبري في تاريخه . ولكن بقية المؤرخين يجمعون على ان خالد بن الوليد هو أول من استعمل التعبئة بالكراديس في اليرموك . ولعل الصحيح هو ما اورده العبادي وزيادة والعدوي في كتابهم : الدولة الاسلامية ، ص ١٠٢ ، من ان القتال عند المسلمين ظل يراوح بين اسلوبي الصف والكراديس الى اواخر العهد الأموي ، حين ابطل مروان بن محمد سنة ١٢٨ هـ قتال الصف وعدل عنه الى قتال التعبئة بالكراديس .

الفرقة اجزاء عشرية ؛ فالعريف يأمر عشرة رجال ، وآمر الأعشار يأمر عشرة عرفاء أي مئة رجل ، وقائد الكردوس يأمر عشرة من امراء الأعشار أي الف رجل .

وكان خالد بن الوليد أول قائد مسلم استخدم نظام الكراديس وعبأ جيشه على أساسه ، حتى اعتبر المؤرخون عمله هذا فتحاً جديداً في الفن العسكري عند المسلمين وسميت التعبئة التي عبّأ جيشه على أساسها باسمه : « التعبئة الخالدية » . وقد فعل ذلك لأول مرة في معركته الشهيرة مع الروم في اليرموك (١١ أيلول سنة ٦٣٤ ميلادية) ، إذ قسم جيشه ثمانية وثلاثين كردوساً كما سيمر معنا ، وقيل ستة وثلاثين ، مع المحافظة أيضاً على « نظام الخميس » في ترتيب الجيش . ولم يتخل المسلمون بعد اليرموك ، وبعد خالد ، عن نظام الكراديس ونظام الخميس مجتمعين فيما خاضوه بعدها من حروب .

وجدير بالذكر ، في ختام حديثنا عن التكتيك في حروب المسلمين ، ان ما مر معنا من نظام الصف والخميس وأشكال التعبئة ونظام الكراديس لم يكن كل منها منفصلاً زمنياً عن الآخر انفصالاً تاما ، فقد كانت « التعبئة » هي الاسم العام الشامل لكل هذه الأنظمة ، وكانت تعني ، كما أسلفنا ، وضع الجيش في وضع القتال . وعرف نظام الخميس مع نظام الصف ، كما عرف مع نظام الكراديس ولازمه . وستتضح معالم التكتيك العسكري الاسلامي في العصر الاسلامي الأول بصورة أكثر دقة وتفصيلاً من خلال درسنا لمعارك خالد بن الوليد في الباب الثاني من هذا الكتاب .

ونرى من المفيد أن نختم بحثنا في هذا الموضوع بوصية الإمام علي (رضي) لجنده يوم صفين (٣٧ هـ) ، فإنها تلخص بإبداع



أشكال التعبئة
إتجاه الخصم
شكل المعيّن أو المربع المنحرف
شكل الهلال المرسل أو الحاد
شكل الهلال المركّب
شكل المثلث
شكل المربع المستطيل
شكل الدائرة المزدوجة
شكل الهلال المقلوب

مبادىء التعليم الفردي للمقاتل في أيام الخلفاء الراشدين ، قال الإمام علي :[1] « . . وقدموا الدارع وأخروا الحاسر[2] ، وعضّوا على الاضراس فإنه انبى للسيوف عن الهام[3] ، والتووا على أطراف الرماح فإنه أموَر للأسنَّة[4] ، وغضوا الأبصار فإنه أربط للجأش وأسكن للقلوب ، واميتوا الأصوات فإنه أطرد للفشل ، ورايتكم فلا تميلوها ولا تخلّوها ، ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم والمانعين الذمار منكم »[5] .

---

(١) وفي رواية أخرى « فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص » (تاريخ ابن خلدون ، جـ ١ : ٤٨٧) .

(٢) الدارع : لابس الدرع ، والحاسر : من لا درع له .

(٣) انبى : من (نبا) السيف ، اذا دفعته الصلابة من موقعه فلم يقطع ؛ والهام : جمع هامة : الرأس .

(٤) التووا : انعطفوا او اميلوا جانبكم لتنزلق الرماح ولا تنفذ فيكم أسنتها . وامور : اشد فعلاً للمور وهو الاضطراب الموجب للانزلاق وعدم النفوذ .

(٥) الذمار : ما يلزم الرجل حفظه وحمايته من ماله وعرضه .

النص اعلاه ، مع شرح المفردات ، مأخوذ عن كتاب (نهج البلاغة) للامام علي ، تحقيق الدكتور صبحي الصالح ، ص ١٨٠ . وفي رواية أخرى ينتهي النص بعبارة (واستعينوا بالصدق والصبر ، فإنه بقدر الصبر ينزل النصر) (تاريخ ابن خلدون ، جـ ١ : ٤٨٧) .

الفصل الخامس

الاستراتيجية

وتسمى ايضاً « السوقية » وهي تعبير حديث العهد في العلم العسكري وباقي العلوم الانسانية ، وان كان يعود ، في اصله اللغوي ، الى عهد موغل في القدم ، الى اليونانية ، فهو مشتق من كلمة (Stratégos) وتعني : فن ادارة الحرب (أو الجنرال او قائد القوات)[1] مما يدل على ان الشعوب القديمة عرفت الاستراتيجية ومارستها - كما مارسها القادة العسكريون القدامى - بالفطرة والحدس ، دون ان تسميها باسمها ؛ او ان تحدد لها قواعد ومبادىء تجعل منها ، كما هي اليوم ، فناً قائماً بذاته . فالاستراتيجية ، اذن ، عسكرية المنشأ والمبتدأ ، بدأت تعبيراً عن فكرة لدى قائد عسكري ، ثم تطورت بتطور العلم والتكنولوجيا وفن الحرب المرتبط بهما ، حتى أصبحت عامة تشمل كل العلوم والأفكار والخطط - العسكرية وغير العسكرية - المعنية بمستقبل دولة من الدول .

---

(١) - Sokolovsky, Stratégie militaire soviétique, P. 22.

وتعرّف الاستراتيجية ، من الوجهة العسكرية ، بأنها « مجموعة الترتيبات والتدابير التي يتوجب اتخاذها ، والاحتراز الذي يجب التقيد به ، بغية سوق جيش الى امام عدو »(١) . ويُعتبر المنظِّر الاستراتيجي الألماني « كارل فون كلوزفيتز Carl Von Clausewitz » أبا الاستراتيجية الحديثة ، وقد عرّفها بأنها « نظرية استخدام المعارك لمصلحة أهداف الحرب وغاياتها»(٢) . كما عرّفها خليفته المنظِّر الاستراتيجي الانكليزي « ليدل هارت » (Liddell Hart) بأنها « فن توزيع مختلف الوسائط العسكرية واستخدامها لتحقيق هدف السياسية»(٣). وعرّفها ، بعدهما الجنرال الفرنسي « اندريه بوفر André Beaufre » بأنها « فن استخدام القوة او الاكراه للوصول الى الأهداف التي حددتها السياسة » أو « فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل نزاع ما »(٤) .

لم تكن الاستراتيجية ، بمعناها الحديث ، معروفة في عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، فهي تعبير مستحدث في قاموسنا العسكري وغير العسكري - كما قدمنا - وانما كانت كلمة « التعبئة » هي التي تعبّر عن كل ما يقوم به الجيش من تحركات استراتيجية وتكتيكية لوضعه في وضع القتال(٥) . وتعني « التعبئة » اليوم معنى يقترب الى حد كبير من

---

(١) - Larousse XXe Siècle. V. 6, (Stratégie).

(٢) - Clausewitz, De la guerre, PP. 118 et 181.

(٣) ليدل هارت : الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، تعريب الهيثم الايوبي ، ص ٣٩٩ .

(٤) - Beaufre, A, Stratégie de l'action, P. 13 note 1.

(٥) انظر معنى التعبئة في ذلك الزمن عند ابن خلدون ، جـ ١ : ٤٨١ . وقد حدد الهرثمي الشعراني صاحب المأمون ، في كتابه « مختصر سياسة الحروب » ، الأصول التي يجب اتباعها (في التعبئة) و(في التعبئة عند وقوع الخوف من المسير) كما يلي ، قال=

مفهوم « الاستراتيجية » بمعناها العام وليس العسكري فقط ، إذ أنها « مجموع العمليات والتدابير التي تؤهل القوات المسلحة في بلد ما لدخول الحرب ، وذلك بتكييف بيئة البلاد الاقتصادية والادارية حسب ضرورات هذه الحرب »[1] . الاّ أننا نستطيع ان نستنتج ، من مسار الأحداث في العصر الاسلامي الأول (أي عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين) ، ما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه من حس استراتيجي متطور يسمح لنا ان نضعهم جميعاً في مرتبة القادة العظام في علم الاستراتيجية الحديث .

وقد تدرّج المسلمون في استخدام الاساليب الاستراتيجية العسكرية تدرجاً تصاعدياً ، في الزمان والمكان ، وفقاً لتطور قدراتهم

= الهرثمي : « اذا كان العدو منك على خمس مراحل او نحوها فلا يكونن مسيرك ونزولك الا على تعبئة » (ص ٢٥) . وقال « اصل اجزاء التعبئة ثلاثة : القلب ويسمونه الجمهور ، والميمنة والميسرة ويسمونها الجنبين ، وطرفا كل جزء من هذه الأجزاء جناح » (ص ٢٦) . وقال : - « اذا كان الخوف في المسير امام العسكر فليسر نصف الميسرة امام الصفوف ، ونصف الميمنة بالأثر ، ثم القلب بالأثر، ثم نصف الميسرة بالأثر ، ثم نصف الميمنة بالأثر . اذا كان الخوف في المسير مما يلي الميمنة ، فلتسر الميمنة امام الصفوف ثم القلب ثم الميسرة . - اذا كان الخوف في المسير مما يلي الميسرة فلتسر الميسرة امام الصفوف ، ثم القلب ثم الميمنة . - اذا لم يعرف الخوف في المسير في أي نواحي العسكر هو فليبث النوافض والطلائع في ارباع نواحي العسكر والناس على مراتبهم ومراكزهم ، وصاحب الجيش في وسط القلب والاثقال (أي امتعة الجند وادوات الحفر واسلحة الحصار الثقيلة) والاسواق والجماعات في خيل كثيفة خلف الصفوف » (ص ٣٠) . وقال : « اقم الحراس بالليل رجّالة حول عسكرك مع كل برج من المصاف (والبرج فيه سبعة رجال) ، وليرفعوا بتحرّسهم اصواتهم . . . اقم الاعساس على قدر نصف غلوة (والغلوة رمية سهم) من المعسكر يدورون به وهم سكوت » (ص ٣٢ - ٣٣) .

(١) -Larousse XXe Siècle. V. 4 (Mobilisation).

وامكاناتهم البشرية والعسكرية ، وتوسعهم في الفتوح ، فانتقلوا من استراتيجية **الدفاع** إلى استراتيجية **الردع فالهجوم** ، مستخدمين الهجوم **كحرب وقائية** من جهة ، وكوسيلة لنشر الدعوة الاسلامية من جهة أخرى ، في الجزيرة العربية اولاً ، ثم في الأقطار المجاورة ، فالبعيدة ، بعد ذلك . وبرع القادة العسكريون المسلمون في معارك الفتوح كافة ، في استخدام الأساليب الاستراتيجية والتكتيكية العسكرية المتفرعة عن استراتيجيتي الهجوم والدفاع، مثل **المناورة بالخطوط الداخلية** واستراتيجية **الثغور والمسالح والحصون** التي انتشرت على حدود الدولة الاسلامية المترامية الأطراف ، وغيرها . ونثبت فيما يلي اهم هذه الاستراتيجيات :

اولاً : استراتيجية الدفاع .

ثانياً : استراتيجية الردع .

ثالثاً : استراتيجية الهجوم (الاقتراب المباشر والاقتراب غير المباشر) .

رابعاً : استراتيجية الحرب الوقائية او الاستباقية (ونقل الحرب الى أرض العدو) .

خامساً : استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية .

سادساً : استراتيجية الثغور والمسالح والحصون .

مفصلين كلاً من هذه الاستراتيجيات على حدة .

اولاً : استراتيجية الدفاع

اعتمد المسلمون ، في المرحلة الأولى من بدء الدعوة الاسلامية ،

استراتيجية الدفاع ، اتقاء لأنفسهم وعقيدتهم من أذى قريش والجاهليين واعتداءاتهم ، اذ انهم كانوا نفراً قليلاً ضعيفاً لا حول لهم ولا قوة ، تجاه قوة قريش وهيبتها وسلطتها على من يلوذ بها ويتبعها من قبائل العرب ، وقد تميّزت استراتيجية الدفاع التي اعتمدها المسلمون في هذه المرحلة بالخصائص التالية :

١ - المرونة :

فقد امر الله تعالى المسلمين ، في المرحلة الأولى من الدعوة ، بدفع المشركين بالحسنى « ادفع بالتي هي احسن » وبالعفو عنهم اذا اعتدوا « فاصفح الصفح الجميل » ، وبهجرهم « هجراً جميلاً » ، وذلك في الآيات الكريمة :

- ﴿ **ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي احسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ (فصلت ٣٤) ، وقد نسخت هذه الآية بآية السيف[1] وقيل انها نزلت بأبي جهل .

﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾ (المزمل ١٠) والهجر ، هنا ، بمعنى التجنب وعدم مقابلة الإساءة بمثلها ، ويقصد بهذه الآية كفّار مكة .

---

(١) آية السيف هي ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هَمَّ قوم ان يبسطوا اليكم ايديهم فكف ايديهم عنكم . . . ﴾ (المائدة ١١) ، وسبب نزولها ان مشركاً أتى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه في حجره فأخذه منه واستله وهَمَّ بقتل الرسول الا ان الله منعه منه فأغمد السيف واعاده الى الرسول (أسباب النزول للسيوطي والنيسابوري) . وآية القتال هي ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾ (البقرة ١٩٠) الا ان هذه الآية نسخت بدورها بالايه ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم . . . ﴾ (البقرة ١٩١) .

- ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ (الزخرف ٨٩) .

- ﴿ ودّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً ، حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، ان الله على كل شيء قدير ﴾ (البقرة ١٠٩) .

وقد نزلت هذه الآيات عندما كثرت اعتداءات المشركين على المسلمين في مكة وخارجها ولم يكن بامكان المسلمين رد الاعتداء بمثله لقلة عددهم وضعفهم ، وهي جميعها ، آيات مكية ، باستثناء ، الأخيرة (البقرة ١٠٩) فهي مدنية ، إلا انها نزلت قبل الأمر بالقتال .

٢ - التدرج :

تدرج المسلمون في دفاعهم المرن من السلبية ، بما تتضمنه من تجنب وعفو وصفح ، الى الايجابية بما تتضمنه من مواجهة ومعاملة بالمثل في رد الاعتداء ، وكان هذا التدرج متناسباً مع نمو قدراتهم وطاقاتهم البشرية والعسكرية وتطورها ، وكانت الآيات الكريمة ترافق هذا النمو والتطور وتتدرج معه في اوامر القتال ، فقد كان القتال محظوراً على المسلمين قبل هجرتهم الى المدينة ، إلا ان الله تعالى امرهم بالقتال بعدها ، فكانت الآية الكريمة : **﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾** (البقرة ١٩٠) اول آية في الأمر بالقتال نزلت على المسلمين ، وكان نزولها بعد هجرتهم . واستمرت هذه الاستراتيجية في التدرج الى ان بلغت حد الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا وذلك في قوله تعالى : **﴿ واقتلوهم حيث**

ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . . . ﴾ (البقرة ١٩١) وقد نزلت هذه الآية بعد ان رد المشركون من أهل مكة النبي ﷺ عن البيت الحرام يوم الحديبية . ثم كان الاذن العام بالقتال **﴿ أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ﴾** (الحج ٣٩) والأمر به وذلك في قوله تعالى : **﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ﴾** (البقرة ١٩٣) وفي قوله : **﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد . . ﴾** (التوبة ٥) ، فكان هذا اعلاناً من الله عز وجل واذنا منه وامراً بالقتال فرضاً على المسلمين .

٣ ـ التشبث بالعقيدة والصدق في تنفيذ الأوامر الالهية

وقد ظهر ذلك جلياً في تصرف المسلمين كافة وسلوكهم طيلة مرحلة الدفاع هذه سواء قبل هجرتهم من مكة الى المدينة او بعدها .

ثانياً : استراتيجية الردع

يحدد الجنرال « اندريه بوفر » مفهوم الردع بأنه يهدف الى منع الخصم من « اتخاذ قرار » باستخدام اسلحة ، او منعه «من العمل او الرد ازاء موقف معين » وذلك بأن تتخذ السلطة الرادعة « مجموعة من التدابير والاجراءات التي تشكل تهديداً كافياً» له[١] . وقد يكون الردع نشيطاً او سلبياً او هجومياً او دفاعياً او مباشراً أو غير مباشر او شاملاً او نسبياً او مطلقاً او محدداً الخ . .[٢] .

---

(١) بوفر : الردع والاستراتيجية ، تعريب أكرم ديري ، ص ٣١ .

(٢) م . ن. ص ٣٢ ، حاشية ١ .

ويصلح تحديد مفهوم الردع الـذي أورده بوفـر لكي يطبق عـلى الحروب الحديثة ، وبالتحديد على النووية منها ، إلا انه يمكن تطبيقه ، ولو على سبيل المجاز وبالمفهوم البسيط للردع ، على حروب الردة في الاسلام ، اذ تعتبر هذه الحروب مثالاً نموذجياً لاستراتيجية الردع في التاريخ الاسلامي ، وفي هذا السياق ، يمكن تصنيف هذه الحـروب ضمن الحروب الهجومية والدفاعية في آن ، فهي حرب هجومية باعتبار ان المسلمين هم الذين بدأوها للقضاء على الفتنة التي ، لو انتشرت ، لقضت على الدين الاسلامي وأخمدت جذوته ، ولا يغربن عن البال ان «الردع وصد الفتنة» (والفتنة هنا بمعنى الشرك كما ورد في تفسير الآيات الكريمة) هما احد اهم غايات الحرب في الاسلام . وهي حرب دفاعية لأن القضاء على المرتدين كان عملاً دفاعياً بحد ذاته ، يهدف الى حماية الاسلام والمسلمين من الفتنة والحؤول دون عودة الشرك الى الجزيـرة العربية التي دخلت في دين الاسلام . وفي كلتا الحالتين ، تعتبر حروب الردة حروباً رادعة تتجـلى فيها خصـائص استراتيجيـة الردع بـأجلى مظاهرها ، وهي استراتيجية ردع نشيط وهجومي وشامل ومطلق ، ثم مباشر من جهة ، باعتباره يردع المرتـدين ويردّهم عن غيّهم ، وغـير مباشر من جهة أخرى باعتباره ينذر الـذين لم يرتـدوا بعد ويفكـرون بالردة ، ويريهم مصير من ارتد قبلهم . وهكذا ، وبهذا المنطق ، يمكن اعتبار حروب الردة التي خاضها المسلمون ضد المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة ، استـراتيجية ردع مبـاشر للمرتـدين انفسهم ، بحيث حطمت ارادتهم ومنعتهم من « استخدام اسلحتهم » كما منعتهم من « العمل » بحرية ضد الاسلام والمسلمين ، وهي استراتيجية ردع غير مباشر لمن لم يرتد من المسلمين الذين لم يستقر الاسلام في قلوبهم بعد ،

بحيث شكلت « تهديداً كافياً » لهم ينبئهم بسوء مصيرهم ان هم ارتدّوا .

ولئن كان الردع يمكن ان يتم بلا عمل ما ، فإن العمل ، بحد ذاته ، يمكن ان يكون رادعاً ، اذ انه يؤمّن دائماً « درجة معينة من الردع تجاه الخصم الرئيس وتجاه طرف ثالث »[1] . وهذا ما قدّره ، ولا شك ، الخليفة ابو بكر (رضي) عندما قرر خوض الحرب الحاسمة ضد المرتدين ، فهو قد قضى على الردة من جهة ، وحال بينها وبين ضعاف الايمان من المسلمين من جهة اخرى ، فكان بذلك من أبرز القادة والمفكرين السياسيين والاستراتيجيين في التاريخ ، وكانت « حروب الردة » من أروع نماذج « استراتيجية الردع » بمعناها العلمي الحديث[2] .

ثالثاً : استراتيجية الهجوم

يعتبر تدرّج المسلمين من استراتيجية الدفاع (السلبي اولاً ، ثم الايجابي) الى استراتيجية الردع فالهجوم ، نتيجة طبيعية ومنطقية لتطور قدراتهم وامكاناتهم البشرية والمادية وبالتالي العسكرية . اذ انه ، ما ان اشتد عضد المسلمين وقويت شوكتهم بانضمام قريش اليهم ، بعد فتح مكة ، وما ان استقر الأمر لهم في الجزيرة العربية بانضواء جميع القبائل العربية تحت لواء الاسلام ، وما ان تمكنوا من القضاء على فتنة الردة وفلول المرتدين ، حتى تحولوا الى استراتيجية الهجوم خارج حدود

---

(١) - Beaufre, Stratégie de l'action, P. 6.

(٢) سوف نعمد الى دراسة حروب الردة ودور خالد بن الوليد فيها ، في فصل قادم من هذا الكتاب .

الجزيرة ، وقد اتخذ الخليفة الأول ابو بكر (رضي) قراره هذا تنفيذاً لرغبة كانت ساورت النبي ﷺ قبله عندما جهّز حملة لغزو الشام بقيادة اسامة بن زيد الا انه توفي قبل انفاذها .

لقد ادرك الخليفة المسلم ، بحسه الاستراتيجي المرهف ، ان بقاء الاسلام محصوراً ضمن حدود الجزيرة العربية يشكل خطراً عليه ، وان نشر رسالة الاسلام لا يمكن ان يتم الا بتجاوز حدود الجزيرة الى الاقطار المجاورة والى أبعد منها ، تنفيذاً لرغبة رسول الله ﷺ اولاً ، ثم عملاً بتعاليم الاسلام التي تأمر بنشر الدين الحنيف على بني البشر جميعاً ، وحماية للرسالة نفسها من التقوقع ضمن حدود الجزيرة ، اذ ان حصرها ضمن تلك الحدود يجعلها عرضة للتدمير من الداخل حيث لم يكن قد مضى زمن طويل على اخماد حركة المرتدين ، كما يجعلها عرضة للضرب من الخارج حيث يتربص الكثير من الخصوم والأعداء بالدين الجديد . فرأى ان أفضل قرار يمكن اتخاذه ، في مثل هذه الحال ، هو ان يدفع بجيوش المسلمين نحو بلاد العراق والشام ، ليقارع بها أعظم امبراطوريتين واقواهما في ذلك العصر ، فارس وبيزنطية ، فكان ان انتقل المسلمون ، بهذا القرار ، من مرحلتي الدفاع والردع الى مرحلة الهجوم ، وكان خيار الخليفة هذا خياراً استراتيجياً يقوم على اعتماد استراتيجية شاملة ومباشرة وبعيدة المدى ، وفقاً للمفهوم الذي قدّمه الجنرال « اندريه بوفر » للاستراتيجية الشاملة بأنها « فن استخدام القوة والاكراه للوصول الى الأهداف التي حددتها السياسة » او « فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل نزاع ما »[1] . ويجب ان لا يغرب عن

---

(١) - Beaufre, op. cit., P. 13 note 1.

البال ان « الاستراتيجية الشاملة المباشرة » هذه، كما اسماها « الجنرال بـوفـر » (Stratégie totale directe) تعتمـد عـلى ارجحيـة العمـل العسكري المباشر ، حيث تعتبر « القوات العسكرية » الوسيلة الرئيسة للوصول الى الهدف[1] (مع عدم اغفال باقي الوسائل غير العسكرية) وهو ما فعله الخليفة ابو بكر في اختياره هذا .

واذا كان لنا ان نحدد القواعـد التي قامت عليهـا الاستراتيجيـة العسكرية وفقاً لنظرية كل من « كلوز ڤيتز » و« ليدل هارت » ، نجد اننا امام نظريتين متباينتين :

الأولى : النظرية التي أطلقها « كلوز ڤيتز » ودافع عنها حتى نسبت اليه ، وتتلخص في اعتبار العنف المادي ، وليس المعنوي ، الـوسيلة الفضلى التي تحقق الغاية من الحرب ، ولن يتم ذلك دون سفك دماء ، فإن « الذي يستخدم ، بلا شفقة ، هذه القوة ، ولا يتراجع امام سفك الدماء ، يتقدم على خصمه ، ان لم يفعل خصمه الشيء نفسه »[2] . ويستنتج كلاوز ڤيتز من ذلك ان « سحق العدو هو هدف الحرب ، وان تدمير قوته العسكرية هو الوسيلة لتحقيق هـذا الهدف »[3] . كـما ان المعركة هي الأساس في « حوار الارادات » وان الهدف السياسي منها هو « اجبار الخصم على تنفيذ ارادتنا » أو « فرض ارادتنا عليه » عن طريق اخضـاعه وقهـره و« نـزع سـلاحـه » كي يصبـح « عـاجـزاً عن ايـة مقاومة »[4] فيستسلم لارادتنا وينفذ قراراتنا ، ومن هنا كانت نـظرية

(١) - Ibid, P. 103.
(٢) - Clausewitz, op. cit., P. 52.
(٣) - Ibid, P. 160.
(٤) - Ibid, P. 51.

كلوزفيتز الشهيرة عن « استراتيجية الهجوم او الاقتراب المباشر » التي تتميّز بأنها **تعتمد اسلوب المواجهة الجبهية المباشرة دون الاعتماد على مفاجأة الخصم .**

الثانية : النظرية التي اطلقها « ليدل هـارت » ودافع عنهـا حتى نسبت اليه ، فقد وقف من نظرية سلفه كلوزفيتز موقفاً معارضاً ، ورأى أن الهدف من الحرب ليس « المعركة بحد ذاتها » حتى ولا « تدمير العدو وسحقه » وانما هو « اعداد الظروف الملائمة للقيام بالمعركة الحاسمة كي تكون الخسائـر أقل والنتـائج افضـل » وهكذا « يمكن الحصـول على التفوق الاستراتيجي بالوصول الى نتيجة حاسمة دون القيـام بمعارك ضارية »[1] فليس من الضروري اذن « أخذ الثور من قرنيه » وذلك بتدمير العدو وسحقه والاكثار من اراقة الدماء « للحصول على نتائج حاسمة او لبلوغ هدف الحرب »[2] بل بالاقتراب منه « بعد ازعاجـه ومفاجأته وبعد زعزعة توازنه بتقرب غير متوقع من قبله نقـوم به من اتجاهات متحولة »[3] أي اعتماد عنصر المباغتة كأساس للتعامل المسلح مـع العدو ، ومن هنـا كانت نـظرية « ليـدل هـارت » الشهيـرة عن « استراتيجية الهجوم أو الاقتراب غير المباشر » التي تتميّز بأنها **تعتمد اسلوب الهجوم من جهة او جهات غير متوقعة لتأمين مفاجأة الخصم .**

أي من الاستـراتيجيتين اعتمـد المسلمـون في هـذه المـرحلة من حروبهم ؟ وكيف ؟

---

(١) ليدل هارت : المصدر السابق ، ص ٤٠٢ .

(٢) م . ن . ص ٤٠٣ .

(٣) بوفر : مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ، تعريب : اكرم ديري والهيثم الأيوبي ، ص ١٥١ .

يبدو لنا ان استراتيجية الهجوم التي اعتمدها المسلمون في هذه المرحلة كانت مزيجاً من الاستراتيجيتين « الكلاوزڤيتزية » و« الليدل هارتية » معاً ، أي مزيجاً من استراتيجيتي « الاقتراب المباشر » و« الاقتراب غير المباشر » .

ويبدو من دراسة الحروب التي خاضها المسلمون سواء في الجزيرة العربية او في العراق والشام ، ان المسلمين اعتمدوا استراتيجية « الهجوم المباشر » او « الاقتراب المباشر » في معظم هذه الحروب ، ولكن ليس ضمن القواعد والمفاهيم نفسها التي وضعها كلوزڤيتز للاستراتيجية العسكرية وأصرّ عليها ، فهم لم يجعلوا من المعركة ، بحد ذاتها ، غاية من غايات الحرب وهدفاً من اهدافها ، ولم يكن استخدام القوة « بلا شفقة » و« سفك الدماء » بهدف « نزع سلاح » الخصم ، افضل وسائلهم « لاجباره على تنفيذ ارادتهم » كما كان يرى كلوزڤيتز ، فهذه نظرة ميكافيلية للحرب لم يكن المسلمون ليرضون بها ؛ فالحرب عندهم وسيلة لا غاية ، وهي وسيلة الى هدف سام ونبيل هو نشر الدين الحنيف ، لذا اتخذت الحرب في الاسلام معنى الجهاد في سبيل الله ونشر دينه على انه « لا اكراه في الدين » . ومن هنا كان على المسلمين ان يعلنوا ، قبل بدء القتال ، الغاية منه ، فيعرضون على الخصم واحداً من ثلاث : الاسلام ، او الجزية (وتعرض على اهل الكتاب دون سواهم) ، أو الحرب . لذا ليس باستطاعتنا القول ان استراتيجية الهجوم المباشر (او الاقتراب المباشر) وفقاً للمفهوم الكلاوزڤيتزي (دون أي تعديل) هي نفسها استراتيجية الهجوم التي اعتمدها المسلمون في حروبهم وفتوحهم في العصر الاسلامي الأول .

لقد تميّزت معظم الحروب التي خاضها المسلمون في الجزيـرة في عهد النبي ﷺ وفي فتوحهم في العراق والشام في عهد الخليفتين ابي بكر وعمر (رضي) بأنها اعتمدت استراتيجية الهجوم المباشر بالمعنى المجرد لتعبير « الهجوم المباشر » مع الكثير من الحالات التي اعتمد فيها اسلوب « الاقتراب غير المباشر » . واذا اردنا ان نفهم العمليات التي قام بها الرسول ، ومن بعده أبو بكر وعمر ، بالمفهوم الحديث للاستراتيجية ، وجدنا ان هنالك كثيراً من الأدلة والشواهد التي تمكننا من ان نضعهم جميعاً في مرتبة القادة العظام في علم الاستراتيجية الحديث . فالرسول عليه السلام ، في حروبه مع قريش وسواها ، ورغم قلة اتباعه في الفترة الأولى من الدعوة ، كان يرغب دائماً ان يظهر امام خصومه قوي الشوكة مرهوب الجانب ، فكان يعمـد الى خطط استـراتيجية فيهـا كثير من العبقرية العسكرية والفن الحربي ، اذ كان يدرس طبيعة عدوه ووضعه ويقابله بوسائل تضمن له دائماً الغلبـة والنصر . وكان لا يتـوانى عن استعمال الحيلة في سبيل بلوغ الهدف ، قائلاً : « الحرب خدعة »[1] كما كان يهمه جداً ان يتقن الوسائل التي تؤمّن له عناصر النجاح في أية عملية يقوم بها ، مثل بث الجواسيس، وارسال طلائع الاستكشاف، وكتمان السر في تحركات جنده حتى عن أقرب الناس اليه من اتباعه احياناً . ويروي ابن هشام، في « سيرة النبي » ﷺ[2] أن رسول الله أمر اهله ان يجهزوه ، فدخل ابو بكر على ابنته عائشـة وهي تحرك بعض جهاز الرسول فقال : « أي بنية . . أأمركم رسول الله ان تجهزوه ؟ » ،

---

(١) النـويـري : نهايـة الأرب ، جـ٦ : ١٧٦ ، وصحيـح مسلم ، جـ ٥ : ١٤٣ ، وصحيح البخاري ، جـ ٤ : ٧٧ .

(٢) جـ ٤ : ١١ .

فقالت : « نعم . . فتجهز » ، قال : « فأين ترينه يريد ؟ » ، قالت : « والله ما أدري » . ثم ان رسول الله اعلم الناس انه سائر الى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » . ويروى كذلك ان النبي ﷺ ، عندما عزم على السير لفتح مكة ، وضع على الطرق الموصلة من المدينة اليها خفراء يمنعون الناس من الخروج لئلا يصل خبر المسلمين الى قريش فتستعد لملاقاتهم ، إلا ان حاطب بن أبي بلتعة عرف بالخبر في أثناء استعداد الرسول للزحف نحو مكة ، فكتب رسالة الى احد اصحابه فيها يخبره بالأمر وأرسلها مع امرأة من المدينة متجهة نحو قريش ، فلما علم الرسول بأمر الرسالة ارسل من استردها من حاملتها وأحضر اليه حاطباً ووبخه ، فاعتذر مؤكداً سلامة نيته فعفا عنه .

ويروى ايضاً ان النبي ﷺ ، لما خرج الى بدر ، أمر أصحابه ان يقطعوا الأجراس من اعناق الابل حتى لا يعلم بها احد[1] .

وبعث النبي ﷺ عبدالله بن جحش في سرية من المهاجرين ، ودفع اليه بكتاب أمره ان لا يفضه إلا بعد يومين من مسيره ، وحين يطّلع عليه يمضي لما أمره به على ان لا يستكره احداً من اصحابه . وبعد اليومين المحددين فتح عبدالله الكتاب فوجد فيه أمر الرسول « اذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصّد بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارها »[2] . ويؤكد الجنرال غلوب[3] « ان

(١) السيرة الحلبية ، جـ٢ : ١٥٨ .
(٢) فرج : السلام والحرب في الاسلام ، ص ١١٥ .
(٣) الفتوحات العربية الكبرى ، تعريب خيري حماد ، ص ٨٨ .

الخطط الاستراتيجية التي اتبعها النبي ﷺ بين عامي ٦٢٣ و٦٣٠ ميلادية هي الخطط الاستراتيجية التي اتبعها فيصل ولورنس في الحملة بين عامي ١٩١٦ و١٩١٨ » .

أوليس فيما تقدم من شواهد دليل ثابت على ان النبي ﷺ اعتمد استراتيجية « الاقتراب غير المباشر » بالمفهوم الذي قصده « ليدل هارت » وبما يعنيه هذا المفهوم من تحريك للقوات نحو العدو مع اعتماد عنصري المبادأة والسرّية للحصول على النتيجة القصوى من خلال تحقيق المباغتة ، وذلك قبل ان يكتشف « ليدل هارت » نظريته في « الاقتراب غير المباشر » ؟

وكان ابو بكر بارعاً في تحريك القوات وجمعها واستخدامها الى حد كبير ، وقد دلّ على ذلك السرعة التي كان يحرك بها الفرق من جيشه سواء في مطاردة المرتدين في الجزيرة العربية او في تحركات هذه الفرق من العراق الى الشام (مسير خالد بن الوليد من العراق الى الشام) او في حروب هذه الفرق في كل من العراق والشام . وكان لحنكته ودرايته ، وما يتمتع به من حس مرهف في قدر المواقف ، الفضل الأول في صمود الدين الاسلامي في الجزيرة وانتشاره خارجها حرباً ام سلماً ، اذ كان يكفي ان يشعر ، بوعي القائد المدرك ، ان الفرق التي ارسلها لقتال الروم في الشام غير قادرة على الحركة ، وبالتالي على الانتصار ، حتى يسرع في اعطاء الأمر لخالد بالتحرك نحو الشام لنجدة تلك الفرق ، فيحقق بقراره هذا ثلاثة امور عادت على المسلمين بالنصر وهي : توحيد جيش المسلمين في الشام ، وتوحيد قيادة هذا الجيش بإمرة خالد ، وتغيير نظام التعبئة[1] .

---

(١) فيصل ، شكرى ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، ص ٤١ .

وكانت مسيرة خالد بن الوليد من العراق الى الشام أبرع حركة استراتيجية يمكن ان يقوم بها قائد على الاطلاق في ذلك الحين ، بالاضافة الى أنها أمّنت نموذجاً رائعاً من نماذج « الاقتراب غير المباشر » في التاريخ .

ولم يقصِّر عمر في هذا المجال اطلاقاً وهو الذي كان يكفيه ان يصف له قائد جيشه العدو وارض المعركة حتى يصدر القرار الملائم . فقد كان الفاروق يطلب من قادته ، وهم البعيدون عن المدينة ، مركز القائد الأعلى ، ان يصفوا له بالتفصيل عدوهم الذي عليهم ان يواجهوه ، عدداً وعدة وقادة ومستوى معنوياً ، ويصفوا له أرض المعركة وطبيعتها ، حتى اذا درس الوصف المرسل اليه استطاع ان يقرر خوض المعركة او تجنبها .

لقد تسلم عمر الخلافة وجيوش المسلمين في العراق والشام ، فتابعت هذه الجيوش فتوحها بتوجيه منه ، ثم ما لبث ان وجّه الجيوش الاسلامية لفتح فارس ومصر وشمال افريقية ، فكان يسيّر تلك الجيوش الى الحرب ويبعث الأوامر الى قادتها في مختلف الجبهات ويحرك القوات من اقليم الى آخر ومن جبهة الى اخرى بسرعة ودراية فائقتين ، مما يؤكد عمق ادراكه لمفهوم الاستراتيجية العسكرية ، وتطبيقه لها ، وكان يدير المعارك وهو في موقعه بالمدينة كأنما رسمت امامه مواقع القتال رسماً ، فيقيّم الوضع العسكري لجيوشه وللعدو على كل جبهة ، ثم يصدر اوامره وتعليماته وفقاً لهذا الوضع ، كأنما هو مع تلك الجيوش يشهد قتالها ويراقب مناوراتها .

ويعتبر خالد بن الوليد ، بين القادة المسلمين ، اكثرهم تطبيقاً

لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر في معاركه ، فقد طبقها في « أُحُد » ضد المسلمين عندما فاجأهم من الخلف بعد ان ترك الرماة مواقعهم ، وفي « مؤتة » عندما سحب جيش المسلمين من مواجهة الروم بحيلة بارعة ، وفي مسيره من العراق الى الشام واجتيازه الصحراء ليفاجىء الروم من جهة لم يتوقعوها ابدا ، وفي الحركة الافراجية التي طبّقها ضد الروم في اليرموك فكانت من أهم اسباب انتصاره الحاسم عليهم ، وفي غير ذلك من المعارك[1] .

رابعاً : استراتيجية الحرب الوقائية او الاستباقية (ونقل الحرب الى ارض العدو)

تعتبر الحرب الوقائية او الاستباقية احد اهم الأسس التي تقوم عليها استراتيجية الهجوم المباشر ، وذلك لأنها تعتمد الهجوم المباشر اساساً للمحافظة على المبادأة والمفاجأة ، كما تعتبر الطريقة المثلى لمنع العدو المحتمل من اخذ المبادرة بالهجوم ، وذلك بمبادرته بالهجوم ونقل الحرب الى ارضه .

كان المسلمون محصورين في الجزيرة العربية ، تحيط بهم ، وعلى تخومهم ، امبراطوريتان واسعتا الارجاء قويتا الشكيمة ، هما : فارس وبيزنطية ، ولا شك في ان هاتين الامبراطوريتين بدأتا تنظران الى الدين الجديد الذي هيمن على الجزيرة نظرة الخوف والحذر والريبة ، وكان من المحتمل جداً ان تبدأ أي منهما بشن الحرب على المسلمين في ارضهم ،

---

(١) سوف نرى تفصيلاً لهذه المعارك في الفصول التالية من الكتاب .

لذا كان من المنطقي والمعقول ان يبادر المسلمون بشن الحرب على معاقل الفرس والبيزنطيين في العراق والشام .

واذا استثنينا عاملين رئيسين في التحرك العسكري للمسلمين نحو العراق والشام هما : مطلب « الجهاد » لنشر الاسلام خارج حدود الجزيرة ، وهو مطلب عقيدي يدخل في جوهر الدعوة الاسلامية ، ثم الرغبة في « تحرير » هذين القطرين من الاحتلال (الفارسي والبيزنطي) ، لبقي لدينا عامل ثالث هام ورئيس في هذا التحرك العسكري المصيري والحاسم ، وهو : اعتبار الدولتين الكبيرتين القائمتين على تخوم الجزيرة مصدر خطر مباشر على الدين الاسلامي ، فيكون هذا الاعتبار احد مبررات نقل الحرب الى أرضيهما ، قبل ان يستفحل خطرهما .

ولكن من شروط الحرب الوقائية (او الاستباقية) ان يكون الخطر المتوقع من العدو المهاجَم (بفتح الميم) خطراً اكيداً ووشيك الوقوع بحيث انه اذا لم تشن هذه الحرب عليه كان هو البادىء بها ، فهل كان هذا هو الوضع بالنسبة الى الفرس والبيزنطيين ؟

يبدو ان الجواب بالنفي هو الأقرب الى الحقيقة والواقع ، اذ انه لم تكن هناك دلائل تشير الى هجوم قريب او متوقع من الفرس او البيزنطيين ، او من كليهما ، على المسلمين في الجزيرة ، كأن يكون هناك حشد للجيوش على تخومها ، او ما شابه ، لذا ، فإن اعتبار هذه الحرب حرباً وقائية (أو استباقية) يأتي في المرتبة الثالثة بعد الاعتبارين المذكورين آنفاً وهما : الأمر بالجهاد لنشر الدين الاسلامي ، وتحرير كل من العراق والشام من الحكمين الفارسي والبيزنطي . إلا أن صفة

« الحرب الوقائية » تظل قائمة طالما ان الهجوم كان محتمل الوقوع من قبل الامبراطوريتين المذكورتين .

خامساً : استراتيجية المناورة بالخطوط الداخلية (Manoeuvre par lignes intérieurs)

تتلخص استراتيجية « المناورة بالخطوط الداخلية » بما يلي :

اذا وجد جيش في مركز يوجب عليه التصدي لقوى عدوة آتية من اتجاهات مختلفة ، فإنه يعتمد استراتيجية « المناورة بالخطوط الداخلية » على الشكل التالي[1] :

أ ـ يختار عدواً واحداً (محوراً واحداً) كهدف اول ورئيس ، ويضع قبالة بقية الأهداف (المحاور) قوى صغيرة للمشاغلة تكون مهمتها مراقبة هذه الأهداف وعرقلة تقدم العدو على تلك المحاور بغية كسب الوقت ثم اعتماد المناورة التراجعية اذا اضطرت الى ذلك .

ب ـ يهاجم الهدف الأول فيقضي عليه ، ثم يراقب فلول العدو المتبقية على ذلك المحور بنقاط مراقبة .

ج ـ يعود فيقضي ، بالتتابع ، وبالطريقة نفسها ، على بقية الأهداف القائمة على باقي المحاور .

وتعتبر المناورة التي قام بها خالد بن الوليد ضد الروم ، عند وصوله بجيشه الى الشام ، تطبيقاً لهذه الاستراتيجية ، فهو قد كان امام جيشين للروم :

---

(١) - Bernard, Leçons d'Histoire militaire, T1 P. 64.

ـ الجيش الأول : في فلسطين ، بقيادة سرجيوس .

ـ والجيش الثاني : في انطاكية ، بقيادة تيودور اخي هرقل .

فقام بمناورته الاستراتيجية البارعة بأن وجّه ضربته الأولى نحو جيش سرجيوس في فلسطين قبل ان يتمكن الجيش الثاني من نجدته ، مخلفاً في وجه هذا الأخير بعض القوى لمراقبته وعرقلة تقدمه فيما اذا فكر بالتقدم ، فحرر بذلك جيش عمرو بن العاص الذي كان مرابطاً في فلسطين ، ثم تقدما معاً ، الى اليرموك ، حيث كان قد حشد الجيوش الاسلامية للمعركة الفاصلة ، (وسنأتي على ذكر ذلك عندما نتحدث عن معركة اليرموك) .

سادساً : استراتيجية الثغور والمسالح والحصون

وهي استراتيجية دفاعية اعتمدها المسلمون في فتوحهم ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب اول من طبقها ، فكان اول خليفة مسلم إنشأ الثغور والامصار والحصون على حدود الدولة الاسلامية وفي اماكن استراتيجية هامة ، واقام فيها جيوشاً تحمي هذه الدولة من اي عدوان من خارج الحدود من جهة ، وتحتشد استعداداً لمتابعة الفتوح خارج حدود هذه الدولة من جهة اخرى . فهو الذي امر بانشاء البصرة والكوفة في العراق ، وكذلك الفسطاط في مصر . وكان يبثّ الأوامر الى قادته في مختلف الأمصار والأقاليم ، ويحرك القوات من إقليم إلى آخر وفقاً لاستراتيجية عسكرية بارعة . والجدير بالذكر انه منع جند المسلمين في هذه المواقع من تعاطي الأعمال الزراعية كي لا يستقروا

فيها فتثبط همتهم عن القتال . ومع ذلك كان لا بد من ان يستقر قسم من هؤلاء الجند في تلك المواقع ، الأمر الذي ادى الى استمرار هـذه « المعسكرات » في النمو حتى اصبحت مدناً ذات شأن في الامبراطورية الاسلامية[1] .

وهكذا يتبين لنا ان الاستراتيجية العسكرية فن عرفه الرسول ﷺ والخلفـاء والقادة العسكـريون المسلمـون في العصر الاسلامي الأول وطبقوه بمهارة وان لم يسموه بإسمه الحديث ..

(١) خدوري ، مجيد ، الحرب والسلم في شرعة الاسلام ، ص ١٢٦ .

الفصل السادس

مبادىء عامة في القتال

يجدر بنا ، قبل أن نختم البحث في موضوع الفن العسكري عند العرب في العصر الاسلامي الأول ، أن نشير ، ولو بإيجاز ، الى المبادىء القتالية العامة التي كان المسلمون يعملون بها في ذلك العهد ، مع ملاحظة أن ما سوف نسوقه من مبادىء وشواهد عليها إن هو إلا على سبيل المثال لا الحصر ، تاركين التبسط في هذا الموضوع لدراستنا الكاملة عن معارك خالد بن الوليد الذي يمثل بسلوكه العسكري الفن المتطور للحرب عند العرب المسلمين في ذلك الحين .

حشد القوى :

حرب الجماعة او حرب (الأمة المسلحة) :

كانت الظروف التي عاشها النبي ﷺ في ابان دعوته ، وعاشها بعده خليفته الأول أبو بكر خلال حروب الردة ، قاسية تتطلب الكثير من الجهد والمعاناة ، وكان يتوقف على مصابرة المسلمين ومثابرتهم ، في

تلك الحقبة الحرجة من حياتهم ، نجاح الدعوة الاسلامية وانتشارها ، حرباً أم سلماً . ومن هنا كان حشد قوى المسلمين أمراً ضروريا ولازماً لمقاومة القوى التي أجمعت على قتال النبي أو التي ارتدت على الإسلام . ولا شك في أن النبي قد استعمل مبدأ « حشد القوى » طيلة صراعه مع خصومه في الجزيرة ، فكان ، بعد أن نزلت الآية الكريمة التي أذنت للمسلمين بالقتال ، يدفع الى المعركة بكل المسلمين القادرين على حمل السلاح دون استثناء . وكان يحضهم على القتال حضاً ويدفعهم إليه دفعاً ، حتى أن الله عز وجل لام المتخلفين منهم والمتقاعسين وهددهم بعذاب أليم ، ومنع الرسول من الصلاة عليهم إذا ماتوا . قال عز وجل[1] ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . لو كان عَرَضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون** ﴾ (التوبة ٤١ و٤٢) . وقال : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ (التوبة ٤٦) . وقال : ﴿ **ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ (التوبة ٨٤) . الى أن قال : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ (التوبة ٨٧) . وقد حشد النبي ﷺ في غزواته ضد المشركين أقصى ما عنده من وسائل ، فبينما نراه يحشد في بدر (٢ هـ) ثلاثمائة مقاتل فقط ، إذا بهذا الحشد

---

(١) انظر الآيات الكريمة التي تتضمن هذه المعاني بالذات في سورة التوبة من الآية ٣٨ حتى الآية ٨٧ .

يرتفع في أحد (٣ هـ) الى ألف مقاتل ، وفي مؤتة (٨ هـ) الى ثمانية آلاف مقاتل ، حتى يصل في فتح مكة ، وفي السنة نفسها ، الى عشرة آلاف مقاتل .

بوسعنا أن نستنتج مما تقدم أن المسلمين عرفوا ، في عهد النبي ﷺ وبعده ، حرب الجماعة أو حرب (الأمة المسلحة) كما عرّفها الفقهاء العسكريون المحدثون ، بدليل ما جاء في الآية الكريمة التي سبق ذكرها : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** . . . ﴾ . . . الى آخر الآية ، وقد جاء في تفسيرها ان الله أمر المسلمين أن ينفروا الى القتال « خفافاً وثقالاً . . . » ، أي « ركباناً ومشاة ، أو شباباً وشيوخاً ، أو مهازيل وسماناً ، أو صحاحاً ومراضا »[1] . وقد نفروا بالفعل إليها كما أمرهم الله في كتابه الكريم .

ولم يترك أبو بكر مسلماً إلا جنّده لقتال الذين ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي سنة ١١ هـ . ويتضح لنا ذلك من الجيش الذي جهزه لهذا الغرض والذي عقدت ألويته لأحد عشر قائداً منهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص . ويكفي ان نذكر أن جيش خالد الذي توجه به لقتال مسيلمة الكذاب سنة ١٢ هـ قد بلغ زهاء

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ، جـ٢ : ٣٤ . وجاء في المصدر نفسه « عن صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو ، فقلت : يا عم ، لقد أعذر الله اليك ، فرفع حاجبيه وقال : يا ابن أخي ، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ، ألا إنه من يحبه الله يبتله . وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب الى الغزو وقد ذهبت احدى عينيه ، فقيل له : انك عليل صاحب ضرر ، فقال : استنفرنا الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكني الحرب كثّرت السواد ، وحفظت المتاع » .

عشرة آلاف مقاتل لنعرف مدى الحشد الذي أعده أبو بكر لهذه الحرب ، رغم أن الاسلام كان قد خسر عدداً كبيراً من المقاتلين الذين ارتدوا عنه . وحشد أبو بكر لفتح العراق جيشاً مؤلفاً من ثمانية عشر ألف مقاتل تمكن من تجهيزها بعد انتهائه من حروب الردة مباشرة ، كما حشد لفتح الشام في الوقت نفسه زهاء عشرين ألف مقاتل .

وأما عمر فنعلم انه أول من جعل التجنيد في الاسلام إلزامياً فرضاً على كل (مسلم بالغ حر عاقل قادر) . كما أمر عماله بأن لا يدعوا أحداً له فرس أو سلاح أو نجدة أو رأي إلا وجهوه إليه ، « والعجل العجل » .

الاستكشاف والحيطة :

لقد عرف المسلمون في حروبهم ، منذ عهد النبي ، نظام الطلائع والريادة والحراسة والعسس . فالطلائع فرق تتقدم الجيش لتستكشف العدو وتقتفي أثره ، والرائد من يرتاد المكان الذي يقرر الجيش أن ينزل فيه ليختار له بقعة النزول ، أو الذي يتقصّى أخبار العدو ، والحراس جنود يحرسون الحمى أو الجيش ليلاً أو نهاراً ، وهم الخفراء بالمفهوم العسكري الحديث ، أما الاعساس فهم حراس الليل المتخفون المموهون . وفي ما وصل الينا من سيرة النبي وخلفائه الراشدين أمثلة عديدة على ذلك . فقد روي أن النبي ﷺ امر عبدالله بن جحش أن يذهب في سرية من المهاجرين حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف كي يترصد قريشاً ويأتيه بأخبارها[1] ؛ كما أوصى اسامة بن يزيد ، عندما سلمه قيادة حملة مؤتة الثانية (وكان أبوه زيد قد قتل في الحملة

---

(١) فرج ، السلام والحرب في الاسلام ، ص ١١٥ .

الأولى) ، بقوله : « . . . وخذ معك الأدلاء ، وقدم الطلائع أمامك . . . »[1] .

ولما أرسل النبي سرية بقيادة ابن سلمة بن عبد الأسد للاغارة على بني أسد أمر قائدها أن يختفي بقواته نهاراً ويسير بها ليلاً كي لا يكتشفه العدو ، وأن يسلك في تقدمه طريقاً غير مطروقة كي يفاجىء العدو بها .

وفي وقعة ذات السلاسل رغب بعض المسلمين إيقاد نار ليستدفئوا بها ، فمنعهم عمرو بن العاص عن ذلك ، ولما شكوه الى الرسول أجاب عمرو : « كرهت ان آذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوهم قلتهم فيعود إليهم »[2] .

واوصى ابو بكر خالد بن الوليد حين وجّهه لقتال اهل الردة بقوله : « . . . اذا دخلت ارض العدو فكن بعيداً عن الحملة . . . واستظهر بالزاد ، وسر بالادلاّء . . . »[3] .

كما روي انه لما بعث ابو بكر خالد بن سعيد في اول حملة الى الشام لمقاتلة الروم ارسل هذا الأخير « الرسل والرواد ترتاد اخبار الروم وتأتيه بما يعملون ، فعلم ان جيشاً رومياً يشد ازره متطوعون عرب يتجمع في عمان بقيادة البطريق ماهان (او باهان) ، قائد الروم في البلقاء ، لمهاجمة تيماء . . . »[4] .

---

(١) سعيد ، أمين ، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٦٣ .
(٢) فرج ، م . ن . ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٣) النويري ، نهاية الارب ، جـ ٦ : ١٦٨ .
(٤) سعيد ، أمين ، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٦٣ .

وأوصى عمر بن الخطاب سعد بن ابي وقاص ، احد قادته ، بما يلي : « اذا وطئت ارض عدوك فأذك العيون بينـك وبينهم ولا يخف عليك من امرهم شيء . . . وليكن منك عند دنوك من ارض العدو ان تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقـطع السرايـا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع اهل البأس والرأي من اصحابك ، وتخـيَّر لهم سوابق الخيـل » . الى ان يقول : « فـإذا عاينت العدو فاضمم اليك اقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوّتك . . . ثم أذك حـراسك عـلى عسكرك ، وتحفّظ من البيات جهدك »[1] .

إخفاء النيات عن العدو والمباغتة :

كان الرسول ﷺ يجهد في ان يخفي عن العدو نياته كي يباغته ، كما سبق ورأينا في إعداده لفتح مكة . وقد حرص خلفاؤه وقادة الجيوش الاسلامية بعده على هذا السلوك ، ففي معركة (البويب) مثـلاً ، أمر المثنى بن حارثة الشيباني رجاله ان يلزموا الصمت في تحركهم . ولما اراد احتلال بغداد أوهم المرزبان ، وكان بإمرته ، انه يريد الاغارة على المدائن وطلب منه دليلاً ، فأرسل اليه المرزبان دليلاً يدله على طريق المدائن ، ولما وصل المثنى الى منتصف الطريق وعلم ان المسافة بينه وبين المدائن وبغداد متساوية امـر جيشه فجـأة بالاتجـاه نحو بغـداد وإلقاء القبض على كل من يصادفه الجيش في طريقه كي لا يصـل خبره الى عدوه .

---

(١) الخضري ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ، جـ ٢ : ١٣٦ ـ ١٣٧ .

وفي معركة (بابليون) تقدم الزبير بن العوام لاحتلال هذا الحصن المنيع تحت جنح الظلام ، ثم تسلقه بسريّة تامة وبواسطة السلالم . وفوجىء الروم بالزبير على الحصن يكر وسيفه في يده بينما كان رجاله يتسلقون السور من كل مكان . واسقط في يد الروم للمباغتة وطلبوا الصلح اثر ذلك[1] .

المناورة وشل نيران العدو :

ويظهر ذلك واضحاً في معظم غزوات النبي ﷺ ومعارك قادة المسلمين في عهده وعهود خلفائه بعده ، ونذكر منها ، على سبيل المثال لا الحصر ، المناورة البارعة التي قام بها خالد بن الوليد في وقعة مؤتة ، وعملية (الشل) التي قام بها رماته في وقعة ذات العيون بالعراق ، والحركة الافراجية التي نفذها بالنسبة الى فرسان الروم في اليرموك ، وسنذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد .

السرعة والاستمرار :

وقد برز ذلك ، اكثر ما برز ، في حروب المرتدين بالجزيرة، وفي مسير خالد من العراق الى الشام ، ثم في حروبه مع الروم بالشام .

تحديد المهمة وتوزيع المهمات :

وتجلى ذلك في التحديد الدقيق الذي وضعه النبي ﷺ لمهمة الرماة في أُحُد ، وسنثبتها عند درسنا لهذه المعركة ، وقد كان عدم تقيدهم بها سبباً لهزيمة المسلمين في هذه الوقعة ، كما تجلى في المهمات الواضحة التي

(١) فرج ، السلام والحرب في الاسلام ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

حددها ابو بكر للفرق الأربع التي توجهت لفتح الشام بعد حروب الردة . ويمكن تلخيص المهمات التي اوكلت الى هذه الفرق بما يلي :

الفرقة الأولى ـ يزيد بن ابي سفيان : احتلال مدينة دمشق ، ومساعدة الفرق الأخرى والعمل بالتساند معها .

الفرقة الثانية ـ شرحبيل بن حسنة : منازلة الروم في البلقاء[1] على محور تبوك ـ البلقاء ـ بصرى ، واحتلال بصرى .

الفرقة الثالثة ـ عمرو بن العاص : منازلة الروم في فلسطين واحتلال ايلياء (القدس) .

الفرقة الرابعة ـ ابو عبيدة بن الجراح : التقدم على محور معان ـ مآب ـ الجابية ـ حمص ، واحتلال حمص[2] .

---

(١) البلقاء : كورة من اعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قبتها عمان (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٢ : ٢٧٦) ؛ ووادي القرى : واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر وفيه قرى كثيرة (ياقوت ، م . ن. جـ ٢ : ٣٦٥) .

(٢) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ياقوت ، م . ن . جـ ٨ : ٩٣) .

ـ مآب : مدينة في طرف الشام ، من نواحي البلقاء (ياقوت ، م . ن. جـ ٧ : ٢٤٩) .

ـ الجابية : قرية من اعمال دمشق ، ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمال حوران (ياقوت ، م . ن. جـ ٣ : ٣٣) .

ـ الجيدور : كورة من نواحي دمشق فيها قرى ، وهي في شمال حوران ، ويقال انها والجولان كورة واحدة (ياقوت، م . ن. جـ ٣ : ١٨٨) .

الفرقة الخامسة ـ عكرمة بن ابي جهل : احتياط في المدينة[1] .

حماية المؤخرة وحماية خط الرجعة :

كان النبي ﷺ وخلفاؤه يصرون دائماً على قادة جيوشهم بوجوب تأمين هذه الحماية . فقد كانت مهمة الرماة في أُحُد ، كما حددها النبي ﷺ لقائد الرماة : « إنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا » . وكانت اوامر ابي بكر الى خالد بن سعيد بن العاص ، عندما اوفده الى الشام في اول حملة له لمقاتلة الروم « ان لا يتجاوز تيماء . . وان لا يوغل كثيراً في تقدمه ، وان يحافظ على خط رجعته فلا يهاجمه الروم من الوراء ويجعلونه بين نارين » . إلا ان خالداً وقع في المحذور وغره انتصاره على ماهان ، اذ تراجع هذا الأخير أمامه خداعاً ، فتبعه خالد مطارداً إياه وهو يظن ان ماهان مهزوم وانه لمنتصر ، ولم يفكر ان يحمي خلفه وان يؤمن لنفسه الرجعة . وتوغل في بلاد الشام حتى مرج الصفر ، فإذا بجيوش الروم تطبق على خالد من الخلف وتكاد تفنيه وجيشه لولا وصول عكرمة بن ابي جهل بامدادات كثيرة انقذت خالداً وجيشه بعد ان تكبد خسائر فادحة . وكتب الخليفة ابو بكر الى خالد بن سعيد يعزله عن القيادة ويقول له : « اقم مكانك ، فلعمري انك مقدام محجام ، نجاء من الغمرات لا تخوضها الى حق ولا تصبر عليه » . وامره ان لا يدخل المدينة كي لا يعرف الناس بهزيمته فتتأثر معنوياتهم[2] . وهكذا فقد ادى عدم تقيد خالد بن سعيد بأوامر ابي بكر الى هزيمته وجيشه هزيمة نكراء ، تماماً كما ادى عدم تقيد رماة أُحُد بأوامر النبي الى مثل هذه الهزيمة .

---

(١) سعيد ، أمين ، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٩١ ـ ٩٣ .

(٢) م . ن . ص ٦٢ ـ ٦٥ .

وفي وقعة (الولجة) بالعراق امر خالد بن الوليد سويد بن مقرِّن ان يحمي له ظهره في اثناء اشتباكه مع بهمن بن جاذويه .

تموين الجند وتسليحهم :

لم يكن تموين الجند وتسليحهم يشكل عقبة في طريق تجهيز الجيش الاسلامي او هاجساً من الهواجس التي تشغل بال قادته كما هي الحال في الجيوش الحديثة ، فكل ما كان يلزم المقاتل المسلم في قتاله اشياء ثلاثة : الطعام والسلاح له ، والعلف لحصانه او جمله . اما الطعام فكان من التمر واللبن ولحوم الابل وما تنبته الأرض التي ينزلها الجند من فواكه وخضار ، واما السلاح فقد سبق وعرفناه .

وكانت تكاليف التجهيز بالطعام والسلاح في عهد النبي وخليفته الأول ابي بكر على عاتق المقاتل نفسه ، الذي كان عليه ان يؤمن لنفسه السلاح والزاد والمتاع والفرس وعدة الركوب (اذا رغب ان يكون فارساً) ، يحمل كل ذلك معه الى الحرب . وكان عليه امر صيانة سلاحه ومتاعه وفرسه . إلا انه كان على الغني ان يساعد الفقير في تجهيز نفسه للحرب ، فكان الموسرون من اصحاب الرسول يساعدون فقراء المسلمين في شراء ما يحتاجونه من عدة للقتال . وقد ظل الأمر على هذه الحال حتى عهد الخليفة عمر الذي نظم الجيش الاسلامي ، كما قدمنا ، تنظيماً حديثاً ، فأصبح نقل المقاتل وتموينه من واجبات الدولة وتقع نفقاتها على عاتق بيت مال المسلمين . اما توفير السلاح والفرس وصيانتها فبقيا على عاتق المقاتل نفسه ، يشتريها ويصونها من راتبه الذي يتقاضاه مع ما يلحق هذا الراتب من اضافات سبق وبيناها ، اذا كان المقاتل فارساً .

ولكن ملكية المقاتل لسلاحه وفرسه لم تكن تمنع الدولة من اعتبار الرقابة على هذه التجهيزات الحربية حقاً من حقوقها كانت تمارسه بصورة مستمرة وخاصة على خيول الفرسان ، بحيث كانت تراقب باستمرار عناية هؤلاء الفرسان بخيولهم ، فتحرمهم من المزايا التي كانت لهم اذا ثبت اهمالهم .

آداب القتال :

وللقتال عند المسلمين آداب رسمها القرآن في بعض آياته ، والنبي ﷺ في احاديثه ووصاياه الى قادته ، ومشى عليها خلفاؤه من بعده ، ونذكر منها :

الثبات في القتال ، وعدم الفرار من أمام العدو او الانحراف عنه الا لمناورة ، قال تعالى : ﴿ **يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره ، إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ (الأنفال ، الآيتان ١٥ و١٦)[١] .

قتال الأعداء حتى يسلموا او يعطوا الجزية (ان كانوا من اهل الكتاب) ، فإن اسلموا أو أعطوا الجزية فلا يجوز قتالهم بعد ذلك . ففي حديث عن ابي هريرة ان النبي ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله تعالى »[٢] . وقال تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين**

---

(١) وقال ابو حنيفة ان على المؤمن ان يقاتل ما امكنه ، وينهزم اذا عجز أو خاف القتال (الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٥) .

(٢) ابن حنبل ، المسند ، جـ ١ ، حديث رقم ١٧ و٦٧ و٢٣٩ و٣٣٥ .

لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (التوبة ٢٩) .

عدم الطمع في الغنائم ، قال تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغلّ ، ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة . . . ﴾ (آل عمران ، ١٦١)[١] . وروي عن النبي انه قال : « انهوا جيوشكم عن الفساد ، فإنه ما فسد جيش قط الا قذف الله في قلوبهم الرعب . وانهوا جيوشكم عن الغلول ، فإنه ما غل جيش قط الا سلّط الله عليهم الرّجلة »[٢] . كما روي عنه انه قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يدٌ على من سواهم ، ويَرُدّ مُتَسَرِّيهم على قاعديهم » . ويفسر ابن تيمية قول النبي ﷺ (ويرد متسريهم على قاعديهم) بأن جيش المسلمين « اذا تسرّت منه سرية فغنمت مالاً فإن الجيش يشاركها فيما غنمت ، لأنها بظهره وقوّته تمكنت . . . وكذلك لو غنم الجيش غنيمة شاركته السرية ، لأنها في مصلحة الجيش . كما قسم النبي ﷺ لطلحة والزبير يوم بدر لأنه كان قد بعثهما في مصلحة الجيش »[٣] .

عدم قتل الجرحى والأسرى وعدم مطاردة الفارين ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال يوم فتح مكة : « ألا لا يجهزن على جريح ولا يتبعن مدبر ولا يقتلن أسير ، ومن أغلق بابه فهو آمن » . رواه عبد

---

(١) غل غلولاً : الخيانة في المغنم .

(٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٤ ، والرجلة : الخسران .

(٣) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٩٥ - ٩٦ ، والمتسري هو الذي يخرج في السرية ، وهي طائفة من الجيش اقصاها اربعماية تبعث الى العدو . . . وجمعها سرايا (المصدر نفسه ، ص ٩٥) .

الرزاق في الجامع الكبير في الحديث ، وابن ابي شيبة والبيهقي [1] .

احترام قتلى الأعداء وعدم التمثيل بجثثهم ، وترك المجال لهم كي يدفنوا قتلاهم . ولا يوجب الفقهاء دفن قتلى العدو ، ولكن يدفن المسلمون قتلى العدو عند الضرورة ، كما يمكن ان يعينوا العدو على دفن موتاه . وقال بعض الأئمة : « يجب دفن قتلى العدو احتياطاً ، وهو حسن »[2] . كما ان الاسلام حرّم التمثيل بجثث الأعداء بعد قتلهم وقطع رؤوسهم ورفعها على سنان الرماح كما كان يحدث في الجاهلية .

جواز المن او الفداء للاسرى ، قال تعالى : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب اوزارها . . .** ﴾ (محمد ، الآية ٤) . والمن ، في اصطلاح الفقهاء ، تخلية سبيل الأسير واطلاق سراحه الى بلاده بغير شيء يؤخذ منه . ويجيز جمهور الفقهاء المن على الاسرى ، ما عدا الحنفية فيمنعون ذلك الا بشروط [3] . وأما الفداء فهو تبادل الاسرى واطلاق سراحهم بعوض . ويجيز جمهور الفقهاء فداء الأسرى ، أما الحنفية فلا يجيزون الفداء بمال[4] .

الكف عن القتال ، اذا كف الأعداء عنه ، وقبول السلم ان طلبوه . قال تعالى : ﴿ **فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾

---

(١) الزحيلي ، آثار الحرب في الفقه الاسلامي ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ الا ان بعض الفقهاء يجيزون اعدام الاسرى اذا كان فيه مصلحة للمسلمين (ابو يوسف والشافعي) .

(٢) م . ن . ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ و٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٣) م . ن . ص ٤٢٣ ـ ٤٢٥ .

(٤) م . ن . ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

(البقرة ، ١٩٣) . وقال : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها . . . ﴾ (الانفال ، ٦١) .

الموازاة في القتال بين العدوان والقصاص ، اذ لا يصح رد الاعتداء إلا بقدر الاعتداء نفسه ، قال تعالى : ﴿ . . . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . . . ﴾ (البقرة ، ١٩٤) .

منع اتلاف أموال العدو ، او التعرض لشيوخه ونسائه واطفاله بسوء .. فلا يحل في الاسلام قتل الذين لا يقاتلون ولا الاعتداء على اموال المسالمين . كذلك لا يجوز قتل من لم يبلغ الحلم[١] . ولا يُقتل النساء ولا الصبيان ، ولا الزمنى ولا العميان ، ولا الرهبان الذين لا يقاتلون[٢] ، ولا يُقتل الا من جرت عليه المواسي[٣] . وروي ان النبي ﷺ رأى الناس في احدى غزواته مجتمعين ، فسأل عن الخبر فقيل له « امرأة قتيل » ، فقال : « ما كانت هذه لتقاتل » . وكان على مقدمة الجيش خالد بن الوليد ، فبعث إليه زجلاً يقول له : « قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفاً »[٤] .

وقد نهى النبي ﷺ ، في كثير من احاديثه واوامره ، كما نهى خلفاؤه من بعده ، في كثير من اوامرهم ووصاياهم الى قادة جيوشهم ، عن التعرض لأموال العدو وشيوخه ونسائه واطفاله . فقد اوصى النبي ﷺ

---

(١) ابن القيم الجوزية ، احكام اهل الذمة ، ص ٥ .
(٢) م . ن . ص ١٧ .
(٣) في رسالة من الخليفة عمر الى امراء الاجناد ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم ولا يقتلوا النساء ولا الصبيان ، ولا يقتلوا الا من جرت عليه المواسي (م . ن . ص ٤٢) .
(٤) الأزدي ، سنن ابي داود ، جـ ٣ : ٧٢ ، رقم الحديث ٢٦٦٩ ، والعسيف : الاجير .

زيد بن حارثة بقوله : « لا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً ولا فانياً ولا منعزلاً بصومعة . ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء » . واوصى ابو بكر اسامة بن زيد بن حارثة بقوله : « لا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكل » . كما اوصى يزيد بن ابي سفيان وصية بالمعنى ذاته مضيفاً اليها : « وستمرون على قوم في الصوامع حبسوا انفسهم ، فذروهم وما حبسوا انفسهم له »[1] .

وكان عمر بن الخطاب يوصي قادته عند عقد الولاية لهم بقوله : « لا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان وعند شن الغارات »[2] .

إلا ان الماوردي ، في كتابه (الأحكام السلطانية)[3] ، قال : « يجوز لأمير الجيش في حصار العدو ان ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات . . . ويجوز ان يهدم عليهم منازلهم ويضع عليهم البيات والتحريق . واذا رأى في قطع نخلهم وشجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوة او يدخلوا في السلم صلحاً فعل ، ولا يفعل ان لم ير فيه

---

(١) زيد بن حارثة قائد جيش النبي ﷺ في مؤتة سنة ٢ هـ ، واسامة بن زيد بن حارثة قائد اول حملة الى الشام كان الرسول قد جهزها لكنه توفي قبل انفاذها ، وقد انفذها ابو بكر بعد موت الرسول مباشرة سنة ١١ هـ . ويزيد بن ابي سفيان قائد احدى الفرق الاسلامية الأربع التي بعثها ابو بكر لفتح الشام سنة ١٢ هـ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب ، جـ ٦ : ١٦٨ .

(٣) ص ٥٢ .

صلاحاً . وقد قطع رسول الله ﷺ كروم اهل الطائف فكان سبباً في اسلامهم » .

العهود والمواثيق :

لم تكن الحرب عند المسلمين غاية بحدّ ذاتها ، بل كانت ، كما قدمنا ، وسيلة من وسائل الجهاد في سبيل الله ونشر دينه وردع المعتدي والتطلع الى حياة افضل . وقد امر الاسلام بوقف القتال اذا اسلم الخصم او استسلم راضياً بدفع الجزية (ان كان من اهل الكتاب) ، حيث لا يجوز بعدها قتله او الاعتداء عليه . وكثيراً ما كانت حروب المسلمين تنتهي بعقد صلح او معاهدة مع الأعداء ، كما كانت الدماء تُحجب في كثير من الأحيان فتعقد المعاهدة او يتم الاتفاق قبل نشوب الحرب . وذلك ما يفضله الاسلام ويدعو اليه ، قال تعالى : ﴿ **أُدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[النحل ١٢٥] وقال : ﴿ . . . **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً** ﴾ [النساء ، ٩٠] . وكان الرسول ، ﷺ ، كلما بعث سرية يقول لأصحابها : « تألّفوا الناس وتأنّوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم » .

وقد دعا القرآن الكريم المسلمين ، في كثير من آياته ، الى احترام العهود والمواثيق والتقيد بها ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** . . . ﴾ [المائدة ، ١] . وقال : ﴿ . . . **وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا** ﴾[الاسراء ، ٣٤] . وقال : ﴿ **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** . . . ﴾[النحل ،

٩١]. ولم يذكر التاريخ ان المسلمين نقضوا عهداً أعطوه او ميثاقاً ابرموه . وقد قسم فقهاء المسلمين البلدان الى نوعين :

دار الاسلام : وهي التي « تطبق فيها نظم الاسلام الدينية والسياسية ، وتشمل الجزيرة العربية وما فتح المسلمون من بلدان . . . وتعتبر هذه الدار وطن المسلمين والذميين والمستأمنين »(١) .

دار الحرب : وهي البلدان الأجنبية التي « لا تسود فيها أحكام الاسلام اياً كانت نظمها السياسية والقانونية ، ويسمى رعاياها (حربيين) ، الا اذا عقدوا مع المسلمين ميثاقاً او عهداً فيدعون (معاهَدين) »(٢) .

وكانت القاعدة الشرعية السائدة هي ان « الحلال في دار الاسلام حلال في بلاد الكفر ، والحرام في دار الاسلام حرام في بلاد الكفر »(٣) .

فهل يمكن ان نستخلص من هذا التقسيم ان المسلمين لم يكونوا يقرون الحياد ؟ يشير الدكتور وهبة الزحيلي الى هذه النقطة بالذات في كتابه (آثار الحرب في الفقه الاسلامي)(٤) ، فيعتبر ان « معاهدات الحياد مشروعة في الاسلام . . . والصلح جائز اذا كان وسيلة الى الوقوف موقف الحياد في قتال المسلمين عدواً ذا شوكة » ، بدليل الآية

---

(١) و(٢) الصالح ، النظم الاسلامية ، ص ٥٢٠ ـ ٥٢٣ ، والمستأمن هو الذي يدخل دار غيره طالباً الامان مسلماً كان او حربياً ، وقد غلب اطلاقه على من دخل دار الاسلام بعقد أمان .

(٣) الشافعي ، الأم ، جـ ٧ : ٣٢٢ .

(٤) ص ١٩١ .

الكـــريمـــة : ﴿ . . . فـــإن تـــولـــوا فخـــذوهـــم واقتـلوهم حـيث وجدتموهم . . . الا الذين يصلون الىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق ، او جاؤوكم حصرت[1] صدورهم ان يقاتلوكم او يقاتلوا قومهم . . . ﴾ [النساء ، ٨٩ ـ ٩٠] .

وربما استنتج بعض الفقهـاء ، من وجهة النـظر هذه ، التقسيم الثلاثي للبلدان ، فسموا الدار الثالثة بـ « دار العهد » ، أي « البلاد التي لم يظهر عليها المسلمون ، وعقد اهلها الصلح معهم على خراج يؤدونه عن ارضهم وليس عن جزية تؤخذ عن رؤوسهم لأنهم ليسوا في دار الاسلام »[2] . ونحن من رأي هـذه الفئـة من الفقهـاء طـالمـا ان المعاهـد، في هذه الحالة ، ليس في دار الاسلام ، أي في بلد فتحـه المسلمون ، ولا في دار الحرب ، أي في بلد هو مع المسلمين في حالة حرب ، بل هو في دار علاقتها بالاسلام علاقة عهد وميثاق وان طبق الاسلام عليها حكم اهل الذمة . وقد عرف المسلمون في فتوحهم كثيراً من عقود الصلح وعقود الامان ، ويكفي ان نذكر هنا ، عـلى سبيل المثال ، أشهرها وهما :

١ ـ عقد الصلح الذي ابرمه النبي ﷺ مع قريش في (الحديبية) . . وهذا نصه :

« باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن

(١) حصرت : ضاقت .

(٢) الصالح ، المصدر السابق ، ص ٥٢١ ـ ٥٢٢ .

الناس ، ويكف بعضهم عن بعض . على انه من اتى رسول الله ﷺ من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم ترده عليه . وأن بيننا عيبة مكفوفة[1] ، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2] ، وأنه من احب ان يدخل في عَقْد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه »[3] .

وشهد على الصلح جماعة من المسلمين فيهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن ابي طالب ، وكان هو كاتب العقد ، وغيرهم ، وجماعة من المشركين ، وكان ذلك سنة ٦ هـ[4] .

٢ ـ عقد الامان الذي ابرمه الخليفة عمر بن الخطاب مع اهل ايلياء (بيت المقدس) عند فتح مدينتهم . . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الأمان . اعطاهم اماناً لأنفسهم واموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أن لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ، ولا يُنتقص منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ، ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يُضارّ احد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود . وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي اهل المدائن . وعليهم ان يُخرجوا منها الروم

(١) أي أن لا تكون عداوة بيننا .
(٢) الإسلال : السرقة الخفية ، والإغلال : الخيانة .
(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ : ٧٩ ـ ٨٠ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

واللصوت[1] ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن اقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية . ومن احب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على انفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من اهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى اهله ، فإنه لا يؤخذ شيء حتى يُحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد ابن الوليد، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن ابي سفيان ، وكُتب وحَضَر سنة خمسة عشر »[2] .

---

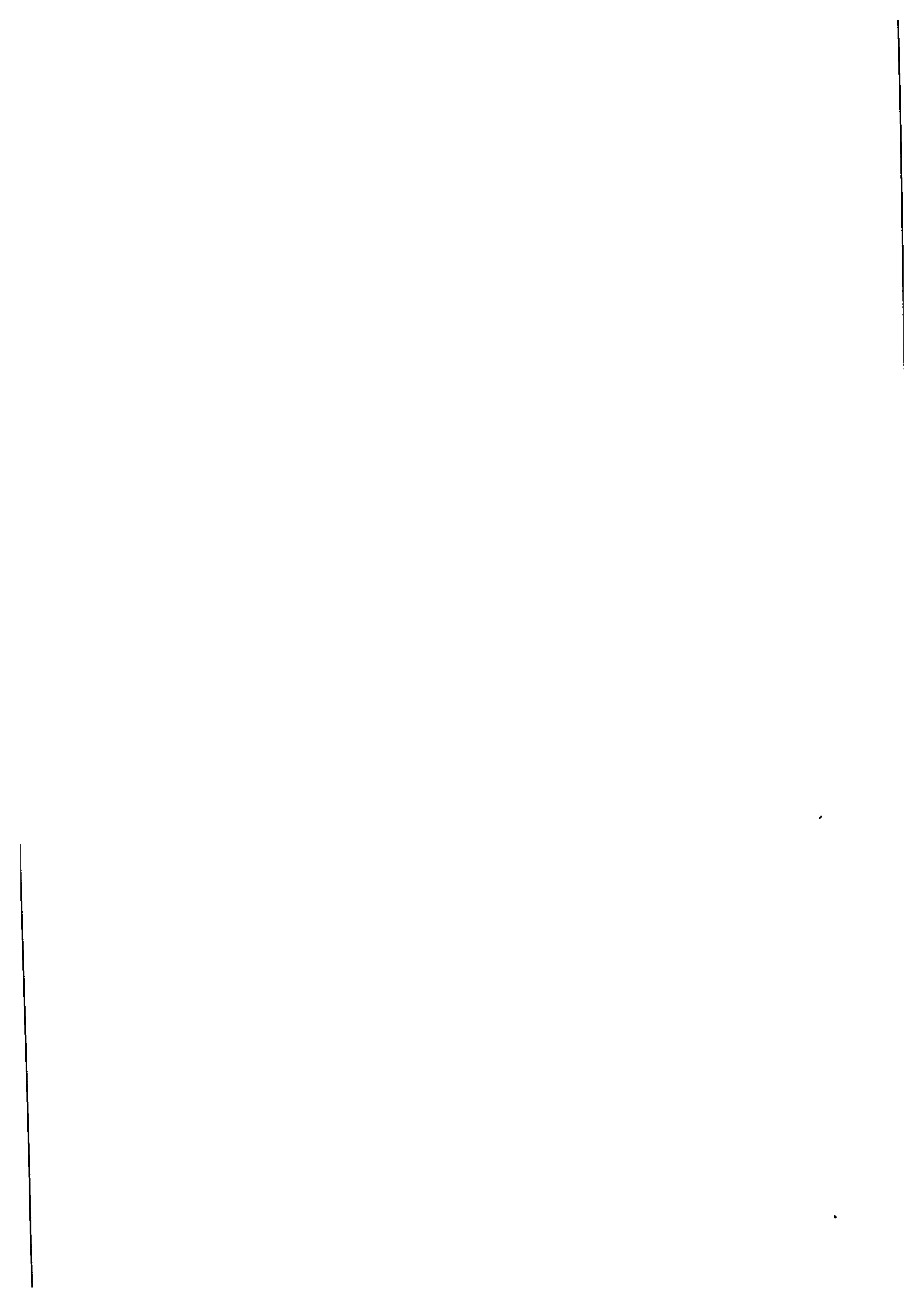
(1) اللصوت : اللصوص ؛ انظر (لصت) ، محيط المحيط ، جـ ٢ : ١٨٩٥ .
(2) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

الباب الثاني

معارك خالد بن الوليد

« لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم ها أنذا أموت حتفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » .

خالد بن الوليد



القسم الأول : معارك خالد في الجزيرة العربية

الفصل الأول

معارك خالد قبل اسلامه

خالد بن الوليد الرجل[1] :

أتى خالد الوجود قبل الاسلام بثمانية وعشرين عاماً ، أي عام ٥٨٢ ميلادية على وجه التحديد ، وكانت قريش تحتل مكان الصدارة

(١) جاء في الانسيكلوبيديا الاسلامية عن خالد بن الوليد انه « قائد لامع ، موهوب للقيادة ، بفضله انتصر المسلمون عدة انتصارات ، اعطاه محمد لقب « سيف الله » » ، كما وصفه المؤرخ الألماني Muller ، في كتابه Der Islam ، بأنه « شبيه نابليون ، لم يأبه لشيء الا للحرب ، ولم يرد ان يتعلم شيئاً سوى الحرب » .

Ency. of Islam (Khaled B. Alwalid), V. 4., P. 878-879.

وأغدق عليه المؤرخ الفرنسي (اميل درمنغهام) ، في كتابه (حياة محمد ـ La Vie de Mahomet, par E. Dermengham) ، من ألقاب البطولة وصفات الرجولة ما هو خليق بها فعلاً . . فقال عنه : « خالد الذي لا يقهر » (P. 212) ، وخالد الذكي (P. 215) ، والقائد الممتاز (P. 271) ، والقائد الكبير (P.94) .

بين القبائل العربية ، لها الأمر والنهي ، ولها السدانة والسقاية والرفادة والقيادة والمشورة . وكان والده الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقد لقب بريحانة قريش ، سيداً من سادتها ، وزعيماً من زعمائها ، فلا عجب ان نشأ خالد معتزاً بنفسه ، فخوراً بسلالته معتداً بأمجاد قبيلته .

وترعرع خالد في بيئته تلك ، يعبد اصناماً وآلهة من التمر والجبس والطين صنعها قومه بأيديهم ، وما كان يدري آنئذ ، ولا كان قومه يدرون ، ان قدر هذه الأصنام والآلهة هو أن تتهاوى وتتحطم يوماً تحت ضربات سيفه .

وبلغ أشدّه ، فإذا هو سيد من سادة قومه ، وشريف من اشرافهم وقائد من قادتهم ، تعتمد قريش عليه في غاراتها وحروبها ، وتعتز برجولته اذا ما قورن الرجال فيما بينهم . فكان خالد سنداً لها وعضداً وحامياً ، تُضرب له القبة ، ويُعهد إليه بالأعنة . اما القبة فقد كانت قريش تضربها لتجمع ما تجهز به جيشها من اموال ومؤن واعتدة ، واما الأعنة فقد كانت تعهد بها الى خالد بصفته مقدماً على فرسانها ورجالاتها كافة في المعارك والحروب .

وبدأ محمد دعوته ، فكان خالد خصماً عنيداً لتلك الدعوة ولصاحبها ، فقد حارب محمداً في عدة وقعات[1] ، وقاد جيشاً لمحاربة المسلمين في عدة معارك ، الى ان اعتنق الاسلام ديناً ، فكان سيفاً من سيوفه كما قال النبي عنه . وكان خالد على عبقرية في الفن العسكري

---

(١) اشترك خالد في القتال ضد المسلمين بغزوتين مهمتين ، بالاضافة الى أحد ، هما غزوة الأحزاب (سنة ٥ هـ) ، وغزوة الحديبية (٦ هـ) ، وفي الغزوتين كان خالد قائداً لفرسان المشركين .

شهد له بها خصومه في عصره ومن خلفهم من المؤرخين والقادة العسكريين .

معارك خالد قبل الاسلام ـ معركة أحد :

يوم أحد وأسبابه : كانت (أحد) أهم معركة اشترك فيها خالد ضد المسلمين ، و(أحد) جبل يقع على مقربة من المدينة في الحجاز .

ويعزو المؤرخون سبب خروج قريش لقتال النبي ﷺ في معركة أحد الى الهزيمة التي لحقت بها يوم بدر . يحدثنا الطبري في تاريخه[1] فيقول : « وكان الذي هاج غزوة أحد بين رسول الله ﷺ ومشركي قريش وقعة بدر وقتل من قُتل ببدر من أشراف قريش ورؤسائهم » .

وارادت قريش ان تنتقم لقتلاها من النبي ﷺ وأتباعه ، فذهب قادتها (عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن ابي جهل وصفوان بن امية) الى زعيمهم ابي سفيان بن حرب يطلبون منه اعداد العدة لقتال محمد ﷺ .

وخرج ابو سفيان من مكة صوب المدينة بجيش لجب بلغ عديده ثلاثة آلاف مقاتل موزعين على ثلاثة ألوية . وكان بين المقاتلين مئتا فارس ، وسبعماية دارع وثلاثة آلاف بعير ، معهم من العدة والسلاح الشيء الكثير. وسار في هذا الجيش جميع رجال قريش وزعمائها، بل سائر سادة مكة ومواليها وأحباشها ، ولاسيما اولئك الذين نجوا من معركة بدر ، وقد حملوا في صدورهم حقداً على محمد ﷺ لا يمحوه الا الدم . وخرج معهم خمس عشرة امرأة من نساء قريش ، على رأسهن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ : ٩ .

هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان ، وكانت قد فقدت اباها واخويها يوم بدر .

وتقع المدينة على مسيرة ثلاثة ايام من مكة ، فما ان بلغ جيش قريش سفوح أُحد حتى نزل عندها وارسل طلائعه تستكشف مشارف المدينة التي باتت على خمسة اميال من مواقعه .

وعلم رسول الله بخروج قريش لقتاله ، وأحسّ بطلائع الفرسان من جيش قريش تقترب من المدينة وتكاد تدخلها ، فجمع اهل المشورة والرأي من المسلمين وشاورهم في الأمر ، فقال بعضهم بالخروج لقتال قريش ، وقال البعض الآخر بالتحصن في المدينة حتى اذا ما تقدمت قريش لقتالهم كانوا أكثر مناعة واقوى تمركزاً . وقد رأى النبي ﷺ هذا الرأي ، لكن اكثرية المسلمين ارادت القتال ، ولاسيما اولئك الذين لم يحضروا وقعة بدر . فنزل النبي ﷺ عند رأي الأكثرية وخرج للقتال بجيش بلغ عديده الف مقاتل رجع منهم في الطريق ثلاثماية بقيادة عبدالله بن أُبيّ بن سلول الذي كان يرى رأي النبي ﷺ بالبقاء في المدينة وعدم الخروج للقتال ، فبقي مع النبي ﷺ سبعماية مقاتل منهم ماية دارع وخمسون رامياً . ولم يكن مع النبي ﷺ من الخيل سوى فرسه وفرس ابي بردة بن دينار الحارثي .

وقد اتفق معظم المؤرخين على ان احداً وقعت يوم السبت في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة (وقيل في السابع منه) ، وقد نزلت قريش بأُحُد أيام الأربعاء والخميس والجمعة[1] .

---

(١) الطبري ، م. ن جـ٣ : ١١ .

أما النبي ﷺ فصلى بالناس صلاة العصر يوم الجمعة في المدينة ، ثم دخل بيته فتعمّم وتدرّع وتقلّد سيفه ثم تقدّم بالمسلمين عند انبلاج الفجر متجهاً صوب أحد[1] ، ونزل في « عدوة الوادي الى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره » اليه[2] .

تمركز المتقاتلين :

وقد تمركز المتقاتلون من الفريقين على الوجه التالي :

قريش :

١ ـ القلب : وهو غالبية الجيش ، بقيادة ابي سفيان بن حرب القائد الأعلى .

٢ ـ الميمنة : مئة فارس بقيادة خالد بن الوليد .

٣ ـ الميسرة : مئة فارس ايضاً بقيادة عكرمة بن ابي جهل .

٤ ـ المؤخرة : نساء قريش ، وعلى رأسهن هند بنت عتبة وهن يضربن دفوفهن ويقرعن طبولهن تشجيعاً وتحريضاً .

المسلمون :

جعل النبي ﷺ ظهره وعسكره الى جبل أُحد ، كما قدمنا ، ثم قسم جيشه قسمين :

١ ـ الرماة : خمسون فقط ، بقيادة عبدالله بن جبير ، وقد وضعهم

---

(١) هيكل ، حياة محمد . ص ٢٥٧ .

(٢) الطبري ، م . ن . جـ٣ : ١٣ .

النبي ﷺ على مرتفع من شعاب أُحد قبالة فرسان العدو وخلف المقاتلين ، وكانت مهمتهم :

حماية المؤخرة والجوانب .
صد خيالة العدو (الميمنة والميسرة) .
منع كل محاولة للالتفاف من قبل العدو .
مساندة المقاتلين .
أما أوامر النبي لقائد الرماة فكانت ما يلي :

« إنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، ان كانت لنا او علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك »[1] .ويوضح لنا ذلك هيكل[2] فيقول ان النبي ﷺ قال للرماة : « احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف ان يجيئونا من ورائنا . والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وان رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم . وان رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وانما عليكم ان ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل » .

٢ ـ المقاتلون : وهم غالبية الجيش ، وقد تمركزوا قبالة القلب من جيش ابي سفيان . وكانت اوامر النبي ﷺ ان لا يقاتل احد حتى يأمره بالقتال .

ولا يغربن عن البال ان سلاح المقاتلين كان السيف يومذاك ، وسلاح الرماة السهم والنبال . وكان لكل قبيلة رايتها ، وللجيش

---

(١) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ٣ : ١٣ .
(٢) حياة محمد ، ص ٢٥٩ .

بكامله لواء خاص يعهد به قائد الجيش الى مقاتل بطل يختاره بنفسه ، ومهمة هذا المقاتل ان يسير باللواء في المقدمة ويحميه . وقد حمل لواء المسلمين مصعب بن عُمير ، وحمل لواء قريش عبد العزى طلحة بن ابي طلحة .

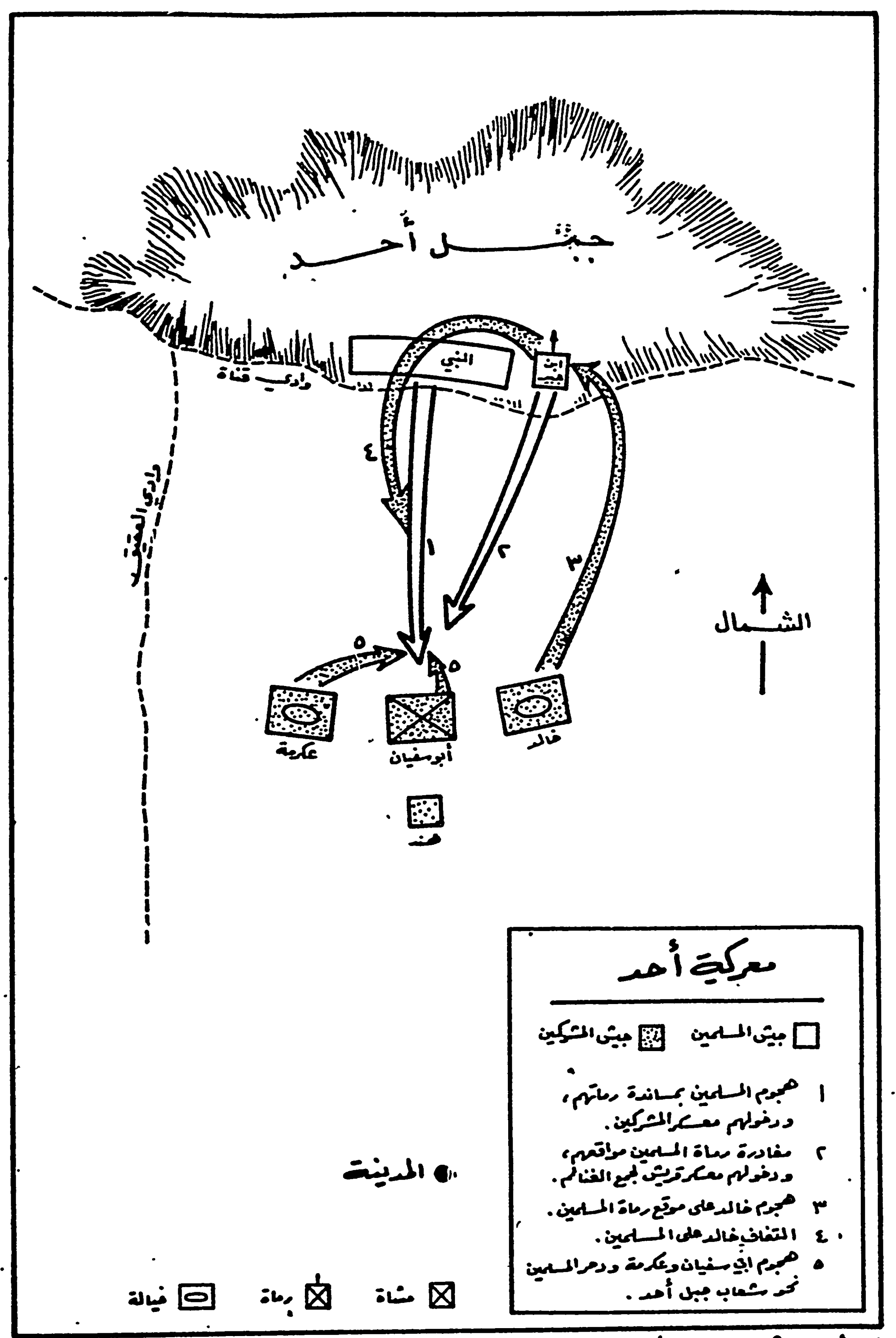
المعركة :

ابتدأت المعركة في الصباح بهجوم عام شنه القرشيون على المسلمين ؛ فتقدم ابو سفيان بمشاة (القلب) ، وتقدم خالد بفرسان (الميمنة) وعكرمة بفرسان « الميسرة » . عندها حمل النبي ﷺ بـ (المقاتلين) على ابي سفيان و(قلبه) فهزمه ، وأمر الرماة ان يصدّوا ميمنة العدو وميسرته بنبالهم فكان له ما اراد .

ودُحر ابو سفيان ومشاته ، فحمل خالد على النبي ﷺ و(مقاتليه) ليساعد ابا سفيان وينقذ (قلب) الجيش القرشي ، فصده (رماة) المسلمين من جديد .

عندها اندفع النبي ﷺ بمقاتليه معتمداً على مساندة الرماة لصد كل حركة التفاف تقوم بها ميمنة العدو او ميسرته ، فتوغل في (قلب) الجيش القرشي داحراً أمامه ابا سفيان ، ودخل في معسكر قريش .

وهنا افلت الزمام من يد قائد الرماة عبدالله بن جبير ، فلما ان رأى رماة المسلمين النبي ﷺ والمقاتلين في معسكر الجيش القرشي ، ونساء قريش هاربات ، « وقد بانت في سوقهن الخلاخيل » ، حتى تركوا مراكزهم ـ إلا أقلهم ـ واندفعوا نحوهن ونحو المعسكر يبتغون الغنائم . وحاول عبدالله بن جبير أن يبقيهم في مراكزهم قائلاً لهم :



محمد أحمد باشميل: غزوة أحد (بتصرف).

« مهلاً ، اما علمتم ما عهد اليكم رسول الله ﷺ ؟ » ، فما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، « ولم يبق معه الا نفر دون العشرة »[1] .

ولم تفت خالد الفرصة ، وهو الذي لم يكن يتوانى عن التفكير بالنصر ولو في أشد ساعات الهزيمة ، فما ان رأى رماة المسلمين يتركون مراكزهم فتنكشف مؤخرة المقاتلين من جيش النبي ﷺ ، حتى قام بحركة التفاف سريعة وجريئة على ميسرة المقاتلين المسلمين ، فحمل على من تبقى من الرماة فهزمهم ، وباغت المسلمين بالخيل من خلفهم . ولما رأى المقاتلون من جيش النبي ﷺ أنفسهم مأخوذين من الخلف فوجئوا وذُعروا . ولاحظ ابو سفيان ذعرهم ، فحمل عليهم من جديد منتقلاً بجيشه من الدفاع الى الهجوم ، ومن الفر الى الكر . واشتد عكرمة بمقاتلتهم في ميمنتهم ، فتراجعوا منهزمين في شعاب الجبل ، ولحقهم القرشيون فشتتوهم وفتكوا بهم[2] .

ويقول الطبري[3] ان المسلمين قد عادوا من أُحد اثلاثاً : « ثلث قتيل ، وثلث جريح وثلث منهزم » . وكان بين القتلى مصعب بن عُمير حامل لواء المسلمين ، وحمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وقد قتله غلام حبشي يدعى وحشي . وكان النبي ﷺ بين الجرحى ، اذ كسرت رباعيته وشج رأسه[4] . ويروى ان هنداً زوجة ابي سفيان ، ومعها نساء قريش ، قد مثلن في هذه المعركة بقتلى المسلمين تمثيلاً شنيعاً ،

---

(١) هيكل ، حياة محمد ، ص ٢٩٠ .
(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣ : ٩ ـ ١٧ .
(٣) م . ن . جـ٣ : ١٧ .
(٤) صحيح مسلم ، جـ٥ : ١٧٩ .

حتى تبرأ ابو سفيان من فعلهن وأعلن انه لم يأمر به ولا رغب فيه . ويقال انهن كن يقطعن آذان القتلى من المسلمين وانوفهم ويجعلن منها قلائد لهن واقراطاً ، وان هنداً بقرت بطن حمزة عم النبي وأخذت كبده ولاكتها بأسنانها[1] .

اما قتلى قريش فقد قدر عددهم بستة عشر رجلاً ، منهم عثمان بن ابي طلحة وقد قتله حمزة (عم النبي) قبل مصرعه ، وطلحة بن ابي طلحة حامل لوائهم ، وقد قتله علي بن ابي طالب ، وابو سعد بن ابي طلحة حامل لوائهم بعد طلحة ، وقد قتله علي أو سعد بن ابي وقاص[2] . وقيل ان قتلاها قد بلغوا تسعة عشر رجلاً. وقيل : اثنان وعشرون[3] .

ومن المفيد أن نشير الى ان المتقاتلين اعتمدوا في هذه المعركة وسيلة غريبة عن الحرب في ذلك العصر ، وهي نشر الذعر (La Panique) في صفوف العدو ، وما يقابل ذلك من مكافحة الذعر (La Contre-Panique) . اذ صاح صائح من قريش ان محمداً قتل ، فذعر المسلمون وصار يقتل بعضهم بعضاً من الدهشة والعجلة . حتى أن فريقاً من الذين ظنوا ان محمداً مات ، ومن بينهم ابو بكر وعمر ، قد انحوا ناحية من الجبل وقعدوا عن القتال . فرآهم أنس بن النضر فقال : « ما يجلسكم ؟ » ، قالوا : « قتل رسول الله ﷺ » . قال : « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه » .

---

(١) هيكل ، م. ن. ص ٢٩٢ .
(٢) ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ ٣ : ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٤ : ٤٦ .

ومـا ان تبين المسلمـون أن خبر مـوت النبي ﷺ لم يكن سـوى خدعة ، او خطأ[1] ، وما ان صاح احدهم ، وهو كعب بن مالك ، حين رأى النبي ﷺ : « يا معشر المسلمين ، ابشروا ، هذا رسول الله ﷺ » حتى تحلقوا حوله يحمونه ويستميتون في الذود عنه .

ويذكر الطبري[2] الدور الذي قامت به نساء قريش في المعركة ، فيقول انهن كن يمشين خلال الصفوف ، تـارة في مقدمتهـا وطوراً في مؤخرتها ، يضربن الدفوف ، ويقرعن الطبول خلف الرجال وقربهم ، يشجعنهم ويحرضنهم على القتال ، وعلى رأسهن امرأة تنشد وينشدن معها :

نحن بنات طارق ان تقبلوا نعانق ونبسط النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وتزيد هند بنت عتبة زوجة ابي سفيان :

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأديار ضرباً بكل بتار

استنتاج : لا شك في ان النبي محمداً ﷺ كان بارعاً في خطته التي تقوم على ثبات الرماة في اماكنهم واحتفاظهم بمواقعهم ، ليكونوا سنداً

---

(١) يروي (درمنغهام) ان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين قتل امام النبي ﷺ ، وكان يشبهه ، فظن القرشيون ان النبي ﷺ هو الذي قتل وصاحوا : « قتلنا محمداً » (E. Demenghem, La Vie de Mahomet Mahomet, P. 218) . وقارن : ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ٣ : ١٦ ، حيث ورد ان قـاتل مصعب هـو « ابن قميئة الليثي » الـذي قتله ظانـاً انه رسـول الله ﷺ ثم رجع الى قـريش فقـال : « قتلت محمداً » .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣، ١٥ ـ ١٦ ، وقارن : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ١٥٣ .

له وحماية لمؤخرتـه ، وان السبب الأول والأخير لهـزيمته كـان في عدم تقيدهم بأوامره الصارمة وفي تخليهم عن مراكزهم، والدليل على ذلك انتصاره في البدء بفضل الرماة الذين صدوا جناحي العدو ، وبفضل بسالة المقاتلين الذين لم تتجاوز نسبتهم الـ ٢٠٪ من جيش العدو .

أما خالد فقد افاد من :

١ ـ اختيار الوقت المناسب ، اذ عرف كيف يختار اللحظة الحرجة التي يوجه فيها ضربته للمسلمين ، كما عرف كيف يغتنم لحظة النصر فيقتنصها اقتناصاً .

٢ ـ المناورة ، وتتطلب حركة وقتالاً وسرعة ، وقد نفذها خـالد بكل براعة وفن ، اذ تحرك بفرقته نحو ميسرة المسلمين ، وانقض بسرعة فائقة على من تبقّى من رماتهم فهزمهم ثم تحرك نحو مؤخرة جيش النبي ﷺ فضمن العنصر الثالث وهو المباغتة .

٣ ـ المباغتة : اما وقد توافرت للمباغتة عناصرها الثلاثة وهي : اختيـار الوقت المنـاسب ، ثم الحركـة والسرعـة فقد كـانت ، أي المباغتة ، أنجح تحركات المعركة وأبرز العوامل التي قـادت خالـداً ، وبالتالي قريشاً ، الى النصر .

الفصل الثاني

اسلام خالد وغزواته مع الرسول

إسلام خالد :

ظل خالد ، طوال ثماني سنوات ، خصماً عنيداً لمحمد ، ومحارباً صلباً ضد دعوته . فقد حاربه في وقعة « أحد » ، كما حاربه في وقعة « الأحزاب » أو « الخندق » ، وكاد يحاربه سنة الحديبية بينما كان النبي ﷺ في طريقه الى مكة للعمرة مع ألف وخمسماية من أتباعه ، لولا أن منعته عن محمد ﷺ وصحبه إقامتهم لصلاة الظهر في العراء وعلى مرأى من خالد ورجاله ، فأبت على خالد ، الجاهلي ، رجولته أن يأخذ بالسيف قوماً سلموا لله أمرهم .

ولكن الاسلام انتصر أخيراً على خالد ، فانتشر وامتد ، وقويت شوكة النبي ﷺ والمسلمين . وكان آخر أمره مع الدين الجديد أن أُسقط في يده بعد صلح الحديبية بين قريش والمسلمين . وكان قد سبقه إلى الاسلام كثير من رفاقه وأنداده من زعماء قريش ، فوقف وحيداً في

ساحة القتال يفتقد أغلب رفاق السلاح ، ومنهم من مات ، ومنهم من أسلم . وبدأ اقتناع جديد يتكون لدى خالد هو استحالة الانتصار على محمد ﷺ ، ومن هذا الاقتناع كان تعجُّب ودهشة لمصدر العون والقوة اللذين يحتضنان محمداً ﷺ ودينه الجديد ويدفعانها إلى الغلبة والنصر . ومن هذين التعجب والدهشة بدأ الإيمان يتسرب إلى قلب خالد شيئاً فشيئاً . إيمان بأن محمداً ﷺ فوق مستوى البشر ، وبأن لديه مدداً من السماء . إلى أن أتته رسالة من أخيه الوليد ، وكان قد سبقه إلى الاسلام ، يقول له فيها إن محمداً ﷺ سأل عنه : « . . . سألني رسول الله ﷺ عنك فقال : أين خالد ؟ فقلت : يأتي الله به . فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له ، ولقدمناه على غيره . فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة »[1] .

وكأن دعوة الوليد له قد مسّت ضميره ، ولامست شغاف قلبه ، فإذا به يستجيب راضياً مطمئناً ويسير إلى المدينة ليلتقي محمداً ﷺ ويشهر على يديه إسلامه ، طاوياً صفحات عراكه الدامي مع الدين الذي عاداه وحاربه في أول نشأته ونموّه ، فإذا به يصبح بعد حين ، في صفر سنة ٨ هجرية ، سيفاً من سيوفه . وكان إسلام خالد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن ابي طلحة في يوم واحد[2] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٤ : ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ والعقاد ، عبقرية خالد ، ص ٤٠ ـ ٤١ . الا اننا لم نجد هذه الرواية عند الطبري وابن الأثير وفي صحيح مسلم ، ولكن ما ورد عند هؤلاء لا ينفي رواية ابن كثير والعقاد .

(٢) يروي كل من الطبري (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ : ١٠٤) ، وابن الأثير (الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٢٣٠) والامام مسلم (صحيح مسلم ، جـ ٣ : ٢٣٥ ـ ٢٣٧) =

لقد كان ايمان خالد بالدين الجديد ، واعتناقه اياه ، حافزاً كبيراً زاده بسالة فوق بسالته[1] ، وعزيمة فوق عزيمته ؛ كما كان إسلام خالد نصراً كبيراً للدين الجديد يكاد لا يعادله نصر . ولا غرو فقد اعزّ الله الاسلام بخالد كما اعزه بالاسلام . واندفع خالد في سبيل الدين الجديد مجاهداً صامداً ، ومقاتلاً بطلاً وقائداً عبقرياً ، فإذا به يحرز للمسلمين النصر تلو النصر ، ويقودهم من فتح إلى فتح .

غزوة مؤتة :

كانت « مؤتة » اول معركة خاضها خالد بجانب المسلمين . ومؤتة قرية من قرى البلقاء في حدود الشام ، وهي أول مدينة سورية تتاخم الجزيرة العربية . والبلقاء من أعمال دمشق يومذاك ، قرب ما يسمى بحوران اليوم[2] .

وكانت وقعة « مؤتة » في جمادي الأولى من السنة الثامنة هجرية (العام ٦٢٩ ميلادية) ، أي بعد إسلام خالد بشهرين او ثلاثة ، وقد وقعت بين هرقل ملك الروم وبين المسلمين .

اسبابها واهدافها :

اما سبب المعركة فهو أن محمداً ﷺ ، كان قد ارسل وفداً إلى

= كيف اعتنق القادة الثلاثة الاسلام ، وقد اتفقت روايات المؤرخين الثلاثة في النصوص .

(١) يزعم درمنغهام ان خالداً وعمرو بن العاص اعتنقا الاسلام « لاعتقادهما ان النصر مكتوب له » ، محاولاً بذلك ان ينفي عنصر الايمان في اسلامهما وهو ما لا نوافقه عليه اطلاقا (E. Dermenghem, La Vie De Mahomet, P. 294).

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٨ : ١٩٠ .

« ذات الطلح » (حلفاء الروم) يدعوهم للاسلام ، فقتل هؤلاء اعضاء الوفد جميعاً ، وعددهم خمسة عشر رجلاً ، ما عدا واحداً منهم فرَّ ونجا . وأرسل عليه السلام ، كذلك ، رسوله الحارث بن عمير الأزدي إلى هرقل يدعوه للاسلام ، فلقيه عمرو بن شرحبيل الغساني (حليف الروم كذلك) على الطريق وقتله .

وكان من الطبيعي ، أمام هذا التحدي السافر ، ان يجرد النبي ﷺ على المعتدين « حملة تأديب » ترد للمسلمين كرامتهم ، وتحفظ لهم مكانتهم . فهدف حملة مؤتة ، إذن ، لم يكن دحر الروم وهم اقوياء ، بل رد الاعتبار للمسلمين بعد الاعتداءين السابقين على موفديهم ، وردع حلفاء الروم عن الاعتداء على الرسل العزل من السلاح .

تجهيز جيش المسلمين :

جهز النبي ﷺ جيشاً بلغ عديده ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمّر عليه زيد بن حارثة ، « فإن اصيب زيد فجعفر بن ابي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس »[1] . وكانت مهمة هذا الجيش : الذهاب الى حيث قُتل الحارث بن عمير رسول النبي ﷺ إلى هرقل ودعوة المعتدين إلى الاسلام ، وإلا فالقتال .

السير للقتال :

وسار جيش النبي ﷺ للقتال ، فنزل « معاناً »[2] وأقام بها

---

(١) ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ٣ : ٣٢٢ ؛ وقارن : الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، جـ٣ : ١٠٧ ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٢٣٤ ، وصحيح البخاري ، جـ٥ : ١٨٢ .

(٢) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٨ : ٩٣) .

ليلتين . وكان هرقل قد عسكر بمآب (من أرض البلقاء) في مائة الف من الروم ومائة الف اخرى من القبائل المستعربة[1] ، قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى ، وهو مستعد بجنده للقتال .

ويؤكد ابن الأثير[2] أن هرقل ، لما علم بمسير المسلمين اليه ، جيَّش جيشه وسار للقائهم . ويرى العقاد[3] أن خروج هرقل في ذلك الحين كان لسبب آخر غير سبب القتال ، ويرجّح انه « كان ، في جموعه هناك ، في زيارة الشكر التي نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفر بالفرس وردّ منهم صليب الكنيسة الكبرى الذي حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس » . ويستبعد الرأي الأول ، مبرراً ذلك بقوله انه « خاطر بعيد جد البعد ، لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوى الاسلامية التي مهدوا للقائها »[4] . وفي رأينا أن العقاد على حق ، إذ لم يكن لدى هرقل الوقت الكافي لتجييش هذا الجيش كله وبمثل هذه السرعة ، ناهيك بأنه لم يكن بحاجة إلى مثل هذا الجيش الضخم لمقاتلة ثلاثة آلاف من المسلمين .

ومهما يكن من أمر فقد علم هرقل بخروج المسلمين للقتال فأعد العدة لمواجهتهم . وعلم المسلمون بخروج هرقل وضخامة جيشه ، وهم قلة ، فباتوا في « معان » ليلتين يتشاورون في أمرهم ويتبادلون الرأي . فمنهم من ارتأى ايفاد رسول للنبي ينبئه بعدد الروم لعله يرسل

---

(١) اننا ، مع اقتناعنا بالمبالغة في هذه الأعداد ، لا نستطيع الا تسجيل ما أورده المؤرخون .
(٢) الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٢٣٥ .
(٣) عبقرية خالد ، ص ٥١ .
(٤) م.ن. ص ٥٠ .

لجيشه مدداً ، ومنهم من قال : فلنسر ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . واتفق أمر المسلمين أخيراً على السير للقتال ، فتركوا « معاناً » (بعد ليلتين كما أسلفنا) إلى حيث لقيهم جيش هرقل قرب قرية من قرى البلقاء يقال لها « مشارف » ، فانحاز المسلمون إلى « مؤتة » ، وفي مؤتة التقى الجيشان .

ترتيب المتقاتلين : كان ترتيب المتقاتلين على الوجه التالي :

المسلمون : - القلب ، بقيادة زيد بن حارثة قائد الجيش .

- الميمنة ، بقيادة قطبة بن قتادة العذري .

- الميسرة ، بقيادة عبادة بن مالك الأنصاري[1] .

الروم : - قلب ، وميمنة وميسرة كذلك .

المعركة : كان واضحاً قبل المعركة ان توازن القوى بين الجيشين مفقود تماماً ، وان المسلمين يخوضون معركة لا أمل لهم فيها بنصر . ولكن لم يكن للمسلمين الخيار ، فإنهم إن تراجعوا استضعفهم الروم وحلفاؤهم الغساسنة ، فانكسرت شوكتهم ، وضاعت هيبتهم وقوي عليهم خصومهم واعداؤهم . لذا لم يكن أمامهم إلا قرار واحد لا مفر منه ، هو الصمود والثبات في وجه العدو القادر القوي ، والقتال المستميت المشوب بالذعر والخطر الثابت الأكيد .

ولم يوضح أحد من المؤرخين أياً من الجيشين كان البادىء بالقتال ، ولكن ما ذكره العقاد من مفاجأة الروم للمسلمين بالقتال

---

(١) ابن الأثير ، م . ن . جـ ٢ : ٢٣٦ .

يشير بوضوح إلى أن الروم هم الذين بدأوا . فتصدى لهم زيد بن حارثة بقلب الجيش فقُتل . وتبعه جعفر فأخذ الراية وقاتل حتى قُتل . وتبعه عبدالله بن أبي رواحة فأخذ الراية وقاتل أيضاً حتى قُتل . وبدت هزيمة المسلمين واضحة لا مفر منها ، فتنادوا لتولية أكفأ المقاتلين منهم ، وكان أن أجمع أمرهم على أن يتولى خالد قيادة الجيش[1] .

خطة خالد :

كانت المهمة الأساسية المنوطة بخالد ، في تلك الساعة العصيبة من القتال ، أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي . فبعد أن قدر الموقف واحتمالاته المختلفة قدراً دقيقاً ، ودرس ظروف المعركة درساً وافياً وتوقَّع نتائجها ، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل . فقوة العدو تبلغ ٦٦ ضعفاً لقوة المسلمين ، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب او الفناء .

وعلى هذا وضع خالد الخطة التالية :

١ ـ الحؤول بين جيش الروم وجيش المسلمين ، ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب .

٢ ـ لبلوغ هذا الهدف ، تضليل العدو بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين ، فيخفف من ضغطه وهجماته ويتمكن المسلمون من الانسحاب .

وصمد خالد حتى المساء عملاً بهذه الخطة ، وغيّر ، في ظلام

---

(١) ابن الأثير ، م . ن . ، جـ ٢ : ٢٣٨ .
ويقول ابن كثير في البداية والنهاية ، جـ ٤ : ٢٤٦ : « ... ثم اخذ اللواء خالد بن الوليد ، ولم يكن من الأمراء ؛ هو أمَّر نفسه » .

الليل ، مراكز المقاتلين في جيشه ، فاستبدل الميمنة بالميسرة ، ومقدمة القلب بالمؤخرة . وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية ، ثم حمل على العدو ، عند الفجر ، بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل في روعه ان إمدادات كثيرة وصلت الى المسلمين[1] .

ونجحت هذه الخطة ، إذ بدا للعدو صباحاً أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل ، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة . فأيقن أنهم تلقوا إمدادات ، وأن جيشاً جديداً نزل الى الميدان . وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فَتَّ في عضد الروم وحلفائهم ، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل . فتخاذلوا وتقاعسوا عن متابعة الهجوم ، وضعف نشاطهم واندفاعهم . فخف الضغط عن جيش المسلمين ، وانتهز خالد الفرصة فباشر الانسحاب .

الانسحاب :

كانت عملية التراجع أو الانسحاب التي قام بها خالد في أثناء معركة « مؤتة » من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحاً ، بل إنها تتفق وتتلاءم مع التكتيك الحديث للانسحاب . فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ، ولما أصبح الجناحان بمنأىً عن العدو ، وفي مأمن منه ، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين ، إلى أن تمكّن من فصم القتال (Rupture du Combat) وضمان سلامة الانسحاب كلياً .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ٤ : ٢٤٧ ، والواقدي ، المغازي ، جـ ٢ : ٧٦٤ .

ويقول المؤرخون ان خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة ، وان خالداً قال : « لقد انقطع في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي إلا صحيفة يمانية » . وقد سمّاه النبي ﷺ إثر هذه المعركة « سيف الله »[1] .

إستنتاج : يمكننا أن نستنتج من معركة « مؤتة » الأمور التالية :

١ ـ تفاوت في القوى :

فالعدو يحارب على أرضه ، بالقرب من ذخائره ومؤنه ، ويتفوق على جيش المسلمين تفوقاً عددياً لا يستهان به (٦٦ ضعفاً) ،

والمسلمون يحاربون على أرض غريبة عنهم ، بعيدين عن ذخائرهم ومؤنهم ، ولا يتجاوز عددهم ٠٢ , ٠٪ من عدد العدو .

٢ ـ المحافظة على مبدأ التوازن النسبي بين الهدف والوسائل :

قدر خالد قوّته ووسائله وقارنها بقوة العدو ووسائله ، فظهر له مبلغ التفاوت وخطورة النتائج . فلم يهاجم بالجيش وهو في الوضع نفسه ، ولم يستمر على الخطة التي انتهجها من سبقه من قادة المعركة نفسها ولم يرتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبوه ، بل عمد إلى :

أ ـ استعمال الحيلة وخدع العدو ، بأن غيّر أوضاع القوى في جيشه وبدّل عناصر الجناحين والقلب ، ثم أثار صخباً وضجة ليوهم العدو بأنه تلقّى إمدادات وقوىً جديدة ، وقد نجح .

---

(١) يقول ابن كثير في (البداية والنهاية ، جـ ٤ : ٢٤٦) ان رسول الله ﷺ قال عن خالد يوم مؤتة : « اللهم انه سيف من سيوفك انت تنصره » ، ومن يومئذ سمي خالد « سيف الله » .

ب ـ إخفاء فكرة المناورة ، بهجمات عنيفة وسريعة ومتكررة ليوهم هذا العدو بأنه قويّ ، وبأنه ينوي الهجوم والكر ، لا الانسحاب والفر ، وقد نجح .

٣ ـ استثمار الوسائل الى أقصى حد :

بأن استجمع قواه كافة وانطلق بها في المعركة عند الفجر ، مكرراً ضرباته وهجماته ليوهم العدو أن حركة جديدة دبت في أوصال الجيش المنهك القوى وقد نجح .

٤ ـ إنتهاز الفرصة :

أتقن خالد الحركة فجر اليوم الثاني من المعركة ، كما أتقن خدع العدو . ففيما كان العدو مأخوذاً بضربات خالد وهجماته السريعة المتكررة كان خالد ينتهز فرصة تخاذل العدو ودهشته من سرعة حركة المسلمين وتكرار هجماتهم ، ليعمد إلى الانسحاب المنظم ، وقد نجح .

٥ ـ المناورة :

لم ينسحب خالد دون خطة ، فقد بدأ سحب الجناحين بحماية القلب ، وما ان اصبح الجناحان في منأى عن العدو ، وفي مأمن منه ، حتى عمد الى سحب القلب بحماية الجناحين . وكانت الخطة بارعة ، وقد نجح في تنفيذها ايما نجاح .

٦ ـ تقصير الجهاز الاستعلامي للعدو :

لم يتمكن العدو من اكتشاف حيلة خالد وهو يقوم بمناورته البارعة

في خدعه ، فانطلت عليه . ولهذا فإنه لم يتمكن من إحراز النصر الحاسم على المسلمين ، وقد كان ممكناً ، بل مؤكداً .

وهكذا يمكن القول إن خالداً ، بخطته تلك ، قد أنقذ المسلمين من هزيمة ماحقة ، وفناء محقق ، وان انسحابه كان قمة النصر بالنسبة الى ظروف المعركة ، حيث يكون الانسحاب ، في ظروف مماثلة ، أصعب حركات القتال ، بل أجداها وأنفعها .

فتح مكة :

للمرة الأولى تولى خالد ، منذ إسلامه ، قيادة جيش ، وذلك في فتح مكة . وسبب القتال ان قريشاً نقضت صلح الحديبية الذي وقّعته مع النبي ﷺ في آذار عام ٦٢٨ ميلادية ، الموافق للسنة السادسة للهجرة ، فرأى النبي ﷺ في هذا النقض فرصة لدخول مكة ، وكانت قريش قد منعته من دخولها. وكان المسلمون ، والمهاجرون منهم خاصة ، في شوق كبير إلى ذلك(١) .

الخروج الى القتال :

خرج النبي ﷺ لمحاربة القرشيين في عقر دارهم في العاشر من

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ، وابن هشام ، سيرة النبي جـ٤ : ٣ ـ ٨ . وكان صلح الحديبية يقضي باحلال الهدنة بين قريش والمسلمين لمدة عشر سنين ، يترك في اثنائها الخيار لمن يرغب من قبائل العرب بمحالفة احد الفريقين المتنازعين ، او الدخول في عهدته ، دون ان يوقع به ضرر او سوء . وهكذا حالفت خزاعة النبي ﷺ ، وحالفت بكر قريشاً . وكان بين القبيلتين ثأر قديم سكن بعد الصلح ثم عاد فاستفاق بعد هزيمة المسلمين في مؤتة . فحرضت قريش بني بكر على خزاعة حتى هاجمتها ذات ليلة على ماء « الوتير » وقتلت منها خلقاً كثيراً ، وبذلك نقضت قريش عقد الصلح .

رمضان سنة ٨ هجرية ، الموافق للأول من كانون الثاني عام ٦٣٠ ميلادية . وقد تم فتح مكة في العشرين من رمضان من السنة نفسها ، أي في العاشر من شهر كانون الثاني نفسه .

وخرج النبي ﷺ بجيش من عشرة آلاف مقاتل : أربعماية من بني غفار ، وألف من مزينة ، وسبعماية من بني سليم (وقيل الف) ، والف وأربعماية من جهينة ، والباقون من المهاجرين والأنصار وحلفائهم ، وطوائف من العرب من تميم وأسد وقيس كانت قد انضمت اليه وهو في طريقه إلى مكة . ويقول هيكل[1] عن هذا الجيش : « حتى إذا ضربوا خيامهم اكتست بها رمال البيداء فما يكاد يبدو منها للناظر شيء » . وفي مكان آخر : « تحركوا وأغذّ هؤلاء الألوف سيرهم ، وصاروا كلما تقدموا فيه انضم اليهم من سائر القبائل ، مما زاد عددهم وزاد منعتهم » . إلى أن يقول : « وبلغ الجيش مرّ الظهران وقد كملت عدته عشرة آلاف » .

ترتيب الجيش : رتب النبي ﷺ جيشه لدخول مكة في أربع فرق[2] :

الفرقة الأولى : الميسرة بقيادة الزبير بن العوّام ، وتدخل مكة من شمالها (كُدى)[3] .

الفرقة الثانية : الميمنة بقيادة خالد بن الوليد ، وتدخل مكة من أسفلها (اللِّيط) .

---

(١) حياة محمد ، ص ٣٨٥ .

(٢) هكذا ذكرها ابن هشام في « سيرة النبي » ، جـ ٤ : ٢٠ ـ ٢١ .

(٣) وردت (كداء) عند ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٢٤٦ .

الفرقة الثالثة : الأنصار بقيادة سعد بن عبادة ، وتدخل مكة من الغرب (كَدَاء)[1] .

الفرقة الرابعة : المهاجرون بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح ، وتدخل مكة من أعلاها (بخذاء جبل هند)[2] . وسار النبي مع الفرقة الأخيرة .

وكانت أوامر النبي ﷺ للفرق جميعاً (أن لا تقاتل ولا تسفك دماً إلا إذا أُكرهت على ذلك إكراهاً ، واضطرت اليه اضطراراً) . ودخلت الفرق الأولى والثالثة والرابعة مكة بلا قتال ، أما خالد فقد لقي في طريقه مقاومة شديدة ، وكان النبي ﷺ قد اختاره للطريق التي يُحتمل أن تضع فيها قريش أغلب قواها . وبالفعل لقي خالد في طريقه عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن امية وسهيل بن عمرو ، وكانوا قد حشدوا لقتاله ، في « الخندمة » من أسفل مكة ، جموعاً ذات بأس شديد ، وذات عداوة متأصلة لمحمد ودعوته ، من بني بكر وبني الحرث ابن عبد مناة ، وهم قوم ساهموا في نقض صلح الحديبية وعارضوا دخول النبي ﷺ مكة بلا قتال . وكان أبو سفيان بن حرب زعيم قريش ، وطائفة من بني هاشم أمثال العباس بن عبد المطلب عم النبي وابي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وعبدالله بن أبي امية بن المغيرة ابن عمته ، قد توجهوا إلى النبي ﷺ خارج مكة ، بعد

(١) ولكن سعداً لم يدخل مكة على رأس فرقته كما كان مقدراً له ، اذ سمعه النبي ﷺ يردد : « اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الكعبة » . وكان قد نهى قادته عن القتال ، فقال لعلي بن ابي طالب : « ادركه فخذ الراية منه وكن انت الذي تدخل بها » (ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٢٤٦ ؛ وقارن : ابن هشام ، م.ن. جـ٤ : ٢١) .

(٢) لم يأت ابن الأثير على ذكر هذه الفرقة .

أن وصلتهم أخبار القوة التي زحف بها لقتالهم ، فأسلموا بين يديه ، وطلبوا اليه الأمان على أرواحهم وعيالهم وبيوتهم ، فكان لهم ما أرادوا[1] . وعاد أبو سفيان بن حرب بعدها إلى مكة ينادي أهلها بعهد الأمان الذي ارتضاه النبي ﷺ على نفسه نحوهم ويقول : « يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به . من دخل داري فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن . . . يا معشر قريش ، أسلموا تسلموا »[2] .

دخول مكة :

ما أن أطلت فرقة خالد على مشارف مكة حتى أمطرها القرشيون بنبالهم ، فكرّ خالد عليهم بجيشه وقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم . فلاذوا بالفرار ، واعتصموا برؤوس الجبال بعد أن قُتل منهم ثلاثة عشر وقُتل من جيش خالد ثلاثة فقط[3] . وفي رواية أخرى : خسر القرشيون ثمانية وعشرين مقاتلاً ، وخسر خالد اثنين فقط[4] .

ودخل خالد مكة ، كما دخلها النبي والقادة الباقون ، ظافراً منتصراً ، واشترك مع النبي ﷺ في تحطيم أصنامها .

---

(١) كان ابو سفيان وحكيم بن حزم وبديل بن ورقاء قد خرجوا الى ضواحي مكة يتنسمون اخبار جيش النبي ﷺ لما التقاهم العباس ، عمه ، فاقتادهم ليدخلوا الاسلام على يدي النبي ﷺ (ابن الأثير ، م . ن . جـ ٢ : ٢٤٥) .

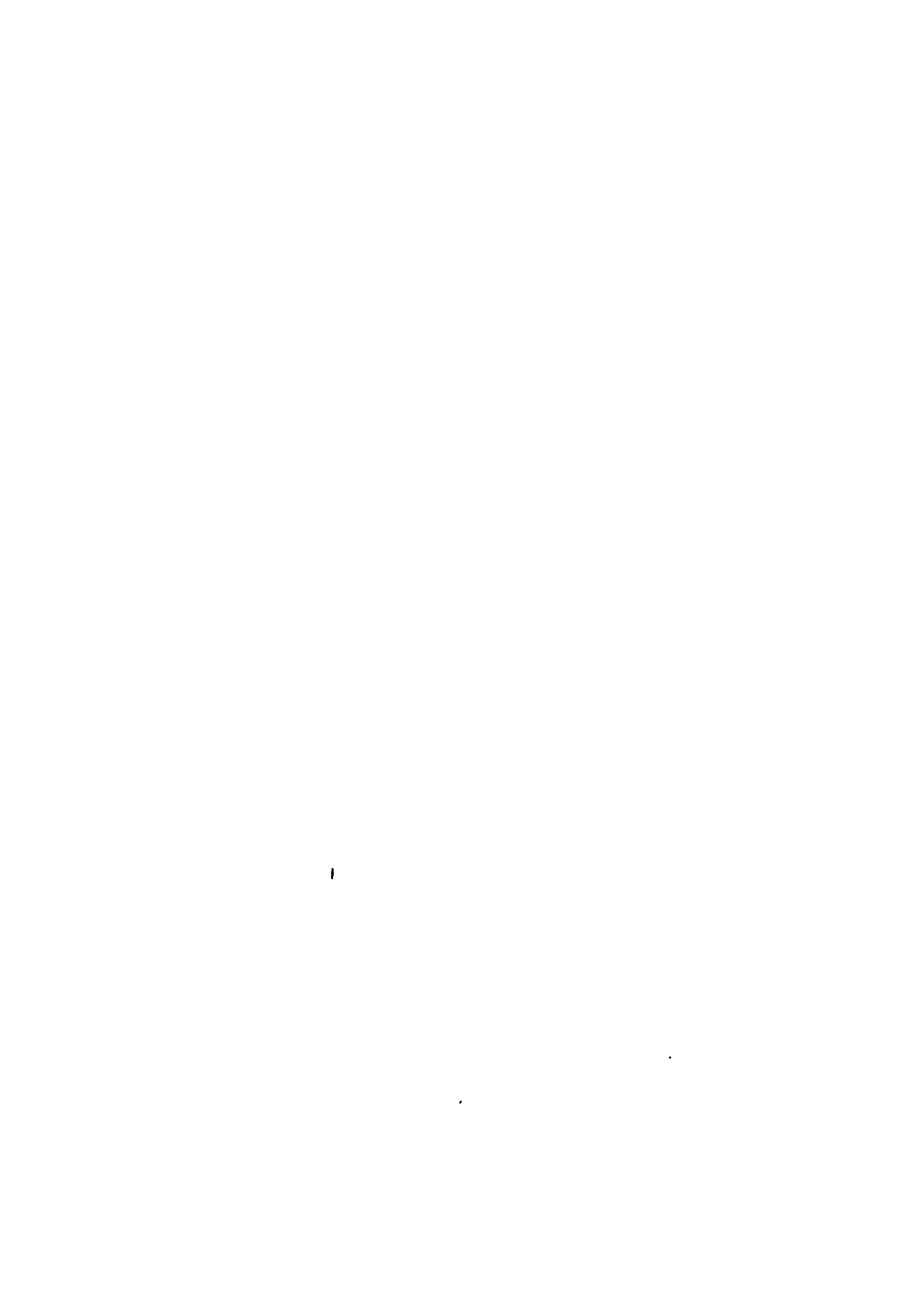
(٢) ابن الأثير ، م . ن . جـ ٢ : ٢٤٦ ، وقد رغب النبي ﷺ في اعطاء هذا العهد مراعاة منه لزعيم قريش . وذكر ابن الأثير ان النبي قال ايضاً : « من دخل دار حكيم بن حزم فهو آمن » .

(٣) م . ن جـ ٢ : ٢٤٧ .

(٤) هيكل ، حياة محمد ، ص ٣٩٠ .

وعفا النبي ﷺ ، بعد فتح مكة ، عمن كان قد أساء اليه من قريش وأهله في بدء دعوته .

وفي اجتماعه الأول بهم ، بعد استسلامهم له ، سألهم : « يا أهل مكة ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ » فأجابوا : « خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم » ، فقال : « إذهبوا فأنتم الطلقاء » . وذهب قوله في التاريخ رمزاً للمحبة والصفح والغفران .



الفصل الثالث

خالد في حروب الردة :

الردة :

توفي النبي محمد ﷺ في الثامن من حزيران من العام ٦٣٢ ميلادية ، الموافق للسنة الحادية عشرة هجرية . فاستكبر عامة المسلمين موته ، واتخذ منه بعض القبائل ذريعة للارتداد عن الاسلام . واختار المسلمون أبا بكر خليفة لهم ، وكان على الخليفة الجديد أن يعيد إلى الحظيرة ، بالنصح والارشاد ، من ارتد من المسلمين ، فإن لم يرتدع فالحكم للسيف .

وهكذا كان ، إذ لم ينفع نصح ولم يجدِ إرشاد ، فكلف أبو بكر أحد عشر قائداً من قادة المسلمين تأديب المرتدين وردعهم ، وكان خالد أحد هؤلاء القادة[1] .

---

(١) وهؤلاء القادة هم : عكرمة بن ابي جهل ، والمهاجر بن ابي اميّة ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن سعيد ، وحذيفة بن محصن ، وعرفجة بن هرثمة ، وسويد بن=

قام خالد ، في حروب الردة ، بدور كبير ومهم ، وكان له في انتصار المسلمين على المرتدين نصيب كبير . بل كان دوره في هذه الحروب من أكبر الأدوار العسكرية في التاريخ الاسلامي ، إذ كان ينتقل بجيشه الصغير من قبيلة إلى قبيلة ، ومن حملة إلى حملة ، حاملاً النصر للمسلمين أينما حل ، منتزعاً لهم الغلبة أينما قاتل . فكان بحق بطل حروب الردة وقاهر المرتدين .

بعض من قاتل خالد من المرتدين :

أما أشهر من قاتل خالد من المرتدين فهم :

طليحة بن خويلد الأسدي : وكان قد ادعى النبوة في عهد النبي فأخرسه النبي ، لكنه عاد سيرته الأولى بعد وفاة محمد ، وتبعه كثيرون من قبائل أسد وغطفان وطيء وعدي . فسار خالد لمحاربته وأتباعه ، وقصد طيئاً ، فعادت إلى الاسلام بلا حرب ، وتبعتها عدي . أما طليحة فقد عهد خالد بأمره إلى اثنين من قادته ، فقاتلاه وقتلاه ، وعاد جميع أتباعه الى الاسلام .

أم زمّل :

إلا ان فلولاً من بني أسد وغطفان وطيء وسُليم وهوازن اجتمعت حول امرأة شديدة البأس تدعى (أم زمّل) أعلنت عصيانها ، فسار آليها خالد وقاتلها قتالاً شديداً ، فقتل أم زمّل ومئة رجل من أتباعها .

= مقرّن ، والعلاء بن الحضرمي ، ومعن بن حاجز (عند الطبري : طريفة بن حاجز) ، وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد (ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٣٤٦) .

قبيلة بني عامر :

وارتدت قبيلة بني عامر بعد أن رأت ارتداد قبيلتي أسد وغطفان ، ثم عادت إلى الاسلام على يد خالد بلا قتال .

مالك بن نويرة :

وسار خالد لقتال مالك بن نويرة في البطاح ، وكان قد ارتد ، فلما وصل خالد اليها لم يجد مالكاً فيها ، وكان هذا قد ندم على ارتداده عن الاسلام ففرَّق رجاله ونهاهم عن الاجتماع . ووزع خالد رجاله ، حين وصوله ، إلى سرايا ، وطلب منهم أن يؤذّنوا بالناس كلما نزلوا منزلاً ، فإن أجاب القوم الأذان وآتوا الصلاة كفوا عنهم ، وإلا قاتلوهم . وكان أن وصل مالك ومعه نفر من بني ثعلبة بن يربوع ، فاختلفت السرية التي أذّنت فيهم فيما بينها ، من قائل بأنهم اجابوا الآذان وأقاموا الصلاة ومن نافٍ لذلك . فأمر خالد بأسر مالك ورجاله وحبسهم ، وكان الليل بارداً ، فنادى المنادي أن « دافئوا اسراكم » ، والدفء في لغة كنانة (القتل) ، فما كان من الموجلين بالأسرى ، وهم من أهل كنانة ، إلا أن قتلوهم . وقد قتل ضرار بن الأزور مالك بن نويرة . وكان قتل مالك الخطأ العسكري الأكبر ، وربما كان الوحيد الذي ارتكبه خالد في حياته العسكرية . وقد حمّل المؤرخون خالداً تبعة ذلك الخطأ وان كان عن غير قصد منه[1] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٣٥٨ .
وفي رواية اخرى أن مالكاً قتل بعد مناقشة حامية بينه وبين خالد . يقول العقاد في كتابه « عبقرية خالد » ، ص ٩٤ - ٩٥ ، ما يلي :
« تضطرب الروايات في نقل حديثهما (أي حديث خالد ومالك) فلا يُدرى له نص صحيح . فقيل ان مالكاً صرح بأنه لا يعطي الزكاة وانما يقيم الصلاة ، فقال خالد : =

قتال مسيلمة الكذاب(١) ـ معركة عقرباء أو (حديقة الموت) :

هـو مسيلمة بن ثمـامة بن كبـير بن حبيب بن الحارث سيّـد بني حنيفة ، وكان قد ادعى النبوة في حياة النبي محمد ﷺ ، وساومه في أن يترك له الأمر من بعده ، فزجره النبي ﷺ ، ولما مات محمـد عاد إلى ادعائه وارتد عن الاسلام مع قبيلته(٢) .

= أما علمت ان الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ فقال مالك : قد كان صاحبك (ويقصد النبي ﷺ) يقول ذلك . . . فقال خالد : أوما تراه لك صاحباً ؟ . ثم حمي الجدل بينهما حتى أمر بقتله » . . . ويتابع العقاد فيقول : « ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذي لا يتماسك لوهيه . . . وقيل ان مالكـاً لمح في عيني خـالد الاعجاب بامـرأته فصـاح به : هـذه التي قتلَتني ، فقال لـه خالـد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام . . . وقيل ان خالداً توعد مالكاً بالقتل فقال له مالـك : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال خالد : وهذه بعد تلك ؟ (يقصد « صاحبك » الاولى) .
ثم تكلم ابو قتادة الانصاري وعبدالله بن عمر في أمره ، فكره خالد كلامهما . وعاد مالك يقول له : يا خالد ، ابعثنا إلى ابي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ، فقال خالد : لا اقالني الله إن أقلتك ، وتقدم إلى ضرار بن الأزور أن يضرب عنقه » .
وفي رأينا أن الرواية التي وردت على لسان ابن الاثير هي الرواية الصحيحة ، اذ ان ما عرف عن خالد من رجاحة في العقل وحكمة لا يسمح بقبول بقية الروايات التي صدق العَقاد في وصفها بأنها من نسج الخرافة « الذي لا يتماسك لوهيه » .
ونلفت النظر ، في هذا المجال ، الى رواية للبلاذري في كتابـه (فتوح البلدان) ان سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدي لقيت مالكاً وجماعته ، فاقتتلوا واسر ضرار مالكاً وجماعة معه ، « فأتى بهم خالداً ، فأمر بهم فضربت اعناقهم ، وتولى ضرار ضرب عنق مالك » . (البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٧) .

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٣٦٠ ـ ٣٦٦ ؛ وقارن :
الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ : ٢٤٣ ـ ٢٥٤ ،
وتاريخ ابن خلدون ، جـ ٢ : ٨٧٦ ـ ٨٨١ .

(٢) قال ابن اسحق : وقد تكلم في عهـد الرسـول ﷺ الكذابـان : مسيلمة بن حبيب (الكذاب) باليمامة في بني حنيفة ، والاسود بن كعب العنسي بصنعاء (ابن هشام ، سيرة النبي ، جـ ٤ : ٢٠٩) .

وكان خالد لا يزال في البطاح لما أرسل الخليفة أبو بكر جيشاً بقيادة عكرمة بن ابي جهل لقتال مسيلمة ، وأتبعه بجيش آخر رأس عليه شرحبيل بن حسنة ، « وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفردا بالهجمة على اليمامة »[1] . ولكن بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده ، فهجم على مسيلمة . وقبل أن يصل شرحبيل إلى ميدان القتال كان مسيلمة قد هزم عكرمة ، فبقي شرحبيل مكانه في منتصف الطريق ، وطلب إلى الخليفة أن يمده بأعداد من الجند قبل أن يستأنف المعركة مع مسيلمة ، فأمره الخليفة بالتوقف حتى يأتيه أمره .

وعاد خالد من البطاح بعد أن قاتل المرتدين فيها ، وكان حزيناً مغموماً لما لاقاه مالك بن نويرة ورجاله على ايدي جنده من نهاية مفجعة ، فاستغفر الخليفة عما بدر منه ، وغفر له الخليفة ووجّهه شطر شرحبيل ليعينه على قتال مسيلمة . ولكن شرحبيل كان قد تابع سيره في هذه الأثناء وفعل فعل عكرمة فالتقى بجيش مسيلمة وقاتله ، فهزمه مسيلمة ، ولامه خالد على تسرّعه .

سار خالد للقاء مسيلمة بجيش لم يتجاوز العشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار والأعراب (البدو وأهل القرى) . وكان على رأس المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطّاب ، وكانت رايتهم مع سالم مولى أبي حذيفة . وعلى رأس الأنصار ثابت بن شماس ، وكانت رايتهم مع ثابت نفسه . وقد اجتمع في جيش خالد أبطال المسلمين من صحابة النبي ﷺ ، فلما وصل إلى البطاح أقام بها ينتظر وصول المدد اليه . وبعد أن أمده الخليفة « بمن يكون له درءاً لئلا يؤتى من خلفه » تابع سيره

---

(1) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ٨٩ .

(وكان جيشه قد تجاوز ، بعد إمداده ، العشرة آلاف مقاتل بقليل) حتى وصل إلى اليمامة حيث ينزل بنو حنيفة أتباع مسيلمة وكانوا أربعين الف مقاتل .

ولما بلغ مسيلمة خبر دنو خالد عسكر بعقرباء[1] ، مختاراً بنفسه أرض القتال ، وجاعلاً ريف اليمامة وحصونها وراء ظهره . وأرسل لملاقاة خالد سرية تبلغ زهاء ستين مقاتلاً بقيادة مجاعة بن مرارة . واشتبك مجاعة بمقدمة جيش المسلمين ، ففتكوا برجاله جميعاً وأخذوه اسيراً (لما كان له من مكانة بين قومه) . وكان المسلمون قد ضربوا خيامهم في تلك البقاع ، فائتمن خالد زوجته ، أم تميم ، على مجاعة ، وخرج يهيء جيشه للقتال .

ورأى مسيلمة هزيمة مجاعة وجنده ، فتقدم بنفسه ، على رأس جيشه ، للقتال ، وكان معه ابنه شرحبيل يحرض المقاتلين ويحثهم للذود عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بقوله : « يا بني حنيفة ، قاتلوا فإن اليوم يوم الغيرة ، فإن انهزمتم تُستردف النساء سبيات ، ويُنكحن غير حظيات . فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » .

المعركة :

وفي عقرباء ، عام ١١ هـ ، التقى الجيشان . وكان أول من لقي المسلمين من بني حنيفة « نهّار الرجال ابن عفوة » ، فانبرى له زيد بن الخطّاب ، قائد جيش المهاجرين ، وقتله . ثم اشتد القتال واستعر ،

---

(١) عقرباء ، منزل من أرض اليمامة وفي طرفها (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٦ : ١٩٣ - ١٩٤) .

ولم ير المسلمون معركة أعنف منها قط ، فانهزموا ، وتوغل جيش مسيلمة في مضارب المسلمين حتى وصل إلى فسطاط خالد . وبينما كان خالد يقاتل خارج الفسطاط خلص بنو حنيفة إلى مجاعة ، وكان أسيراً بين يدي زوجة خالد ، مقيداً بالاغلال كما أسلفنا ، فأنقذوه منها ، وأرادوا قتلها ، فمنعهم مجاعة قائلاً : « أنا لها جار ، فنعمت الحرة هي » ، ثم قال : « أتركوها وعليكم بالرجال » .

ورأى المسلمون ما أصابهم من هزيمة ، وكان يوماً عصيباً عليهم ، فتداعوا للقتال من جديد واستنهضوا الهمم ، فصاح ثابت بن قيس بن شمّاس قائد جيش الأنصار : « بئس ما عوّدتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عني حتى أريكم الجلاد» ، ثم قاتل حتى قُتل[1] . وصاح زيد بن الخطّاب قائد جيش المهاجرين : « لا نحور بعد الرجال ، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أُقتل » ، ثم قاتل حتى قُتل[2] . وكذلك قاتل أبو حذيفة حتى قُتل أيضاً . ثم طلب خالد من حُماته أن يصونوا ظهره لئلا يؤتى من خلفه وحمل بمن معه على المرتدين وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ردهم إلى أبعد مما كانوا فيه . ودامت الحرب سجالاً بين الفريقين ، يتبادلان الكر والفر ، والهزيمة والنصر . فما رأى المسلمون في حروبهم أشد من هذه الحرب أواراً ، وقد قُتل معظم قادتهم فيها وكادوا يقنطون من الفوز .

قوّتان تتصارعان ، وخصمان عنيدان يتعاركان ، دون أن يتمكن

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ٣ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ . ويروي ابن الأثير ، وكذلك الطبري ، أن احد المشركين قطع رجل ثابت ، فضربه هذا الأخير بها فقتله (ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٣٦٥ ، والطبري ، م . ن . ص . ن)

(٢) ابن الأثير ، م . ن . ص٣٦٣ .

أي منهما من الوصول إلى نصر حاسم ؛ فلن يكون النصر ، إذن ، إلا لمن فكَّر وقدَّر . .

وفكَّر خالد ، وفي اللحظات الحرجة والخطيرة يصعب التفكير الهادىء السليم ، ولكن القائد العبقري لا بد أن تلتمع في خاطره ، وفي اللحظات الحاسمة ، ومضات نيّرة تدله على الطريق .

« امتازوا أيها الناس ، لنعلم بلاء كل حيّ ، ولنعلم من أين نؤتى»[1] . هذا هو الأمر الذي أصدره خالد إلى جميع الفرق في جيشه ، ويقصد به أن تمتاز كل فرقة عن أختها ، أي أن تفترق عنها وتقاتل منفردة . وفي هذا يظهر بلاء كل فرقة على حدة ، فيعرف المسلمون من ابلى البلاء الحسن ومن صمد منهم في المعركة ، ويعرفون من ضعف وجبن وانهزم فأتاهم المرتدون من قِبَله . وفي هذا ، أيضاً ، دفع خالد بالتنافس على القتال بين المسلمين إلى أقصى مداه . ونُفِّذ الأمر بسرعة كبيرة ، وامتازت كل فرقة عن الأخرى فقاتل المهاجرون والأنصار في جهة ، والأعراب في جهة أخرى . واشتد القتال ، واشتد التنافس ، وبلغت الحماسة بين المسلمين أوجها . فكل فرقة تود أن تنال النصر ، وكل فرقة تود أن تنال شرف الغلبة فيندفع جنودها إلى الموت دون وعي ولا روية .

واستمر القتال ساعات عديدة كثر فيها القتلى من الفريقين . وثبت مسيلمة حتى أنهك القتال جنده فبدأت رحى المعركة تدور عليه ، ولكنه ظل صامداً قوياً ولم ينهزم .

وعاد خالد من جديد الى التفكير الخاطف الحاسم ، واستنتج : لا

---

(١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٣٦٣ .

يهزم العدو إلا إذا سحق رأسه ، ولن تنتهي المعركة إلا بموت مسيلمة . وقرر فصاح : من يبارز ؟ وبرز إليه كثيرون من أشد رجال العدو بأساً فبارزهم وصرعهم .

في هذه اللحظات الحاسمة كان التنافس بين فرق المسلمين قد بلغ أشده . كل قبيلة تقاتل تحت رايتها وتطلب النصر . وقد صبر جنود خالد صبراً جميلاً ، فثبتوا وناضلوا وما يئسوا ، بينما تخاذل جنود مسيلمة وكادوا ييأسون من النصر .

وتقدَّم خالد ، في هذه الأثناء ، من مسيلمة ودعاه إلى الحق والاذعان والعودة الى الدين الحنيف ، فكان في كل مرة يدعوه يعرض بوجهه ليستشير « شيطانه » ، فينهاه « شيطانه » عن القبول . ودعاه خالد إلى القبول مرة أخيرة ، فأعرض ، ففاجأه خالد « وركبه وأرهقه » وصاح بجنده ان « دونكم ، لا تقيلوهم »[1] . فهرب مسيلمة منهزماً أمام خالد ووراءه جنده يعدون . وتبعهم خالد وجنده إلى أن لجأوا إلى حديقة تدعى « حديقة الموت » ، فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها . فاقتحم[2] خالد عليهم الحديقة بجنده وقاتلهم فيها قتالاً شديداً إلى أن قتل مسيلمة بيد وحشي[3] الذي رماه بحربة أصابته في جنبه فخرجت من جنبه الآخر ، فأجهز عليه سماك بن خرشة بسيفه .

---

(١) أي لا تتركوهم .

(٢) يروي ابن الأثير ان البراء بن مالك طلب إلى المقاتلين من رفاقه أن يحملوه حتى يشرف على جدار السور الذي يحيط بالحديقة ففعلوا ، فهبط على الباب وقتل حراسه وفتحه وأدخل جند المسلمين الى الحديقة فقتلوا مسيلمة ومن معه (ابن الاثير ، م . ن . جـ ٢ : ٣٦٤) .

(٣) قاتل حمزة عم النبي في معركة أحد ، وقد أسلم بعدها .

ووضع مقتل مسيلمة حداً لذلك القتال الشديد ، إذ تزعزعت قوى العدو وانهارت بعد مقتل زعيمها . واشتدت قوى المسلمين وتأججت الحمية في صدورهم ، ففتكوا بجند مسيلمة فتكاً ذريعاً لم يترك لمجاعة الخيار ، وقد تولى القيادة بعد مسيلمة ، فأعلن استسلامه وجنده مُقراً بالهزيمة ، طالباً الصلح .. وكان القتال قد أنهك جند خالد كذلك ، ولم يبق من جيش مسيلمة سوى النساء والصبية والشيوخ والضعفاء من الرجال ، فوافقه خالد على طلبه وأوقف القتال .

وقد بلغت خسائر المسلمين في هذه المعركة نحو ألف قتيل، بينما بلغت خسائر المرتدين نحو عشرين الفاً[1] .

الصلح :

لما عرض مجاعة الصلح على خالد قال له ، وكانت حصون بني حنيفة وراء حديقة الموت التي انتهى القتال فيها : « ان الحصون

---

(١) الطبري ، م.ن. جـ٣ : ٢٥٢ ؛ وقارن : ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٣٦٥ . وقد اتفقت روايتا الطبري وابن الاثير فيما يخص عدد قتلى المرتدين من بني حنيفة (سبعة آلاف في عقرباء ، ومثلها في الحديقة ، وفي الطلب نحو منها) ، بينما اختلفت روايتاهما فيما يخص عدد قتلى المسلمين ، فبينما يروي الطبري أن قتلى المسلمين (ثلاثماية وستون من المهاجرين والانصار من أهل المدينة ، وثلاثماية من المهاجرين من غير اهل المدينة وثلاثماية من التابعين باحسان) يروي ابن الاثير أن قتلاهم (ثلاثماية وستون من المهاجرين والانصار من اهل المدينة وثلاثماية من المهاجرين من غير أهل المدينة) دون أن يأتي على ذكر القتلى من التابعين باحسان .

ويميل المؤرخ محمود الدرة ، في كتابه (تاريخ العرب العسكري ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣) ، إلى تأكيد هذه الأرقام اعتقاداً منه ان جيش مسيلمة قد أبيد في هذه المعركة عن آخره ، ويستشهد على ذلك بالمؤرخ الايطالي (كاتياني) الذي يقول ان قبيلة بني حنيفة التي كانت قبل الاسلام كثيرة العدد لم يسمع عنها خلال عمليات الفتح ، ويكاد اسمها يندرس في تاريخ الاسلام ، مما يدل على إبادتها .

مليئة بالرجال ، فهل تريد الصلح على ما ورائي ؟ » . فصالحه خالد على كل شيء دون الأنفس . ولكن مجاعة استمهله القبول ليشاور قومه في الأمر ،، ثم انطلق الى الحصون ، ولم يكن قد بقي فيها سوى النسوة والشيوخ والضعفاء ، فأمر النسوة أن ينفشن شعورهن ويلبسن الحديد ويقفن عليها ، وعاد إلى خالد فقال له : « لم يرضَ قومي بشروط الصلح ولم يجيزوا لي ما فعلت » . وظن خالد أن الحصون مليئة بالرجال فعلاً ، وكان قد رغب عن متابعة القتال لأن الحرب كانت قد أنهكت جيشه كما أسلفنا ، فصالح مجاعة على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي . ولما فتحت الحصون ودخلها خالد لم يجد فيها سوى من ذكرنا ، فقال لمجاعة : « ويحك ، لقد خدعتني » ، فأجابه مجاعة : « انهم قومي ولم أستطع إلا ما صنعت » .

إستنتاج :

أ ـ قبل المعركة :

كان وضع المتقاتلين قبل المعركة كما يلي :

ـ كانت معنويات المرتدين في ارتفاع مطرد بعد هزيمة عكرمة وشرحبيل .

ـ كان المرتدون في ديارهم على أرض يعرفونها وبين قومهم .

ـ كان عدد المرتدين يفوق عدد المسلمين بأربعة أضعاف .

ب ـ في المعركة :

ـ تميز المسلمون عن المرتدين بأن حارب المسلمون لأجل عقيدة

آمنوا بها إيماناً راسخاً وبقيادة قائد يتفوق بمقدرته وخلقه ، بينما حارب المرتدون لأجل مصلحة قبليّة وبقيادة زعيم هو نفسه صاحب المصلحة .

ـ ارتكب مسيلمة خطأ عسكرياً عندما لجأ إلى الحديقة رغم أن الحصون لم تكن بعيدة عنها ، ولو انه فزع إلى الحصون لكان من العسير على خالد أن يهزمه .

ـ لم يكن هناك أقل توازن بين القوى ؛ فقد واجه خالد بآلافه العشيرة مسيلمة بآلافه الأربعين وانتصر عليه في معركة تشابه فيها سلاح الفريقين مادياً .

وإذا حاولنا أن ندرس موقف خالد في هذه المعركة استطعنا التوصل الى النتائج التالية :

ـ قارن خالد ، ولاشك، بين قواه وقوى عدوه ، فتأكد انه لن يتمكن من الانتصار عليه إلا اذا اعتمد في قتاله سلاحين لا بد أن يكون أحدهما في خدمة الآخر وهما :

١ ـ التنظيم الذي اعتمده في هذه المعركة ، وهو « توزيع الفرق والتمييز بينها » ، فأمّن بذلك عنصر الصمود والتنافس بين المقاتلين لبلوغ النصر ، بالاضافة الى عنصري الحركة والاستمرار .

٢ ـ السلاح المعنوي الذي أدّى في المعركة دوراً أساسياً ومهماً .

فبينما اعتمد خالد في قتاله على جنود يقاتلون في سبيل عقيدة ، ويحاربون لنصرة دين ويعملون تحت راية قائد يثقون به وبعبقريته العسكرية، اعتمد مسيلمة في قتاله على جنود لا يقاتلون في سبيل عقيدة ولا لنصرة دين ، وإنما في سبيل مصلحة قبليّة (بني حنيفة) ولأجل

منافع شخصية ، ويعملون تحت راية زعيم لا يؤمن هو نفسه بما يحارب لأجله .

كيف استفاد خالد من هذا التناقض ، وكيف جعل من القوى المعنوية لدى جنده سلاحاً أساسياً وفعّالاً في المعركة ؟

ـ عرف خالد ، بعبقريته ، أن روح التنافس تعطي جنده من الهمة والحميّة والنخوة ما لا يمكن لعدوه أن يحصل على مثلها ، فعمد إلى « توزيع القوى » حيث حاربت كل فرقة منفردة وتحت رايتها .

ـ عرف خالد أنه لن يتمكن من إحراز النصر على عدوه إذا بقي القتال سجالاً بينهما ، فلا بد من اعتماد وسائل أخرى غير وسائل الحرب التقليدية ، وسائل ترفع من معنويات جنده وتحطم معنويات عدوه ، فدعا إلى المبارزة ، وبارز خصومه وقتل كثيراً منهم .

ـ عرف خالد ، أيضاً ، أن مسيلمة هو رأس الجيش ولا رأس غيره ، وأنه هو السبب والغاية ، **فقتله** ، **إذاً** ، **ينهي** ، **ولا شك** ، **المعركة** ، ففاجأه « وركبه وأرهقه » إلى أن التجأ بجنده إلى « حديقة الموت » حيث قضي عليه بضربة رمح ، وبقتله انتهت المعركة لمصلحة خالد .

وسخر خالد ، لبلوغ الهدف :

أ ـ براعة التكتيك وحسن اختيار الوقت : فقد كان يعمد في اللحظات الحرجة الحاسمة إلى الخطة التي تضمن له النصر ، ويكفل تنفيذها في الوقت المناسب .

ب ـ **سرعة الحركة** : أعطى أمراً بتميُّز الفــرق ، فنُفِّذ الأمـر فوراً وبسرعة .

ج ـ **إتقان مباغتة العدو** : فاجأ مسيلمة فركبه وأرهقه ، فانهزم هذا وهرب ، فهرب جنده خلفه .

د ـ **الإستمرار البطولي والصمود الرائع في القتال** : فما هان جنده وما تخاذلوا . وكان القادة يتقدمون الجند إلى الموت ، ويدعونهم إليه ، مبشرينهم بالخلد بعده .

فكانت هذه المعركة ، بحق ، رائعة من روائع خالد ، وصفحة مشرقة من صفحات عبقريته العسكرية الخلّاقة .

القسم الثاني : معارك خالد في العراق

الفصل الأول

من كاظمة إلى أُلَيَّس

الانطلاق الى العراق :

في أواخر السنة الحادية عشرة للهجرة فرغ خالد من قتال المرتدين ، فأعاد للدين الاسلامي هيبته وركز دعائمه في الجزيرة العربية .

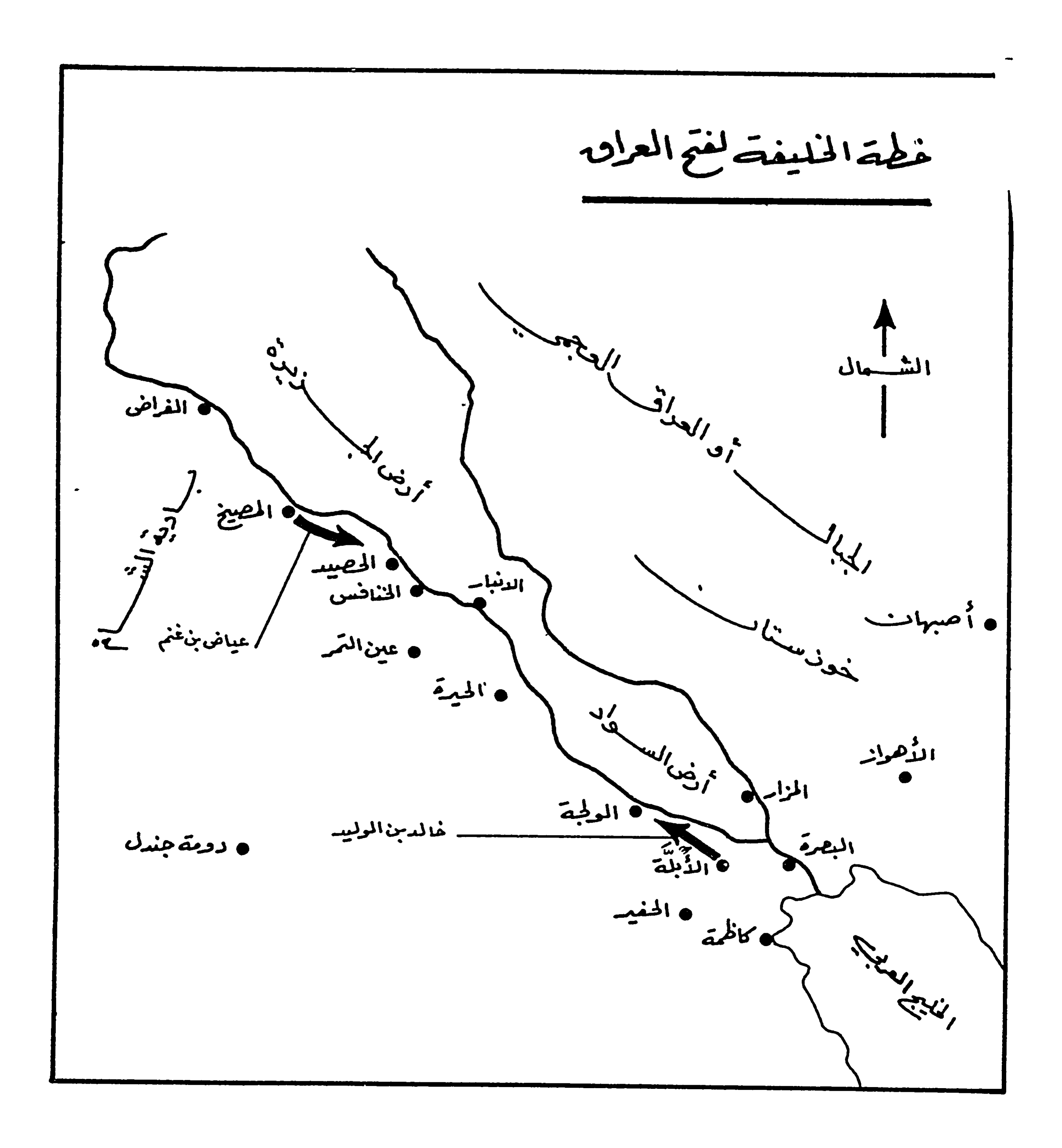
ومن أرجاء الجزيرة ، وبعد أن استتب الأمر للمسلمين فيها ، عزم الخليفة أبو بكر على أن ينطلق بالدين الجديد نحو أرجاء أخرى من المشرق . وكانت دولة الفرس تكاد تتزعزع تحت وطأة المنازعات الداخلية بين قادتها وزعمائها ، إذ « خفت صوت الدين فيها »[1] ،

(١) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١١١ .

فبعد أن مضى على ظهور « زرادشت » ، الزعيم الديني الفارسي الكبير ، زهاء أربعة عشر قرناً ، أصبح الفرس بحاجة إلى تجديد عقيدتهم ، خاصة وأن المذهب الزرادشتي كان ، في أواخر عهد الساسانيين ، قد فقد الكثير من معانيه الانسانية ، فبهت تألقه الروحاني ، وانهارت أسسه العقيدية[1] وانقلب إلى« تنظيم ، أو جهاز ، مكرس لخدمة طبقتين متميزتين في المجتمع الساساني ، هما طبقة الكهنة وطبقة النبلاء »[2] . مما جعل جماهير الفرس غير متعلقة بالدين القديم الذي لم يعد يقوى على الوقوف في وجه دين جديد ساوى بين الناس جميعاً ، ناهيك بأن ملوك الفرس خلفوا في قصورهم أمراء ضعفاء شغلوا بالنزاع فيما بينهم فأضاعوا هيبتهم ، وكانت تلك أول خطوة في طريق ضياع ملكهم .

وأدرك الخليفة الوضع المتهاوي الذي تتخبط فيه دولة الفرس ، وأن الوقت المناسب قد حان لغزو تلك الامبراطورية ذات الأمجاد الغابرة وإخضاعها . فكتب إلى خالد ، وكان يومذاك في اليمامة ، يأمره بالتوجه إلى العراق لمحاربة فارس ويقول له : « سر إلى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند »[3] ، وهي الأُبُلَّة[4] . ثم كتب إلى عياض

(١) كريستنسن ، ايران في عهد الساسانيين ، تعريب يحيى الخشاب ، ص ٤٢١ .
(٢) احمد لواساني ، نظرات جديدة في تاريخ الادب ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩ .
(٣) فرج الهند : ثغرها .
(٤) الابلة ، بضم الألف والباء وفتح اللام مع تشديدها ، وقيل بفتح الألف والباء : بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ١ : ص ٨٩) ، وهي ثغر تسير منه تجارة فارس الى الهند والسند بل اعظم ثغور فارس شأنا .



خطة الخليفة لفتح العراق
الشمال
الفراض
المصيخ
الحصيد
الخنافس
الأنبار
عين التمر
الحيرة
عياض بن غنم
أرض الجزيرة
أو العراق العجمي
الجبال
خوزستان
أصبهان
الأهواز
أرض السواد
المزار
البصرة
الولجة
خالد بن الوليد
الأبلة
الحفير
كاظمة
دومة جندل
الخليج العربي

ابن غنم ، وكان بين النباج[1] والحجاز ، يأمره بأن يغزو العراق من أعلاها بادئاً بالمُصَيَّخ[2] ويقول له : « سر حتى المصيخ فأبدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالداً . وأذنا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحا بمتكاره »[3] .

وانطلق القائدان كل في الطريق المحددة له من قبل الخليفة ، فانفض عنهما كثير من جندهما . وطلب كل منهما من الخليفة مدداً ، فأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي[4] ، وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميري ، وأوصاهما باستنفار من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الاسلام بعد الرسول ، ونهاهما عن الاستعانة بمرتد ، واستنصرهما بالمثنى بن حارثة الشيباني . وكان المثنى قد قدم اليه وطلب منه أن يؤمّره على بني قومه في العراق ليقاتل بهم الفرس ، فكان له ما أراد ، وأخذ يغير بناحية كسكر[5] تارة وفي أسفل الفرات تارة أخرى . فلما وصل

---

(١) النباج : موضع على بعد عشر مراحل من البصرة ، أو هي قرية في بادية البصرة في منتصف الطريق بين مكة والبصرة (ياقوت ، م . ن . جـ ٨ : ٣٤٣) .

(٢) المصيخ ، بضم الميم وفتح الصاد وتشديد الياء مع فتحها : موضع على حدود الشام مما يلي العراق . جاء في معجم البلدان لياقوت (جـ ٨ : ص ٧٩) ما يلي : « مصيخ بني البرشاء ، وهو بين حوران والقلت ، وكانت به وقعة هائلة لخالد على بني تغلب ، ومصيخ بهراء ، وهو ماء آخر بالشام ورده خالد بن الوليد بعد « سوى » في مسيره الى الشام » .

(٣) اي « لا تكرها أحداً على السير معكما للقتال » .

(٤) صحابي من تميم توفي سنة ٤٠ هـ . ويروى ان الخليفة سئل كيف يمد قائداً انفض جنده عنه برجل واحد فقال : « لا يهزم جيش فيه مثل هذا الرجل » (ابن الاثير ، م . ن . جـ ٢ : ٣٨٥) . ويروى كذلك أن المسلمين أخذوا ينضمون الى جيش خالد ثقة منهم بأن جيشاً يقوده خالد وفيه مثل القعقاع لا يهزم .

(٥) كسكر: كورة واسعة بين الكوفة والبصرة (ياقوت، معجم البلدان ، جـ ٧ :٢٥١) .

خالد إلى النباج بعث إليه بكتاب الخليفة ، فأتمر بأمره ولحق به .

لم يكن مع خالد ، إذ تلقى أمر الخليفة بالتوجه إلى العراق لقتال فارس ، سوى عشرة آلاف مقاتل معظمهم من قبيلتي ربيعة ومضر ، ثم لم يلبث المثنى أن أمده بثمانية آلاف مقاتل كانوا معه ، فبلغ جيش خالد ، عند دخوله العراق ، ثمانية عشر الف مقاتل فقط .

بهذا العدد القليل ، على أرض غير أرضه ، وفي بلاد غير بلاده ، استطاع خالد أن يهزم امبراطورية الفرس بجيوشها الجرارة ومراسها في القتال . فقد لقي خالد الفرس وأولياءهم من العرب في خمس عشرة وقعة لم يهزم في واحدة منها قط . فقد كان « يسير بجيشه ابداً على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئاً أو غير مفاجىء »[1] . وكان دائماً ، كما وصفه عمرو بن العاص ، « في أناة القط ووثبة الأسد » ، فهو « لا يهمل الحيطة ، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة . وكان يحارب بثمانية عشر الف مقاتل وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء »[2] ، مما جعله يقابل جيوش الفرس بأعدادها الكثيرة وعدتها ، وحنكة قادتها ، فيغلبهم ويخرج من جميع معاركه معهم منتصراً .

وقعة ذات السلاسل[3] :

قلنا إن خالداً تلقّى أمراً من الخليفة بالسير إلى العراق على أن

---

(١) (٢) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٢٠ .

(٣) سميت كذلك لأن الفرس قيدوا انفسهم بالسلاسل كي لا يهربوا. وقيل انها سميت كذلك لأن خالداً جمع من المتاع ، وفيه السلاسل ، بعد المعركة ، وقر بعير . والقول الأول أصح . وانظر لهذه الوقعة ؛ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٥ ـ ٦ ، =

يدخلها من الأُبُلَّة ، وكان ذلك في المحرم من عام ١٢ هـ . فانطلق بجيشه إلى أن اقترب من مشارفها ، وهي ، كما قدمنا ، ثغر من ثغور فارس على الخليج (الفارسي آنذاك والعربي اليوم) . وكان « هرمز » أمير تلك المنطقة ، فكتب اليه خالد يدعوه للاسلام أو الجزية ، وإلا « فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » . ثم قسم جيشه الى ثلاث فرق :

الأولى ـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، ودليله « ظفر » .

الثانية ـ بقيادة عدي بن حاتم ، وعاصم بن عمرو ، ودليلاهما مالك بن عباد وسالم بن نصر .

الثالثة ـ بقيادة خالد نفسه ، ودليله رافع بن عمير .

وبعد أن حدد لكل فرقة طريقاً تسلكه مختلفاً عن طريقي الأخريين ، سرَّح المثنى قبله بيومين ، ثم سرَّح عدياً وعاصماً أحدهما قبل صاحبه بيوم . وتواعد الجميع على الالتقاء في « الحُفير »[1] ليقاتلوا العدو مجتمعين . ولما علم هرمز بخروج خالد لقتاله انطلق ليلاقيه في الحفير ، وعلى رأس جيشه قائدان من خيرة قواده هما « قباذ وانوشجان » ، من أولاد أردشير الأكبر ملك الحيرة . إلا أن خالداً ما كاد يعلم بخروج

= وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٣٨٥ ـ ٣٨٦ ، وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، جـ ٢ : ٨٨٨ .

(١) الحفير (بلفظ التصغير) : ماء لباهلة ، بينه وبين البصرة اربعة اميال (ياقوت ، م.ن. جـ ٣ : ٣٠٤) . وقيل حفير (بلفظ التصغير ايضاً) : أول منزل من البصرة لمن يريد مكة (ياقوت ، م.ن. جـ ٣ : ٣٠٣) .

هرمز حتى مال بجيوشه الى « كاظمة »[1] بعد ان وقع اختياره عليها مكاناً للصدام ، وسنورد فيما بعد أسباب هذا الاختيار .

وبلغ هرمز ذلك ، فسبق خالداً إليها[2] وعسكر على ماء هناك ، ثم استعد للقتال بعد أن اقترن جنوده بالسلاسل . ولما وصل خالد إلى كاظمة ووجد أن هرمز قد سبقه إليها واستحوذ على مائها أمر المنادي فنادى بجنده أن « انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » .

وتحرك الجيشان للقتال ، فخرج هرمز ، في بدئه ، يدعو خالداً للمبارزة ، وفي يقينه أن يغدر به بعد أن اتفق مع بعض جنده على أن يحيطوا بخالد بعد انفراده في ميدان المبارزة ويقضوا عليه . ونزل خالد لمبارزة هرمز ، وتبارزا راجلين . وما هي إلا ضربتان حتى احتضن خالد هرمز بين يديه يريد القضاء عليه ، فاندفع جند هرمز نحو خالد يبغون الفتك به . لكن القعقاع بن عمرو كان لهم بالمرصاد ، فحمل عليهم وأزاحهم ، ثم أعمل فيهم سيفه فهزمهم « وركب المسلمون أكتافهم حتى الليل » . ولم يشغل كل ذلك خالداً عن قتل هرمز ، فقضى عليه .

الاستنتاج :

يمكن القول إن خالداً اتبع تكتيكاً تضليلياً بارعاً في قتاله مع الفرس

---

(١) كاظمة : في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان (ياقوت ، م . ن . جـ ٧ : ٢٠٨) .

(٢) وفي رواية أخرى أن خالداً سبق هرمز الى كاظمة واستعد للقائه فيها ، ثم فاجأه بالقتال قبل أن يستعد له وقبل أن ترتاح جيوشه من عناء المسير . إلا أن الرواية الأولى أصح ، وقد وردت في معظم المراجع .

بهذه الوقعة ، والمؤكد أن عاملين اثنين قد أثَّرا في سير المعركة بل حددا مصيرها : أولهما مقتل هرمز على يد خالد في أثناء المبارزة ، وثانيهما نزول القعقاع إلى ميدان القتال وهو الذي قال فيه أبو بكر : « لا يهزم جيش فيه مثله » . وهناك أمور أخرى مهمة ساهمت في تقرير مصير المعركة إلى حد كبير ، بل وربما كانت العامل الأساسي في فوز المسلمين وهزيمة خصمهم ، وهذه الأمور هي :

١ ـ قسم خالد جيشه الى ثلاث فرق قبل الوصول الى ميدان المعركة وأمر كل فرقة أن تسلك طريقاً يختلف عن طريقي الفرقتين الأخريين ، ليوهم العدو أن ما لديه من الجند لا يحسب له حساب ، وليدخل في روعه أنه قصد قتاله بجيش ضئيل هزيل . وانطلت الحيلة على هرمز ، فلاقى خالداً بجيش ان كنا لا نعلم عدده فإننا نستطيع التأكيد أنه لم يكن من الضخامة بمكان .

٢ ـ ضلل خالد عدوه ، بادىء الأمر ، باختياره « الحفير » موضعاً للصدام ثم بانحيازه فجأة إلى « كاظمة » ، وإن كنا لا نميل إلى الرواية التي تقول إن خالداً سبق هرمز إلى « كاظمة » ، واستعد للقائه فيها . إلا أنه من المؤكد أن خالداً عمد إلى هذا التغيير المفاجىء قاصداً تضليل العدو وخدعه بتغيير اتجاه سيره ، مما يجعل هذا العدو في حيرة من نيات خالد ومقاصده . فضلاً عن أنه حمل هرمز على المسير من الحفير إلى كاظمة ، وفي ذلك مشقة كبيرة لجنده الذين لم يألفوا السير في الرمال ، بينما هذا الأمر مألوف لدى جند خالد . ناهيك بأن خالداً ، وهو يحارب على أرض غير أرضه ، أراد أن يوفر لجنده أكثر أسباب النجاح ، فجعلهم يحاربون على أرض صحراوية رملية شبيهة بأرضهم ، ان لم

تكن أصلح للقتال من الحفير ، وفي مواقع تلائم طبيعتهم القتالية ، وهذا ما كان له فعلاً .

٣ ـ استغل خالد وجود الماء بأيدي عدوه ليستحث جنده على القتال في سبيل الحصول على الماء ، عصب القتال ، بل عصب الحياة ، وكان له ما أراد .

وقعة الثِّني او المذار[١]

لم يفت خالداً استثمار انتصاره على هرمز وجيشه في وقعة ذات السلاسل ، فكأني به من قادة الحرب الحديثة ، يعرف كيف يستثمر انتصاره فيلحق بالعدو المنهزم المشتت « ويركب أكتافه حتى الليل » ، فلا يدعه يتوارى عن ناظريه ، ولا يدعه يرتاح ليجمع أشتاته .

وهذا ما فعله تماماً بعد وقعة ذات السلاسل ، فما ان تبدد جيش هرمز مكسوراً مندحراً حتى أمر المثنى بن حارثة الشيباني بملاحقة الفرس المنهزمين وبعدم قطع التماس بهم ، وبالضغط عليهم كي لا يدعهم يجمعون شملهم من جديد ، ثم بإخبارهِ عن مصيرهم ، وتزويده بالمعلومات عنهم .

وعبر المثنى الفرات بجيشه متعقباً فلول جيش هرمز ومحاولاً أن يأخذها متفرقة قبل أن تجتمع . ولكن الفرس ، وقد علموا بهزيمة

---

(١) الثني ، بتشديد الثاء وكسرها وتسكين النون : نهر في المذار . والمذار : بلد في كورة ميسان بين واسط والبصرة ، بينها وبين البصرة اربعة ايام (ياقوت ، م . ن . جـ ٧ : ٤٣٣ ، وجـ ٨ : ٢٢٤) . وكانت الوقعة سنة ١٢ هـ . وانظر لهذه الوقعة : ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٨٨٩ ، وابن الاثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ، والطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٧ ـ ٨ .

جيشهم في كاظمة ، وأدركوا أنهم أصبحوا مهددين حتى في « المدائن » عاصمة ملكهم ، تأهبوا للقتال من جديد ، فجمعوا للقاء خالد جيشاً عظيماً قاده « قارن بن قريانس » يعاونه أميران من بيت أردشير ، فأدرك قارن فلول جيش هرمز في « المذار » وضمها إليه ، ثم عسكر على ضفة الثني بانتظار خالد ، جاعلاً على ميمنته وميسرته من تبقّى من جيش هرمز بإمرة قباذ وانوشجان .

وعلم المثنى بخروج هذا الجيش من المدائن واجتماعه بفلول المنهزمين في كاظمة ، وتمركزهم جميعاً في المذار على ضفة نهر « الثني » ، فأرسل إلى خالد يطلعه على ما جرى لدى الاعداء ، « ويستمده » ، فكان خالد نفسه هو المدد .

وصل خالد إلى المذار كامل التعبئة ، متأهباً للقتال . والتقى الجيشان وجهاً لوجه : جيش المسلمين ، وخلفه الفرات ، وأمامه الفرس والثني ، وجيش الفرس ، وخلفه الثني ، وأمامه المسلمون والفرات . ونادى « قارن » : من يبارز ؟ فهرع إليه خالد ومعقل بن الأعشى الملقب بأبيض الركبان . وسبق معقل خالداً إليه وصارعه حتى صرعه . ثم صارع عاصم بن عمرو انوشجان فصرعه . وصارع عدي بن حاتم قباذ فصرعه أيضاً .

وبعد معركة طاحنة مليئة بالحنق والحقد هزم الفرس وقتل منهم مقدار ثلاثين ألف مقاتل « سوى من غرق »[1] . أما الباقون فولوا الادبار عبر نهر الثني ، وكانوا قد أعدوا فيه سفناً للهرب ، فهرب من

---

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ : ٣٨٧ .

نجا منهم . وغنم المسلمون مغانم كثيرة ، حتى قيل إن سهم المقاتل من المغانم بلغ ثلاثين ألفاً .

وأقام خالد بالمذار ، واتخذ منها منطلقاً لتسقُّط أنباء فلول الفرس وملاحقة جيوشهم المنهزمة . « وصارت كل واقعة أنكى على الفرس من التي قبلها » .

إستنتاج :

نستنتج من هذه الوقعة أموراً عديدة وهامّة تبرز لنا جلياً عبقرية خالد العسكرية :

١ ـ **الملاحقة واستثمار النصر :** إن الخطة التي اتَّبعها خالد في استثمار انتصاره بوقعة ذات السلاسل ، وملاحقته العدو وعدم قطع التماس به ومحاولته الضغط عليه كي يمنعه من التقاط أنفاسه ، هذه الخطة هي ، في رأينا، رائعة من روائع خالد العسكرية . ولا أظن قائداً عسكرياً ، مهما بلغ شأنه في إتقان الفن العسكري الحديث ، يمكنه أن يأخذ مأخذاً على خطة خالد هذه أو يجد فيها هنة .

٢ ـ **استمرار التماس وتقصيّ أخبار العدو :** وما قلناه عن خطة خالد بملاحقة العدو واستثمار النصر يمكن قوله عن خطته الرامية إلى استمرار التماس بالعدو على يد المثنى وتقصيّ أخباره ، وقد كان المثنى بارعاً في أداء هذه المهمة .

وقعة الولجة[1] :

احتار الفرس في أمر خالد ، فهو المنتصر في كل معركة معهم رغم

(١) الولجة : أرض بكسكر (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٨ : ٤٣٣) . وكانت الوقعة =

قلة عدد جنده وكثرة عدد جندهم ، وهو القاهر لكل قائد من قادتهم سواء كان اللقاء قتالاً أم مبارزة . واهتدوا أخيراً إلى خطة علقوا عليها الكثير من آمالهم في النصر ، وهي أن يجيِّشوا ضد خالد بني قومه من العرب الموالين لهم ، لعلهم يتمكنون من إحراز الغلبة على المسلمين .

وأرسل أردشير الملك إلى القبائل العربية الموالية له يستنفرها للقتال ، وأهمها قبيلة بني بكر بن وائل ، فاستنفرت ، ثم أمَّر عليها قائداً منها ووجَّهها نحو « الولجة » ، وأتبعها بقائد فارسي يدعى «اندرزعز»، ثم أرسل في إثره قائداً آخر يدعى «بهمن جاذويه» في جيش عظيم . والتقى الجميع في « الولجة » ، وعسكروا فيها بانتظار خالد .

ترتيبات خالد قبل المعركة :

وعلم خالد بالأمر ، فجمع قادته واتخذ الترتيبات التالية :

١ ـ أمر « سويد بن مقرِّن » بلزوم « الحفير » لا يغادرها ، كي يحمي له ظهره .

٢ ـ تقدَّم إلى من استبقى في أسفل دجلة وأمرهم بالاحتفاظ بمراكزهم ، وأوصاهم بأن يكونوا على حذر ويقظة فلا يؤتى من قِبَلهم .

٣ ـ قسم جيشه ثلاث فرق متساوية ، وأمَّر على الأولى « بسر بن أبي رُهْم » ، وعلى الثانية « سعيد بن مرة » وبقيت الثالثة بإمرته . ثم

= في صفر سنة ١٢ هـ . وانظر لهذه الوقعة : ابن الاثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٣٨٧ ، وابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٨٩٠ ، والطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٨ ـ ٩ .

أمر الفرقتين الأولى والثانية بالانفصال عنه والالتفاف على الفرس ومباغتتهم من الخلف عندما يحمى وطيس المعركة وفي وقت حدده لهما ، وتابع هو سيره نحو الولجة .

المعركة :

وصل خالد إلى الولجة وخطته مناوشة الأعداء وإلهاؤهم ريثما تطبق الكمائن عليهم . والتقى الجيشان : جيش خالد ، وهو في الواقع ثلث كامل جيشه ، وجيش اندرزعز بمن فيه من العرب والفرس . ودارت رحى معركة عنيفة طاحنة تبادل فيها المسلمون والفرس النصر والهزيمة ، والكر والفر . وطال أمد القتال وفي رأس كل من القائدين أمل ينتظر تحققه . فخالد يحاور ويداور ، ويدافع ويهاجم ويراوغ ، منتظراً انقضاض كمائنه على العدو ، في الوقت المحدد ، واندرزعز يأمل بأن تنهك قوى خالد ويستسلم ، خاصة وقد رأى قلة عدد جنده وضآلة حجم جيشه فاعتقد أن النصر قاب قوسين منه أو أدنى .

وفجأة ظهر الكمين الأول خلف الفرس وباغتهم في ظهرهم ، فهلعوا للمباغتة وذهلوا ، وما كادوا يستفيقون منها حتى انقض عليهم الكمين الآخر من جهة أخرى . وكرَّ خالد عليهم من جديد مستحثاً همم جنوده للنصر ، فإذا بهم يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم « فلم ير رجلٌ منهم مقتل صاحبه »[1] ، وإذا بقائدهم الاندرزعز يمضي في هزيمته فيموت عطشا .

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٨ .

استنتاج :

اعتمد خالد في هذه المعركة العناصر التي اعتمدها في معظم معاركه مع الفرس في العراق وهي :

١ ـ الحماية من الخلف : إذ استبقى بعض جيشه في البلدان التي فتحها ثم عهد إلى سويد بن مقرِّن وبعض قادته الذين خلَّفهم في هذه البلدان بالمحافظة على مراكزهم كيلا يؤتى من خلفه .

٢ ـ الحيلة واخفاء فكرة المناورة : قسم خالد جيشه ثلاث فرق : فرقة بقيادته تهاجم العدو جبهياً كي تُدخل في روعه أن لا جند لدى خالد إلا جندها ، وفرقتين تكمنان خلف العدو وفي موقعين مختلفين لتنقضا عليه عند اشتداد المعركة . وهكذا ، بينما كان اندرزعز يعلل نفسه بالنصر القريب فيستخف بخالد وجيشه ، إذا به يفاجأ بالكمينين فيسقط في يده ويهزم .

٣ ـ المناورة والمباغتة : كان على خالد أن ينتظر ظهور الكمائن ، فبقي يناور ويحاور مدافعاً تارة ومهاجماً أخرى إلى أن ظهرت المباغتة التي قصمت ظهر العدو وشدت أزر خالد فكان له النصر ولعدوه الخذلان .

وقعة أُلَيّسْ[1] :

إعتبر بعض المؤرخين هذه الوقعة حاسمة في النزاع بين المجوسية

---

(١) أُلَيِّس : قرية من قرى الانبار ، في اول ارض العراق من ناحية البادية (ياقوت ، م.ن. جـ ١ : ٣٢٨) ، وكانت الوقعة في صفر سنة ١٢ هـ ، وانظر لهذه الوقعة : ابن خلدون ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٨٩٠ ، وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ ، والطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٩ ـ ١١ .

والاسلام . فقد فجع العرب الموالون للفرس بكثير من رجالاتهم في وقعة الولجة ، فتنادوا للثأر من خالد وجنده ، وكتبوا إلى الفرس يعرضون عليهم العون والمساعدة ، ثم التقوا جميعهم - وهم من قبائل عجل ، وتيم اللات ، وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة - في الرقعة الوسطى من ديارهم ، أي في أُلَيِّس ، وعسكروا هناك بانتظار جحافل الفرس . وكان على رأسهم عربي من بني عجل يدعى عبد الأسود العجلي ، ومعه جابر بن بجير ، وقد خسر كل منهما ابناً له في وقعة الولجة على يد خالد ، فدفعهما طلب الثأر إلى منازلة خالد من جديد .

وكتب اردشير إلى قائده « بهمن جاذويه » يأمره بالتوجه إلى « أُلَيِّس » ليلتقي بمن فيها من العرب الموالين ، ثم أوفد في إثره « جابان » مع جيش لجب من الفرس .

وفي هذه الأثناء أمّر « بهمن » نائبه « جابان » على جيش الفرس ثم توجه الى المدائن ليجتمع بأردشير فيتباحث معه في أمر خالد ، ثم ليأتي بمدد منه إلى جيوش الفرس في أُلَيِّس . وكانت أوامر بهمن لجابان أن « كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك ، إلا أن يعجلوك »[1] .

ولما وصل بهمن إلى المدائن ، عاصمة كسرى ، وجد مليكه يحتضر وليس في المملكة من له حق اصدار الأوامر نيابة عنه ، فمكث في المدائن ينتظر حلاً . أما جابان فوصل إلى أُلَيِّس قبل أن يصلها خالد ، فألقى أثقاله وتمركز هناك بانتظاره .

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٩ .

واجتمعت المسالح[1] من العرب والدهاقين فانضمت اليه ، وباشر بتدبير أمور القتال والمقاتلين ، فجعل عبد الأسود على ميمنته وابجر على ميسرته ، بينما انصرف جنده لإعداد الطعام .

وعلم خالد بتجمُّع العرب الموالين للفرس في أُلَيَّس ، فتوجه اليهم يريد مقاتلتهم ، ولم يكن قد علم بوصول جابان بجيشه الفارسي اللجب . وما أن وصل إلى أُلَيَّس حتى فوجىء بهذا العدد الكبير من المقاتلين فيها ، وكان جند جابان قد جلسوا إلى طعامهم ، فتشاور قادتهم إذ رأوا جند المسلمين : « أنعاجلهم أم نغدّي الناس ولا نريهم اننا نحفل بهم ثم نقاتلهم فيما بعد ؟ » ، فقال جابان : « إن تركوكم والتهاون بهم فتهاونوا ، ولكن ظني أنهم سيعجلونكم » . فعصوه وجلسوا يأكلون ، مستخفين بما لدى خالد من جيش قليل العدد ، راغبين في أن لا يتعجلوا القتال وقد أوصاهم قائدهم بذلك ، وظناً منهم أن خالداً لن يكون على استعداد للقتال فور وصوله وبعد أن يلقي أحماله مباشرة .

ولكن خالداً قدر الموقف حق قدره ، ورأى ما بدا من جنود الفرس من استخفاف به وإهمال لقوَّته ، فأراد اقتناص الفرصة وهو الذي علمنا كيف يقتنص الفرص ساعة يشعر أن اقتناصها يحمل إليه النصر والغلبة ، فعزم على القتال فوراً دون إبطاء كي لا يدع لخصمه مجالاً للتفكير وردّ الفعل السريع ، خصوصاً وان الفرس والعرب الموالين لهم يؤلفون قوة مرهوبة الجانب .

---

(١) المسالح : جمع مسلحة ، وهم القوم المسلحون . والمسلحة كذلك : موضع السلاح (انظر محيط المحيط ، جـ ١ : ٩٧٨ ، سلح) .

المعركة :

وجال خالد جولته الأولى بعد أن ألقى أحماله مباشرة ، فتوجه نحو العرب حلفاء الفرس ونادى قادتهم للمبارزة : « أين عبد الأسود ؟ أين أبجر ؟ أين مالك بن قيس ؟ » ، فلم يجبه إلا مالك ، وبرز فقال له خالد : « يا ابن الخبيثة ، ما جرّأك عليّ من بينهم وليس فيك وفاء ؟ » ، ثم ضربه فقتله .

واندفع جند خالد يعملون في صفوف العرب حلفاء الفرس تمزيقاً وتقتيلاً . وترك الفرس طعامهم قبل أن يتذوقوه وقاموا للقتال . وثبت الفرس وحلفاؤهم العرب أملاً بوصول النجدات من المدائن على يد بهمن . وطال القتال واشتد ، وابتلي المسلمون من الفريقين المتحالفين ببلاء شديد ، حتى كاد خالد يفقد الأمل بالنصر . فنذر لله إن منحه اكتافهم«.ان لا يستبقي منهم أحداً يقدر عليه حتى يُجري نهرهم بدمائهم»، واستعرت المعركة من جديد، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً، وصمد الفرس وحلفاؤهم صموداً عجيباً ، ولكنهم يئسوا من النصر عندما قنطوا من وصول مدد ما ، فتخاذلوا ، واشتدت عزيمة المسلمين وتجددت حميَّتهم للقتال ، فعيل صبر الفرس وحلفائهم وتداعت قواهم ، فانهزموا .

ولاح النصر لخالد وجنده ، فنادى المنادي : « الأسر ، الأسر ، لا تقتلوا إلا من امتنع » . وغاية خالد أن يفي بنذره « ويُجري نهرهم بدمائهم » . ثم أقبلت الخيول بهم أفواجاً تساق أسرى ، فأوكل خالد بهم رجالاً ظلوا يضربون أعناقاً لهم في النهر طيلة يوم وليلة وما جرى النهر دماً . فقال القعقاع لخالد : « لو قتلت أهل الأرض لما جرت

دماؤهم ، فأرسل عليها الماء تبر بيمينك » . وذلك صحيح ، فالدماء تترقرق ولا تجري . وفعل خالد ما رآه القعقاع ، ووفى بنذره ، وسمي النهر بعدها « نهر الدم » . ووقف خالد على طعام الفرس الذي لم يتذوقوه وقال للمسلمين : « نفلتكموه ، فهو لكم »[1] ، فتعشى المسلمون عشاء عدوهم المنهزم ، وقد بلغ عدد القتلى من الفرس في هذه الوقعة سبعين ألفاً .

ولما فرغ خالد من عدوه في « أُلَيَّس » أتى « أمغيشيا » ، وكان أهلها قد جلوا عنها ، فأمر بهدمها واستولى على كل ما فيها من أموال وأثاث وخيول . وكانت « امغيشيا » مصراً كالحيرة . ووصلت أخبار وقعة أُلَيَّس إلى الخليفة أبي بكر ، فأعجب بخالد أيما اعجاب ، وقال وهو يبلّغ المسلمين ، في الجزيرة العربية ، أنباء انتصار خالد وجيشه في العراق على جيوش الفرس : « يا معشر قريش ، عدا أسدكم على أسد الفرس فغلبه على خراذيله[2] ؛ اعقمت النساء ان يلدن مثل خالد » . وقد غنم المسلمون في هذه الوقعة غنائم كثيرة ، حتى بلغ سهم المقاتل من الغنائم ألفاً وخمسماية .

إستنتاج :

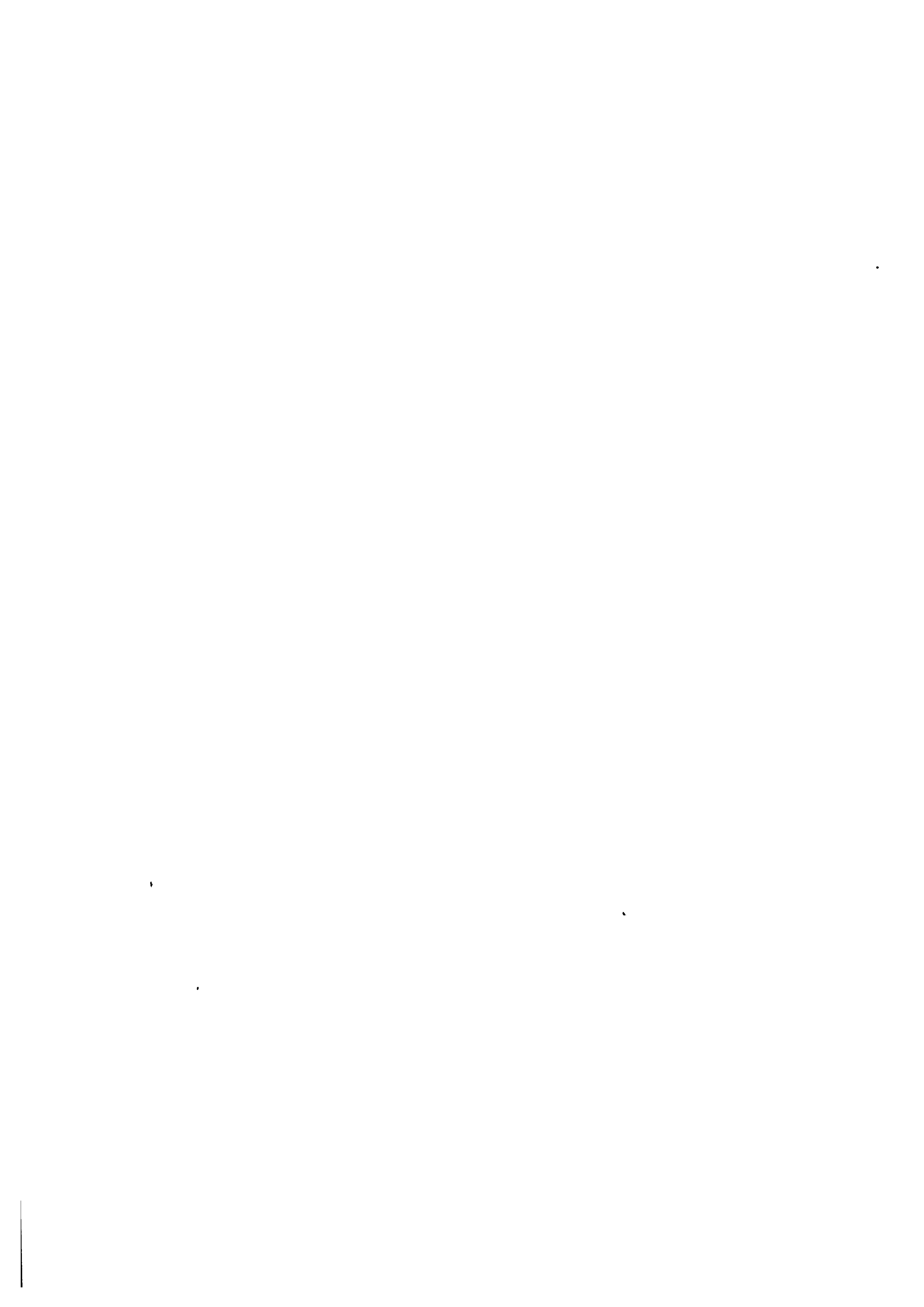
على الرغم من إقرارنا بأن خطأ العدو في عدم تأهبه للقتال فور وصول خالد هو « خطأ مميت » ، إلا أننا نسجل لخالد في هذه الوقعة شجاعة نادرة وهو الذي وصل إلى ميدان القتال وفي اعتقاده أن عدوه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٣٨٩ ، والطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ١٠ .

(٢) الخراذيل : قطع اللحم الوافرة المختارة ، أي غلبه برغم قوته واكتناز لحمه .

قليل العدد ، فإذا به يجد في مواجهته أضعاف ما قدر ، فلم يتوان عن القتال ، ولم ينتظر ليأخذ جنده قسطاً من الراحة كما ظن الفرس أنه سيفعل ، بل حزم أمره دون إبطاء ، وعرف ، بإقدامه وحسن إختياره لتوقيت المعركة ، كيف ينتزع النصر والغلبة بشجاعة نادرة ، وحنكة ودراية في فنونِ الحرب لا مثيل لهما .



الفصل الثاني

من أُلَّيس إلى الأنبار :

فتح الحيرة[1] :

غنم خالد ، بعد وقعة « أُلَيَّس » ، عدداً لا يستهان به من السفن ، فأعدها ليعبر بها الفرات نحو الحيرة . وكان مرزبانها يومئذ يدعى « الازاذبه » ، فلما علم بتوجه خالد إليه عبر الفرات خرج ليعسكر بين الغريّين والقصر الأبيض[2] ، منتظراً قدوم خالد ومستعداً لقتاله . ثم أرسل ابنه مع جند له ليسدوا مجرى الفرات ويفتحوا مجاري الأنهر التي ترفده . وبينما كانت السفن تمخر عباب النهر بجند المسلمين

---

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة اميال من الكوفة (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٣ : ٣٧٧) ، وقد فتحها خالد في ربيع الأول سنة ١٢ هـ .

(٢) الغريان : بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر الامام علي (رضي) (ياقوت ، م.ن. جـ ٦ : ٢٨٢) ؛ والقصر الأبيض : من قصور الحيرة (م.ن. جـ ٧ : ٩٧) .

إذا بها تجنح وتلتصق بقاعه بعد أن جف ماؤه ، فهلع المسلمون ، وعلم خالد من الملاحين أن الفرس فتحوا مجاري الأنهر التي ترفد الفرات ، فسلك الماء طريقاً غير طريقه ، فسار في مفرزة من فرسانه إلى « القناطر » حيث السد ، فالتقى بعض جنود الفرس بالمقر[1] ، فقاتلهم حتى قتلهم ثم تابع سيره حتى وصل إلى فم العتيق ، أو « فم الفرات بادقلي » ، فإذا بابن المرزبان هناك مع جنده ، وقد أمنوا في تلك الساعة وما حسبوا للقتال حساباً . ففاجأهم خالد وقاتلهم حتى هزمهم ، وقتل ابن المرزبان وفتح مجرى النهر ، فعاد الماء اليه ، وتابعت سفن خالد سيرها تمخر عباب النهر من جديد .

وتابع خالد سيره ، فنزل بين الخورنق[2] والنجف. فلما علم الأزاذبه أن ابنه قتل وجنده هزموا ، وأن خالداً اجتاز بسفنه وجنده النهر ، وكان قد وصله في تلك الساعة نبأ موت أردشير الملك ، ولى هارباً بلا قتال .

ووصل خالد إلى حيث كان يعسكر المرزبان (بين الغريّين والقصر الأبيض) ، فلم يجد احداً ، فعسكر هناك . وكان أهل الحيرة قد تحصنوا في قصورهم وعزموا على الدفاع عنها ، فأمر خالد الفرسان من جنده أن يلجوا عرصات تلك القصور ويجولوا فيها ، ثم عهد إلى كل قائد من قادته بقصر منها يحاصره ويخضع حاميته . فأمر ضرار بن الأزور

---

(١) المقر : موضع قرب فرات بادقلي من ناحية البر من جهة الحيرة (ياقوت ، م. ن. جـ ٨ : ١٢٤) .

(٢) الخورنق : موضع بالكوفة ، أو قصر كان بظهر الحيرة (ياقوت ، م. ن. جـ ٣ : ٤٨٣) .

بمحاصرة القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وأمر ضرار بن الخطاب بمحاصرة قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي ، وأمر ضرار بن مقرّن بمحاصرة قصر بني مازن وفيه حيري بن أكّال وأمر المثنى بن حارثة بمحاصرة قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح .

وأمرهم كذلك أن لا يبدأوا القتال إلا بعد أن يدعوا المحاصرين للاستسلام ، فإن أبوا فليمهلوهم يوماً كاملاً ثم يقاتلوهم ، وهكذا كان .

وكان ضرار بن الأزور أول من بدأ بالقتال بعد انقضاء المهلة المحددة ، إذ دعا صباح يوم القتال إياساً للاسلام أو الجزية أو المنابذة (الحرب) فاختار إياس الحرب ، وأمر قومه أن يرموا المسلمين بالحجارة من أعلى الحصن . فلم يلبث أن امتلأ الحصن برجال علّقوا المخالي وأخذوا يرشقون المهاجمين بالحجارة . فقال ضرار لجنده : « ارشقوهم بالنبل » ، فرشقوهم حتى هزموهم .

وهكذا فعل ، يوم القتال ، كل قائد من القادة الباقين ، فدعا خصمه للاسلام أو الجزية أو الحرب ، فاختار الخصم الحرب ، وكان نصيبه الهزيمة .

وظل أهل القصور ، برغم هزيمتهم ، معتكفين في قصورهم لا يبرحونها ، وإلى أين يبرحونها والعدو يحيط بهم من كل جانب ، يحاصرهم ويقضي على كل من ظهر في الحصن منهم ؟

ثم اقتحم المسلمون القصور ، فأمعنوا بمن فيها فتكاً وتقتيلاً . وكان في الأديرة القريبة قسيسون ورهبان أثارهم أهل القصور ، فنادوا بهم : « يا أهل القصور ، ما يقتلنا غيركم » . عندها أعلن هؤلاء

الاستسلام ، وكان أولهم عمرو بن عبد المسيح صاحب قصر ابن بقيلة ، فنادى : « يا معشر العرب ، قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا وخذونا الى خالد » . وتوالى بعده استسلام الباقين من أصحاب القصور ، وكان لهم ما أرادوا .

وحزّ في نفس خالد ، وهو العربي الكريم النفس ، الأبي الخصال ، أن يقتل العربي أخاه ، وان اختلف الدين والدار ، فأخذ يختلي بأهل كل قصر على حدة . وابتدأ بعدي فقال له : « ويحكم ، ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون[1] من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من العدل والانصاف ؟ » فقال له عدي : « نحن عرب عاربة وأخرى مستعربة » . فقال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا[2] وتكرهوا أمرنا ؟ » . فقال له عدي : « يدلك على ما نقول أن ليس لنا لسان إلا العربية » . فقال خالد : « اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقد أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة » . فقال عدي : « بل نعطيك الجزية » .

وصالح خالد عدياً على ماية الف وتسعين الف درهم . ثم تتابع أهل القصور على ذلك مقدمين لخالد الهدايا . وبعث خالد بالهدايا وبمعاهدة الصلح الى الخليفة أبي بكر ، فأجاز الخليفة المعاهدة . أما الهدايا فكتب إلى خالد يقول له بصددها : « أحسب لهم هداياهم من

---

(١) تنقمون : تطعنون ، او تعيبون .

(٢) تحادون : تعادون وتخالفون .

الجِزاء[1] ، إلا أن تكون من الجَزاء ، وخذ بقية ما عليهم فقوِّ بها أصحابك » .

معاهدة الصلح :

وهذا نص المعاهدة التي صالح بها خالد أهل القصور في الحيرة :
« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، واياس بن قبيصة ، وحيري بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة . ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به . عاهدهم على مایة ألف وتسعين ألف ذرهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن ايديهم في الدنيا ، إلا من كان منهم على غير ذي يد ، حبيساً عن الدنيا ، تاركاً لها . وعلى المنعة[2] ، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم . وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة . وكتب في شهر ربيع الأول من السنة اثنتي عشرة » .

وما أن استقر خالد في الحيرة وتم له فتحها حتى بدأ من يجاورها من العرب والعجم المجيء إليه طالباً الصلح . فجاءه صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف[3] ، فصالحه على بانقيا وباروسما[4] وما عليهما

---

(۱) الجزاء : (بكسر الجيم) : جمع جزية ، والجزاء (بفتح الجيم) : العقاب .
(۲) المنعة : الحماية والضمان .
(۳) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي (ياقوت، م . ن . جـ ۷ : ۸۸) .
(٤) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٣ ؛ وبانقيا : ناحية من نواحي الكوفة (ياقوت ، م . ن . جـ ۲ : ٥٠) . وباروسما : ناحيتان من سواد بغداد يقال لهما باروسما الأعلى وباروسما الأسفل (ياقوت ، م . ن. جـ ۲ : ٣٤) .

وعلى أراضيهما من شاطىء الفرات ، في مقابل جزية قدرها عشرة آلاف دينار سنوياً . وكتب له خالد كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على عشرة آلاف دينار ، القوي على قدر قوته ، والمقل على قدر اقلاله ، في كل سنة . وانك قد نُقِّبت[1] على قومك ، وان قومك قد رضوا بك ، وقد قبلت ومن معي من المسلمين ، ورضيت ورضي قومك . فلك الذمة والمنعة ، فإن منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا حتى نمنعكم » .

ثم جاءه بعدها دهاقين[2] البلاد من الفرس ، فصالحوه على ما بين الفلاليج[3] إلى هرمز جرد[4] ، في مقابل جزية قدرها « الفا درهم »[5] سنوياً . وكتب خالد لهم كتاباً بذلك .

وكان لفتح الحيرة صدى كبير في الجزيرة العربية ، إذ كانت في نظر العرب أجمعين قبلة الشعر والبلاغة . ولا عجب فهي موطن النعمان بن المنذر والنابغة الذبياني . وفرح المسلمون بهذا الفتح فرحاً عظيماً .

وجدير بالذكر أن خالداً قال لأصحابه بعد فتح الحيرة : « لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوماً كمن لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أُلَّيس » .

---

(١) نقبت : رُئِّست ، صرت نقيبا .
(٢) الدهاقين : زعماء فلاحي العجم ورؤساء الأقاليم .
(٣) الفلاليج ، مفردها فلوجة : القرى في أرض السواد (ياقوت ، م.ن. جـ ٦ : ٣٥١) .
(٤) هرمز جرد : ناحية كانت بأطراف العراق (ياقوت ، م.ن. جـ ٨ : ٤٦٠) .
(٥) وقيل : الف الف ، وقيل كذلك : الفا الف .

إستنتاج :

يمكننا أن نستنتج من فتح الحيرة الأمور التالية :

١ ـ **البداهة وسرعة الخاطر** : ان أي بدوي كخالد ، آتياً من الجزيرة العربية حيث لا ماء ولا سدود ، لا بد أن يرتبك ويضطرب إذ يفاجأ بما فوجىء به خالد وجنده في نهر الفرات ساعة جنحت سفنه ، ولكن خالداً لم يؤخذ ، ولم يفقد أعصابه ، بل انطلق بسرعة وحزم إلى حيث وضع ابن المرزبان السد وأغلق مجاري الروافد ليعيد المياه إلى مجراها ، فقضى بسيفه على ابن المرزبان وهزم جنده ، وعادت سفنه تتابع إبحارها وتكمل مهمتها .

٢ ـ **توزيع القوى والمهمات** : تحصَّن خصوم خالد بقصورهم ، وكان النيل منهم صعباً وشاقاً . ولكن خالداً لم ييأس ، ولم يخبط خبط عشواء يفقده الكثير من رجاله ، بل عمد إلى توزيع قواه على القصور المحصنة ، فوكل أمر كل حصن الى قائد من قادته وحدد له مهمته بكل تفاصيلها . وهكذا فقد اتَّبع خالد ، منذ أربعة عشر قرناً ، ما يتَّبعه القادة العسكريون المحدثون من خطط حربية وفنون عسكرية ، من توزيع للمهمات بين الوحدات .

٣ ـ **الانذار والهدنة** : وبقدر ما كان خالد حازماً وشديداً في قتاله كان إنسانياً ، فلم يرض أن يحارب قوماً حاصرهم قبل أن ينذرهم ثم يعطيهم مهلة يوم كامل للتفكير بما عرضه عليهم من شروط : الاسلام أو الجزية أو الحرب وأبى خصومه إلا الحرب ، فحاربهم بعد إنقضاء المهلة وهزمهم .

٤ ـ الاحساس العربي المشترك بينه وبين خصومه من العرب : ومنذ أربعة عشر قرناً ، كذلك ، رأينا عربياً كخالد تستيقظ في صدره نخوة العربي ، ويتحرك الدم العربي في عروقه ، فيأتي بخصومه المدحورين من بني جنسه ويسألهم بلوم وحرقة : ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ فيجيبه أحدهم عدي : نعم ، نحن عرب . فيقول له خالد : لو كنتم كما تقولون لم تحادّونا وتكرهوا أمرنا . فيصر عدي على عروبته ويقول لخالد : يدلك على ما نقول أن ليس لنا لسان إلا العربية . وهكذا يعترف المتخاصمان بالاحساس العربي المشترك بينهما ، وبالروابط القومية وإن اختلف الدين والدار .

٥ ـ معاهدة الصلح : وككل معاهدة من معاهدات الصلح التي تعقد بين المتحاربين في زماننا ، عقد خالد معاهدة للصلح بينه وبين خصومه بعد أن هزمهم ، مع فارق مهم هو أن المعاهدة التي وقّعها خالد مع خصومه المنهزمين تتميز بالرأفة والذمة والضمان . فقد عامل خصومه المدحورين معاملة الند للند ، وأبى أن يدفع الجزية من كان منهم «على غير ذي يد ، حبيساً عن الدنيا تاركاً لها» . ولا يدفعونها إن لم يضمن لهم خالد الذمة والمنعة « فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم » . ويدفعها « القوي على قدر قوته ، والمقل على قدر اقلاله » . ولكنه لا يتسامح مطلقاً تجاه الغدر والخيانة « فإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة » .

أعمال خالد بعد فتح الحيرة :

لما استتب الأمر لخالد بعد فتح الحيرة أقام فيها وجعلها مقراً لقيادته ومعقلاً لجيشه ، ثم أخذ يهتم بإدارة البلدان والثغور والاقاليم التي

فتحها ليقطع أمل الفرس باستعادتها . وبث عماله ومسالحه لجباية الخراج وحماية الثغور[1] . أما عمال الخراج الذين عيَّنهم فهم :

- عبدالله بن وثيمة النصري على الفلاليج ،
- جرير بن عبدالله على بانقيا وبسما[2] ،
- بشير بن الخصاصية على النهرين ،
- سويد بن مقرِّن المزني على تستر[3] ،
- أط بن أبي أط على روزستان .
- وأما حماة الثغور فهم :
- ضرار بن الأزور ،
- ضرار بن الخطاب ،
- المثنى بن حارثة ،
- ضرار بن مقرِّن ،
- القعقاع بن عمرو ،

---

(١) وهاكم نصاً للبراءة التي كان يسلمها عمال الخراج لأهل الخراج : « بسم الله الرحمن الرحيم . براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الامير خالد بن الوليد . وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم . امانكم أمان ، وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء » . ثم يشهدون نفراً من الصحابة الذين كان خالد قد اشهدهم على معاهدات الصلح . وقد كتب أهل الحيرة كتاباً هذا نصه : « إنا قد أدينا الجزية التي عاهدنا عليها خالد العبد الصالح ، والمسلمون عباد الله الصالحون ، على ان يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم » (الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ١٨) .

(٢) هكذا وردت عند الطبري ، المصدر نفسه ، جـ ٤ : ١٧ ، ولم يذكرها ياقوت ، والأرجح أن تكون بانقيا وباروسما .

(٣) تستر : مدينة بخوزستان بين الكوفة والبصرة (ياقوت ، م . ن . جـ ٢ : ٣٨٦ - ٣٨٨) .

ـ بسر بن أبي رُهم ،
ـ عتيبة بن النهّاس[1] .
وقد نزلوا جميعهم على السِّيب وهو نهر بالبصرة .

ثم وجَّه خالد إلى الخاصة من الفرس ، وهم ملوكهم ، كتاباً ، وإلى العامة منهم ، وهم مرازبتهم[2] ، كتاباً آخر ، كانا بمثابة إنذار لهم جميعاً .

وقال في كتابه لخاصة الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . أما بعد فالحمد لله الذي حلَّ نظامكم ، ووهن كيدكم وفرَّق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وارضكم ، ونجوزكم الى غيركم ، وإلا كان ذلك لكم وأنتم كارهون ، على غلب ، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وقال في كتابه لعامة الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة الفرس . أما بعد فأسلِموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا مني الذمة ، وأدّوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

تلقّى ملوك الفرس ومرازبتها إنذار خالد وكانوا لا يزالون متفرقي الكلمة مختلفي الرأي حول تنصيب خليفة للملك الراحل اردشير . فتحسسوا الخطر المحدق بهم ، ووجدوا أن خالداً قد أصبح قاب قوسين

---

(١) انظر لما تقدم : الطبري ، المصدر نفسه ، جـ ٤ : ١٧ .
(٢) المرازبة : جمع مرزبان .

من « بهرسير »[١] ومن عاصمتهم « المدائن » ، ورأوا أن توحيد كلمتهم وتنظيم صفوفهم لمواجهة خالد هو الأمر الأكثر ضرورة والحاحاً ، فتخلوا عن تنازعهم واختلافهم ، وأجمعوا كلمتهم على رجل اختاروه ليولوه عليهم ريثما ينتهون من نزاعهم مع خالد . وكان من اختاروه هو الفرخزاد بن البندوان ، ولم يكن من الأسرة المالكة .

فتح الأنبار أو وقعة ذات العيون[٢] :

بعد أن تم لخالد فتح الحيرة ، واطمأن على الثغور بتعيين حماة لها وضمن الخراج على يد عماله ، أصبح من السهل عليه والمغري له أن يتابع تقدمه باتجاه القادسية فبادية الشام . ولكن الخليفة أبا بكر ، وهو المطّلع على أحوال الفرس والروم في العراق والشام ، قدّر أن توغل خالد باتجاه البادية يجعله محاطاً بعدوين : الفرس عن يمينه ، والروم عن يساره . ثم ان ظهره لم يكن محمياً ، اذ أن السواد نفسه[٣] كان لا يزال في معظمه بأيدي حكام فارس . فضلاً عن ان أنباء ترامت الى الخليفة مفادها أن جيوش الروم بدأت تتحرك في الشام تأهباً لصدّ الغزاة المسلمين ، وان فلول الفرس المنهزمة تجمعت في دومة الجندل قبالة عياض بن غنم .

---

(١) بهرسير : من نواحي سواد بغداد ، قرب المدائن (ياقوت ، م.ن. جـ ٢ : ٣١٤) .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غرب بغداد (ياقوت ، م.ن. جـ ١ : ٣٤١) . وقد سميت الوقعة بذات العيون لكثرة ما فقأ فيها جنود خالد من عيون العدو بسهامهم ، وكانت سنة ١٢ هـ . (الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٢٠ ـ ٢١ ، وابن الأثير ، م.ن. جـ ٢ : ٣٩٤) .

(٣) السواد : قرى العراق وضياعها المحدودة من حديثة الموصل الى عبادان طولاً ، ومن العذيب بالقادسية الى حلوان عرضاً ، وهي التي فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب (ياقوت ، م.ن. جـ ٥ : ١٥٩) .

فأمر الخليفة خالداً أن لا ينطلق وراء الحيرة باتجاه بادية الشام ، وأن يتريث حتى يوافيه زميله عياض من أعلى العراق[1] . ومكث خالد في الحيرة سنة كاملة بانتظار زميله عياض ، وقد سماها « سنة نساء » ، إلى ان أذن له الخليفة بالتقدم لملاقاة عياض ، فخلّف على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج ، وفي مقدمته الأقرع بن حابس[2] ، حتى انتهى إلى الأنبار ، وقد تحصّن أهلها فيها ، وحفروا حولها خندقاً وأشرفوا من حصنهم وقد استعدّوا للقتال .

وكان على رأس أهل الأنبار يومئذ قائدهم شيرزاد صاحب ساباط وهو موضع بالمدائن . فلما وصل خالد إليهم طاف بالخندق متفحصاً ، ثم أمر جنده ببدء القتال وقال لرماته : « إني أرى قوماً لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخّوا غيرها » . فرموهم فأصابوا ألف عين[3] وتصايح الأعداء إذ ذهبت عيونهم قائلين : « ذهبت عيون أهل الأنبار » . فلما رأى شيرزاد ذلك ارسل يطلب الصلح على شروط وضعها هو . فرد خالد رسوله خائباً ، ثم أتى أضيق موضع من الخندق وأمر بالابل الهزيلة فجمعها ونحرها وطمر بها ذلك الموضع ، ثم اقتحم وجنده الحصن جاعلين جثث الأبل جسورهم اليه . والتحم المسلمون والفرس في الخندق ، ودار بينهم قتال شديد انتهى بانكفاء الفرس الى

---

(١) ذكرنا في أول حديثنا عن فتح العراق أن الخليفة أمر خالداً بدخول العراق من اسفله بادئاً بثغر الهند « الابلة » ، وامر عياضاً بدخوله من أعلاه بادئاً بالمصيخ ، وأمرهما بمقاتلة العدو الى ان يلتقيا .

(٢) هو مسلم من تميم ، كان حكيماً في الجاهلية ، أسلم على يد النبي ﷺ ، وشهد فتح مكة ، وحنين ، والطائف وكثيراً من الفتوح ، ثم استشهد في اليرموك .

(٣) ابن الاثير ، م.ن. جـ٢ : ٣٩٤ ؛ وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، جـ٢ : ٨٩٤ ، والطبري، م.ن. جـ٤ : ٢٠ .

حصنهم فتجمّعوا فيه . وعاد شيرزاد فأرسل يطلب الصلح على ما يريده خالد من شروط هذه المرة ، فقبل خالد . واستأمنه شيرزاد على نفسه فأمّنه ، ورضي أن يطلق سراحه ويلحقه بأصحابه من الفرس مع مفرزة من الخيل بلا متاع أو مال .

وخرج شيرزاد إلى أصحابه ، فاستقبله بهمن جاذويه . فلما سأله عن الخبر أجابه : « إني كنت في قوم ليست لهم عقول وأصلهم من العرب ، فسمعتهم ، حين قدموا علينا ، يقضون على أنفسهم ، وقلما قضى قوم على أنفسهم قضاء إلا وجب عليهم . ثم قاتلهم جندي ، ففقأ أولئك فيهم ألف عين ، فعلمت أن المسالمة أسلم » .

ولما استتب الأمر لخالد بالأنبار ، واطمأن إليه أهلها ، رآهم يكتبون العربية ، فسألهم : « ما أنتم ؟ » فقالوا : « قوم من العرب نزلنا الى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بختنصر حين أباح العرب ثم لم تزل عنها » . فقال لهم : « ممن تعلمتم الكتابة ؟ » فقالوا : « تعلمنا الخط من اياد »[1] .

وجاء من حول الأنبار من العرب والعجم ، فصالحهم خالد بادئاً بأهل البوازيج[2] ، ثم بأهل كلواذى[3] ، وكان هؤلاء « عيبته من وراء دجلة »[4] .

---

(١) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٢٠ - ٢١ .

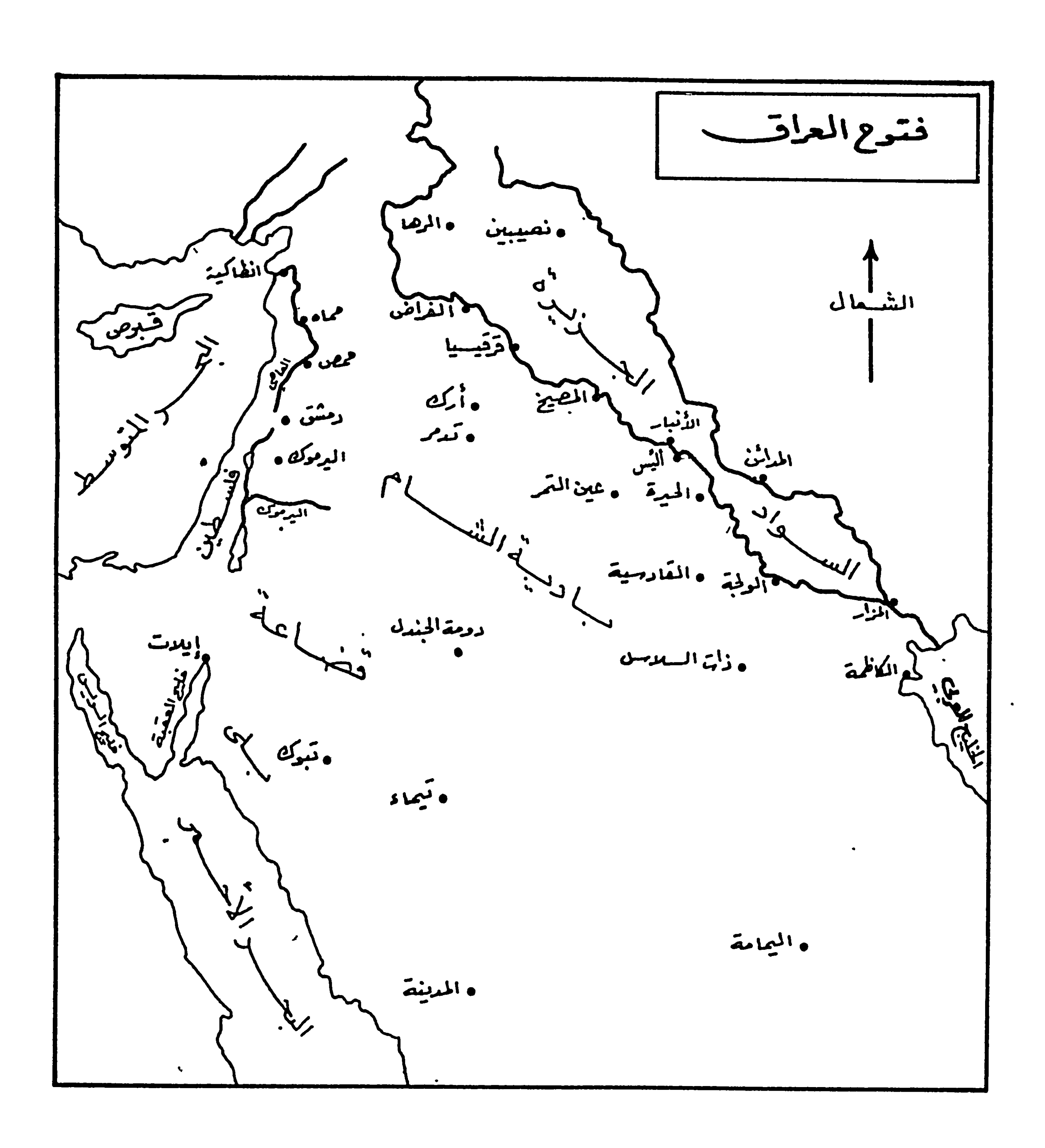
(٢) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، وهي الآن من اعمال الموصل (ياقوت ، م.ن. جـ ٢ : ٢٩٧) .

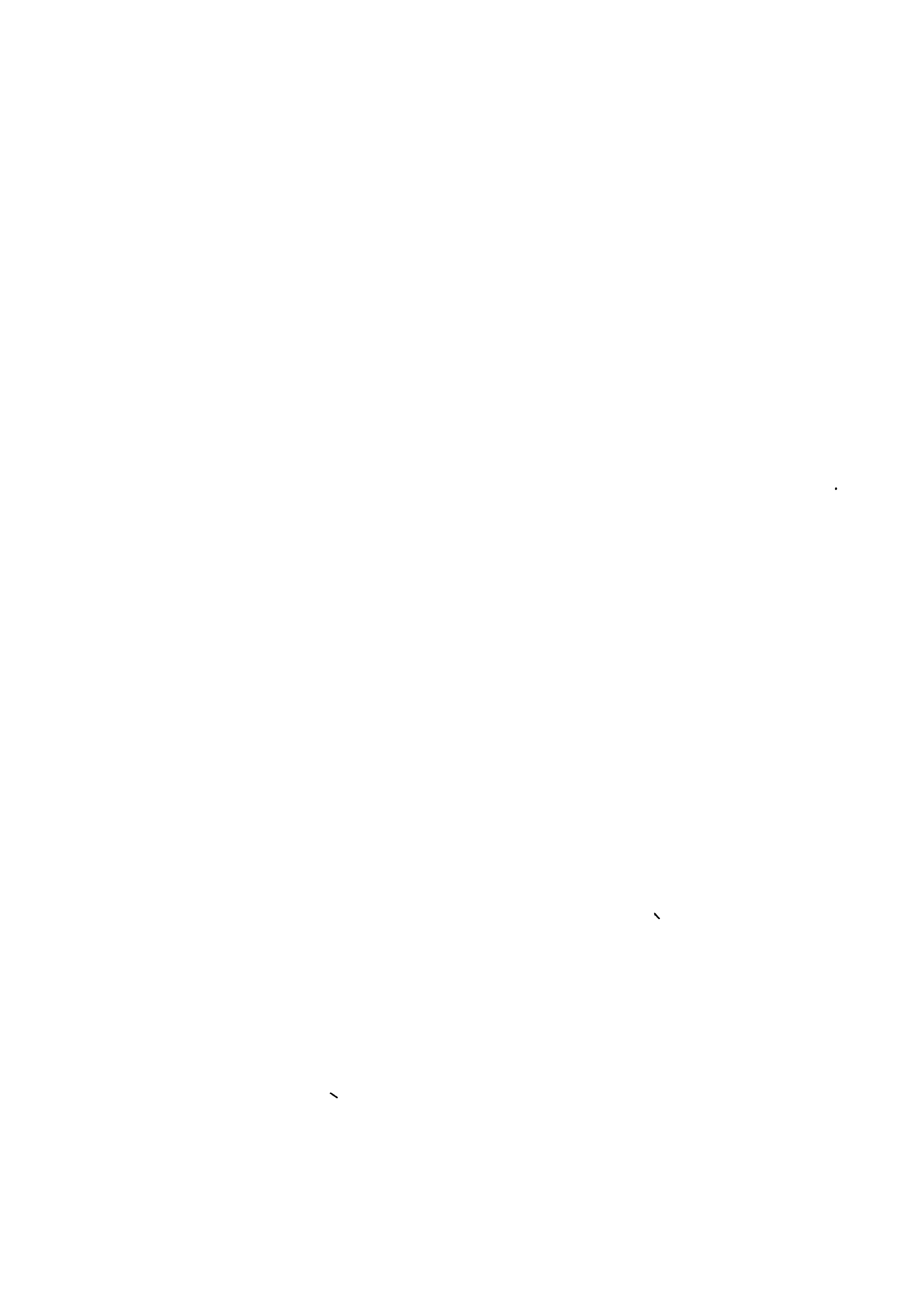
(٣) كلواذي : طسوج . كانت قرب بغداد ، بينها وبين بغداد فرسخ واحد (ياقوت ، م.ن. جـ ٧ : ٢٧٦) . والطسوج : الناحية ، كالقرية ونحوها . انظر (محيط المحيط ، ص ١٢٨١ : طسج) ؛ وانظر (الطبري ، م.ن جـ ٤ : ٢١) .

(٤) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٢١ .

إستنتاج :

إن إعجاباً لا يضاهيه إعجاب بفطنة خالد وذكائه يتملك من يقرأ قصة وقعته مع أهل الأنبار . فقراره أن يفقأ بسهام جنده أعين الأعداء المحصّنين دليل ثقة لا تتزعزع بمهارة رماته ، وعمل بمبدأ من احدث مبادىء الحرب هو « شل مقاومة العدو » (Neutralisation de la résistance ennemie) . وقراره أن ينحر الابل العجاف ليطمر الخندق بجثثها ويجعل من هذه الجثث جسراً يعبره الى عدوه المحصّن دليل على فطنة خارقة . وكان له بالفعل ما أراد ، فعبر الخندق على جثث الابل المنحورة والتحم مع عدوه فيه ، فردّه إلى حصنه ، ثم اقتحم عليه الحصن فلما رأى العدو مفراً من الاستسلام .


فتوح العراق
الشمال
الرها
نصيبين
انطاكية
قبرص
حماه
حمص
الفراض
قرقيسيا
أرك
تدمر
دمشق
اليرموك
المصيخ
الأنبار
أليس
المدائن
عين التمر
الحيرة
القادسية
الولجة
المزار
البحر المتوسط
فلسطين
بادية الشام
السواد
قضاعة
دومة الجندل
ذات السلاسل
الكاظمة
الخليج العربي
إيلات
خليج العقبة
تبوك
تيماء
اليمامة
المدينة



الفصل الثالث

من الأنبار إلىٰ الشام

وقعة عين التمر[1] :

استبقى خالد على الأنبار الزبرقان بن بدر ، وقصد عين التمر وفيها مهران ابن بهرام ومعه جمع عظيم من الفرس ، وعقة بن أبي عقة ومعه جمع عظيم من العرب الموالين للفرس من قبائل نمر وتغلب وإياد ، وأصحاب المتنبئة سجاح التي قتلت في خروب الردة . فلما سمع المجتمعون بقدوم خالد إليهم قال عقة لمهران : « العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً » . فقال مهران : « صدقت ، لعمري أنتم أعلم بقتال العرب ، وانكم لمثلنا في قتال العجم . دونكموهم ، وان احتجتم إلينا أعنّاكم » .

وعزّ على الفرس أن يوكل إلى العرب ، وهم من يحتقرون ، أمر

---

(١) عين التمر : بلدة قريبة من الانبار غرب الكوفة (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٦ : ٢٥٣) ، وكانت الوقعة سنة ١٢ هـ .

قتال خالد ، فقالوا لمهران : « ما حملك على أن تقول هذا القول ؟ »[1] ، فقال لهم مهران : « دعوني ، فإني لم أرد إلا خيراً لكم وشراً لهم . إنه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلَّ حدكم ، فاتقيته بهم . فإن كانت لهم على خالد فهي لكم ، وإن كانت لخالد فلن يبلغنا وجنده حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم ضعفاء » ، فأقنعهم ورضوا بذلك .

واعتصم مهران بالبلدة ، أما عقة فنزل إلى الطريق ، طريق الكرخ ، يلاقي خالداً ، وكان بينهما مسافة « غدوة أو روحة » . وجعل عقة بجيراً ، من بني عبيد ، على ميمنته ، والهذيل بن عمران على ميسرته ، « وصار كالخفير لمهران الذي اعتصم بالحصن »[2] .

وجاء خالد في تعبئة كاملة ، وقال لمجنبتيه[3] : : « أكفونا ما عند عقة ، فإني حامل عليه » . ثم فاجأ عقة بينما كان ينظِّم صفوفه للقتال ، فاحتضنه بذراعيه وأخذه أسيراً . ثم أطبق على صفوفه بجنده ، فانهزمت بلا قتال ، وأسر منها عدداً كبيراً .

ولما رأى مهران ما حلَّ بعقة وجنده ولّى هارباً تاركاً الحصن ، لكن فلول جند عقة المنهزمين التجأوا الى الحصن واعتصموا به . فلما وصل خالد إليهم ومعه عقة زعيمهم أسيراً بين يديه رأوا أن لا مفر لهم منه فسألوه الأمان ، فأبى إلا أن ينزلوا عند حكمه . فأجابوه ، وفتحوا

---

(١) وردت عند الطبري (جـ ٤ : ٢١) : « ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟ » .

(٢) الشلبي ، ابو زيد ، سيف الله خالد ، ص ١٣٦ .

(٣) مجنبتاه : ميمنته وميسرته .

له باب الحصن ، فدخله وجنده ، ثم قتل عقة وانثنى على من في الحصن من المقاتلين فقضى عليهم جميعاً . وتسلَّم الحصن وما فيه من الغنائم ، وكان بينها أربعون غلاماً رهائن فيه ، فوزعهم على أهل البلاء من المسلمين . وقد عرف الاسلام من هؤلاء من أعقب رجالاً عظماء كان لهم في التاريخ الاسلامي شأن مثل : نصير أبو موسى بن نصير ، وسيرين ابو محمد بن سيرين ، وحمران مولى الخليفة عثمان بن عفان .

استنتاج :

١ ـ عوَّدنا خالد ، في فتوحه بالعراق كافة ، أن يظل دوماً على تعبئة كاملة ، جاهزاً للحرب مستعداً للقتال . فها هو بالأمس في وقعة أُلَيَّس ، وها هو اليوم في وقعة عين التمر ، يصل من سيره الشاق الطويل وهو على أهبة القتال ، بينما يكون خصمه غير متهيء بعد للحرب ، معتقداً أن خالداً مثله يحتاج إلى وقت لكي يستعد ، فيأخذه خالد على حين غرة ويهزمه .

٢ ـ اعتمد خالد اسلوباً جديداً من أساليب القتال ما عرفه الأعداء قبله ، وما اكتشفوه عند أحد من المقاتلين إلا عنده ، هذا الاسلوب هو أن يبادر من يبارز من الأعداء ، أو قائدهم ؛ فيحتضنه بذراعيه ، ويأخذه أسيراً أو يقتله ، فيسقط في يد جنده وينهزمون . فبالأمس ، في وقعة ذات السلاسل ، أخذ خالد بين ذراعيه هرمز ، وكان يبارزه ، واليوم أخذ بين ذراعيه عقة ، فأسره وأطبق بعدها على جنده فهزمهم . ومن المؤكد أن هرمز وعقة لم يتوقعا أن يعمد خالد في مواجهتهما إلى هذا الأسلوب من القتال

٣ ـ كان خالد يعمد في معاركه كافة إلى ضرب قلب الجيش

وعميده ، فيقضي على معنويات الجيش بأسره . فمن هرمز في وقعة ذات السلاسل إلى قارن وانوشجان وقباذ في وقعة الثِّني ، إلى عقة في عين التمر ، نرى خالداً يعمد في بدء قتاله الى رأس الخصم وقائد جيش الأعداء ، فإما أن يقتله أو يأسره ، وعندها يسقط في يد الخصم الذي فقد رأسه ، ويتضعضع الجيش الذي فقد قائده فيندحر وينهزم .

وقعة دومة الجندل[1] .

بعد أن تم لخالد فتح عين التمر أرسل الوليد بن عقبة إلى الخليفة أبي بكر ينبئه بالفتح ويقدِّم له الأسلاب والغنائم . وكان عياض بن غنم في دومة الجندل ، وقد اجتمعت عليه قبائل دومة جميعها من بني بهراء وتنوخ وغسان وكلب والضجاغم . فأمر الخليفة الوليد أن يتوجه تواً إلى دومة الجندل لنجدة عياض ، ولما وصل إليه وجده قد حاصرها ، فحاصره أهلها من خلفه وأخذوا عليه الطريق . عندها أشار وليد عليه أن يستمد خالداً وقال له : « الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف ، إبعث إلى خالد فاستمده » . فأرسل عياض إلى خالد رسولاً يطلب منه النجدة ، فكان خالد بنفسه هو النجدة إذ كتب إليه يقول : « من خالد إلى عياض . إياك أريد :

ألبث قليلاً تأتك الجلائب   يحملن آساداً عليها القاشب[2]
كتائب تتبعها كتائب » .

---

(1) دومة الجندل ؛ حصن وقرى بين الشام والمدينة على سبع مراحل من دمشق ، اما حصنها فهو لأكيدرَ بن عبدِ الملك . وسميت كذلك لأن حصنها مبني بالجندل (ياقوت ، م.ن. جـ ٤ : ١٠٦ - ١٠٧) . والجندل (واحدها جندلة بفتح الجيم والدال وتسكين النون) : الصخر العظيم (المنجد) . وكانت الوقعة سنة ١٢ هـ .

(2) القاشب : السيف المصقول المجلو .

ثم استبقى عويم بن الكاهل الأسدي على عين التمر وتوجه لاغاثة عياض .

علم المجتمعون من الأعداء في دومة الجندل بقدوم خالد إليهم . وكان فيهم وديعة الكلبي في كلب وبهراء ، وابن الحدرجان في الضجاغم ، وابن الأيهم في طوائف غسان وتنوخ ، ومساندة بن وبرة بن رومانس الكلبي ، واكيدر بن عبد الملك صاحب حصن دومة الجندل، والجودي بن ربيعة . وكانوا قد رأسوا عليهم أكيدر والجودي . فتداولوا الأمر فيما بينهم ، أيصمدون لخالد أم يتفرقون دون قتال معه ؟ واختلف رأيهم في ذلك ، فقال لهم اكيدر : « أنا أعلم الناس بخالد ؛ لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا يرى قوم وجه خالد قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم »[1] . فرفضوا رأيه . فقال : « لن امالئكم على حرب خالد ، فشأنكم » ، ثم انصرف . أما الباقون فقد اختاروا أن يلاقوا مجتمعين خالداً وعياضاً ، ففكوا الحصار عن عياض وانقسموا فريقين : فريقاً منهم يلاقي خالداً وعلى رأسه الجودي ووديعة الكلبي ، وفريقاً آخر يقاتل عياضاً وعلى رأسه ابن الحدرجان وابن الأيهم .

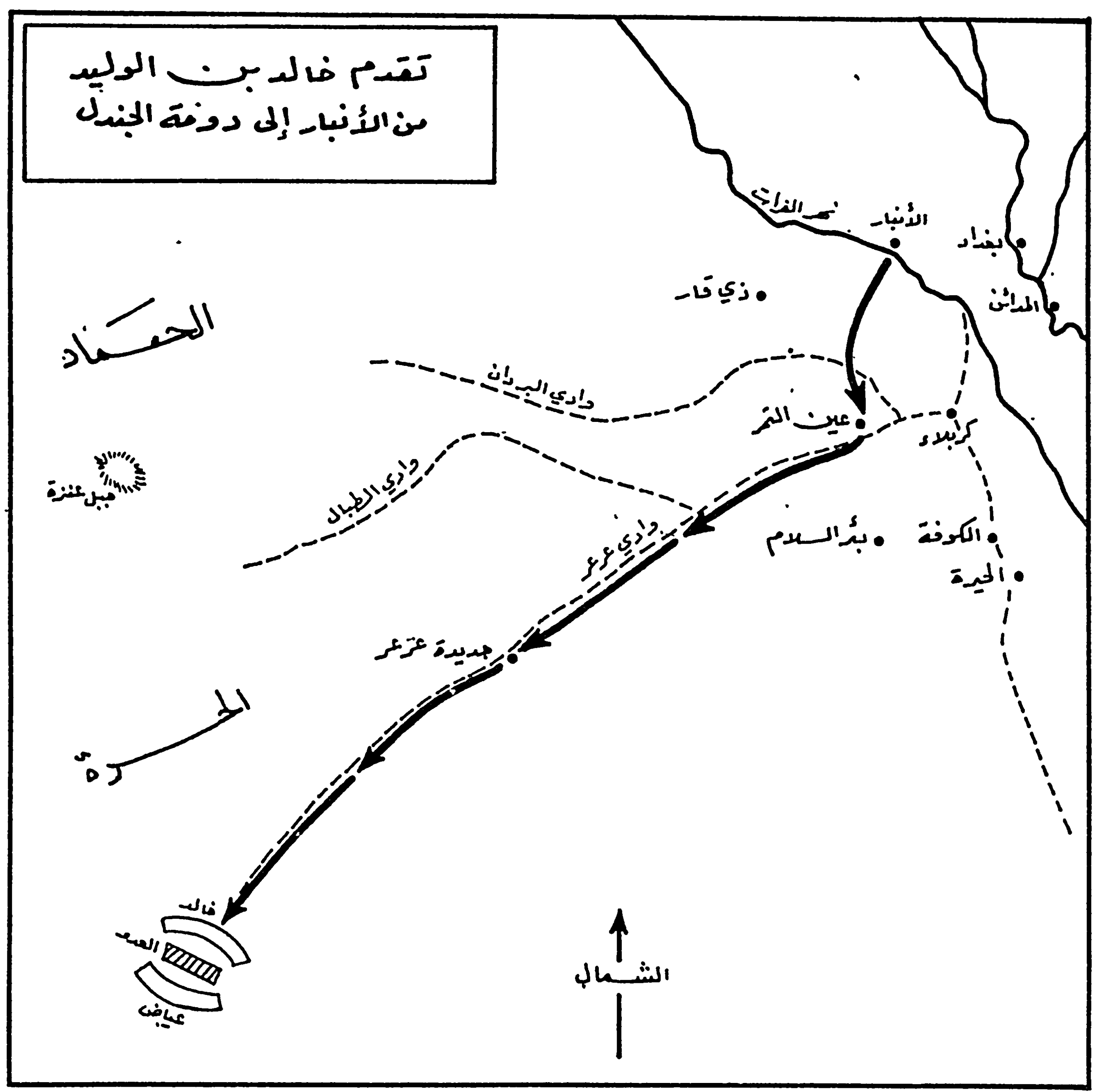
سار خالد سالكاً طريق الفلّوجة[2] فكربلاء[3] . وبلغ دومة الجندل بأقل من عشرة أيام ، وكان يفصله عنها مسيرة اسبوعين . فوجد حصنها مكتظاً بالخصوم لم يتسع لهم ، حتى عسكروا خارجه في العراء .

---

(١) وكان أكيدر على حق فيما يقوله ، فقد خبر خالداً يوم تبوك .

(٢) الفلوجة : قرية من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر (ياقوت ، م.ن. ، جـ ٦ : ٣٩٨) .

(٣) كربلاء ؛ موضع في طرف البرية عند الكوفة (ياقوت ، م.ن ، جـ ٧ : ٢٢٩) .



محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري (بتصرف).

فالتقى عياضاً وتسلَّم إمرة الجيشين ، ثم قسم جنده فريقين : فريقاً بقيادته ، ويبلغ أربعماية وخمسين فارساً ، وآخر بقيادة عياض نفسه . ثم جعل دومة وحصنها بينه وبين عياض ، ففرض بذلك على عدوه ساحة القتال دون أن يكون لهذا العدو رأي في اختيارها .

وكان خالد أول المهاجمين ، فانقض على من يقابله (ولم ينس أن يرسل لأكيدر[1] من يلاقيه في الطريق فيأخذه أسيراً ويأتي به إليه فيدق عنقه[2] جزاء نكثه عهد النبي ﷺ فيما سبق) . وفعل عياض كذلك . ودارت بين المتقاتلين رحى معركة عنيفة كان العدو فيها ، بحنكة خالد ودرايته ، موزع القوى يحارب في اتجاهين متعاكسين يتباعدان ، بينما جيش المسلمين يحارب في اتجاهين متعاكسين يتلاقيان .

وكان قبالة خالد ، الجودي ووديعة . فأخذ خالد الجودي أسيراً ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة الكلبي . وأطبق خالد بجنده على خصومه ، كما أطبق عياض بجنده على خصومه ايضاً . وما استطاع خصوم خالد وعياض الصمود طويلاً ، فانهزموا جميعهم . وركبهم المسلمون ، فلجأوا إلى الحصن واعتصموا فيه ، ثم أوصدوا بابه خلفهم تاركين من بقي منهم ، وهم كثرة ، خارجه . فأخذ خالد من بقي خارج الحصن وقتلهم جميعاً . ثم أتى الحصن ، فاقتلع بابه واقتحمه بجنده ، فقتل من بداخله من المقاتلين[3] ، وقتل كذلك الجودي ووديعة ، ما عدا أسرى كلب فقد حماهم عاصم بن عمرو .

---

(١) أرسل اليه عاصم بن عمرو ، أحد قادته .

(٢) وفي رواية أخرى أسره وأرسله الى المدينة ، والأولى أصح .

(٣) كان أهل دومة قد عاهدوا المسلمين مراراً ونكثوا عهدهم ، وعلى رأسهم الأكيدر ، فانتقم خالد منهم بقتلهم جميعاً .

والأقرع بن حابس وبنو تميم لأنهم كانوا حلفاء لهم فيما سبق[1] ، وغنم الاسلاب وسبى الذراري . وكان بين السبايا ابنة الجودي ، وكانت على قدر كبير من الجمال ، فاشتراها خالد[2] .

استنتاج :

١ ـ التأثير المعنوي لخالد على خصومه : كان لخالد على خصومه تأثير معنوي كبير ، فما ان يسمعوا به حتى يرتعدوا هلعاً وخوفاً ، فيهرب منهم من يهرب ، ويبقى من يبقى ليلاقي على يديه الموت الزؤام . وأكبر دليل على ذلك قول اكيدر لأصحابه ساعة علموا بخروج خالد إليهم : « لا يرى قوم وجه خالد ، قلوا أو كثروا ، إلا وينهزموا عنه » . وهذا ما برهنته الأحداث ، وأكدته حروب خالد سواء في الجزيرة او في العراق ، فأصبح اسمه يخيف الأعداء ويرعبهم .

٢ ـ خطة خالد بوضع العدو بين فكي كماشة : اعتمد خالد في قتاله مع القبائل المجتمعة بدومة الجندل خطة بارعة ، إذ اضطرها إلى توزيع قواها في اتجاهين متعاكسين ومتباعدين ، فارضاً عليها ميدان القتال فرضاً دون أن يكون لها يد في اختياره وهي التي اختارت أن تلاقيه مجتمعة بعد أن فكت الحصار عن عياض ، بينما كان يقاتل هو وزميله في اتجاهين متعاكسين ومتلاقيين : أي أنه بينما كان فريقا الخصم يقاتلان وقد اتجه كل منهما في اتجاه معاكس للآخر بحيث لا يمكنهما أن يلتقيا ، وإذا ما حاولا التوغل باتجاه الخصم فإنهما يتركان خلفهما ثغرة لا يمكن

---

(١) الطبري ، المصدر نفسه ، جـ ٤ : ٢٣ .

(٢) م . ن . ص . ن .

سدها ، كان خالد وعياض يقاتلان مقترباً أحدهما من الآخر ، ضاغطين على العدو كفكي كماشة ، وقد أطبق الفكان على العدو بالفعل فسحقاه .

الحُصَيد والخنافس[1] :

بعد أن تم لخالد فتح دومة الجندل أقام فيها وأرسل الأقرع بن حابس إلى الأنبار . وكبر على العجم وحلفائهم من العرب أن يُهزموا كل مرة على يد خالد ، وغضبوا لمقتل أحد كبار زعمائهم عقة بن ابي عقة ، وكان قد قتله خالد في وقعة عين التمر ، فتنادوا لأخذ الثأر . وكتب عرب الجزيرة الذين أغضبهم قتل عقة إلى العجم الذين قهرهم خالد يبغون لقاءً حاسماً بينهم جميعاً وبينه . وكان في بغداد قائدان عجميان هما زرمهر وروزبة ، فخرجا منها يريدان الأنبار وفيها الزبرقان بن بدر يومئذ (وكان الأقرع لم يصلها بعد) . وتواعدا الحصيد والخنافس . وعلم الزبرقان بخروجهما ، فاستنجد بالقعقاع بن عمرو وكان خالد قد استخلفه على الحيرة . فأرسل القعقاع أعبد بن فدكي السعدي الى الحصيد ، وعروة بن الجعد البارقي إلى الخنافس ، فحالا بينهما وبين الريف . ومكث روزبة في الحصيد ، وزرمهر في الخنافس ، بانتظار حلفائهما من العرب . ولما عاد خالد الى الحيرة وأُبلغ الأمر أرسل القعقاع وأبا ليلى إلى روزبة وزرمهر فسبقاه الى عين التمر . وكان قد ورده كتاب من امرىء القيس الكلبي ينبئه فيه أن الهذيل بن عمران عسكر بالمصيخ (مصيخ بني البرشاء) ، وربيعة بن بجير عسكر بالثَّني

---

(١) الحصيد (بلفظ التصغير) : واد بين الكوفة والشام (ياقوت ، م.ن. جـ٣ : ٢٨٨) ؛ والخنافس : أرض في طرف العراق قرب الأنبار (م.ن. جـ٣ : ٤٦٨) .

وعتاب بن فلان عسكر بالزُّميل (أو البشر)[1] ، وأنهم تحالفوا مع زرمهر وروزبة غضباً لعقة وتواعدوا جميعهم على أن يتلاقوا في الحصيد والخنافس لقتال المسلمين . فاستبقى خالد عياض بن غنم على الحيرة وسار يريد الخنافس وفي مقدمته الأقرع بن حابس ، ثم التقى القعقاع وأبا ليلى في عين التمر ، فأرسل القعقاع إلى الحصيد لقتال روزبة وأرسل أبا ليلى الى الخنافس لقتال زرمهر . ولما علم روزبة بقدوم القعقاع إليه استنجد بزرمهر ، فأنجده بنفسه مستخلفاً على جنده في الخنافس خليفة له يدعى « المهبوذان » . والتقى الخصمان في الحصيد ، ودار بينهما قتال عنيف وشديد انتهى بهزيمة الفرس وبمقتل قائديهم زرمهر وروزبة . وقد قتل القعقاع زرمهر ، وقتل عصمة بن عبدالله الضبي روزبة[2] . وما ان بلغ المهبوذان خبر هزيمة أصحابه في الحصيد حتى هرب ومن معه الى المصيخ حيث يعسكر الهذيل بن عمران . ووصل ابو ليلى إلى الخنافس واحتلها دون قتال .

المُصَيَّخ[3] :

إنهزمت فلول الفرس من الحصيد والخنافس والتجأت إلى المصيخ

---

(١) الثني (بتشديد الثاء وفتحها ، وكسر النون) : اسم لموضع بالجزيرة قرب الشرقي شرق الرصافة (ياقوت ، م . ن . جـ٣ : ٢٦) ، وهو غير الثني الذي ورد ذكره سابقاً والذي هو نهر قرب البصرة . والبشر ، قال ياقوت : هو اسم جبل يمتد من عرض إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية (ياقوت ، م . ن . جـ٢ : ١٨٧) . والزميل : عند البشر بالجزيرة شرق الرصافة (م . ن جـ ٤ : ٤٠٥) . وقال الطبري : الزميل هو البشر والثني معه ، وهما اليوم شرق الرصافة (الطبري ، م . ن جـ ٤ : ٢٥) .

(٢) الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ٢٤ .

(٣) المصيخ : يقال له مصيخ بني البرشاء ، وهو موضع بين حوران والقلت (ياقوت ، م . ن . جـ ٨ : ٧٩) .

بقيادة المهبوذان ، وكان الهذيل بن عمران قد سبقهم اليه فعسكر فيه بانتظار اجتماعه مع بقية حلفائه من العرب والعجم لقتال المسلمين .

وعلم خالد بهزيمة الفرس في الحصيد والخنافس ، وبمقتل زرمهر وروزبة ، وأراد أن يستثمر انتصاره هذا ويمنع الفرس وحلفاءهم العرب من أن يلموا شملهم ويلاقوه مجتمعين ، فعزم على مطاردتهم واللحاق بهم إلى المصيخ . فأرسل الى قادته القعقاع بن عمرو ، وأبي ليلى ، واعبد بن فدكي السعدي ، وعروة بن الجعد البارقي أن يلاقوه إليها ، وضرب لهم موعداً ساعة محددة من ليلة محددة يجتمعون بها في تخوم المصيخ . وفي الموعد المحدد ، بل في الساعة المحددة ، كان القادة الأربعة ، وعلى رأسهم خالد ، في المكان الموعود . وقرر خالد أن يهاجم البلدة من ثلاث جهات ، ووزع قواته حسب هذه الخطة ثم أطبق على خصومه وهم نائمون ، فما نجا منهم سوى نفر قليل ، وأفلت الهذيل[1] .

الثَّني والزُّميَل :

قلنا إن ربيعة بن بجير التغلبي عسكر بالثني ، وإن عتاب بن فلان عسكر بالزميل . ولجأ الى عتاب ، بعد معركة المصيخ ، الهذيل بن عمران ومن نجوا معه ، فأمر خالد القعقاع وأبا ليلى أن يسيرا نحو الثني ، وضرب لهما موعداً ساعة محددة من ليلة محددة يلتقون فيها ثلاثتهم في تخوم الثني ، وفي الموعد المحدد كان القادة الثلاثة في المكان

---

(١) وفي رواية اخرى ان هذه الوقعة ، ووقعتي الثني والزميل ، كانت في اثناء مسير خالد الى الشام ، والرواية الأولى أصح .

الموعود ، وقرر خالد أن ينهج النهج نفسه الذي نهجه في هجومه على المصيخ ، فوزع قواته على ثلاث جهات وأطبق على خصومه فقتلهم جميعاً « وما نجا منهم مخبر » ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة[1] .

وانتقل خالد من الثني الى الزميل ، وكان فيها عتاب بن فلان مع جيش ضخم ، والهذيل بن عمران مع قلة من أصحابه الذين نجوا من وقعة المصيخ . وعمد خالد الى الاسلوب نفسه الذي اتَّبعه في الوقعتين السابقتين ، فقسم جنده ثلاث فرق تهاجم كل منها من جهة ، ثم أطبق على خصومه فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب الكثير من الغنائم والأسلاب[2] .

الرضاب[3] :

بعد أن انتهى خالد من الزميل سار إلى الرضاب وفيها هلال بن عقة ، فلما علم أصحابه بدنو خالد انفضوا من حوله ودخلها خالد دون قتال .

الفراض[4] :

كانت هذه الوقعة آخر أعمال خالد الكبار في العراق ، حارب فيها جيوشاً من الروم والفرس والعرب مجتمعين .

---

(١) وكان بين السبايا ابنة لربيعة بن بجير التغلبي ، إشتراها الامام علي وولدت له عمراً ورقية (الطبري ، المصدر نفسه ، جـ ٤ : ٢٥) .

(٢) وكانت على خالد يمين ليبغين تغلب في دارها ، وقد فعل .

(٣) الرضاب : موضع بالرصافة (ياقوت ، م.ن. جـ ٤ : ٢٥٩) .

(٤) الفراض : تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرق الفرات (ياقوت ، م.ن. جـ ٦ : ٣٥٠) .

لما بسط خالد سلطانه على سواد العراق أراد أن يحفظ ظهره ، حتى اذا اجتاز السواد[1] الى فارس كان مطمئناً لما يخلِّف وراءه . فسار إلى الفراض ، وهي على حدود الروم والفرس وعرب الجزيرة . فأزعج ذلك الروم في الشام وأهاجهم ، فتنادوا لقتال خالد ، واستعانوا بما يجاورهم من مسالح الفرس ، وبعرب الجزيرة من بني تغلب والنمر وإياد ، فلبوا جميعهم لما يحملون للمسلمين من كراهية وحقد ورغبة في الثأر والانتقام . واجتمعت جيوش الروم والفرس وأولياؤهم من عرب الجزيرة وساروا جميعهم نحو الفراض ، حتى إذا ما وصلوا الى الفرات قالوا للمسلمين : « إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم » . فقال خالد : « بل اعبروا إلينا » . فقالوا : « ابتعدوا حتى نعبر » . فأبى خالد وقال لهم : « اعبروا أسفل منا » . فعبروا ، حتى إذا تتاموا والتأم شملهم قالت الروم : « إمتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أيِّنا يجيء »[2] . فامتازوا ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف انتهى بهزيمة المتحالفين من الروم والفرس والعرب . وكان خالد قد حصرهم بينه وبين الفرات وقال لجنده : « ألحّوا عليهم ولا ترفِّهوا عنهم »[3] . فأخذ الفرسان من جنده يركبونهم زمراً ، حتى إذا اجتمعوا حصدتهم رماح الرمَّاحين حصداً وأجهز على من تبقّى منهم بسيوف المقاتلين . وقدر عدد قتلى الروم والفرس والعرب الموالين لهم في هذه الوقعة بمائة ألف قتيل[4] .

---

(١) السواد : راجع فتح الانبار (الفصل الثاني من هذا القسم) .

(٢) يشبه هذا القول قول خالد لجنده في حربه مع مسيلمة إذ قال لهم : « إمتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ، ولنعلم من اين نؤتى » .

(٣) اي لا تتركوهم يطمئنون .

(٤) يرى العقاد (عبقرية خالد ، ص ١٣٠) ان الفرس لم يشتركوا في هذه المعركة

حج خالد :

أقام خالد في الفراض عشرة أيام بعد الوقعة . ولخمس بقين من ذي القعدة[1] أمر جنده بالرحيل إلى الحيرة . فسار عاصم بن عمرو في المقدمة ، وشجرة بن الأعز في الساقة (أي المؤخرة) ، ثم سار هو في الساقة كذلك متظاهراً بأنه سيظل مع جنده . وفي غفلة منهم ومن أعدائه ، وفي برهة وجيزة ، خرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز حيث أدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى عسكره وانضم إلى الساقة من جديد ، ودخل الحيرة مع جنده . ولم يعلم أحد من رجاله بتركه الجيش إلى الحج إلا من ائتمنهم على سره من الساقة ، وأقرب قادته إليه : المثنى والقعقاع . حتى أن الخليفة نفسه لم يعلم بحج خالد إلا بعد عودته منه ، فلامه ، ولكن لوم معجب .

أمر الخليفة إلى خالد بالتوجه إلى الشام :

أرسل الخليفة أبو بكر إلى خالد ، بعد عودته من الحج ، كتاباً يأمره فيه بالتوجه إلى الشام لمقاتلة الروم ويجعله أميراً على الأمراء بالشام[2] ، وهذا نص الكتاب :

« سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا[3] . وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت ، فإنه لم يشج الجموع من

لانشغالهم بأمر العرش ، ولكن ما جاء عند الطبري (جـ ٤ : ٢٦) وابن الاثير (جـ ٢ : ٣٩٩) من تأكيد لاشتراك الروم فيها ينقض رأي العقاد .

(١) لا زلنا عام ١٢ هـ .

(٢) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٣٩ ؛ وقارن : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥١ .

(٣) شجا وأشجى : حزن وأحزن (المنجد) .

الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجي من النـاس نزعـك . فليهنك ، أبا سليمان ، النية والحـظوة . فأتمم يتمم الله لـك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتُخذل . وإياك أن تُدلّ بعمل ، فإن الله له المن وهو وليّ الجزاء »[1] .

(١) الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ٤٠ . ويروي الواقدي (فتوح الشام ، جـ ١ : ٢٣) أن أبا بكر رأى أبا عبيدة لين العريكة لا يصلح لقتال الروم ، فكتب إلى خالد يأمره بالمسير إلى الشام ويقول له : « قد جعلتك الأمير على أبي عبيدة ومن معه » .



القسم الثالث : معارك خالد في الشام

الفصل الأول

ما قبل اليرموك

الوضع العسكري في الشام قبل وصول خالد :

لم تكن رغبة أبي بكر في فتح الشام[1] بأقل من رغبته في فتح العراق وهو الذي قال : « لفتح قرية في الشام أفضل عندي من فتح بلد في العراق » . ولم تكن رغبة أبي بكر في فتح الشام بأكثر من رغبة رسول الله ﷺ فيه ، وما غزوة مؤتة سنة ٨ هـ ، وغزوة تبوك[2] سنة ٩ هـ وحملة

(١) الشام : حدها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وعرضها من جبلي طيء من نحو القبلة الى بحر الروم (ياقوت ، م.ن. جـ ٥ : ٢١٩) ؛ وهي خمسة أجناد : جند قنسرين، وجند دمشق ، وجند الاردن ، وجند فلسطين، وجند حمص .

(٢) تبوك : موضع بين وادي القرى والشام (ياقوت ، م.ن. جـ ٢ : ٣٦٥) ، واسم لمكان يقع في اول مشارف الشام من الجنوب .

أسامة بن زيد التي مات رسول الله ﷺ قبل إنفاذها إلى الشام وأُنفذت بعده في عهد أبي بكر إلا دلائل صريحة على رغبة النبي محمد في فتح هذا القطر وطرد الروم المستعمرين منه .

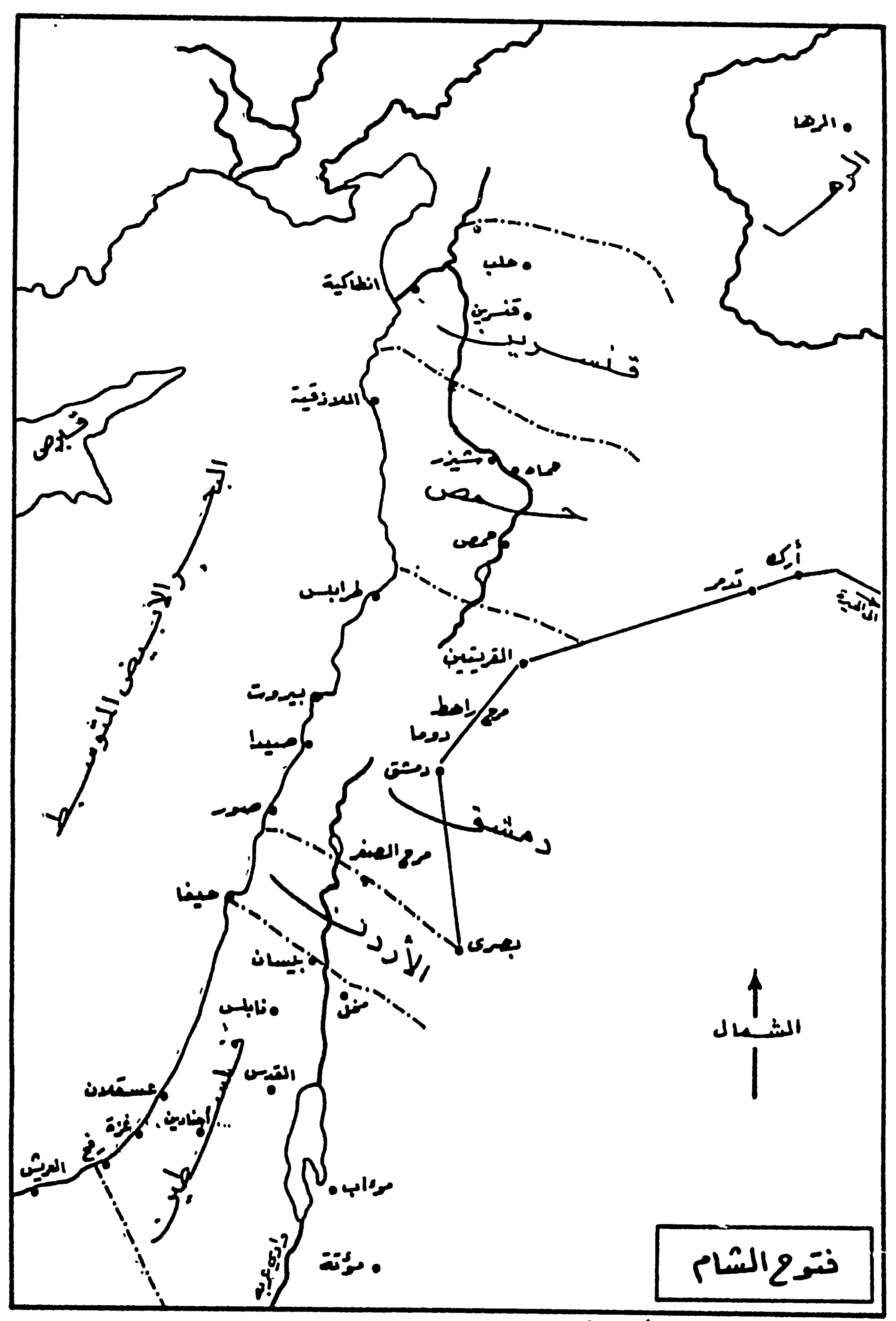
وبينما كان خالد بن الوليد ، في العام ١٢ هـ ، يكتسح قلاع الفرس وحصونهم في العراق منتقلاً من نصر إلى نصر ، ملحقاً بجيوشهم الهزيمة تلو الهزيمة ، كان خالد بن سعيد بن العاص[1] ، وقد أرسله أبو بكر لجس نبض الروم في الشام واستطلاع أخبارهم ، يغامر في أرض العدو متوغلاً دون حذر ، فوقع في الشرك الذي نصبه له باهان قائد الجيش الرومي ، إذ تظاهر بالانسحاب ثم أطبق عليه من الخلف والجانبين ، وكاد يقضي عليه وعلى جنده في أرض حوران لولا أن أنقذه عكرمة بن أبي جهل .

وكانت خطة أبي بكر أن يبدأ بغزو العراق ، وكان الفرس أسهل منالاً وأقل بأساً من الروم ، حتى إذا ما استقر الأمر لجيوشه في العراق نقل ميدان القتال إلى أرض الشام ليحارب عليها أكبر امبراطوريات الشرق وأعظمها بأساً في ذلك العصر .

وفي أواخر عام ١٢ هـ ، وكان الخليفة قد اطمأن إلى جبهة العراق ، واحتل جيشه ، بقيادة خالد ، مدينة الحيرة واستتب له الأمر في معظم مدن ذلك القطر ، أعلن النفير في الحجاز واليمن ونجد ، فتهافتت على المدينة المنورة ، عاصمة الخلافة آنذاك ، جموع المجاهدين المتطوعين من

---

(١) خالد بن سعيد بن العاص : من المهاجرين ، استشهد في وقعة مرج الصفر سنة ١٤ هـ .



فيليب حتي : تاريخ العرب المطول (بتصرف) .

المسلمين ، فألف منها خمس فرق بلغ عدد المقاتلين فيها ما يقارب العشرين ألفاً موزعين كما يلي :

١ ـ **الفرقة الأولى** : بقيادة يزيد بن أبي سفيان ، يراوح عددها بين ٣ و٤ آلاف مقاتل، وهدفها دمشق .

٢ ـ **الفرقة الثانية** : بقيادة شرحبيل بن حسنة ، يراوح عددها بين ٣ و٤ آلاف مقاتل، وهدفها بصرى عاصمة حوران .

٣ ـ **الفرقة الثالثة** : بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، يراوح عددها بين ٣ و٤ آلاف مقاتل كذلك ، وهدفها حمص .

٤ ـ **الفرقة الرابعة** : بقيادة عمرو بن العاص ، يراوح عددها بين ٦ و٧ آلاف مقاتل ، وهدفها فلسطين .

٥ ـ **الفرقة الخامسة** : بقيادة عكرمة بن أبي جهل، احتياط في المدينة ، وعددها نحو ٦ آلاف مقاتل .

ثم لم يلبث عدد المقاتلين في هذه الفرق أن ازداد ، بما كان الخليفة يمدها به دوما من المتطوعين ، حتى بلغ ٢٧ ألف مقاتل ، وبلغت في اليرموك ، بعد أن انضم إليها خالد بجيشه ، ٤٦ ألف مقاتل وهو أكبر عدد بلغته القوات الاسلامية المحاربة في الشام وفلسطين .

وقد أوصى الخليفة كلًا من قادة الفرق الأربع الأولى قبل المسير وصايا نقتطف منها ما يلي :

من وصيته ليزيد بن أبي سفيان : « إذا نُصرتم على عدوكم فلا تقتلوا وليداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلاً ، ولا تعقروا بهيمة إلا المأكول، ولا تغدروا إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا إذا صالحتم . وستمرون على قوم

في الصوامع رهبانا . . . فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم »[1] .

ومن وصيته ليزيد أيضاً : « إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقللْ لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . . . ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرّك لعلانيتك فيخلط امرك . واذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قِبَل نفسك . . . وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم . . . وأصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس »[2] .

ومن وصيته لعمرو بن العاص : « كن والداً لمن معك ، وارفق بهم في السير فإن فيهم أهل ضعف . . . وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل ، بل اسلك طريق ايليا (القدس) حتى تنتهي إلى أرض فلسطين . وابعث عيونك يأتونك بأخبار ابي عبيدة ، فإن كان ظافراً بعدوّه فكن أنت لقتال من في فلسطين ، وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً في إثر جيش . . . واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ، ولتكن انت بعد ذلك مطّلعاً عليهم . وأطل الجلوس بالليل على اصحابك ، وأقم بينهم ، واجلس معهم . . . واتق الله إذا لاقيت العدو ، واذا وعظت أصحابك فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك . . . وتعاهد عسكرك في سيرك . وقدّم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ، وخلّف على الناس من ترصاه »[3] .

---

(١) الواقدي ، فتوح الشام ، جـ ١ : ٩ ـ ١٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(٣) الواقدي ، فتوح الشام ، جـ ١ : ١٥ ـ ١٦ .

وهذه وصيته لأبي عبيدة : « يا أمين الأمة ، قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص »[1] .

وانطلقت هذه الفرق من المدينة باتجاه الشام بحيث تصل كلها الى « معان »[2] ، ومن هناك تسلك كل فرقة ، تباعاً ، طريقاً خاصاً بها .

الفرق الاسلامية ، وضعها وتحركاتها[3] :

كانت المهمة الأساسية لهذه الفرق أن تقوم بحرب نهك العدو واستنزافه (Guerre d'usure)[4] ، فلا تشتبك معه في معركة فاصلة ، بل تسير نحو أهدافها النهائية ببطء وحذر ودون أن تلاقي العدو منفردة ، وأن تعمل متساندة . وإذا اجتمعت فرقتان أو أكثر في منطقة واحدة فإنها تعمل جميعاً بإمرة قائد واحد[5] . وأسباب ذلك ما يلي :

---

(١) م.ن. جـ ١ : ١٦ ويروي الواقدي أن الخليفة كان يوصي عمرو بن العاص بحضور ابي عبيدة : انظر هذه الوصايا عند الواقدي : فتوح الشام ، جـ ١ : ٩ - ١٦ .

(٢) معان : مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ياقوت ، م.ن. جـ ٨ : ٩٣) ، وتبعد عن المدينة المنورة ٨٣٤ كلم الى الشمال منها .

(٣) انظر امين سعيد : حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٦٦ - ٧٠ ، وص ٩١ - ٩٣ .

(٤) أو (حرب الاتلاف او البري) : المعجم العسكري الموحد ، القسم الثاني ، فرنسي - عربي ، لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ، ١٩٧٠ .

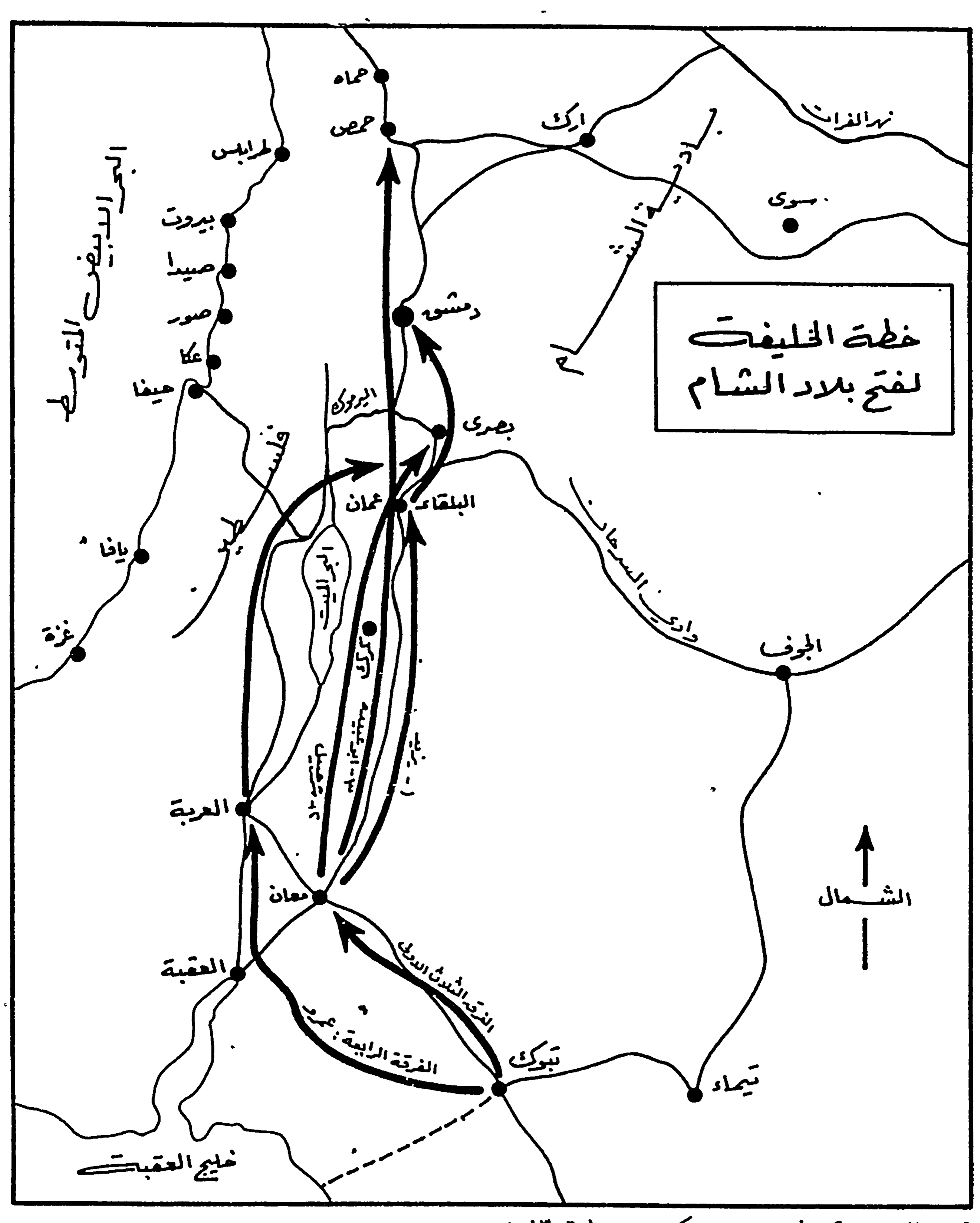
(٥) يروي الطبري (جـ ٤ : ٣٠) وابن الأثير (جـ ٢ : ٤٠٥) ان ابا بكر جهز ابا عبيدة بفرقة وسيره الى حمص ، وجعله اميراً على الناس إن اجتمعوا ؛ إلا ان البلاذري (فتوح البلدان ، ص ١٤٩) يقول : « وكان ابو بكر أراد ابا عبيدة ان يعقد له ، فاستعفاه من ذلك » . ثم يستطرد قائلاً : « وقد روى قوم انه عقد له ، وليس ذلك بثبت . . . وذكر ابو مخنف ان أبا بكر قال للامراء : إن اجتمعتم على قتال فأميركم ابو عبيدة » . ونحن نرجح رواية الطبري وابن الأثير لأن ابا عبيدة كان أقدم القادة في الاسلام ومن اصحاب الرسول ، ويحظى باحترام القادة جميعاً ، ولم يكن من المعقول أن يترك الخليفة جيوش الشام دون قائد عام فيها لو اجتمعت .

١ ـ لم يكن من الممكن تعيين قائد عام لهذه الفرق لصعوبة الإتصال فيما بينها ، إذ ان كلاً منها كانت تعمل في منطقة بعيـدة عن الأخرى ومنعزلة عنها ، وعلى محور خاص بها وباتجاه هدف خاص بها كذلك ، لذلك كانت أوامر الخليفة للقادة أن يعملوا متساندين .

٢ ـ ان عدد الفرقة الواحدة ، منفردةً ، كان قليلاً جداً بالنسبة إلى عدد كل فرقة عدوة ، فضلاً عن كون العدو مجهزاً بأحـدث معدات القتـال ووسائله ، مهيـأ للحرب بـأحدث أسـاليبهـا ، ثم أنـه كـان يقاتل على أرض يحتلها هو وبالقرب من خطوط تموينه ومركز قيادته .

٣ ـ تقضي الضرورة الحربية على المسلمـين المقاتلين عـلى أرض الشام أن لا يتوغلوا فيها قبل أن تتمكن القوة الزاحفة إلى فلسطين من تثبيت أقدامها هناك .

ولا يغربن عن بالنا أن هذه الفرق الأربع كانت مكلفة اشعـال الحرب في منطقة مساحتها ١٢٠ الف كيلومتر مربع ؛ وهي منطقة تمتد من غزة غرباً حتى صحراء الشام شرقاً ، ومن معان جنوباً حتى أبواب دمشق شمالاً . والمسافة بين غزة وصحراء الشام ٣٠٠ كلم ، كما أن المسافة بين معان وأبواب دمشق ٤٠٠ كلم . ناهيك بأنه كان على هذه الفرق أن تبتعد عن قاعدة تموينها (المدينة) مسافة ١١٠٠ كلم فتنعدم وسائل اتصالها بها ، وما من وسيلة للاتصال بالقائد العام (الخليفة) إلا السعاة الذين يمتطون الابل ويقطعون المسافة ما بين المدينة ، عاصمة الخلافة ، ومواقع الجيوش بأسابيع . لذا نرى الخليفة يحدد لكل فرقة طريقها الذي تسلكه ، وهدفها النهائي ، مع توجيهات عامة ، تاركاً لقائدها حرية التصرف بالتفاصيل .



محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري (بتصرّف)

أما تفصيل تحركات هذه الفرق بعد دخولها الشام فقد تم كما يلي :

١ ـ الفرقة الأولى (يزيد بن ابي سفيان) :

المهمة : « إحتلال مدينة دمشق ، ومساندة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها » .

التنفيذ : إنطلقت هذه الفرقة من معان في اواخر العام ١٢ هـ وسلكت طريق معان ، الأزرق ، البلقاء، بصرى. فاصطدمت بقوات للروم مرابطة في « وادي عربة » يبلغ عددها ثلاثة آلاف مقاتل وعلى رأسها « سرجيوس » قائد منطقة غزة ، فانتصرت عليها . ثم تابعت تقدمها مجتازة حوران وغوطة دمشق حتى وصلت الى أبواب المدينة ، فتمركزت حولها ومنعت حاميتها من الإتصال بالقيادة العليا للروم في انطاكية ، ثمّ اتصلت هي ببقية الفرق . وبقيت على هذه الحال حتى ظهر للمسلمين أن الروم يستعدّون للمعركة الفاصلة في اليرموك ، فقر رأيهم على الانسحاب نحوها . عندئذ انسحبت نحو اليرموك ، وتولى قائدها ، يزيد ، قيادة الجناح الأيمن للجيش الاسلامي في تلك المعركة .

٢ ـ الفرقة الثانية (شرحبيل بن حسنة) :

المهمة : « إحتلال بصرى عاصمة حوران ، ومساندة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها » .

التنفيذ : انطلقت هذه الفرقة بعد انطلاق الأولى مباشرة . ويذكر الصاغ محمد فرج[1] ان أبا بكر قال لشرحبيل : « إذا سار يزيد . . .

(١) في كتابه سيف الله خالد ، ص ١٤١ ، إلا أننا لم نعثر على قول ابي بكر هذا في أي من المراجع الهامة .

أقم ثلاثاً ثم تيسَّر للمسير » . ومهما يكن من أمر فمن المرجح أن هذه الفرقة انطلقت بعد الأولى بأيام سالكة طريق معان ، الكرك ، مأدبا ، البلقاء ، وكانت الجناح الأيمن للفرقة الرابعة (عمرو بن العاص) ، والجناح الأيسر للفرقة الثالثة (أبي عبيدة) ، ولم تجد في طريقها مقاومة تُذكر . ووصلت إلى بصرى فحاصرتها ولم توفق إلى فتحها ، ثم تخلت عنها للاشتراك بمعركة اليرموك .

٣ ـ الفرقة الثالثة (ابو عبيدة بن الجرّاح) :

المهمة : « إحتلال حمص ، ومساعدة الفرق الأخرى في تحركاتها والعمل بالتساند معها » .

التنفيذ : يرجِّح المؤرخون أن هذه الفرقة سلكت الطريق التي سلكتها الفرقة الأولى ، وانها كانت الجناح الأيسر لتلك الفرقة والجناح الأيمن للفرقة الثانية (شرحبيل) . وقد صادفت في سيرها قوة للعدو في بلدة « مآب » ، فقاتلتها وهزمتها . ثم تابعت تقدمها نحو « الجابية » فاحتلتها بلا مقاومة . ووصلت إلى حمص ، فحاصرتها ودخلتها ، فكانت حمص أول مدينة كبيرة من مدن الشام تسقط في يد المسلمين . وبقيت في أيديهم إلى أن تخلوا عنها لمقاتلة الروم في اليرموك .

ويروى أن أبا عبيدة ، لما احتل حمص ، فرض الجزية على أهلها ، وأحسن معاملتهم وجهد في استمالتهم وترغيبهم بحكم المسلمين . ولما جلا عنها للالتحاق ببقية الفرق باليرموك أعاد إليهم ما أخذ منهم من جزية قائلاً لهم : « قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فأنتم على أمركم » . فأجابه أهلها : « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من

الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم »[1] . ودخل الروم حمص بعد جلاء المسلمين عنها ، فنكّلوا بأهلها انتقاماً منهم لتعاطفهم مع المسلمين .

٤ ـ الفرقة الرابعة (عمرو بن العاص) :

المهمة : « إحتلال فلسطين » ، وهي من أشق المهمات وأصعبها ، لذلك كان عدد جيشه ضعفي عدد أي من الجيوش الأخرى .

التنفيذ : سلكت هذه الفرقة طريق الساحل (ساحل البحر الأحمر) حتى العقبة فوادي عربة فالبحر الميت . واصطدمت عدة مرات بقوات الروم ، فكانت تهزمها في كل مرة . ثم استولت على جانب من فلسطين الشرقية والجنوبية . واتجهت في زحفها نحو بيت المقدس . ولكن الروم أعدوا للقائها جيشاً عظيماً بقيادة تيودور ، أخي هرقل ، بعد أن انضم اليه سرجيوس الذي هُزم على يد يزيد في وادي عربة ، بينما تحرك جيش انطاكية من الشمال ليشغل الفرق الثلاث الأخرى عن إنجاد عمرو في فلسطين . فرأى عمرو ، عندئذ ، أن لا طاقة له على منازلة جيش كهذا بفرقة قليلة العدة والعدد كفرقته ، فانحاز إلى غور الأردن متجنباً الاشتباك مع الروم، ثم قصد الجابية ليتصل بزملائه في بصرى .

الجيوش الرومية ، وضعها وتحركاتها :

كانت امبراطورية الروم مترامية الأطراف ، مرهوبة الجانب قوية

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٧ .

الشكيمة ، امتدت رقعتها من شرق اوروبا حتى آخر حدود إفريقيا الشمالية فشملت الأقطار التالية : الأقطار الواقعة شرق البحر المتوسط ، ثم اليونان ، والأناضول ، ومصر ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر والمغرب . وكانت تحتفظ في بلاد الشام (بما فيها فلسطين) بجيوش قوية اشتهرت بعددها وعدتها وأساليب قتالها وتنظيمها . وقد بنت في الشام الحصون والقلاع وعبَّدت الطرق ، فسهل عليها الدفاع عن مراكزها وتيسرت سبل الاتصال ما بين مختلف وحداتها . وكان يحكم كل مقاطعة في بلاد الشام حامية عسكرية رومية يرئسها قائد رومي ، فكان ذلك يسهِّل للدولة الحاكمة تسيير أمور البلاد وإدارة شؤونها السياسية والادارية والعسكرية . وكان للروم في بلاد الشام جيشان هما : الجيش الأول ، مركزه فلسطين وعدده ٧٠ ألف مقاتل ، والجيش الثاني ، مركزه انطاكية وعدده ٢٠٠ ألف مقاتل . وكان معظم المقاتلين فيهما من الأرمن والروم المهاجرين من الأناضول . وقد تمركز هذان الجيشان في ستة مواضع أوردها المؤرخ أمين سعيد في كتابه « حروب الاسلام والامبراطورية الرومية »[1] على الشكل التالي :

١ ـ انطاكية ، وكانت عاصمة الشام في العهد الرومي .

٢ ـ قنسرين ، وتقع بين حماة وحلب ، على مسافة ٢٥ كلم جنوب غربي حلب ، وهي حدود بلاد الشام التي تحاذي فارس من الشمال الغربي .

٣ ـ حمص ، ويمتد نفوذها العسكري حتى تدمر وصحراء الشام ، وهي حدود بلاد الشام التي تحاذي فارس من الشمال الشرقي .

---

(١) ص ٧٧ ـ ٧٨ .

٤ ـ عمّان ، قاعدة البلقاء ، وفيها قلعة محصَّنة كما في الكرك .

٥ ـ أجنادين ، قاعدة الروم العسكرية في جنوب فلسطين ، على حدود بلاد العرب الشرقية والغربية وعلى حدود مصر .

٦ ـ قيسارية ، في شمال فلسطين ، وتبعد عن حيفا ١٣ كلم نحو الجنوب ، على شاطىء البحر المتوسط ، ولا تزال أنقاضها قائمة .

أما مقر القيادة العامة لهذين الجيشين فكان إما في انطاكية أو في حمص[١] .

وارتفع عدد الجيش الأول بعد دخول عمرو بن العاص إلى فلسطين حتى بلغ ماية ألف مقاتل ، فأصبح مجموع الجيوش الرومية النازلة في بلاد الشام ، بما فيها فلسطين ، ٣٠٠ ألف مقاتل ، يواجهون جيوشاً اسلامية لم يتجاوز عددها الأربعين ألفاً .

وقبل التحدث عن خطة الجيوش الرومية وتحركاتها لمواجهة المسلمين يجدر بنا أن نقارن بإيجاز بين هاتين القوَّتين :

جيوش الروم : تجاوز عدد مقاتليها سبعة أضعاف عدد المقاتلين في الجيوش الاسلامية . وكانت أقوى عدة من العرب في الخيل والسلاح وأدوات الحرب ووسائل المواصلات . وكانت تحارب في مواقعها ، أي في قلاعها وحصونها ، وعلى طرقها المعبدة . وكان الاتصال بين معظم وحداتها مضموناً . وكانت تقاتل في عقر دارها ، وعلى أرض تعرفها وقريباً من مراكز تموينها ، وكانت على اتصال مباشر مع قيادتها العليا .

ولكن عيوب الجندي الرومي أنه بطيء الحركة ، كثير الأحمال

---

(١) سعيد ، أمين ، ن.ص ٧٨ .

والأثقال ، أصلح للدفاع منه للهجوم ، يؤثـر الحرب داخـل حدوده وبالقرب من قواعد تموينه ويتجنب الحرب في الصحراء ، فلم يحاول مرة واحدة دخول الجزيرة العربية .

الجيش الاسلامي : أما الجيش الاسـلامي فكان قليـل العدد ، قليل العدة ضعيف وسائل الحرب ، يصعب الاتصال بين مختلف فرقه ولا يملك من وسائل النقل سوى الخيـل والإبل ، بعيـداً عن مراكـز تموينه ، وعن قيادته العليا وأرضه التي يعرفها ويجيـد القتال عليهـا ، ولكنه كان سريع الحـركة ، خفيف الأحمـال والأثقال ينتقـل بسرعـة كبيرة ، هينٌ عليه شد الرحال من الحجاز إلى الشام ، والانتقال بين جبهتي العراق والشام .

خطة الروم : يمكن تلخيص خطة الروم في مواجهتهم للمسلمين بما يلي :

١ ـ يتراجع الروم أمام المسلمين ويتخلون لهم عن الحدود الشامية الحجازية[1] .

---

(١) اختار الروم خطة التراجع لأسباب عديدة أهمها :
أ ـ مفاجأة المسلمين لهم قبل ان يستعـدوا لأي هجوم من هـذا النوع ، فلم يكـونوا مستعدين للقاء المسلمين لقاء يضمن لهم الفوز .
ب ـ رغبتهم في اجتـذاب المسلمين الى الـداخل كـما فعلوا بخالـد بن سعيد ، حتى يستجمعوا قواهم وينقضوا عليهم .
ج ـ رغبتهم في ان يحكم المسلمـون البلدان المتاخمـة للحـدود ، لعلهم يعمـدون إلى الأساليب الجاهلية التي عهدوها فيهم من سلب ونهب وتقتيل فيكونون بذلك قد ضمنوا كره اهل الشام لكل حكم اسلامي . ولكن ظن الروم خاب ، إذ أحسن المسلمون (وهم عرب الجزيرة) معاملة اخوانهم عرب الشام ، فتعاون هؤلاء معهم وناصروهم (رواية اهل حمص مع ابي عبيدة) .

٢ ـ تتجمع وحدات الجيش الأول في فلسطين ، بعد تعزيزها ، بقيادة سرجيوس حاكم غزة لمواجهة عمرو بن العاص .

٣ ـ تتجمع وحدات الجيش الثاني في انطاكية بقيادة تيودور أخي هرقل (الذي ترك قيادة الجيش الأول لسرجيوس وعاد إلى انطاكية لتسلُّم قيادة الجيش الثاني) .

٤ ـ يزحف الجيش الثاني من انطاكية إلى حمص ويباشر القتال مع كل فرقة من الفرق الاسلامية الثلاث (الأولى والثانية والثالثة) منفردة ، بحيث يستدرج كلًّا منها إلى القتال على حدة فيفتك بها ثم يميل إلى الأخرى ، وهكذا إلى أن ينتهي منها جميعاً ، مستخدماً بذلك استراتيجية « المناورة بالخطوط الداخلية » .

٥ ـ يترك لسرجيوس أمر مقاتلة عمرو بن العاص في فلسطين والقضاء عليه . وعلى هذا الأساس تراجع الروم بسرعة أمام المسلمين تاركين لهم البلاد المتاخمة للحدود الحجازية ، ثم استجمعوا قواهم في انطاكية وفلسطين واستعدّوا لضرب المسلمين . ولكن القادة المسلمين تنبهوا للخطة ، فتشاوروا في الأمر فوراً وأجمع رأيهم على تنفيذ خطة معاكسة أحبطت خطة الروم وأدت الى فشلها فشلاً ذريعاً .

الخطة الاسلامية المعاكسة :

قلنا ان الخطة الاسلامية كانت تقضي ، في البدء ، بتنفيذ حرب نهك واستنزاف لقوات الروم في الشام وفلسطين ، على أن تصل كل فرقة إلى هدفها النهائي دون أن تشتبك مع العدو في معركة فاصلة ، وإن أرغمت على ذلك استنجدت بمن يجاورها من الفرق بحيث يحارب المسلمون مجتمعين .

وتنبه قادة المسلمين لخطة الروم ، فتكاتبوا فيما بينهم متشاورين في الأمر ، وتم الرأي على اقتراح قدمه عمرو بن العاص ، قائد فرقة فلسطين ، في رسالة كتبها إلى أبي عبيدة يقول فيها : « ان الرأي الاجتماع ، وذلك ان مثلنا إذا اجتمع لم يُغلب من قلَّة . فأما إن تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدوّنا » . فاتفق القادة على ما يلي :

١ ـ الجلاء ، وبأقصى سرعة ممكنة ، عن المناطق التي احتلوها في الداخل ، إذ المهم في الحرب ليس احتلال العواصم والبلدان بل القضاء على جيوش العدو وسحق مقاومتها .

٢ ـ التراجع حتى جوار بصرى في حوران ، مع تجنب الاشتباك بالعدو والانسياق إلى معركة غير متكافئة معه .

٣ ـ اجتماع الفرق الثلاث الأولى في جوار بصرى ، على ان يتم تنظيم المرحلة الثانية من العمليات فيما بعد .

ونُفِّذت الخطة ببراعة لا مثيل لها ؛ فجلا ابو عبيدة بقواته عن حمص كما أسلفنا ، ثم جلا يزيد عن الغوطة رافعاً الحصار عن دمشق ، وجلا شرحبيل رافعاً الحصار عن بصرى . واجتمعت الفرق الثلاث في جوار بصرى ، بينما أخذ عمرو بن العاص ينسحب تدريجياً بمحاذاة الضفة الغربية للاردن ليتصل بزملائه .

ولما تمركزت الفرق الثلاث في جوار بصرى نظَّم القادة صفوفهم ، وتقاسموا مهمات الدفاع فيما بينهم ـ وقد امتدت جيوشهم إلى جهة اليرموك على مسافة ٤٥ كلم منها ـ وأخذوا يستعدون للمعركة الفاصلة . ثم كتبوا إلى أبي بكر يعلمونه بقرارهم ويطلبون موافقته عليه ، فأقر الخليفة رأي القادة وكتب إلى خالد بن الوليد يستقدمه من

العراق إلى الشام لينجدهم به .

كان خالد في الحيرة لما تلقّى أمر الخليفة بالتوجه إلى الشام لإنجاد الفرق الاسلامية المرابطة هناك . ويختلف المؤرخون في تحديد العدد الذي اصطحبه خالد في رحلته تلك ؛ فمن قائل انه سافر بخمسماية مقاتل ، أو ثمانماية أو تسعماية ، إلى قائل أنه سافر بستة آلاف مقاتل أو تسعة آلاف . ويرجِّح معظمهم أنه سافر بعشرة آلاف مقاتل ، مبررين ترجيحهم هذا بأن الخليفة أمره أن يغادر الحيرة على عجل مع نصف جيشه لإنجاد جيش الشام ، وأن يترك النصف الآخر بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني[1] ، علماً بأن عدد الجيش الاسلامي في العراق هو ثمانية عشر الف مقاتل ، اصطحب خالد منهم عشرة آلاف يوم توجه لفتح العراق ولقيه المثنى بآلاف ثمانية .

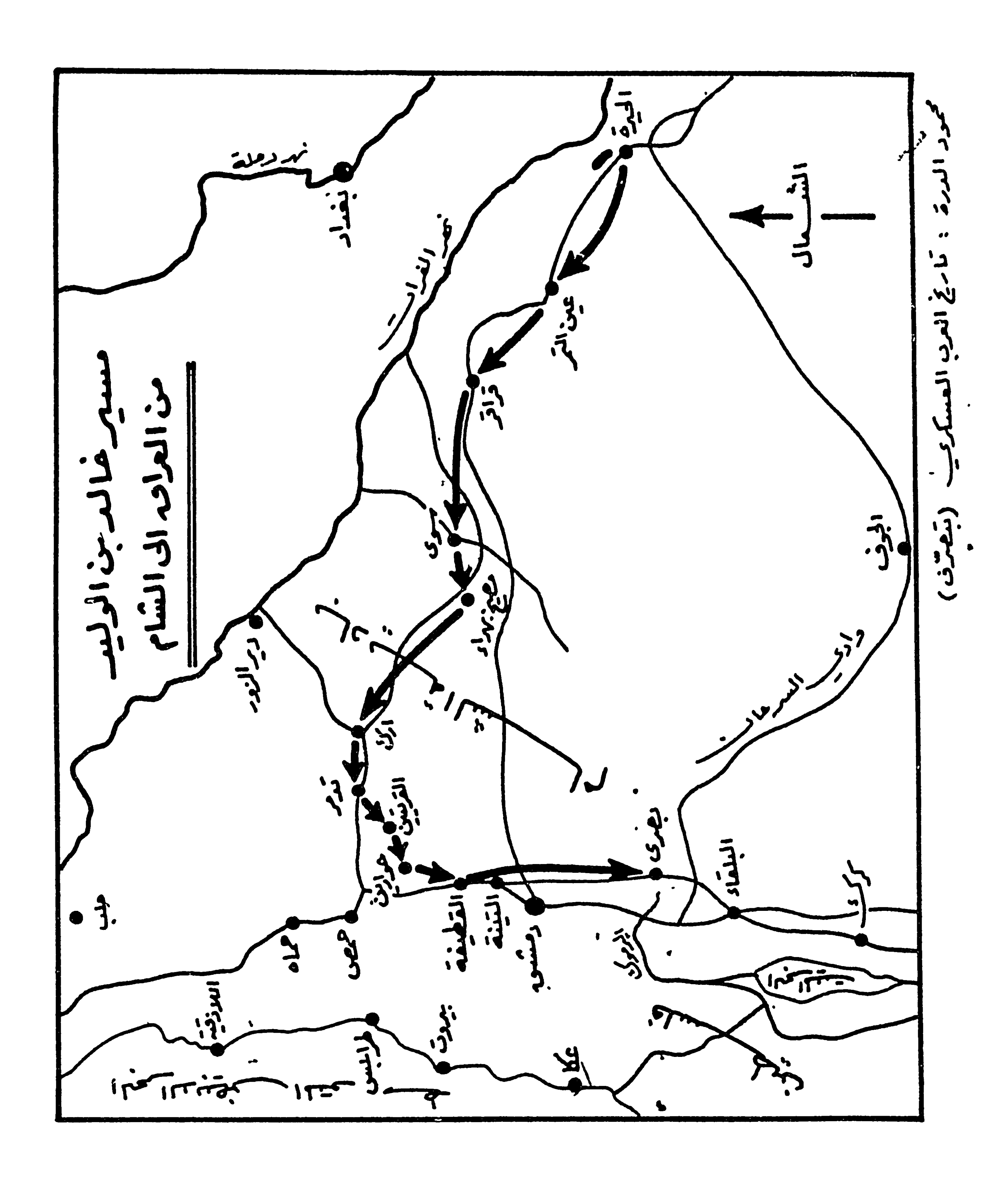
سير خالد من العراق الى الشام :

يرى المؤرخون ، ومنهم الطبري وابن الأثير[2] ، أن الخليفة أبا بكر أمر خالداً أن يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى

---

(١) سعيد، أمين، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٩٦ . ويقول ابن الاثير : « لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا ابا بكر ، فكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير اليهم وبالحث ، وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني ، ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك للمثنى مثله » (ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤٠٧) . ويقول الطبري ، في رواية له ، ان خالداً « قدم عليهم في تسعة آلاف ، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً » (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٣٢) . كما يقول في مكان آخر ، وفي رواية اخرى : « . . . وعشرة آلاف من امداد اهل العراق مع خالد بن الوليد » (الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ٣٢) .

(٢) الطبري ، جـ ٤ : ٤٢ (رواية سيف) ، وجـ ٤ : ٤٤ (رواية ابن اسحق) ، وابن الأثير ، جـ ٢ : ٤٠٧ .


مسير خالد بن الوليد
من العراق الى الشام
الشمال
الحيرة
عين التمر
قراقر
سوى
مصيخ بهراء
أرك
تدمر
القريتين
حوارين
القطيفة
الثنية
دمشق
بصرى
البلقاء
اليرموك
حمص
حماه
حلب
دير الزور
بغداد
نهر دجلة
نهر الفرات
وادي السرحان
الجوف
بيروت
طرابلس
عكا
محمود الدرة : تاريخ العرب العسكري (بتصرف)

بن حارثة الشيباني ، وأن لا يأخذ احداً من أهل النجدة إلا ويترك للمثنى مثله . فيروي الطبري ، عن سيف ، أن خالداً قسم الجند نصفين ثم استأثر بأصحاب النبي وأعطى المثنى مثل عددهم من أهل القناعة ممن ليس لهم صحبة مع النبي . إلا أن المثنى أبى إلا انفاذ أمر الخليفة ، فأرضاه خالد . ولكنه (أي الطبري) يروي ، عن ابن اسحق ، أن الخليفة أمر خالداً أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة ويخرج فيهم ؛ فسار خالد بأهل القوة من الناس ، وردَّ الضعفاء والنساء إلى المدينة ، مدينه رسول الله ﷺ ، ثم استخلف على من أسلم بالعراق ، من ربيعة وغيرهم ، المثنى بن حارثة الشيباني . ويحدثنا ابن الأثير حديثاً مماثلاً إذ يقول : « إستأثر خالد بأصحاب النبي ﷺ على المثنى ، وترك للمثنى عدادهم من أهل القناعة مَنْ ليس له صحبه ، ثم قسم الجند نصفين » . ولكن المثنى أبى هذه القَسمة لاستئثار خالد بأصحاب النبي ﷺ جميعاً ، فأرضاه خالد . ويقول ايضاً : « وقيل : إنما أمره - والضمير عائد إلى خالد - أبو بكر أن يأخذ أهل القوة والنجدة »[1] .

من المرجح ، إذن ، أن خالداً انتقى أصحابه إلى الشام انتقاء من أهل القوة والبأس ؛ من أولئك الذين قدموا معه إلى العراق ، ومن أصحاب النبي . أفلا يعني ذلك أنه لم يصطحب الآلاف العشرة التي كانت معه في العراق من أهل الحجاز ؟ ولكن هل يمكن أن يقصد خالد ، وهو القائد المحنك البارع ، بلاد الروم وهو على علم بقوة جيشهم وبأسه وكثرة عدده ، بجيش قليل العدد ، وهو الآتي لإنجاد رفاق له في الشام يشكون قلة العِدد ؟ إن خالداً ، وقد كلِّف هذه المهمة الكبرى ، لا بد وأن يقصد الشام بأكبر عدد ممكن من جنده ، وبأكثرهم

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤٠٧ .

قوة وأشدهم بأساً . ولهذا يرجّح أن خالداً جمع من جنده ما يزيد على بضعة آلاف مقاتل ، وما لا يتجاوز العشرة ، وسار بهم إلى الشام ، وكان ذلك في أوائل شهر صفر ١٣ هـ الموافق لشهر آذار ٦٣٤ م .

الطرق المختلفة : كان على خالد أن يقطع المسافة بين الحيرة في العراق وبصرى في الشام بأقل ما يمكن من الوقت ، والمسافة بينهما لا تقل عن ستماية ميل ، أي ما يعادل ٩٦٥ كلم تقريباً . وكان عليه أن يصل إلى الشام بإحدى الطرق الأربع التالية :

١ ـ طريق عين التمر ، قراقر ، سوى ، ارك ، تدمر ، القريتين ، الغوطة ، بصرى .

٢ ـ طريق الفلوجة ، هيث ، دير الزور ، تدمر ، حمص ، النبك ، القطيفة ، دمشق ، بصرى .

٣ ـ طريق عين التمر ، قراقر ، هيث ، كبيسة ، بئر اللوحة ، أبي الشامات ، الضمير ، عذراء ، الغوطة ، بصرى .

٤ ـ طريق الحيرة ، وادي حوران ، الجوف ، الزرقاء ، اليرموك ، بصرى[1] .

ميزات كل من هذه الطرق :

الطريق الأولى : خالية من قلاع الروم والفرس ومسالحهم ، تصل بسالكها إلى بصرى دون التعرض للعدو ، ولكنها مفازة قاحلة طويلة ، تحتاج إلى مسير خمسة أيام بلياليها ، لا ماء فيها ولا كلأ ، وتنتشر على طولها ، بعد « سوى » ، قرى تقطنها قبائل محالفة للروم .

(١) سعيد ، أمين ، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ٩٨ .

إنها أخطر الطرق رغم قصرها وخلوها من قوى العدو ، يُعتبر سلوكها مغامرة قد تكون مميتة إن لم ينتصر من يغامر فيها على سراب رمال الصحراء ، وعلى عطشها ولهيب شمسها خمسة أيام متتالية .

الطريق الثانية : طريق سهلة الاجتياز ، كثيرة الماء والكلأ وإن كانت أطول من الطرق الأخرى ببضعة كيلومترات ، ولكنها معرضة لخطر العدو وقلاعه ومسالحه لأنها تقع على حدود امبراطوريتي الفرس والروم ، وتنتشر على طولها حاميات كثيرة للعدو بوصفها طريق البريد الرسمي وقوافل التجارة .

الطريق الثالثة : أقصر الطرق الأربع وأصلحها للمرور ، ولكنها محمية بكثير من المسالح والقوى العدوة فمن الصعب اجتيازها دون التعرض لنار العدو ، فضلاً عن كونها تنتهي بحصون دمشق .

الطريق الرابعة : أسلم الطرق لخلوها من العدو ، ولكن اجتيازها يحتاج الى أيام طويلة ، ناهيك بأنها لا تمكِّن خالداً من المباغتة ولا من حرية العمل لمرورها ببلدان آهلة .

واختار خالد الطريق الأولى ، رغم صعوبتها ، لأسباب أهمها : رغبته في الوصول بأقصى سرعة ممكنة إلى الشام لإنجاد الجيش الاسلامي هناك . وللوصول بأقصى سرعة ممكنة لا بد من أن يسلك طريقاً :

أ ـ خالية من العدو ،

ب ـ قصيرة ،

ج ـ تسمح له بالوصول إلى مواقع الفرق الاسلامية دون أن يشعر الروم به .

يدلنا على ذلك سؤال خالد لأصحابه عند وصوله إلى قراقر : « كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؟ فإني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين » .

المسيرة : إنطلق خالد من الحيرة في أوائل صفر ؛ فمر بعين التمر (غرب كربلاء) ، حتى إذا وصل إلى قراقر[1] توقف عندها وقد عزم على سلوك الطريق الأولى التي وصفناها مخاطراً باجتياز المفازة المهلكة من قراقر إلى سوى . وجمع أصحابه من القادة وأولي الرأي ليشاورهم في الأمر ، فعارضوه جميعاً قائلين له : « إياك ان تغرر بالمسلمين » . ولكن خالداً أصر على عزمه ، فجمع جنده وخطب فيهم يستثير حماستهم ، ويستنهض هممهم ونخوتهم . وكان الجيش يثق بقائده ويطيعه طاعة عمياء ، فصاح جنده : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » . وهكذا حزم خالد أمره وعزم على المخاطرة . وطلب إليه دليلاً ، فجاءه رافع بن عميرة الطائي ، وكان قد سلك تلك الطريق مع والده يوم كان طفلاً قبل ثلاثين سنة ، فقال لخالد : « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه ؛ إنها لخمس ليالٍ لا يصاب فيها ماء » . فقال خالد : « لا بد والله من ذلك ، فمر بأمرك يا رافع » .

وأمر رافع بإبل سمان[2] ، فأعطشها أياماً ثم أوردها الماء فسقاها

---

(١) قراقر ، واد لبني كلب بالسماوة من ناحية العراق (ياقوت ، م.ن. جـ ٧ : ٤٤) ، أي على حدود العراق وبادية الشام من جهة العراق .

(٢) حدد بعض المؤرخين عددها بعشرين (امين سعيد ، م.ن. ص ١٠٠) ، وذلك امر مستبعد إذ لا يكفي جيشاً يبلغ عشرة آلاف مقاتل عشرون ناقة لخمس ليال .

عللاً بعد نهل[1] حتى امتلأت أجوافها[2] ، فقطع مشافرها وكمَّها كي لا تجترّ ثم أشار على خالد بالمسير .

وسار خالد بالجيش من قراقر مجتازاً المفازة إلى سوى[3] وبينهما خمسة أيام بلياليها . فكان يستريح في النهار ويسري في الليل مهتدياً بكوكب الصبح (جاعلاً إياه على حاجبه الأيمن ، سائراً غرباً لشمال) ، ويكتفي بالنزر اليسير من الماء ، فيسقي الجند مما حُمل منه على ظهور الابل ، وينحر ما أُورد منها قبل سفره ليأكل الجند لحمها وترتوي الخيل بالماء المختزَن في كروشها ممزوجاً بشيء من لبنها . إلى أن أشرفت المفازة على نهايتها وأشرفت « الابل الصهاريج »[4] على النفاد ، ونفد الماء المحمل على ظهورها كذلك، وأصبح الجيش برمته عرضةً للهلاك عطشاً . وكان فجر اليوم الخامس حين بلغ الجيش موقع « سوى » وبدأت الشمس تلهب رمال الصحراء بحرارتها ، وبدأت شفاه الجند تلعق القشرة الجافة منها تتلمس فيها شيئاً من الرطب . وخشي خالد أن يهلكهم العطش ولهب الشمس ، فنادى رافعاً وسأله عن الماء ، فقال

---

(١) العلل : الشربة الثانية ، والنهل : الشربة الأولى .

(٢) خالف العقاد هذه الرواية بقوله ان خالداً لم يكن لينتظر اياماً حتى تظمأ الابل . كما ان الابل لا تخزن الماء في جوفها ، فإن لم تجتره فإنه ينصرف منها . ولكنه يؤيد رواية سلوك خالد للمفازة دون ان يحدد التدابير التي اتخذها للتمكن من ذلك (عبقرية خالد، ص ١٣٥) . غير أن معظم المؤرخين ايدوا الرواية الواردة في النص اعلاه .

(٣) سوى : ماء لبهراء من ناحية السماوة (ياقوت ، م.ن. جـ ٥ : ١٥٧) ، أي على حدود العراق وبادية الشام من جهة الشام . وراجع ، لرواية المسير هذه : الطبّري ، جـ ٤ : ٤١ ، وابن الأثير ، جـ ٣ : ٤٠٨ ؛ وقارن : الواقدي ، فتوح الشام ، جـ ١ : ٢٣ ـ ٢٤ ، والبلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٣ .

(٤) تسمية مبتكرة ، وهي الابل التي ذكرنا ان اجوافها ملئت ماء .

رافع : « خير ، أدركتم الري ، وأنتم على الماء » . ثم نادى : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما وجدوهما قال لهم : « انظروا ، هل ترون شجيرة عوسج كقعدة الرجل ؟ » ، قالوا : « ما نراها » ، قال : « هلكتم إذن والله وهلكت . لا أبا لكم ، اضربوا يمنة ويسرة » . فنظروا ، فوجدوا الشجرة وقد قُطعت وبقيت منها بقيَّة . فقال لهم : « احفروا في أصلها » ، فحفروا ونبع الماء ، فشرب الجند والابل والخيل . وقال رافع : « والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبي »[1] .

وبعد أن استراح الجيش في « سوى » برهة من الزمن تابع سيره إلى « مصيَّخ بهراء »[2] ، فقاتله أهلها ، فقاتلهم وهزمهم ، ثم صالحهم وواصل سيره الى « ارك »[3] ، ثم إلى « تدمر » ، وتبعد عن دمشق ٢٣٠ كلم نحو الشرق ، فحاربه أهلها وأهل القرى المجاورة لها ، وكانت تدمر من المراكز العسكرية الرومية المحصنة ، فانتصر عليها ثم صالح أهلها ، فكانت اول مدينة احتلها خالد في أرض الشام . وواصل سيره حتى القريتين[4] ، فقاومه أهلها وحاميتها ، فحاربهم وانتصر عليهم . ثم قصد حوراين[5] ، وأتجه بعدها جنوباً قاصداً

(١) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٤١ .

(٢) مصيخ بهراء : ماء بالشام ورده خالد بن الوليد بعد « سوى » في سيره الى الشام (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٨ : ٧٩) .

(٣) ارك : مدينة صغيرة في طرف برية حلب قرب تدمر (ياقوت، م.ن. جـ ١ : ١٩٥) ، واول حدود الروم من جهة الشام .

(٤) القريتين : قرية كبيرة من اعمال حمص ، تقع بين هذه المدينة وأرك (ياقوت ، م.ن. جـ ٧ : ٧٠) ، وبينها وبين تدمر ١٣٠ كلم .

(٥) حوارين (بضم الحاء وتشديد الواو مع فتحها) : من قرى حلب (ياقوت ، م.ن. جـ ٣ : ٣٥٨) ، تبعد عن القريتين ١٥ كلم .

غوطة دمشق ، فبلغ « القطيفة »[1] ، فوجد فيها قوماً من بني غسان بقيادة الحارث بن الأيهم يستعدّون لمقاتلته قصد عرقلة سيره نحو بصرى ، فهاجمهم ، فلم يقووا على الوقوف في وجهه ، فارتدّوا إلى حصون دمشق فاتحين له الطريق الى بصرى . وكان ذلك يوم ١٨ صفر سنة ١٣ هـ ، الموافق لـ ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ٦٣٤ م . ثم بلغ الثنية ، ووقف على التل المعروف بهذا الاسم ونشر عليه الراية السوداء المسماة بالعقاب ، وهي راية رسول الله ﷺ ، ولذا سمي المكان بـ « ثنية العقاب »[2] . ثم اجتاز الغوطة من الشمال إلى الجنوب حتى وصل إلى قناة بصرى ، وكانت لا تزال بأيدي الروم ، وعليها أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد ، فهاجموها مجتمعين حتى اخضعوها وصالحوا أهلها على الجزية . وقد قطع خالد المسافة بين الحيرة وبصرى بثمانية عشر يوماً ، وكان يأخذ مسافة اليومين بيوم واحد .

اجتمع خالد ، بعد وصوله إلى بصرى ، بالقادة الثلاثة ، بينما كان عمرو بن العاص لا يزال ينسحب بمحاذاة الضفة الغربية للاردن ، يرهقه جيش سرجيوس الذي كان يتعقبه مطارداً ، ودرس معهم ، ومع الصحابة واولي الرأي من الفرق الثلاث ، الوضع العسكري الذي هم فيه ، ودرس كذلك وضع عمرو بن العاص ، فرأى ان لا مناص من عمل شيء لعمرو ، ووجد نفسه بين أمرين لا ثالث لهما :

أ ـ اما أن يجمع الفرق الثلاث بقيادته في بصرى ويوعز إلى عمرو

---

(١) القطيفة (بلفظ التصغير) : قرية دون ثنية العقاب للقاصد الى دمشق ، في طرف البرية من ناحية حمص (ياقوت ، م.ن. جـ ٧ : ١٣١) ، بينها وبين دمشق ٣٧ كلم .

(٢) ثنية العقاب (بضم الثاء) : ثنية مشرفة على غوطة دمشق ، يطؤها القاصد من دمشق الى حمص (ياقوت ، م.ن. جـ ٣ : ٢٤) .

بالاسراع نحوه لينضم إليه ، ثم ينتظر جيش انطاكية الرومي (الجيش الثاني) لكي ينازله في ذلك الموضع .

ب ـ أو أن يسرع لنجدة عمرو في فلسطين ، فيجتاز جبال حوران ويضم إليه فرقة عمرو ويخوض معها ضد سرجيوس (الجيش الرومي الأول) معركة فاصلة يقضي بها على سرجيوس وجيشه ، حتى إذا ما فرغ منه عاد ليقاتل جيش انطاكية بعد أن يكون قد ضمن سلامة مؤخرته ووطد مركزه في فلسطين وحوران .

ولم يتردد خالد في اختيار الأمر الثاني ، وهو الأخطر والأصعب . ولا عجب ، فخالد يهوى الصعاب ويعشق المخاطر ، فضلاً عن أن حنكته في أمور الحرب ومناوراتها تمكّنه من قدر أحوال المعركة ، فيفكر ويقرر ويعمل بسرعة لا مثيل لها ، فيضع عدوه أمام الأمر الواقع حيث يعجز عن التفكير والتقرير والعمل السريع .

ولم يثن خالداً عن عزمه ما ألمّ بجنده من تعب وارهاق ، بل أعدَّ عدته ، ومعه جيش الشام كله (ابو عبيدة وشرحبيل ويزيد) ، وانطلق بسرعة الفرس الجموح نحو هدفه : جيش سرجيوس في فلسطين ، وذلك بعد أن أشار على ابن العاص أن يعدِّل من خطة سيره فيستدرج سرجيوس إليه ويوهمه أنه وحده في ساحة القتال ، بينما يتعقب هو عمراً ويفاجيء سرجيوس بعد أن يكون قد اشتبك بالقتال مع عمرو .

معركة اجنادَين :

وهكذا كان ، فقد ارتد عمرو نحو اجنادَين[1] ووقف عندها ينتظر

---

(١) أجنادين : موضع معروف بالشام من ناحية فلسطين (ياقوت ، م.ن. جـ ١ : ١٢٦) .

جيش سرجيوس[1] الذي كان يتقدم نحوه مطمئناً إلى قـوَّته وضعف عدوِّه . ووصل خالد في الـوقت المناسب ، إذ أدرك فـرقة عمـرو في أجنادَين وهي على مقربة من جيش سرجيوس ، فجعل الضحاك على ميمنته ، وسعيد بن خالد بن العاص على ميسرته وأبـا الدرداء عـلى الساقة وتولى هو قيادة القلب . وما أن أنشب عمرو القتال مع جيش سرجيوس حتى انقضَّ خالد على هذا الجيش ، ودارت رحى معـركة عنيفة هُزم الروم في نهايتها هزيمة نكراء ، فقضي على معظمهم ودُحر الباقون . وكان ذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى سنـة ١٣ هـ (المـوافق لـ ٧ تموز سنـة ٦٣٤) . وقيل : لليلتـين خلتا من جمادي الآخرة ؛ أو لليلتين بقيتا منه[2] .

وعاد خالد بجنده كافة إلى اليرموك ؛ عاد ليقارع الجيش الثاني في معركة أعتبُرت مصيرية بالنسبة إلى حكم الامبراطورية الرومية في بلاد الشام .

اختلاف المؤرخين :

على انه يجدر بنا تعداد النقاط التي اختلف المؤرخون عليها أو على بعض تفاصيلها في هذا الحديث ، مع الاشارة الى القول المرجح استناداً

---

(١) في رواية للطبري (عن ابن اسحق) انه كان على الروم في اجنادين « تذارق » أخو هرقل ،وفي رواية اخرى (عن ابن جميد) انه كان عليهم فيها « القبقلار » . ويعود الطبري فيقول : « . . . والله أعلم » (تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٤ : ٤٥ ـ ٤٦) ، بينما يذكر الواقدي انه كان على الروم فيها قائد يـدعى « وردان » (فتوح الشـام ، جـ ١ : ٥٩) .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٧ .

إلى الوقائع التاريخية التي مر ذكرها أو الى ترجيحه من قبل معظم المؤرخين :

١ ـ اختلف المؤرخون في تحديد التاريخ الذي انطلق فيه خالد من الحيرة ، فقال بعضهم إنه انطلق في أوائل صفر ١٣ هـ ، وقال البعض الآخر في ربيع الآخر من السنة نفسها وقال البعض الثالث في ربيع الأول منها ، والقول الأول هو المرجح عند معظم المؤرخين .

٢ ـ واختلفوا في قدر عدد الجيش الذي اصطحبه ، فقالوا عشرة آلاف ، وقالوا تسعة وقالوا ستة ، كما قالوا خمسماية ، وقالوا تسعماية ، والقول الأول هو المرجح عند معظم المؤرخين .

٣ ـ واختلفوا في أمر تولية خالد القيادة ، فقال بعضهم إن أبا بكر ولاه القيادة بكتاب منه ، وقال آخرون إن القادة أنفسهم ولوه عند وصوله ، والقول الأول هو المرجح عند معظم المؤرخين (كتاب الخليفة إلى خالد ، وكتابه إلى أبي عبيدة وكتاب خالد إلى أبي عبيدة) .

٤ ـ واختلفوا في أمر فتح بصرى ، فقال بعضهم إن خالداً فتحها بنفسه قبل أن يلتقي الفرق الاسلامية ، وقال البعض الآخر انه فتحها بعد أن تسلَّم قيادة تلك الفرق، والقول الأخير هو المرجح عند معظم المؤرخين .

٥ ـ واختلفوا في الاتجاه الذي اتجهه خالد بعد بصرى ، فقال بعضهم إنه اتجه نحو اجنادين ففتحها ثم فتح دمشق (الواقدي)[1] ،

---

(١) يذكر الواقدي ان المسلمين حاصروا دمشق أولاً ثم فكوا الحصار عنها حين علموا باجتماع الروم في أجنادين ، وتوجهوا الى هذه الأخيرة ففتحوها ، ثم عادوا ففتحوا دمشق (المصدر السابق ، جـ ١ : ٤٦ ـ ٨٢) .

وقال البعض- الآخر إنه اتجه نحو اليرموك بعد أجنادين مباشرة (الطبري في بعض رواياته ، والبلاذري) أما الفريق الأول فيرى أن معركة اليرموك وقعت سنة ١٥ هـ ، وأما الفريق الثاني فيرى أن هذه المعركة وقعت سنة ١٣ هـ ، وفي كلتا الحالتين يبقى القول الثاني هو المرجح عند معظم المؤرخين .

٦ ـ واختلفوا في تأكيد ، أو نفي ، خبر إرواء « الإبل الصهاريج » وشدّ مشافرها في أثناء مسير خالد في المفازة بين قراقر وسوى ، كما اختلفوا في تحديد عدد الإبل عند تأكيد الخبر ، فقال بعضهم إن خالداً لم يعمد إلى هذه الطريقة ، كما أنه لا يكفي جيشاً عديده عشرة آلاف مقاتل ، وللبيال خمس ، عشرون من الإبل فقط (العقاد) . والمرجح أن خالداً عمد إلى طريقة « الابل الصهاريج » ، ولكن عدد الابل المذكور مستغرب وغير واقعي ولا بد ان يكون أضعافه .

٧ ـ واختلفوا في تاريخ معركة اجنادين ، فقال بعضهم إنها وقعت لليلتين خلتا من جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ ، أو لليلتين بقيتا منه ، وقال البعض الآخر إنها وقعت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى من السنة نفسها (الروايتان عن البلاذري) ، والقول الأخير هو المرجح عند معظم المؤرخين[١] .

٨ ـ واختلفوا اخيراً في تحديد الطريق التي سلكها خالد من العراق

---

(١) يذكر الطبري ان وقعة أخرى جرت بأجنادين بعد اليرموك وذلك سنة ١٥ هـ ، وكان على رأس المسلمين فيها عمرو بن العاص ، وعلى رأس الروم قائد يدعى (الأرطبون) ، وقد انتصر المسلمون في هذه الوقعة ايضاً على الروم (المصدر السابق ، جـ ٤ : ١٥٧ ـ ١٥٨) .

إلى الشام ، كما اختلفوا في تحديد الزمن الذي استغرقته مسيرته هذه ، ولكن معظم الروايات اتفقت على القول إنه سلك طريق المفازة التي حددناها في بحثنا هذا (الطبري وابن الأثير) وفي مدة ثمانية عشر يوماً فقط .

استنتاج : يمكننا أن نستنتج من هذا البحث ما يلي :

١ ـ مقدرة خالد العسكرية : تبرز هذه المقدرة بأجلى مظاهرها في تلك المغامرة الجريئة النادرة في التاريخ ، وقد كانت احد الأعمال الكبيرة التي وضعت خالداً في مصاف القادة العسكريين الخالدين .

والتدابير التي اتخذها خالد في سيره هذا تبعث ، ولا شك ، على الدهشة والاعجاب ، فهو :

أ ـ أوجد ، للمرة الأولى في التاريخ العسكري ، بل وللمرة الوحيدة فيه ، « الابل الصهاريج » التي نقلت الماء على ظهورها وفي بطونها .

ب ـ لم يسر في الصحراء بلا دليل ، فكان دليله رافع بن عميرة الطائي وهو الوحيد في جيشه الذي اجتاز تلك الطريق من قبل ولمرة واحدة في حياته .

ج ـ إستعمل في اجتيازه المفازة « البوصلة الطبيعية » ، أي نجمة الصبح ، إذ جعلها رافع على حاجبه الأيمن وسار غرباً لشمال حتى بلغ نقطة الوصول : « سوى » .

د ـ إعتمد خطة النبي ﷺ في السير للقتال ، إذ كان يكمن في النهار ويسير في الليل ، لا خوفاً من العدو فحسب ، بل خشية لهيب الصحراء وشمسها المحرقة التي تلهب الحناجر والقلوب ظمأ .

هـ ـ حرص في سيره على ان يكون جيشه خفيف الأحمال قابلاً للتحرك بسرعة ، حتى إذا ما فوجىء بعدوّ استطاع ان يمتلك حرية التصرف والمبادرة دون أي عائق .

ناهيك بإرادة القائد الهمام الجسور الواثق من نفسه ومن ثقة جنده به ، الواثق بعبقريته في الحرب وفطنته في شؤون القتال ، المقدم على المخاطر لا حباً بها فحسب بل تحسباً لكل محذور وتقديراً للنتائج ، والبعيد النظر يسلّطه على الغاية المرتجاة، مع رجولة وحنكة وقدرة على تحمُّل التبعات .

٢ ـ المناورة بالخطوط الداخلية :

حاول الروم استخدام هذه الاستراتيجية ضد ابي عبيدة وشرحبيل ويزيد قبل وصول خالد إلى الشام ، ولكنهم لم يفلحوا لأن من شروط نجاح هذه المناورة الجرأة والإقدام وسرعة الحركة ، وهذا ما لم يكن متوافراً للروم. وأن يترك العدو المدافع لخصمه المهاجم الوقت الكافي لاستخدامها فلا يكون له حركة جنكيزخان ـ أي ان لا يكون سريع الحركة[1] ـ وهذا ما لم يتركه العرب لخصومهم الروم . فأخفقت خطتهم وجاء خالد بن الوليد ليستخدمها بمهارة وجرأة وإقدام ، ضارباً جيش فلسطين الرومي ضربة قاضية في معركة « أجنادين » ، ثم مستديراً ليضرب جيش انطاكية ضربة أخرى قاضية في معركة « اليرموك » ، صافعاً بذلك التنين الرومي صفعتين أودتا به وحررتا الشام من قبضته .

---

(١) Bernand, Ibid, T. 1, P. 65 .



الفصل الثاني

اليرموك أو (معركة العبور الى بلاد الشام)
(١٣ هـ = ٦٣٤ م)

اليرموك ، واد بناحية الشام في طرف الغور ، يجري فيه نهر اليرموك الذي يصب في نهر الاردن ، ثم يمضي الى البحر الميت ، وقد جرت المعركة المسماة باسمه بين الروم بقيادة ماهان (او باهان) ملك أرمينيا[١] ، والمسلمين بقيادة خالد بن لوليد . وأهمية هذه المعركة أنها كانت حاسمة في انهاء حكم الروم بالشام وفتح المسلمين لتلك البلاد .

---

(١) الواقدي ، فتوح الشام ، جـ١ : ١٤٦ ، وذكر الطبري (تاريخ الامم والملوك ، جـ ٤ : ٣١) أن هرقل أمّر على الناس « التذارق » أي « تيودور » أخاه ، وأن خالداً نزل في « رواق تذارق » في اليرموك عندما انتصر على الروم (ص ٣٦) ، كما ذكر ابن الأثير (الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤١٣) ان خالدا « نزل في رواق تذارق » بعد انتصاره في اليرموك ؛ ولكننا لا نجد أي أثر لتذارق في هذه المعركة على الاطلاق ، بعكس « ماهان » الذي يجعله الواقدي دائم الحضور في قيادته للمعركة طيلة أيامها دون أن يأتي على أي ذكر لتذارق .

وقد بدأت في ١٢ رجب عـام ١٣ هـ الموافق لـ ١١ أيلول ٦٣٤ م ، واستمرت خمسة أيام كاملة[1] .

---

(١) يجـدر بنـا ، قبـل البحث في معـركـة اليـرمـوك ، ان نشـير الى رأي أورده المؤرخ جورج مرعي حداد في كتابه (فتح العرب للشام ، ص ٤٢ ـ ٤٧) نقلا عن المستعرب الهولندي ميخائيل دي غويي Michael Jan De Goeje (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) ، وهو ان اجنادين ، حيث جرت المعركة التي سميت باسمها ، والتي سبق ان تحدثنا عنها ، لم يعين موقعها بالضبط ، فيقول ابن اسحق (الطبري) ان اجنادين واقعة بين الرملة وبيت جبرين ، ويقول البكري انها واقعة بين الرملة والخليل . وبين هذه المدن نجد مدينة قديمة اسمها (يرموث) او (يرموتشا) . اذن يمكن القول بأن هنالك معركتين تدعيان « اليرموك » : الأولى هي (يرموك او يرموث) ، وهي معركة اجنادين التي جـرت سنـة ١٣ هـ ، والتي سبق ان تحـدثنـا عنهـا ، والثـانيـة هي (يـرمـوك او هيروماكس) ، وهي معركة اليرموك التي نحن بصددها الآن ، والتي استعارت من نهر اليرموك اسمها والتي يعتقد بعض المؤرخين (الواقدي) انها جرت سنة ١٥ هـ .

ويعتقد « دي غويي » ان سبب الاختلاف في تحديد تاريخ معركـة اليرمـوك الأخيرة (وهي الكبرى) هو الوقوع في خطأ عدم التفريق بين اخبار المعركتين في رواية سيف (الطبري) ، اي انه عرف بحدوث معركة اسمها اليرموك ، ولكنه لم يميز بينها وبين سابقتها (يرموث) ، فروى اخبار يرموث (اي اجنادين) معتقداً انها (هيروماكس) أي اليرموك الشهيرة .

ويرى المؤرخ حداد انه لا بأس من قبول هذه النظرية « لما فيها من الفائدة » ، ويحاول تأكيد صحتها بالاستناد الى تاريخ متفق عليه هو تاريخ وفاة الخليفة ابي بكر (رضي) في جمادي الثاني سنة ١٣ هـ (اب ٦٣٤ م) أي بعد وقعة اجنادين بوقت قصير . وبما ان البلاذري وسيف يضعان معركة اليرموك بعد اجنادين فإنهما يقولان ان خبر وفاة ابي بكر قد وصل الى المسلمين في اثناء معركة اليرموك . ويعـود حداد الى تحليـل التواريـخ فيقول : « وبما ان ابا بكر توفي في اواخر جمادى الثاني فإن خبر وفاته يجب ان يكون وصل الى المسلمين في شهر رجب اذا صدقنا اقوالهم من ان خبر وفاة ابي بكر وصل في اثناء المعركة . فإذا حدثت المعركة في رجب ، ونحن نعلم ان معركة اليرموك حدثت في رجب عام ١٥ هـ ، فقد يكون سيف واصحابه قد ضلوا فوضعوا معـركة اليـرموك (هيروماكس) بدل يرموك (يرموث) التي حدثت عام ١٣هـ .وبالفعل فإن البلاذري يعود فيذكر اليرموك ثانية في رجب عام ١٥ هـ بعد ان ذكرها عام ١٣ هـ » . (انتهى =

١ ـ الوضع العسكري في بلاد الشام عشية اليرموك :

أ ـ الروم : كانت قوات الروم في بلاد الشام ، وعشية دخول المسلمين الى هذه البلاد ، تبلغ نحو ثلاثماية ألف جندي موزعين على جيشين :

الأول : في فلسطين ، بقيادة « سرجيوس » وعديده ماية ألف جندي .

والثاني : في باقي بلاد الشام بقيادة « تيودور » أخي هرقل وعديده مايتا ألف جندي .

وكانت قيادة الجيش الأول في فلسطين ، وقيادة الجيش الثاني في انطاكية ، أما القيادة العامة للجيوش الرومية في بلاد الشام فكانت في انطاكية كذلك .

وقد تمركزت هذه القوات في جميع أنجاء البلاد في مواقع وحصون أنشئت خصيصاً لذلك ووفقاً لاستراتيجية دفاعية محكمة ، وربطت بين هذه المراكز العسكرية طرق أعدّت لتسهيل الاتصال فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين القيادة العامة بانطاكية من جهة اخرى . أما بلاد الشام كلها فكانت مقسمة الى ست مناطق عسكرية رئيسة هي : انطاكية وقنسرين وحمص وعمان واجنادين وقيسارية ، وكان لكل منطقة من هذه المناطق حامية عسكرية يقودها قائد رومي .

= تحليل المؤرخ حداد) .

ورغم أننا لا نرى موجباً للأخذ بهذا التحليل ، انطلاقاً من اقتناعنا بصحة الرأي الآخر الذي يحدد سنة ١٣ هـ تاريخاً لمعركة اليرموك ، فإننا نترك للمؤرخين المحدثين امر مناقشة هذا الرأي واتخاذ موقف منه (المؤلف) .

وكانت الجيوش الرومية في بلاد الشام مجهزة بأحدث الأسلحة المعروفة في ذلك العصر ، وتتبع أحدث الأساليب القتالية ، كما كانت من أقوى جيوش ذلك العصر عدة وسلاحاً وآلات حرب ووسائل انتقال واتصال ، يضاف الى ذلك انها تحارب في مواقعها وحصونها وعلى أرض تعرفها تماماً ، وقريباً من مراكز تموينها ، وباتصال مباشر فيما بينها ومع قيادتها العليا ، الأمر الذي لم يكن متيسراً ، على الاطلاق ، للجيوش الاسلامية الغازية .

إلا أن الجندي الرومي ، كان ، بعكس المُقاتل المسلم ، بطيء الحركة ، كثير الأحمال والأثقال ، يصلح للدفاع أكثر منه للهجوم ، ويؤثر الحرب على أرضه وبالقرب من قواعد تموينه .

وكانت خطة الروم تقضي بأن يُستدرج المسلمون الى داخل بلاد الشام حيث توكل الى الجيش الأول مهمة مقاتلتهم في فلسطين ، بينما توكل الى الجيش الثاني مهمة مقاتلتهم في باقي البلاد ، لذلك فإنهم تراجعوا بسرعة امام المسلمين بعد ان تخلّوا عن البلدان المتاخمة لشبه الجزيرة العربية من الحدود الشامية ثم وزع هرقل قواته ، لمواجهة المسلمين ، على الشكل التالي :

ـ أرسل أخاه تذارق (تيودور) الى عمرو بن العاص (في تسعين ألفاً) .

ـ وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان .

ـ وبعث الدراقص نحو شرحبيل بن حسنة .

- وبعث الفيقار بن نسطوس نحو أبي عبيدة (في ستين ألفاً)[1] .

ب - **المسلمون** : دخلت الجيوش الاسلامية الى بلاد الشام ، في أواخر العام ١٢ هـ ، وفي أربع فرق :

- **الأولى** ، بقيادة يزيد بن ابي سفيان ، وهدفها دمشق .

- **الثانية** ، بقيادة شرحبيل بن حسنة وهدفها بصرى عاصمة حوران .

- **الثالثة** ، بقيادة أبي عبيدة بن الجرّاح ، وهدفها حمص .

- **والرابعة** ، بقيادة عمرو بن العاص وهدفها فلسطين .

وأبقى الخليفة ، في المدينة ، فرقة احتِياط عديدها ٦ آلاف مقاتل ، بقيادة عكرمة بن أبي جهل .

وكان عديد كل من الفرق الثلاث الأولى يراوح بين ٣ و٤ آلاف مقاتل ، أمّا الفرقة الرابعة فكان يراوح عديدها بين ٦ و٧ آلاف مقاتل ، فيكون عديد القوات الاسلامية التي دخلت بلاد الشام في

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ :٣١، وابن الاثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤٠٦ ، وقد تخلى « تذارق » عن قيادة « الجيش الأول » في فلسطين وقبالة عمرو بن العاص ، الى « سرجيوس » ، وانتقل الى انطاكية ليتسلم قيادة الجيش الثاني .
ويذكر الطبري (جـ ٤ : ٣٧) ان هرقل اشار على قادته بأن لا يقاتلوا المسلمين ، وبأن يصالحوهم ، اذ قال : « ارى من الرأي ان لا تقاتلوا هؤلاء القوم وان تصالحوهم ، فوالله لئن تعطوهم نصف ما اخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم خير لكم من ان يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم » ، ولكن القادة عصوه وأصروا على القتال . ووردت بالمعنى ذاته عند ابن الأثير (المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤٠٦) .

بادىء الأمر يراوح بين ١٥ و١٩ ألف مقاتل ، ولكن هذا العدد ارتفع ، فيما بعد ، حتى بلغ نحو سبعة وعشرين ألف مقاتل ، أُلحق بهم :

- ثلاثة آلاف من فلول خالد بن سعيد ، وكان قد سيّره أبو بكر الى الشام ، ثم ردّه .

- وعشرة آلاف أتوا مع خالد بن الوليد من العراق .

- ثم تبعهم عكرمة بن أبي جهل مع احتياطه في المدينة وعديده ستة آلاف مقاتل[1] .

فيكون مجموع القوات الاسلامية التي دخلت بلاد الشام لفتحها نحو ستة وأربعين الف مقاتل ، منهم عشرة آلاف فارس ، وهو أكبر عدد بلغته قوات المسلمين في هذه البلاد .

ولم تكن القوات الاسلامية التي دخلت بلاد الشام تتمتع بما كانت تتمتع به القوات الرومية في هذه البلاد من تفوق سواء من حيث العدد أو العدة أو السلاح أو وسائل الدفاع والانتقال والاتصال والتموين ، هذا بالاضافة الى أن الفرق الاسلامية كانت تقاتل بعيدة عن قيادتها العامة وعن مراكز تموينها ويصعب عليها الاتصال فيما بينها، وأن المقاتل المسلم كان يقاتل في أرض غير أرضه وبلاد غير بلاده وفي مناخ يختلف عن المناخ الصحراوي الذي ألفه واعتاد عليه ، إلا أنه كان ، بعكس

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٢ ، وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١٠ . ويذكر الواقدي (المصدر السابق ، جـ ١ : ١٦٤) أن الخليفة عمر ألحق بهذه القوات سبعة آلاف مقاتل (ستة آلاف من أهل اليمن وحضرموت وألف من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف) بقيادة سعيد بن عامر .

المقاتل الرومي سريع الحركة ، خفيف الاحمال والأثقال ، يصلح للهجوم أكثر منه للدفاع ، ينتقل بسرعة كبيرة ، هينّ عليه شدّ الرحال والانتقال ، بسهولة ويسر ، من جبهة الى أخرى ، تماماً كما جرى مع خالد بن الوليد في انتقاله المدهش من جبهة العراق الى جبهة الشام .

وما ان استقر قادة الفرق الاسلامية في بلاد الشام واكتشفوا خطة الروم لمواجهتهم حتى تكاتبوا فيما بينهم وقرروا وضع خطة معاكسة لخطة الروم تتلخص بما يلي :

الجلاء بأقصى سرعة عن المواقع التي احتلوها في داخل البلاد والتراجع حتى بصرى مع تجنب الاشتباك بالعدو والانسياق الى معركة غير متكافئة معه ، ثم اجتماع الفرق الثلاث الأولى (يزيد وشرحبيل وابو عبيدة) في جوار بصرى والاتصال بعمرو بن العاص في فلسطين ، حيث يتم التشاور بعد ذلك لاعداد المرحلة المقبلة[1] .

وكتبوا الى الخليفة يستشيرونه بذلك ويستأذنونه فوافقهم على رأيهم واذن لهم ، عندها نفذ القادة الثلاثة الخطة بسرعة ، فجلا ابو عبيدة عن حمص ، وجلا يزيد عن الغوطة رافعاً الحصار عن دمشق ، وجلا شرحبيل رافعاً الحصار عن بصرى ، واجتمع الثلاثة مع فرقهم بجوار بصرى ، بينما سار عمرو بمحاذاة الضفة الغربية للاردن ليقترب منهم ويتصل بهم .

---

(١) كان الرأي باجتماع الفرق لقائد فرقة فلسطين عمرو بن العاص ، اذ انه ، لما استشير بالأمر ، كتب الى القادة الباقين يقول : « ان الرأي لمثلنا الاجتماع ، فإن مثلنا اذا اجتمعنا لا نُغلب من قلة ، فإن تفرقنا لا يقوم كل فرقة له بمن استقبلها لكثرة عدونا » (ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٤٠٦ ، وقارن : الطبري ، م.ن. جـ٤ : ٣١) .

ولكن الخليفة ابا بكر ، وهو العالم بضآلة عدد المسلمين في الشام وكثرة عدد الروم وشدّة بأسهم ، رأى ان يعزز قواته هناك بقائد صلب من قادته يسلمه زمام القيادة ويحمله عبء فتح هذه البلاد، ولم ير لذلك افضل من خالد بن الوليد الذي كان قد ابلى في جبهة العراق، احسن البلاء ، فكتب اليه ، وكان في الحيرة ، يأمره بالتوجه بنصف جيشه للانضمام الى زملائه في الشام ، فتوجه بعشرة آلاف مقاتل من العراق الى الشام في مسيرة شاقة استمرت زهاء ١٨ يوماً قطع في خلالها المسافة بين الحيرة وبصرى بما يشبه المعجزة .

٢ ـ الاستعداد للقتال :

٢.١ ـ القوى المتقابلة :

أ ـ الروم : كان جيش سرجيوس (الجيش الرومي الأول) قد هزم في معركة اجنادين التي خاضها ضد خالد فور وصوله الى الشام (جمادى الأول ١٣ هـ ـ ٦٣٤ م) فكتب هرقل الى بطارقته ان « اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلاً واسع العطن واسع المطّرد ضيق المهرب، وعلى الناس التذارق، وعلى المقدمة جرجه ، وعلى مجنبتيه باهان والدراقص ، وعلى الحرب الفيقار ، وابشروا فإن باهان في الأثر مدد لكم»[1] . وكان هذا الجيش مؤلفاً من « مايتي الف واربعين الف مقاتل ، منهم ثمانون الف مقيد واربعون الف مسلسل للموت واربعون الفا مربّطون بالعمائم لئلا يفرّوا ، وثمانون الف راجل »[2] وهم خليط من

(١) الطبري ، م.ن. جـ٤ : ٣١ .
(٢) ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٤١٠ .

الـروم والأرمن والعـرب المتنصّــرة بـالشــام والـروس والصقــالبـة والفرنجة[1] .

ب ـ المسلمـون : اجتمع خـالد ، فـور وصولـه الى بصـرى ، بقـادة الفـرق الثلاث ، فتدارس معهم الموقف من جوانبـه ، وكان عليه ان يقرر[2] احد امرين :

الأول : ان يجمع المسلمين في بصرى ، وذلك بعد ان يوعز الى عمرو بالانضمام اليه ، ثم ينتظر جيش تيودور لينازله في موضعه .

والثاني : ان يُسرع لنجدة عمرو في فلسطين فينضم اليه ويخوضون جميعاً معركة حاسمة ضد سرجيوس حتى اذا انتصر عليه تفرغ لقتال تيودور ، فيضمن بذلك مؤخرته . واختار خالد الأمر الثاني ، فكتب الى عمرو يطلب اليه مشاغلة سرجيوس ريثما يصل مع الفرق الثلاث ، ثم انطلق مسرعاً لملاقاته ، وكان اللقاء في « اجنادين » حيث خاض

---

(١) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٤٦ ، الا ان الواقدي يذكر ان عدد جيش الروم هذا كان ثمانماية الف مقاتل « غير التّبع » (م . ن. جـ ١ : ١٦١) ولكن هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً .

(٢) يذكر الواقدي ان قائد جيش المسلمين في اليرمـوك كان ابـا عبيدة (م . ن. جـ ١ : ١٤٨ ـ ١٥٠) الا ان ابا عبيدة أمر اصحاب الرايات في الجيش (اي قادة الكراديس والفرق) ان يسمعوا لخالد ويطيعوا امره (م . ن جـ ١ : ١٧٥ ـ ١٧٦) فتسلم خالد قيادة الجيش بصورة فعلية بينما كان ابو عبيدة قائـداً بالاسم فقط . ولكن الـطبري (م . ن. جـ ٤ : ٣٤) ، يخـالف هذا الـرأي عندمـا يذكـر انه ، في اثنـاء القتـال باليرموك ، وصل كتاب من المدينة ينبىء بموت الخليفة ابي بكر ومبايعة عمر بالخلافة ، وتأمير ابي عبيدة على الجيش ، ويوافقه على ذلك ابن الاثير (م . ن. جـ ٢ : ٤١٢) . إلا ان ما يذكره الواقدي بهذا الصدد يتطابق مع ما ذكره بأن معركة اليرموك جرت في عهد الخليفة عمر ، في رجب عام ١٥ هـ (م . ن. جـ ١ : ٢٠٢) .

المسلمون ، مجتمعين ، معركة حاسمة ضد جيش سرجيوس فهزموه وانطلقوا جميعاً ، بقيادة خالد ، الى اليرموك ، لملاقاة جيش تيودور ، وذلك بعد ان اطمأنوا الى ان الجيش الرومي الأول لن يتمكن من التقاط انفاسه في وقت قريب بعد هزيمته باجنادين، وانهم سوف يلاقون تيودور وجيشه ، وهم مطمئنون ان لا عدو خلفهم[1] .

---

(١) اختلف المؤرخون فيمن اختار اليرموك مكاناً للمعركة (الروم ام المسلمون) فذكر الطبري (م.ن. جـ٤ : ٣١) ان قادة المسلمين تواعدوا على الاجتماع باليرموك وكتبوا الى ابي بكر بذلك فوافقهم قائلاً « اجتمعوا باليرموك متساندين وليصلّ كل رجل منكم بأصحابه » ؟ ويؤكد الواقدي (م.ن. جـ١ : ١٥٠) نزول المسلمين باليرموك قبل الروم اذ يقول « وبلغ الخبر الى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك وان ملوك الروم سائرون لقتالهم» ثم يقول « . . . نزل ماهان بعسكره بازاء المسلمين على نهر اليرموك » (م.ن.ص.ن) . ولكن الطبري يعود فيؤكد ان الروم نزلوا باليرموك بناء لتوجيهات هرقل اذ اختاروا موضعاً « واسع المطّرد ضيق المهرب . . . فنزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم » (م.ن.ص. ٣١) . ويروي امين سعيد في كتابه (حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ١١٢) ، ناسباً ذلك الى بعض المؤرخين دون ان يذكرهم ، انه بينما كان القادة المسلمون الثلاثة (يزيد وشرحبيل وابو عبيدة) مجتمعين (في بصرى) دخل عليهم ابو سفيان بن حرب فشاوروه في الأمر فقال لهم : « ان معسكركم هذا ليس بمعسكر ، اني اخاف ان يأتيكم اهل فلسطين والاردن فيحولوا بينكم وبين حدود المدينة فتكونوا بين عسكرهم ، فارتحلوا حتى تجعلوا (هكذا وردت) أذرعات فيأتيكم المدد والذخيرة » واذرعات هي (درعا) اليوم ، فعملوا برأيه وارتحلوا الى اليرموك .
ونسب الواقدي هذا الرأي الى خالد بن الوليد. يقول الواقدي ان خالداً قال للمجتمعين : «والذي أشير به عليكم ان ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا اذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك ، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي) قريباً منكم متلاحقاً بكم وانتم على فتح لقتال عدوكم وهي ارض واسعة لمجال الخيل » ، وان ابا سفيان وافق على ذلك (م.ن.ص. ١٤٩) . ويقول الواقدي ان أبا عبيدة نزل باليرموك « وجعل اذرعات من خلفه »(م.ن.ص.١٥٠) .

٢٢ - دراسة ارض المعركة :

يقع سهل اليرموك بين بحيرة طبرية غرباً ، ووادي اليرموك جنوباً ، وجبل العرب شرقاً ، ومنطقة القنيطرة شمالاً ، وهي من الناحية الجغرافية ، المنطقة الأكثر انفتاحاً على هذا السهل واتصالاً به ، اذ انه محاط من الجهتين الغربية والجنوبية بمنحدرات حادة ، حيث يحده : **من الغرب** ، وادي الرقاد ، الذي يتصل بنهر اليرموك عند الواقوصة (أو الياقوطة) ، ثم بحيرة طبرية الواقعة غرب هذا الوادي ، والتي تشكل حاجزاً طبيعياً بين هذا السهل وغرب بلاد الشام .

يبدأ وادي الرقاد على بعد ١١ ميلاً من مجرى اليرموك ، شمالاً بشرق ، وينحدر ، في مسراه نحو مجرى النهر ، وعلى حافتيه ، انحداراً عميقاً وحاداً ، ويشتد هذا الانحدار كلما اقترب الوادي من مجرى اليرموك ، بحيث يشكل ، في بعض هذا المسرى ، حواجز طبيعية يتعذر اجتيازها ، اذ يراوح عمق هذا الانحدار بين ماية والف قدم .

ومن الجنوب ، وادي اليرموك الذي يجري فيه نهر اليرموك ، ويبتدىء هذا الوادي من « جلين » شرقاً ثم يتجه متعرجاً غرباً وعلى مسافة نحو ١٥ ميلاً حتى يلتقي بوادي الرقاد عند « الواقوصة » ، كما قدمنا ، ويستمر النهر بجريانه حتى يصب في « نهر الاردن » جنوب بحيرة « طبرية » .

ومن الشرق : سفوح جبل العرب من « ازرع » شمالاً حتى « درعا » أو « اذرعات » جنوباً ، ولا يوجد بين سهل اليرموك وسفوح الجبل حواجز طبيعية تذكر ، بل ان هذا السهل يمتد من وادي الرقاد الى سفوح تلال « ازرع » ، على مسافة تقارب الثلاثين ميلاً .

أما من الشمال : فيستمر امتداد السهل ، شمالاً ، وخلف وادي الرقاد ، حتى يتصل بمجموعة من القرى والبلدان التي تشكل منطقة « القنيطرة » ، وتعتبر هذه الجهة ، من الوجهة الجغرافية ، منفذ سهل اليرموك وبوابته الى داخل بلاد الشام .

واما سهل اليرموك ، بحد ذاته ، فهو سهل منبسط ، بشكل عام ، ينحدر انحداراً تدريجياً من الشمال الى الجنوب ، ويخترقه ، بالاضافة الى وادي الرقاد ، ومن الشمال الى الجنوب ، واديان آخران هما :

ـ **وادي علان** ، **او وادي العلك** ، ويجري فيه نهر « العلك » وهو يقع شرق وادي الرقاد ويبدأ من نقطة تقع غرب « نوى » شمالاً حتى يتصل بوادي « اليرموك » غرب قرية « حيط » جنوباً .

ـ **ووادي الهرير** ، وهو يقع شرق وادي علان (او العلك) ، ويبدأ من نقطة تقع شمال شرقي « نوى » ثم ينحدر جنوباً بغرب ، ماراً غرب ازرع ، فغرب الشيخ مسكين ، حتى يتصل بوادي اليرموك عند « اراضي الأشعري » شرق « جلين » جنوباً . ولم يكن هذان الواديان ليعيقان تحرك القوات المتقاتلة ومناوراتها .

ـ ويقع ، كذلك ، بالقرب من « نوى » جنوباً بغرب ، تل يرتفع نحو ثلاثماية قدم ويشرف على المنطقة المحيطة به ، وقد سُمي هذا التل « **تل الجموع** » وذلك لأن قسماً من جيش المسلمين قد احتشد عليه في اثناء المعركة[1] ، كما يقع جنوب نوى تل آخر يسمى « **تل السمن** »

---

(١) أ . اكرم ، سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ ، وانظر ، لمتابعة دراسة =

ويرجح ان خالداً حشد عليه نساء المسلمين واوكل اليهن مهمة رد المنهزمين من المسلمين امام العدو ، ويقع هذا التل في القلب والمؤخرة بالنسبة الى ميدان القتال .

وقد احتل ميدان المعركة الجزءين الغربي والاوسط من سهل اليرموك ، ضمن مربع محدد بمحاذاة وادي الرقاد غرباً ، ووادي الهرير شرقاً ، ووادي اليرموك جنوباً ، ثم من شرق نوى حتى منطلق وادي الرقاد شمالاً (انظر الخارطة) .

٢٣ ـ التمركز (انظر الخارطة)

أ ـ الروم : قلنا ان هرقل كتب الى بطارقته من قادة الجيش ان يجتمعوا لقتال المسلمين وان ينزلوا موضعا « واسع المطرد ضيق المهرب » وان يكون اخوه « تذارق » على الناس وان « باهان في الأثر مدداً » لهم . ويبدو ان ماهان (او باهان) وصل ، مع الجيش ، الى اليرموك ، وتسلم قيادته ، اذ لم نجد لتذارق من اثر بعدها ، ولم نسمع عنه انه تسلم قيادة المعركة او ادارها او قام بعمل عسكري ما طيلة معركة اليرموك ، مما يؤكد ان « ماهان » كان ، بالفعل ، قائد الجيش الرومي في اليرموك[1] . ويظهر ان « ماهان » تولى قيادة جيش الروم في

= ارض المعركة : خارطة سوريا ولبنان ، مقياس ١/٧٥٠,٠٠٠ ، إنشاء وطبع ادارة المساحة العسكرية بدمشق ، ايلول ١٩٦٩ وخارطتا اربد ودرعا ، الخريطة العربية الموحدة ، مقياس ١/١٠٠,٠٠٠ وخارطات اخرى لمنطقة القتال .

(١) يؤكد ذلك ما سبق وذكرناه من ان الطبري وابن الأثير لم يأتيا على ذكره في سياق حديثهما عن المعركة ، بل يتحدث الطبري عن « باهان » فيقول : « وطلع باهان على الروم ، وقد قدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين » (جـ ٤ : ٣٢) . ويذكر ابن الأثير كذلك ان باهان طلع على الروم « ومعه الشمامسة والقسيسون والرهبان يحرضون الروم =

« اليرموك » بينما كان « تيودور » او « تذراق » قائداً للجيش الـرومي الثاني في بلاد الشام .

وفي كـل حال ، اختـار قادة الـروم « اليرمـوك » موضعـاً لنزال المسلمـين وفقاً لتـوجيهات هـرقل ، « فصـار الوادي خنـدقا لهم » ، وتمركزوا شرق « وادي علان او العلك » ابتداء من الضفة الشمالية لليرموك ونحو الشمال ، وانتشروا في العمق ، غربـاً ، باتجـاه وادي الـرقاد ، وامتـد عسكرهم من اليـرموك ، جنـوباً ، مـروراً « بسحم الجولان » ، « فتسيل » حتى غرب « نوى » شمالاً[1] ، بحيث استندت مؤخرتهم على الضفة الشرقية لوادي الرقاد ، غرباً ، واستندت ميمنتهم على الضفة الشمالية لنهر اليرموك جنوباً ، أما ميسرتهم فظلت طليقة باتجاه الشمال . وهكذا بات الروم محصورين بين وادي الرقاد غـربا ووادي اليرموك جنـوبا ، الا أنهم كـانوا يتصلون ، شمـالاً ، بمراكـز تموينهم وتذخيرهم وبقيادتهم العليا في انطاكية . وكانت نقطة ضعفهم أنه كان من السهل على المسلمين الالتفاف على ميسرتهم وسـدّ المنفذ الوحيد الذي يصلهم بداخل بلاد الشام وبالتالي بعاصمتهم وقيادتهم العليا في انطاكية[2] . وظل الجيش الرومي في مراكزه تلك طيلة شهر ونصف الشهر يحسّن مراكز دفاعه ويحصّنها ويعدّ العدة لقتال المسلمين .

= على القتال ، وخرج باهان كالمقتدر ، فولّي خالد قتاله ، وقاتله الأمراء مَن بازائهم » (جـ٢ : ٤١٠) . كذلك فإن الواقدي يذكر ان هرقـل اوصى ملوك الجيش « ان صلبانكم تحت صليب ماهـان وأمركم اليـه فلا تصنعـوا أمراً الاّ بمشـورته ورأيـه » (جـ١ : ١٤٦) .

(١) أكرم ، المصدر السابق ، ص ٤٦٢ .

(٢) يرى الواقدي أن الروم تمركزوا في المنطقة الواقعة بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين المسلمين ٣ فراسخ طولاً وعرضاً (م . ن . ص ١٥٠) .

ب ـ المسلمون : وصل خالد بجيشه الى سهل اليرموك فوجد الروم قد تمركزوا فيه « فنزل عليهم بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق الاّ عليهم »[1] وقال عمرو بن العاص : « أيها الناس ، أبشروا ، حصرت والله الروم ، وقلّ ما جاء محصور بخير »[2] . ثم انتقل ، بناء لتوجيهات خالد ، فسدّ على الروم منفذهم الوحيد الذي كان يمكن ان ينفذوا منه شمالاً .

ثم ان خالداً تمركز بجيشه قبالة الروم ، غرب وادي الهرير ، ابتداء من الضفة الشمالية لليرموك ، ونحو الشمال ، وانتشر في العمق ، شرقاً ، باتجاه وادي الهرير ، وامتد عسكره من « تل الاشعري » عند مجرى اليرموك ، جنوباً ، حتى غرب « جلين » فشرق « سحم الجولان » فشرق « تسيل » « فنوى » شمالاً[3] بحيث استندت مؤخرته على « وادي الهرير » شرقاً ، واستندت ميسرته على « اليرموك » جنوباً ، اما ميمنته فظلت طليقة باتجاه شمال نوى[4] .

ج ـ مقارنة بين الجيشين في وضع التمركز

ـ كان جناحا الجيشين جنوباً (أي ميسرة المسلمين وميمنة الروم) محميين باستنادهما الى الضفة الشمالية لوادي اليرموك ، اما جناحاهما

(١) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٣١ .
(٢) م.ن.ص.ن. .
(٣) المرجح ان هذا التل يقع في اراضي الأشعري غرب وادي الهرير .
(٤) نود ان نشير الى ان معظم القرى التي وردت اسماؤها في هذا الشرح هي حديثة العهد ولم تكن موجودة في عصر معركة اليرموك (باستثناء التاريخي منها) وانما ذكرناها لتسهيل شرح المعركة .

شمالاً (أي ميمنة المسلمين وميسرة الروم) فكانا طليقين باتجاه الشمال .

ـ كان الروم محصورين بين الواديين : وادي الرقاد غرباً ووادي اليرموك جنوباً ، وبالمسلمين قبالتهم شرقاً ، اما المسلمون فكانوا طليقين في مؤخرتهم باتجاه القسم الشرقي من سهل اليرموك والسفوح الغربية لجبل العرب ، وجنوباً بشرق باتجاه درعا والجزيرة العربية ، مركز قيادتهم العليا وتموينهم ، كذلك شمالاً باتجاه الداخل .

ـ كان انتشار جيش الروم ، في العمق ، اكثر من انتشار جيش المسلمين وأوسع ، اذ كانوا ـ أي الروم ـ يعدون ثلاثين صفاً ، اما المسلمون فلم يتجاوز انتشارهم في العمق ثلاثة صفوف . ولكن بينما كان المسلمون يقاتلون خفافاً وسراعا ، كان مشاة الروم يقاتلون وهم مقيدون بالسلاسل او مربّطون بالعمائم ، كل عشرة في سلسلة ، كي لا يهربوا ، أو كدليل على رغبتهم في الاستبسال بالقتال حتى الموت[١] .

ـ كان يفصل بين الجيشين ، في ساحة القتال ، نحو ثلاثة فراسخ ، حسب قول الواقدي[٢] ، إلا ان هذا التقدير مبالغ فيه .

٢٤ ـ ترتيبات القتال :

أ ـ الروم : عبأ ماهان جيشه ، كعادة الروم في ذلك العهد ، في كراديس ، كل كردوس مؤلف من ستماية جندي ، وفي فرق (Légions) كل فرقة مؤلفة من عشرة كراديس . ورتب هذه

---

(١) أكرم ، المصدر السابق ، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ .

الكراديس في ثلاثة خطوط: ٤ كراديس في الخط الأول ، و٣ في كل من الخطين الثاني والثالث . ثم وضع الرماة في المقدمة ، ووضع الخيالة في الجناحين ، فأصبحت كراديس المشاة تشكل قلب الجيش الذي رُتّب في ثلاثين صفا[1]، وأوكل الى كل من هذه القوى المهمات التالية :

- الرماة ، ومهمتهم ان يتقدموا الى المقدمة ، فينشبوا القتال ثم ينسحبوا الى ما وراء الجناحين .

- الخيالة ، ومهمتهم ان يحموا الرماة عندما ينشب هؤلاء القتال وعند انسحابهم .

- المشاة ، وهم قلب الجيش وقوته الضاربة ، ومهمتهم الالتحام بالعدو ودحره[٤] . أما قادة الجيش في هذه المعركة فكانوا :

- ماهان ، أو باهان ، ملك أرمينيا ، ويقود فرقة من الأرمن ، بالاضافة الى قيادة الجيش في المعركة .

- قناطير ، ملك الروس ، ويقود فرقة من الروس والصقالبة .

- جرجير (أو غريغوري) ، ملك عمورية ، ويقود فرقة من سائر الأجناس الرومية .

- الديرجان صاحب القسطنطينية ، ويقود فرقة من الفرنجة .

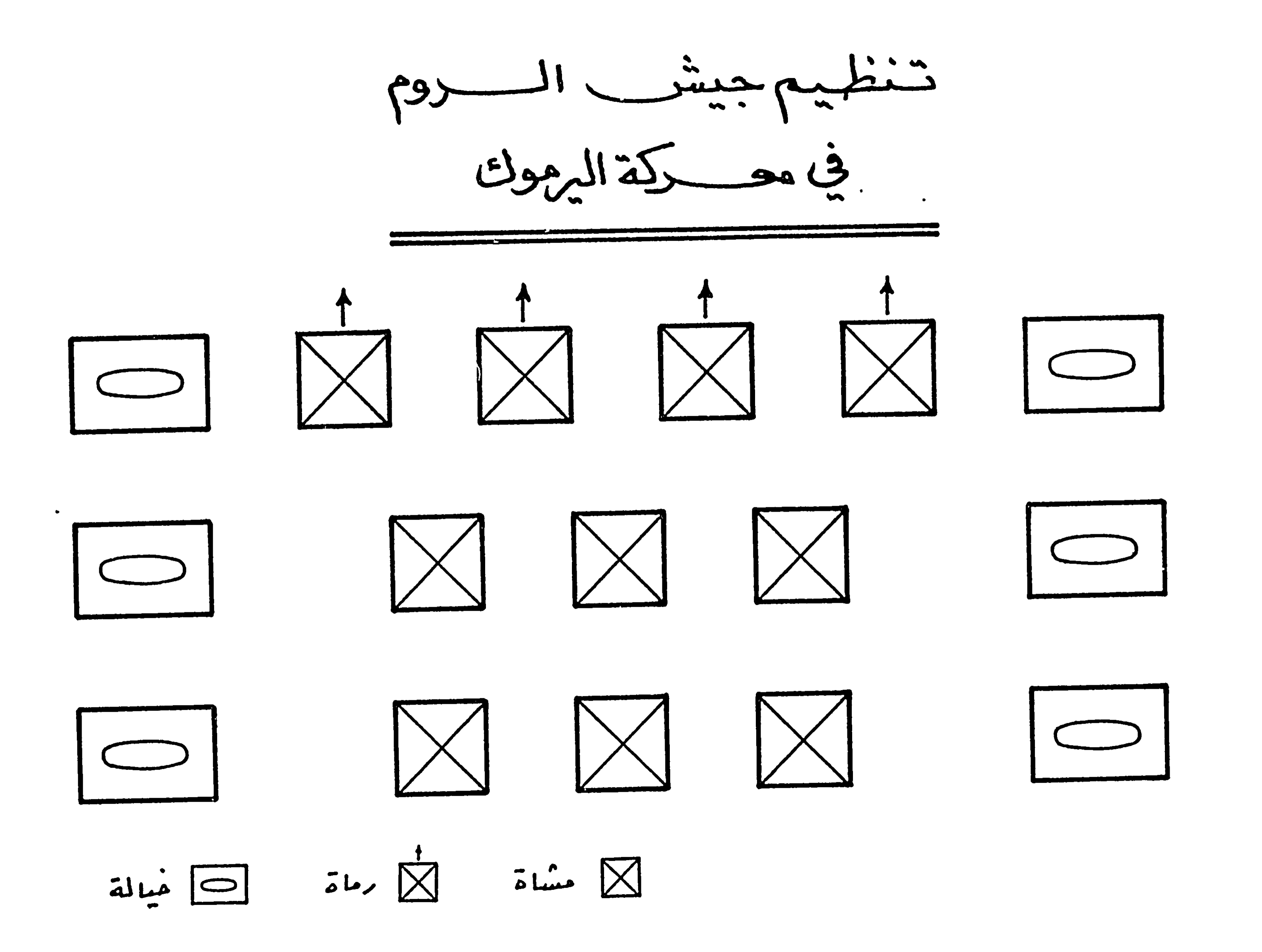
- جبلة بن الأيهم ، ملك الغساسنة ، ويقود فرقة من العرب النصارى من غسان ولخم وجذام .

---

(١) الواقدي ، م . ن . ص ١٧٧ .

(٢) سعيد ، أمين ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

تنظيم جيش الـــروم في معـــركة اليرموك



ـ قورين ، وقد خلف الديرجان بعد مقتله في المعركة .

وقد توزع هؤلاء القادة ، في ترتيبات القتال ، على الشكل التالي :

ـ في المقدمة : جبلة ، ومهمته : تغطية الجيش ومناوشة العدو قبل المعركة .

ـ في الميمنة : جرجير (أو غريغوري) ومعه المسلسلون .

ـ في الميسرة : قناطير .

ـ في القلب : ماهان والديرجان .

ب ـ المسلمون : لم يكن للمسلمين ، قبل اليرموك ، تنظيم عسكري حديث ، بل كانوا يتبعون تنظيم (الخميس) وهو الذي عرفه العرب في حروبهم السابقة كافة ، دون أن يعرفوا تنظيم (الكراديس) .

ولكن خالداً ، وهو الذي خبر الحرب مع الفرس في العراق ، عرف ، بفطنته العسكرية ، ان جيشه بحاجة ، لكي يقاتل الروم ، الى تنظيم جديد يضاهي تنظيمهم ، فلم يجد أفضل من تنظيم الروم أنفسهم ، لقتالهم به ، وهكذا اعتمد خالد في اليرموك ، ولأول مرة في تاريخ الحروب الاسلامية ، تنظيم « الكراديس » مع تنظيم « الخميس » مجتمعين ، وهو ما سمي « بالتعبئة الخالدية » .

وعبّأ خالد جيشه ، مشاة وخيالة ، في كراديس (٣٨ كردوساً وقيل ٤٠) ، كل كردوس مؤلف من ألف مقاتل ، ثم في فرق ، كل فرقة

مؤلفة من عدد من الكراديس يراوح بين ١٠ و٢٠ كردوساً ، ثم نشره في ساحة القتال ، وفي طول للجبهة يساوي جبهة الروم[١] .

ووضع خالد ، في المقدمة ، النبالين (أي رماة النبل) ، فالرماحين ، فحملة السيوف ، وأمام هذه المقدمة طليعة متحركة من الخيالة مهمتها المحافظة على التماس مع العدو ومراقبته وإشغاله ريثما تتهيأ صفوف المسلمين للقتال ، حتى اذا ما بدأ العدو تقدمه بادره النبالون بنبالهم ، فإذا استمر في التقدم صوّب اليه الرماحون رماحهم ، وان استمر كذلك ، تصدى له المقاتلون بسيوفهم[٢] .

وقد عمد خالد الى تشكيل كراديسه وفرقه على أساس التجمعات القبلية ، فجمع ، مثلاً ، في الميسرة ، وفي كراديس موحدة ، قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان ، وفي الميمنة قبائل الأزد ومذمج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد ودوس (وعلى هذه الأخيرة عامر بن الطفيل) ، وذلك لما يقاتل به العرب ، مجتمعين ، من روح عصبية قبلية لا تضاهى ؛ ولم ينس خالد أن يبقي لديه احتياطاً من الخيالة المتحركة ، وضعها بأمرته ، ومعه ضرار بن الأزور . ورتّب خالد هذه الكراديس والفرق في ساحة القتال على الشكل التالي :

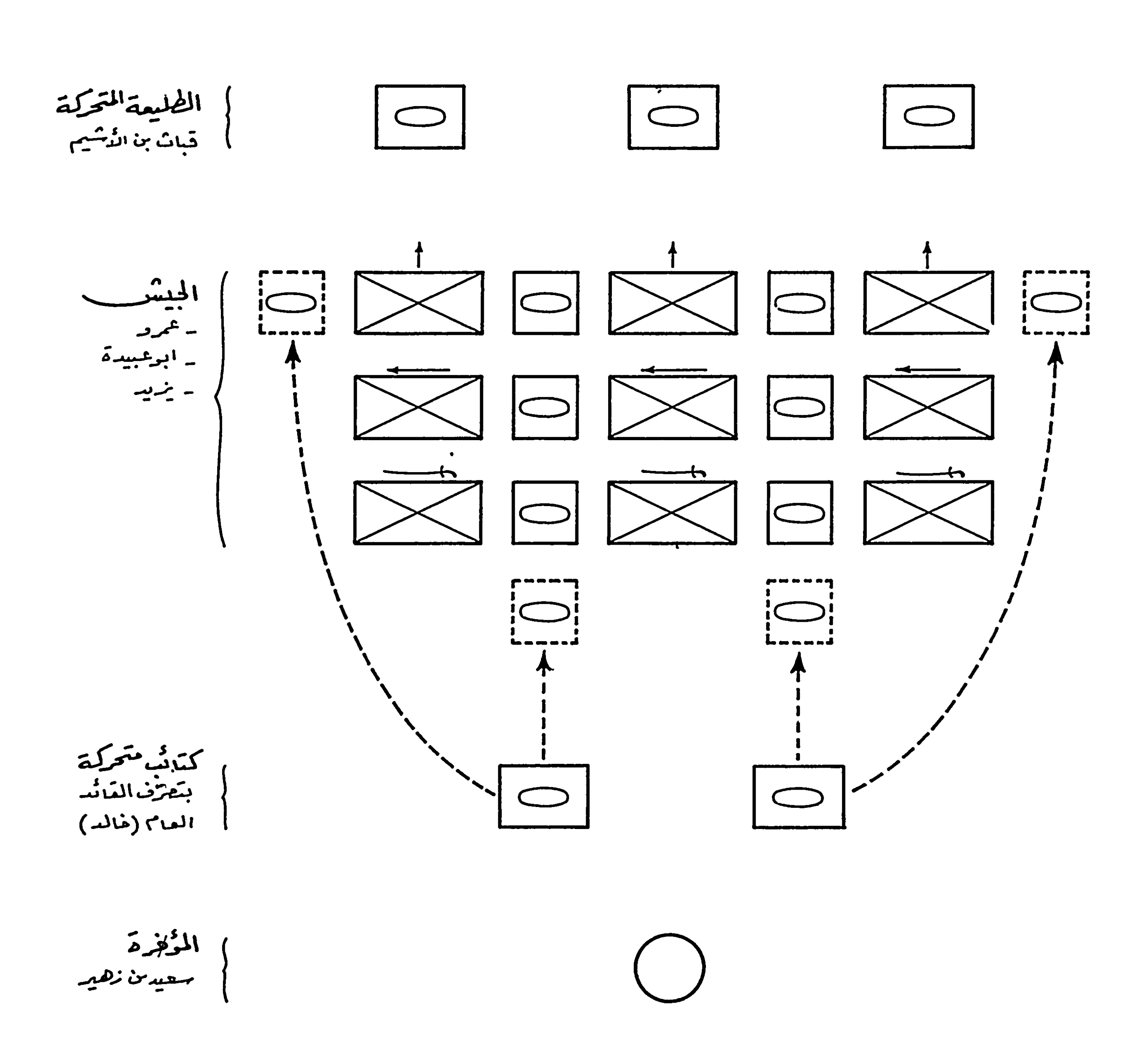
ـ فرقة القلب ، وفيها ١٨ كردوساً ، ويقودها أبو عبيدة بن الجراح ومعه عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو .

ـ فرقة الميمنة ، وفيها ١٠ كراديس ، ويقودها عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنة .

---

(١) يقدر أكرم هذه الجبهة بـ ١١ ميلاً (م . ن . ص ٤٦٤) .
(٢) أكرم ، م . ن . ص ٤٦٥ ، وأنظر : الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٨٧ .

تنظيم جيش المسلمين
في معركة اليرموك



- فرقة الميسرة ، وفيها ١٠ كراديس ، ويقودها يزيد بن أبي سفيان .

- الطليعة او المقدمة ، من الخيالة ، ويقودها قباث بن الأشيم ، وهي عبارة عن فرق صغيرة مهمتها مراقبة العدو والمحافظة على التماس به .

- في المؤخرة ، سعيد بن زهير ، ومعه ٥٠٠ مقاتل ، ومهمته قيادة الظعن وحمايته .

ومن قادة الكراديس في اليرموك : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان عمره ١٨ سنة ، وزياد بن حنظلة ، وهاشم بن عتبة ، وصفوان بن امين ، وعيّاض بن غنم ، وغيرهم . ثم عيّن « أركان حربه » وهم :

- قاضي الجيش او القاضي العسكري ، وهو أبو الدرداء ، ومهمته القضاء بين جنود المسلمين وفقاً لشريعة الاسلام .

- ضابط المعنويات ، أي القارىء ، وهو المقداد ، ومهمته ان يقرأ سورة الانفال الخاصة بالقتال .

- الواعظ ، او خطيب الجيش ، وهو ابو سفيان بن حرب ، ومهمته ان يطوف على الصفوف يحث الجند على القتال .

- رئيس المؤونة او ضابط الادارة ، وهو عبدالله بن مسعود ، ومهمته تأمين حاجات الجيش وجمع الغنائم وتوزيعها[1] .

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٣ - ٣٤ ، وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١١ - ٤١٢ .

ـ وكان خالد ، القائد العام ، في وسط الجيش ، وحوله كبار الصحابة واقطاب المسلمين ، وامامه راية الجيش وهي (العقاب) أي راية النبي (ﷺ) التي نشرها خالد في ثنية العقاب يوم اطل على غوطة دمشق آتياً من العراق[1] .

ـ وكانت النساء في المؤخرة وراء صفوف المقاتلين ، على تل محصن لحمايتهن[2] (ويرجح انه « تل السمن » الذي سبق ذكره) ، ومهمتهن العناية بالجرحى والمرضى ، وسقاية المقاتلين في اثناء القتال ، وتشجيع المقاتلين واثارة حماستهم ورد الرجال الفارين الى المعركة ، والاشتراك بالقتال احياناً .

ووزع خالد على قادته مهمات القتال على الوجه التالي :

ـ ابو عبيدة (القلب) ومهمته منازلة قلب العدو .

ـ يزيد (الميسرة) ومهمته منازلة ميمنة العدو .

---

(١) كانت راية ابي بكر مع ابي عبيدة وقد عقدها له يوم سفره الى الشام ، وهي راية للنبي صفراء سار بها الى خيبر (امين سعيد ، م . ن . ص ١١٣) . ويقول بعض المؤرخين ، ومنهم ابن الاثير (م . ن . جـ ٢ : ٤١٠) ، انه لما اجتمعت الفرق في اليرموك كانت كل فرقة مستقلة عن الأخرى استقلالاً تاماً ، وارادت ان تقاتل متساندة . فلما وصل خالد رأى ان من الأفضل اجتماعها كلها تحت قيادة واحدة ، فجمع قادتها وشاورهم في الأمر واقنعهم بذلك ، فسلموه القيادة . ولكن الأرجح ان الخليفة ابا بكر امّر خالداً في كتابه اليه ، وفي كتابه الى ابي عبيدة ، على الفرق كافة .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٥٠ .

وروى بعض من شهدوا اليرموك ان بعض نساء المسلمين قد اشترك في القتال يومذاك ، مثل اسماء بنت ابي بكر وخولة بنت الأزور وبنات عاصم الخولاني وسواهن . وكان المسلمون يأخذون معهم ، في فتوحهم ، نساءهم واولادهم وذراريهم ، آملين ان يستميت المقاتلون في قتالهم كي لا تسبى نساؤهم ويقتل اولادهم وتفنى ذراريهم ، وفي ذلك حكمة كان لها اكبر النفع في حروب المسلمين .

ـ عمرو بن العاص ومعه شرحبيل (الميمنة) ومهمته منازلة ميسرة العـدو والقيام بحركة التفاف مموهة وسريعة ومباغتة على هذه الميسرة بقصد ضرب العدو في مجنبته وخلفه ، ثم الوصول الى قلب جيشه[1] .

أما الخيالة فقد قسمها اربعة اقسام وجعل على كل قسم واحداً من خيرة قادته وفرسانه، فعلى القسم الأول قيس بن هبيرة المرادي ، وعلى القسم الثاني ميسرة بن مسروق العبسي ، وعلى القسم الثالث عامر بن الطفيل الدوسي ، ثم وضع هذه الخيالة في الطليعة (وعليها قباث بن الأشيم) وفي الفرجات بين الصفوف الثلاثة (وعليها غياث بن حرملة العاملي ومسلمة بن سيف اليربوعي والقعقاع بن عمرو التميمي)[2] وفي الميمنة والميسرة والمؤخرة ، محتفظاً لنفسه بقيادة القسم الرابع منها ، وهي الخيالة المتحركة والمهيأة للانقضاض وسد الثغرات التي يمكن ان يحدثها العدو في صفوف المسلمين .

وارسل خالد ، قبل بـدء القتال ، الى مـاهان ، وفـداً يفاوضـه للسلام ، كعادة المسلمين قبل كل معركة ، مبيناً شروطه المعروفة وهي الاسلام ، او الجزيـة ، او المنابـذة (اي الحرب) ، فـاختار مـاهان الحرب ، وتأهب الفريقان للقتال .

٣ ـ اوامر القادة المسلمين الى المقاتلين والنساء قبل البدء بالقتال :

كانت اوامر خالد وقادته الى المقاتلين المسلمين غاية في التـوجيه المعنوي وبث روح الصمود والاستبسال في نفوس المقاتلين ، كما كانت

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٣ ـ ٣٤ . وابن الاثـير ، المصدر السـابق ، جـ ٢ : ٤١١ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٧٦ و١٨٧ .

توجيهاتهم لنساء المسلمين ، وما قام به هؤلاء النساء وفقاً لذلك ، ذات اثر كبير وهام في حسم المعركة لصالح المسلمين ، وفيما يلي نماذج من هذه الأوامر والتوجيهات :

ـ امر خالد جنده ان « أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي » ، وفي قول آخر : « . . . هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها . . . »(1) .

ـ وبينما كان خالد يطوف في صفوف المسلمين قال له رجل منهم : « ما اكثر الروم واقل المسلمين » فقال له خالد : « ما اقل الروم واكثر المسلمين ، انما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال »(2) .

ـ وامر ابو عبيدة جنده ان « لا تزايلوا صفوفكم ، ولا تنقضوا نيّتكم ، ولا تخطوا خطوة إلا وأنتم تذكرون الله ، ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم ، وشرِّعوا الرماح ، واستتروا بالدرق ، والزموا الصمت الا من ذكر الله ، ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم »(3) .

ـ وامر ابو عبيدة الرماة ان « الزموا مراكزكم ، فإن رأيتم القوم زحفوا الينا فارشقوهم بالنبال ، واذكروهم عند رميكم ، ولا تتركوها

---

(1) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٣ .
(2) م.ن. جـ ٤ : ٣٤ .
(3) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٨٧ .

مفرّقة ، ولتخرج سهامكم كأنها من كبد قوس واحدة ، فإن هم زحفوا اليكم فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم امري »[1] .

ـ وامر ابو عبيدة النساء المحصّنات في التل ان « خذن بأيديكن إعمدة البيوت والخيام ، واجعلن الحجارة بين ايديكن ، وحرضن المؤمنين على القتال ، فإن كان الأمر لنا والظفر ، فكنّ على ما أنتنّ عليه ، وان رأيتن احداً من المسلمين منهزماً فأضربن وجهه بأعمدتكن وأحصبنه بحجارتكن وارفعن اليه اولادكن وقلن له : قاتل عن اهلك وولدك وعن دين الاسلام »[2] .

ـ وطاف ابو سفيان بن حرب بالصفوف منادياً « معاشر العزب الكرام السادة العظام ، قد اصبحتم في ديار الاعلاج منقطعين عن الأهل والاوطان ، ووالله لا ينجيكم منهم الا الطعن الصائب في اعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم ، وبذلك تبلغون اربكم وتنالون الفوز من ربكم . . . فأصدقوا القتال فإن النصر ينزل مع الصبر ، فإن صبرتم ملكتم بلادهم وامصارهم . . . وان وليتم فليس بين ايديكم الا مفاوز لا تنقطع الا بالزاد الكثير والماء الغزير . . . فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده ولا تموتن الا وانتم مسلمون »[3] .

ـ وخرج ابو سفيان من بين الصفوف واقبل على التل حيث نساء المسلمين ومعهن اولادهن ، وقال لهن : « ان رسول الله (ﷺ) والجنة امامكم ، والشيطان والنار وراءكم »[4] وورد في نسخة اخرى انه قال

---

(١) الواقدي ، م . ن . جـ ١ : ١٩٦ .
(٢) م . ن ، جـ ١ : ١٨٧ .
(٣) م . ن ، جـ ١ : ١٨٨ .
(٤) م . ن . ص . ن .

لهن : « حرِّضن ازواجكن على القتال ومن رجع منهم فاحصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد وأظهرن اولادكن لازواجكن حتى يرجعوا »[1] .

٤ ـ المعركة : (انظر الخارطات)

يمكن تقسيم مراحل القتال في اليرموك الى خمس مراحل :

اليوم الأول :

ـ المرحلة الأولى : المرحلة التمهيدية للمعركة ، أو مرحلة التعارف بالسلاح :

بدأت الحرب ، في اليوم الأول ، بمناوشات بين الجيشين لا تذكر ، وبمبارزة بين قادة الجيشين أهمها تلك التي جرت بين عبد الرحمن بن أبي بكر وخمسة من قادة الروم قضى عليهم جميعاً كما قتل اثنين من فرسانهم ، وانتهى اليوم الأول من القتال بهجوم شنه ماهان على المسلمين بأن « أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد أن قتل عبد الرحمن (بن أبي بكر) من قتل » ، ولكن هذا الهجوم الذي استمر « من قيام الشمس في قبة السماء الى أن همّت بالغروب » لم يسفر عن نتيجة تذكر ، ورجع كل من الفريقين الى مواقعه الأساسية دون أي حسم[2] ، ويظهر ان هذا الهجوم الأول لم يكن أكثر من عملية استكشاف مادية وتعارف بالسلاح قام به ماهان لقدر قوة المسلمين في

---

(١) الواقدي، م.ن. نسخة مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ، ط ١ ، ص ١٢٦ .

(٢) م.ن. ص ١٨١ .

ميدان القتال ، إذ انه لم يحاول تعزيز الصفوف التي هاجم بها ، كما انه لم يحاول الاستمرار في القتال .

ـ كمين ليلي في ميدان القتال : افتقد « قيس بن هبيرة » احد قادة المسلمين ابن أخيه بعد انتهاء المعركة فلم يجده ، فأخذ ثلة من المقاتلين وقصد ميدان القتال يفتش عنه بين القتلى والجرحى ، وكان الوقت ليلاً ، فشاهد مصابيح قادمة من جهة معسكر الروم ، وأدرك انهم آتون ليفتشوا ، مثله ، بين القتلى عن مفقودين لهم ، فكمن مع أصحابه بين الجثث ، وما ان وصلوا وتعرفوا الى جثة أحد قادتهم وحملوها وحاولوا الانكفاء ، حتى هبّ وأصحابه في وجوههم فذعروا ورموا الجثة وحاولوا الفرار ، إلا انه ادركهم ورفاقه بسيوفهم ، وكان قيس كلما طعن واحداً منهم يقول : « هذا عن ابن أخي » وقد قتل منهم عدداً كبيراً [١] .

وقد مرّ تسعة أيام بعد اليوم الأول ، لم يقاتل الروم المسلمين فيها ، وسبب ذلك أن ماهان كتب الى هرقل كتاباً يشرح له فيه الوضع العسكري وينتظر توجيهاته ، ولم يبادر المسلمون الى قتالهم وذلك كي يكون البغي منهم [٢] .

اليوم الثاني : (وهو اليوم العاشر الذي يلي اليوم الأول)

ـ المرحلة الثانية : هجوم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين ، وتراجع ميمنة المسلمين ، والهجوم الاسلامي المعاكس .

---

(١) الواقدي ، م . ن . ص١٨١ ـ ١٨٢ . وقد وجد قيس ابن أخيه بين الجرحى فحمله الى معسكر المسلمين حيث استشهد بين يديه .

(٢) م . ن . ص ١٨٤ .

ـ اصطف المسلمون للقتال ، فكان أصحاب الرايات في المقدمة ، والأنصار والمهاجرون في القلب ، والجند في ثلاثة صفوف ، والخيالة في ثلاثة أقسام تتخلل الصفوف الثلاثة[1] ، واستقر أبو عبيدة في القلب ، أما النساء فأقمن على التل خلف صفوف المسلمين وقد تهيأن لاداء مهمة ردع الفارين والمنهزمين .

ـ واصطف الروم للقتال ، فكان المسلسلون في ميمنتهم ، وقد اقترنوا بالسلاسل ، كل عشرة[2] في سلسلة « التماسا لحفظ عسكرهم »[3] .

ـ حملت ميسرة الروم (وعليها قناطير) على ميمنة المسلمين (وعليها عمرو وفيها قبائل مذحج وحضرموت وخولان وحمير ودوس وزبيد والأزد) فصمدت في وجه المهاجمين وقاتلتهم قتالاً شديداً .

ـ تكررت هجمات ميسرة الروم على ميمنة المسلمين بكتيبة ثانية وثالثة حتى تمكن الروم من دحر المسلمين وازالتهم عن مواقعهم في الميمنة ، فتراجعوا[4] .

ـ بتراجع ميمنة المسلمين انكشف قلب الجيش الاسلامي من جهة الميمنة وباتت هزيمة المسلمين وشيكة وذلك بعد أن تمكن الروم من

---

(١) باستثناء الفرقة التي كانت بقيادة خالد ، وكانت تناوش الروم في المقدمة بقصد تأخيرهم واعطاء الفرصة للمسلمين كي ينظموا صفوفهم (الواقدي ، م . ن . ص ١٨٧) .

(٢) م . ن . ص ١٨٨ . الاّ أنه (أي الواقدي) ذكر ان يزيد بن أبي سفيان كان على الميمنة وقيس بن هبيرة على الميسرة ، ولكننا ذهبنا مذهب الطبري في هذا (جـ ٤ : ٣٣) وهو أن عمرو بن العاص كان على الميمنة ويزيداً على الميسرة .

(٣) الواقدي ، م . ن . ص ١٨٨ .

(٤) م . ن . ص ١٨٩ .

احداث ثغرة في صفوف المسلمين والتسلل منها الى مؤخرتهم ، وانحرفت الميمنة يساراً لتندمج بالقلب .

- في هذه اللحظات انبرى عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، زعيم قبيلة الأزد ، ونادى قومه ليلتفوا حوله ، فجمع منهم نحو خمسمائة مقاتل ، بين فارس وراجل ، فحملوا على الروم المنتصرين ، وحملت معهم قبائل حمير وحضرموت وخولان ، كما حملت معهم قبيلة دوس بقيادة أبي هريرة صاحب رسول الله (ﷺ) ، وقاتل الجميع قتالاً مريراً ولكن جموع الروم تكاثرت عليهم فدحرتهم وتقهقر المسلمون الى معسكراتهم .

- تدخلت ، في هذه الآونة، نساء المسلمين ، وقد رأين الرجال منهزمين ، وهن في مراكزهن على التل خلف صفوف المسلمين ، فأخذن يرجمن المنهزمين من جند المسلمين بالحجارة ويضربن خيلهم بالأعمدة ، ويعبن عليهم هربهم ، ويهبن بهم ان يثبتوا في وجه العدو للدفاع عن شرفهم وعرضهم وعن كرامة الاسلام ، ويقلن لهم : « قبح الله وجه رجل يفرّ عن حليلته»، كما كان النساء يقلن لأزواجهن « لستم لنا ببعولة ان لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج » . وخرجت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب فرأت زوجها منهزماً فضربت وجه حصانه بعمود بيدها وقالت له : « الى أين يا ابن صخر ؟ ارجع الى القتال ابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله (ﷺ) » ، عندها ارتد أبو سفيان ، وارتد معه المسلمون جميعاً ، للقتال [1] .

---

(١) الواقدي ، م.ن. ص ١٨٩ - ١٩١ .

ـ ما ان رأى عمرو بن العاص ، وهو في الميمنة ، زعماء المسلمين وقبائلهم، وعلى رأسهم ابو سفيان بن حرب والزبير بن العوام وأبو هريرة ، يرتدون للقتال بضراوة وبسالة ، حتى اندفع ، بدوره ومن معه ، للقتال ؛ وثبت مقاتلو الميمنة بعد ان كان الروم قد دحروهم ، ثم أخذوا يكرّون على الروم الذين اضطربوا إلا أنهم لم ينهزموا ، واضحى القتال سجالاً ، بين كر وفر ، بين الروم والمسلمين .

ـ ما ان رأى خالد ميمنة المسلمين مندحرة ، « وقد وصلت الى القلب » ، حتى اقتحم بخيالته الروم المهاجمين واشتبك معهم في قتال ضار فتمكن من دحرهم واستعاد المسلمون مواقعهم التي سبق وخسروها .

ـ اغتنم خالد فرصة تراجع الروم واستعادة مسلمي الميمنة والقلب مواقعهم ، فقرر استثمار انتصاره هذا ، وأخذ يطارد الروم المنهزمين « فانكسر الروم امام خالد» . عندها امر خالد بشن هجوم عام معاكس ، فحمل المسلمون على الروم « من كل جانب » ، وكانت الحملة على ميمنتهم « فانكشفت انكشافاً قبيحاً » وظل المسلسلون في تلك الميمنة في مواضعهم يرمون المسلمين بسهامهم لكي يحموا رفاقهم المنهزمين ، فانعطف خالد بخيالته على القلب وتوغل فيه حتى وصل الى قائده « الديرجان » وقد لف رأسه بثوب من الديباج « فحمل عليه ضرار بن الأزور فقتله »[1] .

---

(١) الواقدي ، م.ن.ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

ـ المرحلة الثالثة : هجوم ميمنة الروم على ميسرة المسلمين ، وتراجع ميسرة المسلمين ، والهجوم الاسلامي المعاكس .

ـ حملت ميمنة الروم (وعليها حرجير اوغريغوري) على ميسرة المسلمين (وعليها يزيد وفيها قبائل كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان) فتراجعت ميسرة المسلمين ، وانهزمت قبائل الميسرة حتى معسكراتها[1] .

ـ قام نساء المسلمين بالدور نفسه الذي سبق وقمن به في المرحلة السابقة ولكن في وجه منهزمي الميسرة هذه المرة ، فرشقن المنهزمين وخيلهم بالحجارة والعصي صارخات : « اين اين عز الاسلام والامهات والازواج » و« اين تنهزمون يا أهل الاسلام عن الامهات والاخوات والبنين والبنات ؟ اتريدون ان تسلمونا للأعلاج ؟ » فخجل المنهزمون بهزيمتهم ، وارتدوا نحو العدو يقاتلونه بضراوة وبأس شديدين محاولين استعادة ما فقدوا من مواقع .

ـ رأى خالد ميسرة المسلمين منهزمة ، ورجالها يحاولون استعادة مواقعهم ، فانحاز اليهم بخيالته ، وكانوا نحو الفين ، واشتبك الجميع مع الروم في قتال شديد استمر طويلاً ولم ينته الى أية نتيجة .

المبارزة :

ـ وبرز ، في هذه الأثناء ، أحد قادة الميمنة من الروم ، يطلب المبارزة ، فبرز اليه غلام من الأزد فقتله الرومي ، عندها برز عامر بن

---

(١) الواقدي ، م.ن. ص ١٩٢ .

الطفيل الدوسي ، زعيم قبيلة دوس ، فبارز الرومي وقتله ؛ وبرز لعامر جبلة بن الأيهم ملك الغساسنة وزعيم العرب المتنصّرة فبارز عامراً وقتله ، ثم برز جندب بن عامر ليثأر لأبيه من جبلة فقتل هو أيضاً .

قبائل ميمنة المسلمين تحمل على العرب المتنصّرة ، والهجوم الاسلامي المعاكس :

ـ حملت قبيلة دوس ، بعد مصرع زعيمها عامر وابنه جندب ، على العرب المتنصّرة من غسان ولخم وجذام ، وتبعتها قبيلة الأزد ، لمناصرتها ومساعدتها ، ودار بين الفريقين قتال شديد كاد أن ينتهي بهزيمة المسلمين لولا أن بادر عمرو بن العاص وخالد الى الدخول ، بقواتهما ، في القتال الذي استمر حتى الليل ، حين تقهقر الروم الى مواقعهم واستعاد المسلمون المواقع التي سبق أن فقدوها في ذلك اليوم[1] .

ـ « كان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالأطفال اليهم فيرجعون الى القتال »[2] .

ـ استبسل في هذه المرحلة ، من القادة المسلمين : سعيد بن زيد ، الذي ما ان نظر الى الروم يزحفون نحوه حتى جثا على ركبتيه ثم انتفض ثائراً في وجوههم ، وانبرى الرجال يلتفون حوله ، واندفعوا جميعاً نحو جند الروم يقاتلونهم . وكذلك ، يزيد بن أبي سفيان قائد ميسرة المسلمين وقد قاتل في هذه المرحلة قتالاً شديد .

---

(١) الواقدي ، م.ن.ص ١٩٥ .

(٢) م.ن. ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

ـ المرحلة الرابعة : هجوم ميسرة المسلمين على ميمنة الروم ثم ميسرة الروم على ميمنة المسلمين، وتراجع ميمنة المسلمين . ثم الهجوم الرومي العام ، والهجوم الاسلامي المعاكس .

وصل الروم ، في هذا اليوم ، الى ساحة القتال معبئين ، وماهان على تل يشرف منه على جيشه ويعطي اوامره .

ـ تعبأ المسلمون للقتال وفقاً للترتيب الذي اتخذوه في الأيام السابقة ، وتمركز الرماة في الميمنة والميسرة والقلب ، خمسماية في كل منها ، وقد تلقوا الأوامر بأن يلزموا مراكزهم وأن يرشقوا الأعداء بالنبال إن زحفوا نحو المسلمين ، وأن يثبتوا في أماكنهم .

ـ شن يزيد ، قائد ميسرة المسلمين ، هجوماً على ميمنة الروم مما يجانب القلب ، ودار بين الفريقين قتال عنيف لم يؤد الى أية نتيجة لصالح أي من الفريقين .

ـ حملت ميسرة الروم ، في هذه الأثناء ، بعشرة آلاف فارس ، على ميمنة المسلمين وفيها عمرو بن العاص ، فدحرت الميمنة وتقهقرت حتى معسكراتها ، وطارد الروم المسلمين واخترقوا صفوفهم حتى دخلوا « في اوائل عسكر المسلمين مما يلي عمراً ومن معه »[1] ، محاولين الفصل بين عمرو وشرحبيل (وكان في الميمنة مما يجانب القلب) ، ثم القيام بعملية التفاف من جهة الميمنة والى الخلف . ولم يتمكن عمرو ومن معه من الصمود امام الهجوم الرومي فتراجع وجنده، ودخل الروم معسكر

---

(١) الواقدي ، م . ن . ص ١٩٧ .

المسلمين وكشفوهم « حتى ألصقوهمَ بالتل الذي عليه النساء وأحاطوا بالتل »[1] .

ـ اندفع النساء المسلمات ، عند رؤيتهن رجال المسلمين منهزمين حتى التل الذي هن عليه ، فهبطن من مراكزهن وأخذن يدفعن بالرجال المنهزمين الى المعركة دفعاً ، صارخات في وجوههم وهن يضربنهم وخيلهم بالحجارة والعصي : «أين أنصار الدين ؟ أين حماة المسلمين»؟ وكان الزبير بن العوام في خيمة زوجته يداوي عينيه من رمد ، فسمع بما جرى للمسلمين ، وهبّ عندها مشرعاً سيفه ومندفعاً لقتال الروم حتى قال فيه ليث بن جابر « لله در الزبير بن العوام لقد ردّ الروم بنفسه وحده إذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردّهم الى عسكرهم »[2] . أما عمرو ، وكانت ميمنته قد تراجعت أمام هجوم الروم ، فما ان رأى الزبير مهاجماً ، حتى استعاد حميته وبأسه ، وصاح برجاله قائلاً « الحزم الحزم يا أهل الاسلام ، الصبر ، الصبر »[3] . وحمل على الروم المهاجمين . وظل المسلمون يقاتلون الروم ويدفعونهم الى أن تمكنوا من دحرهم واستعادة المواقع التي سبق وفقدوها .

ـ في هذه الأثناء ، حملت ميسرة الروم ، من جديد ، وفيها فرقة من الأرمن ، على شرحبيل ، في ميمنة المسلمين مما يجانب القلب ، فهُزمت ميمنة المسلمين ولم يثبت منها الاّ شرحبيل وجماعة من المقاتلين دون الخمسماية . ورأى قيس بن هبيرة ، وكان على فرقة من الخيالة ،

---

(١) الواقدي ، م . ن . ص . ن .
(٢) م . ن . ص . ن .
(٣) م . ن . ص . ن .

هزيمة ميمنة المسلمين ، وخيلَ شرحبيل وهي تتقهقر ، فاندفع لمساندتها من اليسار بينما اندفع خالد لمساندتها من اليمين ، وأصبح الروم بين فكي كماشة ذراعها الأول (قيس) من اليسار وذراعها الثاني (خالد) من اليمين . وما ان رأى شرحبيل اندفاع خيالة المسلمين في هجومهم نحو الروم حتى ارتدّ بدوره عليهم مهاجماً ، فأصبحوا محاصَرين من جهات ثلاث : يميناً ويساراً ومواجهة ، فاضطربوا وبدأوا يتقهقرون ، واندفع المسلمون في اثرهم و« حملوا عليهم حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان »[1] بعد ان استعادوا مواقعهم .

المبارزة

ـ تخلل هذه المرحلة مبارزة بين بعض قادة الروم وقادة المسلمين ، وقد قتل فيها أحد بطارقة الروم وهو صاحب نابلس على يد أحد فرسان بني حمير ، وقتل مريوس ملك اللان على يد ضرار بن الأزور بعد أن بارزه شرحبيل فعجز عنه ، كما بارز الزبير بن العوام أربعة من الروم فقتلهم ، وبارزَ خالد ملك الروس (وهو غير قناطير) وقتله[2] .

يوم التعوير

ازاء ما جرى للروم من هزائم على يد المسلمين ، أمر ماهان رماتـه فهبوا هبّة واحدة وأطلقوا نحو المسلمين ما يقارب « ماية الف سهم » دفعة واحدة ، « فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء » وكثرت جراح المسلمين من جراء ذلك ، وكثرت عيونهم

---

(١) الواقدي ، م . ن . ص ١٩٨ .
(٢) م . ن . ص ١٩٨ ـ ٢٠١ .

التي ذهبت حتى قيل إن رجال المسلمين فقدوا ، في حرب السهام هذه ، نحو سبعماية عين ، لسبعماية رجل ، فسمي هذا اليوم « يوم التعوير » وكان أبو سفيان بن حرب أحد المصابين[1] . وهلع المسلمون لما أصابهم واضطربوا ، وجفلت خيلهم وارتدت على أعقابها ، فتراجعوا مبتعدين عن مرمى السهام .

الهجوم الرومي العام

اغتنم ماهان فرصة هلع المسلمين واضطرابهم وتراجعهم فأمر قادته بشن هجوم عام على المسلمين محاولاً « استثمار النصر » الذي أحرزه بواسطة رماته ، فزحف الجيش الرومي ، برمته ، قلبا وميمنة وميسرة ، نحو المسلمين المتقهقرين ، وعلى رأس هذا الجيش قادته قورين وجرجير (غريغوري) وقناطير ، وزاد الرماة في رميهم على المسلمين ، وتقدم المسلسلون بخطى ثابتة وقد أشرعوا سيوفهم ؛ وازداد المسلمون ، أمام هذا الزحف الهائل ، إمعاناً في التراجع والتقهقر ، وازداد الروم امعاناً في التقدم والتوغل في صفوف المسلمين ، وقاتل المسلمون ، في تقهقرهم ، قتالاً شديدا ، وقد أبلى قادتهم مثل ابي عبيدة ويزيد وعمرو وعبد الرحمن بن أبي بكر والفضل بن العباس، في هذا اليوم، بلاء حسنا ، حتى قال عبدالله بن قرط الأسدي « شهدت القتال كله فلم أر قتالاً أشد من يوم التعوير »[2] ، ولكن

---

(١) الواقدي ، م.ن.ص ٢٠١ . وهكذا ذكر الطبري اذ قال : « واصيبت يومئذ عين ابي سفيان ، فأخرج السهم من عينه ابو حثمة » ، (المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٦) ، وابن الأثير (المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١٤) أما البلاذري فقال إن عين أبي سفيان ذهبت يوم الطائف (فتوح البلدان ، ص ١٨٥) .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ٢٠١ .

المسلمين ظلوا يتراجعون مندحرين حتى وصلوا الى مضارب النساء .

قتال النساء المسلمات والهجوم الاسلامي المعاكس

ما ان رأى النساء المسلمات رجالهن منهزمين حتى نزلن عن التل وقد حمل بعضهن السيوف ثم اشتركن بالقتال « فجعلن يقاتلن قتال الموت»، وانهزمت نساء لخم وجذام وخولان فبرزت لهن خولة بنت الأزور (أخت ضرار) وأم حكيم ابنة حكيم بن الحرث وسلمى بنت آوى « وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن : اخرجن من بيننا فانتن توهنَّ جمعنا ، فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت ، وقاتلت أم حكيم بنت الحرث أمام الخيل بالسيف »[1] . وهبّ المسلمون للقتال عندما رأوا نساءهم يقاتلن قتالاً أشدّ من قتال الرجال ، حتى قال فيهن عبدالله بن قرط كذلك : « لم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول الله (ﷺ) ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن السيوف ضرباً وجيعاً »[2] . وما ان رأى عكرمة بن ابي جهل والقعقاع بن عمرو ، وكانا مع ابي عبيدة في القلب ، نساء المسلمين وقد اشرعن سيوفهن يقاتلن ، حتى دبت الحماسة فيهما ، فوقف عكرمة ، على رأس كردوسه ، امام فسطاط خالد وصاح : « قاتلت مع النبي (ﷺ) في كل موطن ثم أفرّ اليوم ؟ » ثم نادى : « من يبايعني على الموت ؟ » ، « فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في اربعماية من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا اقدام فسطاط خالد حتى

---

(١) الواقدي ، م.ن ص ٢٠٢ .

(٢) م.ن. ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

اثبتوا (أثيبوا) جميعاً جراحاً ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل » . وجرح عكرمة وابنه عمرو فأتي بهما الى خالد فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمرو على ساقه واخذ يمسح وجهيهما ويقطر الماء في حلقيهما ويقول : « زعم ابن حَنْتَمة (يعني عمر) انّا لا نُستَشهد »[1] .

وقد استمر القتال في يوم التعوير هذا من اول النهار حتى حلول الظلام ، وصمد ابو عبيدة وخالد والقادة من حولهما حتى تمكنوا من دحر الروم وردّهم على اعقابهم . وما ان مالت الشمس نحو المغيب وفصل الظلام بين المتحاربين حتى كان المسلمون قد استعادوا مراكزهم ورجع كل قوم الى « اصلاح شأنهم ومداواة جراحهم» وذلك بعد ان « جرت الدماء بينهم وفرشت الأرض بالقتلى »[2] .

اليوم الخامس :

المرحلة الخامسة : الهجوم الاسلامي العام - الحركة الافراجية - الحسم ونهاية المعركة[3] :

بدأت هذه المرحلة بمبارزة بين (غريغوري) قائد ميمنة الروم ، وبين (أبي عبيدة) قائد القلب في جيش المسلمين ، وانتهت هذه المبارزة بمقتل القائد الرومي على يد القائد المسلم ، مما اثار قائد الجيش ماهان فاندفع يطلب المبارزة ، وبرز اليه مالك النخعي فما استطاع اليه

---

(١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١٣ ـ ٤١٤ ، والطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٦ .

(٢) الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ٢٠٤ .

(٣) انظر ، لهذه المرحلة : اكرم ، المصدر السابق ، ص ٤٩١ ـ ٥٠١ والواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ٢٠٥ ـ ٢١٠ .

سبيلاً ،بل ان ماهان استطاع ان ينال من مالك بضربة « شترت عينه » فولَّى هارباً ، ومنذ ذلك الحين سمي مالك « بالاشتر » .

بعد هذه المبارزة اعطى خالد اشارة البدء بالهجوم العـام ، فتم ذلك على الشكل التالي :

ـ الهجوم الاسلامي العام :

ـ أمر خالد قادة الجيش في الميمنة والقلب والميسرة بالهجوم العام على قلب العدو وميمنته وميسرته ، وترك لنفسه حرية المناورة بما لديه من خيالة متحركة (ومعه ضرار بن الأزور) .

ـ أمر قيسَ بن هبيرة (قائد فرقة من الخيالة) بـالتعرض لخيـالة ميسرة العدو والاشتباك معها . ثم قام ، بخيالتـه ، بحركـة التفاف سريعة ومفاجئة على تلك الميسرة ، في الوقت الذي كان قيس يشاغلها جانبياً ، بخيالته .

ـ كـان الهجوم عـلى ميسرة العـدو من ثلاث جهـات : جبهيا ، بـواسطة ميمنـة المسلمين (عمـرو) ، وجانبيـاً ، بواسـطة خيـالتهم (قيس) ، وخلفيـاً ، بواسطة خيالتهم ايضاً (خالد) ، فوقعت ميسرة العدو ضمن كماشة مثلثة الأذرع ، وكانت هذه الميسرة مؤلفة من فرقة مشاة تدعمها ، من الخلف ، فرقة خيالة ، فتداخلت الفرقتان احداهما بـالأخرى تحت تـأثير ضغط المسلمـين عليهـما ، ثم انحـرفتـا معـا ، متراجعتين ، لتندمجا بالقلب .

ـ في هذه الأثناء ، كان شرحبيل (في الميمنة بجانب القلب) وابو عبيدة ويزيد ، في مواجهة ميسرة العدو وقلبه وميمنته ، وكان القتال بين الجيشين يدور عنيفاً دون ان يتمكن اي منهما من احراز أي نجاح .

- الحركة الافراجية الأولى :

- شن شرحبيل هجوماً جبهياً عنيفاً على من كان في مواجهته من ميسرة العدو ، بينما شن عمرو (وهو في الميمنة بجانب شرحبيل) هجوماً جانبياً على تلك الميسرة ، والتف خالد وقيس بخيالتهما على خيالة الميسرة من الخلف ليضغطا عليها من جديد ، وما ان أحسّ خالد بعزم خيالة الروم على الهرب باتجاه الشمال حتى فسح لها في ذلك فانطلقت تجري مسرعة الى داخل البلاد وهي لا تلوي على شيء .

- محاولة هجوم رومي معاكس - الحركة الافراجية الثانية :

- في هذه الأثناء ، كان ماهان (في القلب) يعد هجوماً معاكساً بخيالته على المسلمين ، وقد بدأ ينظم ، لذلك ، صفوف الخيالة خلف صفوف المشاة ؛ وتنبه خالد لذلك ، فشن ، ومعه قيس ، على ماهان وخيالته ، هجوماً جانبياً وخلفياً مفاجئاً ، وذلك قبل ان يتمكن ماهان من تنظيم خيالته للهجوم . وفي هذه الأثناء ، كان عمرو يطبق على ميسرة الروم بهجوم جانبي مماثل ، حائلاً ، في الوقت نفسه ، بين خيالة الروم وبين طريق النجاة شمالاً .

ودارت بين الفريقين رحى معركة عنيفة استبسل فيها ماهان وخيالته في وجه خالد وقيس وخيالتهما ، ولكن الروم انهكوا وارهقوا ، فمقاتلوهم وخيالتهم مثقلون بالعتاد والسلاح ، لذلك فهم قليلو الحركة بطيئو المناورة ، بينما يقاتل المسلم ، راجلاً وخيالاً ، بخفة وسرعة لا مثيل لهما . واشتد القتال بين الفريقين ، واشتد ضغط خالد على ماهان وخيالته كما اشتد ضغط قيس على خيالة الميسرة ، فأخذ ماهان يتلمس له ولخيالته مخرجاً ، عندها أفسح خالد له ولخيالته طريق الهرب ، وأمر

عمراً فأفسح لهما الطريق كذلك ، ففر ماهان وخيالته شمالاً (وكانوا اربعين الفا) ، متفرقين في انحاء البلاد أشتاتاً[1] ، تاركين مشاة الروم بلا تغطية وتحت رحمة سيوف المسلمين وحوافر خيلهم .

- الحسم ونهاية المعركة :

- كان خالد ، في اثناء الليل الذي سبق المرحلة الأخيرة من المعركة[2] قد أمر ضرار بن الأزور ان يرابط بثلة من خيالته (خمسماية خيال) على المخاضة الوحيدة الواقعة على وادي الرقاد خلف صفوف الروم ، والتي تشكل المنفذ الوحيد لهم باتجاه الغرب . ففعل ضرار ذلك وسدّ على الروم طريق الهرب من تلك الجهة ، ثم انقض بخيالته ، من الخلف ، على مشاتهم ومن تبقى في ساحة القتال من خيالتهم بعد ان غادرها ماهان وخيالته ، بينما اشتد عليهم الضغط الجانبي (من عمرو) والجبهوي (من شرحبيل وابي عبيدة ويزيد) ، فأصبح الروم محصورين من كل الجهات باستثناء جهة واحدة هي طريقة المخاضة ، فحاولوا ولوجها جماعات جماعات ، إلا ان ضراراً كان بانتظارهم فهاجمهم وهم يعبرونها واعمل ورجاله سيوفهم فيهم ، فارتد الروم الى الخلف هلعين مضطربين لا يعرفون اين يذهبون وكيف يسيرون ، ورغم ذلك فقد ظل مقاتلوهم (في القلب) يقاومون ببسالة وضراوة ، وخاصة خيالتهم . اما المشاة فقد لجأوا ، واكثرهم مسلسل او مقيد ، الى خنادقهم ، بعد ان فقدوا التغطية التي كانت تؤمنها خيالتهم لهم .

---

(١) انسحب ماهان ومعظم خيالته نحو دمشق فلحق بهم خالد وقاتلهم حتى هزمهم من جديد وقُتل ماهان ، قتله رجل من المسلمين (الواقدي ، م.ن. ص ٢١٠) .

(٢) م.ن. ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

ـ عندها ، حمل خالد ، بخيالته ، من الخلف ، على من تبقى من خيالة الروم ، في القلب ، فهزمهم ، واتجه معظمهم نحو المخاضة ، إلا ان ضراراً كان مترصداً لهم ، فعاد من نجا منهم من سيوف ضرار ورجاله ليقع تحت سيوف خالد ورجاله ، ثم عاد خالد فاقتحم ، بخيالته ، على المشاة خنادقهم واخذ يقتلهم ، فتراجع معظمهم حتى سقط في هوة وادي اليرموك (الواقوصة او الياقوصة) ، وكان احدهم اذا اراد الهرب من سيوف المسلمين ارتد جزعاً فسقط في الواقوصة وسقط معه من قُيِّد اليه بالسلاسل ، فمن نجا منهم من سيوف المسلمين لقي حتفه في الهاوية[1] .

لقد كان الروم ، في هذه اللحظات ، اشبه بكتل بشرية ضخمة تدور على نفسها ، ولا تعرف من ان تؤتى ، بينما كان قادتهم يغطون رؤوسهم ببرانسهم (وهي عادة متبعة عند اشرافهم) ويتقدمون للقاء الموت بشجاعة ورباطة جأش ، فيأمر خالد بقطع اعناقهم .

وهكذا ، لم تكد تغرب شمس ذلك اليوم ، حتى كان آخر مقاتل رومي قد اخلى ساحة القتال إما هارباً او جثة هامدة تحت حوافر خيل المسلمين او في قاع الوادي السحيق .

٥ ـ الخسائر والنتائج :

أ ـ الخسائر :

ـ الروم : قدر كل من الطبري وابن الأثير خسائر الروم في هذه المعركة بمائة وعشرين الف قتيل ، ثمانين الف مقيد بالسلاسل واربعين

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٦ ، وابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١٣ ، والواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ٢٠٦ .

الف مطلق ، بينهم معظم قادتهم (غريغوري والديرجان وماهان) ، إلا ان البلاذري قدرها بسبعين الف قتيل[1] .

ـ **المسلمون** : اما خسائر المسلمين فقدرت بثلاثة الاف بين شهيد وجريح[2] ، ومن بين شهداء المسلمين معظم صحابة النبي (ﷺ) وشيوخ المسلمين واقطابهم ، (وكان عددهم يناهز الماية) . وممن أصيب في هذه المعركة : عكرمة بن ابي جهل وابنه عمرو ، وسلمة بن هشام ، وعمرو بن سعيد ، وابان بن سعيد ، وجندب بن عمرو والطفيل بن عمرو وطليب بن عمير وهشام بن العاص وعياش بن ابي ربيعة وغيرهم[3] . .

---

(١) الطبري ، المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٦، وابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ٢ : ٤١٣ ، والبلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ . اما الواقدي فيقول « فقتلوا ـ أي المسلمون ـ منهم زهاءماية الف واسروا مثلها وغرق في الناقوصة منهم مثلها » ، (المصدر السابق ، جـ ١ : ٢٠٩) ، وهذا قول فيه الكثير من المبالغة . وفي كل حال ، تجدر الملاحظة اننا لا نستطيع الخروج على ما قدّره المؤرخون من هذه الأرقام في معارك الفتوح ، وان كنا متيقنين انها ارقام مبالغ بها ، بل خيالية ، الى حد كبير ، طالما أننا لم نعثر على أرقام اخرى غيرها تناقضها او تدحضها (المؤلف) .

(٢) ذكر الطبري (المصدر السابق ، جـ ٤ : ٣٦) وكذلك ابن الأثير (المصدر السابق ، جـ ٢ : ٤١٤) ان الذين (اصيبوا) من المسلمين في هذه المعركة « ثلاثة الاف » اما الواقدي (المصدر السابق ، جـ ١ : ٢١٠) فقدر عدد من قتل من المسلمين في هذه المعركة « بأربعة آلاف » .

(٣) الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ٣٦ وابن الأثير ، م.ن. ص ٤١٤ ـ ٤١٥ . ويذكر المؤرخون خبر جرجة ، وهو قائد رومي اسمه « جرجة بن توذر » ، وقيل : « بن تيودور » ، وكان يتكلم العربية . وقد روى معظم المؤرخين (ومنهم الطبري وابن الأثير) ان جرجة ، لما بدأ الاشتباك باليرموك ، اقترب بدابته من دابة خالد ودار بينهما حوار طويل جاء فيه ما يلي : ـ جرجة : يا خالد ، اصدقني القول ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب : بالله هل انزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فاعطاكه ، فلا تسله على قوم =

ب ـ النتائج :

كانت معركة اليرموك حاسمة في شأن مصير الروم ببلاد الشام ، اذ انها فتحت امام المسلمين باب الانتصارات المتتالية في هذه البلاد ، وما ان علم هرقل بهزيمة جيشه باليرموك ، وكان بانطاكية ، حتى غادر المدينة بعد ان امّر عليها واحداً من قومه ، وودع هذه البلاد بقوله المشهور : « سلام عليك يا سوريا ، سلاماً لا لقاء بعده » ، ولكن هرقل عاد بعدها لينظم في سوريا مقاومة ضد المسلمين الا انه فشل في ذلك فغادرها الى القسطنطينية بلا رجعة .

= الا هزمتهم ؟ ـ خالد : لا ـ جرجة : ففيم سميت سيف الله ؟ ـ خالد : ان الله بعث فينا نبيه ، فدعانا ، فنفرنا عنه ونأينا . ثم ان بعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم ان الله اخذ بقلوبنا فهدانا به ، فتابعناه ، فقال : « انت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين » ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله ، وانا من اشد المسلمين على المشركين . ـ جرجة : يا خالد ، اخبرني الى م تدعوني ؟ ـ خالد : الى شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، والاقرار بما جاء من عند الله . ـ جرجة : فمن لم يجبكم ؟ ـ خالد : فالجزية ونمنعه . ـ جرجة : فإن لم يعطها ؟ ـ خالد : نؤذنه بحرب ثم نقاتله . جرجة : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر اليوم ؟ ـ خالد : منزلتنا واحدة فيما افترض الله عليه شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا . ـ جرجه : هل لمن دخل فيكم اليوم مثل ما لكم من الأجر والذخر ؟ ـ خالد : نعم ، وأفضل . قيل : ثم طلب جرجة من خالد ان يعلّمه الاسلام ، فأخذه خالد الى فسطاطه ووضأه ، ثم صلى ركعتين وخرج ليحارب بجانب المسلمين ، فقتل في المعركة نفسها (ابن الأثير ، جـ ٣ : ٤١٢ ، والطبري ، جـ ٤ : ٣٥) .

الدروس المستخلصة
من معركة اليرموك

كانت اليرموك اول معركة خاضها المسلمون بجيش ذي تنظيم وتكتيك حديثين ، لذا كانت التطبيق العملي لتطور التنظيم والتكتيك الذي اكتسبه المسلمون في حروبهم منذ ظهور الاسلام وحتى بدء الفتوح . وان كانت اليرموك قد جرت بعد وفاة الرسول (ﷺ) بسنوات فلا شك في ان خالداً قد خاضها بجيش الرسول نفسه ، جنداً وقادة وصحابةً اولي رأي ومشورة ، مما يجعلنا ندرك اهمية هذه المعركة في إظهار ملامح العبقرية العسكرية التي تميز بها هذا القائد الفذ ، في وقت لم يكن المسلمون قد اظهروا ، في فن الحرب ، تقدماً ملحوظاً . وفيما يلي بعضٌ من لمحات التطور التنظيمي والتكتيكي التي ظهرت خلال هذه المعركة وكان لخالد بن الوليد فضل اظهارها :

١ ـ المناورة بالخطوط الداخلية : كان خالد يتمتع ، امام الحلول المتعددة المختلفة ، ببعد نظر شامل ، وتفكير صائب واختيار ناجح للحل المناسب مع سرعة في تقرير هذا الحل وتنفيذه . فها نحن نراه ، عند وصوله الى الشام ، امام حلين : اما ان يلحق بعمرو بن العاص في فلسطين فينازل جيش الروم فيها (جيش سرجيوس) ، ثم يتفرغ لجيش انطاكية ، او ان ينتظر جيش انطاكية في اليرموك فينازله قبل منازلته جيش فلسطين . فلا يتردد في اختيار الحل الأول ، وكان مصيباً في اختياره .

ولا يغرب عن بالنا ان الأخذ بالحل الثاني كان يعني المحاذير التالية :

أ ـ ان يعتمد خالد خطة الدفاع بدلاً من الهجوم ، فينتظر جيش انطاكية في مكانه . ولا يخفى ما في هذه الخطة من مخاطر على جيش ينتظر عدواً يفوقه عدداً (بستة اضعاف) ويفوقه عدة .

ب ـ ان يخسر خالد ، في معركته الحاسمة باليرموك ، قوة ضاربة لا يستهان بها ، هي قوة عمرو بن العاص المتمركزة قبالة جيش سرجيوس في فلسطين .

ج ـ ان يتعرض خالد لاحتمال عدم تمكن عمرو من مواجهة جيش سرجيوس والصمود في وجهه ، مما يؤدي الى تقدم قوات سرجيوس لتقطع خطوط المواصلات التي تربط خالداً بالمدينة عاصمة الخلافة ، وبمقر القيادة العليا ومركز التموين والتذخير .

لهذا قرر اعتماد الحل الأول والمناورة بالخطوط الداخلية ، مستفيدا من بطء تقدم القوات الرومية التي لم يكن بوسعها اللحاق به من حمص الى اجنادين بالنظر لما تحمله من دروع واثقال .

٢ ـ التنظيم العسكري للجيش الاسلامي في المعركة :

سبق وتحدثنا ، في سياق البحث ، عن التنظيم العسكري الذي اعتمده خالد في معركة اليرموك ، وهو تنظيم « الخميس والكراديس » مجتمعين ، أو ما سمي « بالتعبئة الخالدية » وكان اول تنظيم من نوعه في الاسلام .

مكان الخيالة المسلمين في المعركة :

كان للخيالة ، عند خالد ، اهتمام خاص ، فقد كانت القوة الضاربة وقوة الصدم في جيشه بالاضافة الى كونها قوة مشاغلة ومناورة

وانقضاض . لذا ، نراه يقسِّم خيالته في اليرموك الى فرق ، على كل فرقة واحد من افضل فرسانه واشجعهم (قيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق ، وعامر بن الطفيل ، وغياث بن حرملة ، ومسلمة بن سيف ، والقعقاع بن عمرو ، وقباث بن أشيم ، وضرار بن الأزور) ، ثم يوزع هذه الفرق بين الطليعة والميمنة والميسرة وصفوف القتال الثلاثة ، ثم المؤخرة . فخيالة الطليعة للمشاغلة ، وخيالة الجناحين للمناورة ، وخيالة الصفوف للتدخل والصدم ، وخيالة المؤخرة للانقضاض . وكان نصيبه دائماً (ومعه ضرار بن الأزور أحد اشجع فرسان المسلمين وافضلهم) خيالة الاحتياط المتحرك التي كانت حاضرة للانقضاض على العدو في أي مكان من المعركة يظهر فيه على المسلمين ضعف او وهن .

وينسب عمر كحالة ، في كتابه « سيف الله خالد بن الوليد » ، إلى خالد قوله في اليرموك : « قد رأيت ان افرق خيلي فأكون في احدى الخيلين وقيس بن هبيرة في الخيل الأخرى ، ثم تقف خيلنا من وراء الميمنة والميسرة ، فإذا حمل الناس ثبّت الله اقدامهم ، وان تكن الأخرى حملت خيولنا عليهم وهي حامية ، وتكون الاعداء قد انتهت شدتهم وتفرقت جماعتهم ، فأطلق الأعنة عند ذلك الى ان يظفرنا الله بهم ، ويجعل الدائرة عليهم »[1] .

---

(١) كحالة ، عمر ، سيف الله خالد بن الوليد ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ، الا ان كحالة لم يذكر المصدر الذي اخذ عنه قول خالد هذا . وانظر ايضا ، لتوزيع الخيالة في اليرموك : الواقدي ، المصدر السابق ، جـ ١ : ١٧٦ و١٨٧ .

٣ ـ الاستعداد للقتال وتوزيع المهمات :

وزع خالد المهمات على قادته ، قبل القتال ، فوضع أبا عبيدة في القلب ومهمته منازلة قلب العدو . ووضع يزيد بن ابي سفيان في الميسرة ، ومهمته منازلة ميمنة العدو . ووضع عمرو بن العاص ، ومعه شرحبيل بن حسنة ، في الميمنة ، ومهمتهما منازلة ميسرة العدو ، ثم القيام بحركة التفاف مغطاة وسريعة ومباغتة على هذه الميسرة بقصد ضرب العدو في مجنبته ومن خلفه ثم الوصول الى قلب جيشه .

٤ ـ الاعداد المعنوي للجند :

سبق وتحدثنا ، في سياق البحث ، عن الأوامر التي اعطاها قادة المسلمين للمقاتلين والنساء قبل بدء القتال ، مع ما فيها من حض للمسلمين على الصمود والثبات في وجه العدو، وما كان لذلك من تأثير معنوي على المقاتلين في اثناء القتال .

٥ ـ الحيطة في السير الى المعركة :

ضمن خالد « الحيطة » في مسيره الى القتال باليرموك ، فقد وضع في طليعة جيشه احد اكفأ قادته واشجعهم وهو (قباث بن اشيم) فكانت طليعة قباث عيون ذلك الجيش ومخافره الأمامية . ووضع في مؤخرته « سعيد بن زيد » مع خمسماية مقاتل لحماية الظعن والمؤخرة . حتى ان معركة « اجنادين » نفسها يمكن ان تعتبر احدى اهم الوسائل التي استخدمها خالد لضمان « الحيطة » للمعركة العتيدة والحاسمة في اليرموك .

٦ ـ التجديد في تكتيك الجيش الاسلامي :

كانت اليرموك اول معركة خاضها الجيش الاسلامي ضد الروم باسلوب حديث في القتال . فقد نجح خالد في اقتباس التنظيم العسكري عن جيوش الروم « **نظام الكراديس والفرق** ». ومحاربتهم به وانتصاره عليهم قبل ان يدرب جنده عليه ، كما نجح في تنفيذ « **الحركة الافراجية** » التي اعتمدها مع خيالة الروم في اثناء المعركة ، فكان ذلك تطوراً هاماً وحاسماً في التكتيك والتنظيم العسكريين في الجيش الاسلامي ، بل كانا (أي تنظيم الكراديس وتنفيذ الحركة الافراجية) أهم تطورين في التنظيم والتكتيك في الجيش الاسلامي في ذلك الحين .

٧ ـ اختيار نقطة التمركز الخطرة في مواجهة الروم :

عندما وصل خالد الى ميدان القتال رأى الروم قد تمركزوا في موضع « واسع المطرد ضيق المهرب » فوادي الرقاد خلفهم ، ووادي اليرموك عن يمينهم ، والمسلمون امامهم ، ولم يبق لهم الا منفذ واحد باتجاه الشمال يصلهم بمقر قيادتهم العليا ومركز تموينهم وتذخيرهم في داخل الشام ، وهو المنفذ الذي عمد خالد الى سده بميمنته ، عند ميسرتهم ، فلما دارت رحى المعركة وضغط خالد بجنده على خيالة الروم لم يتمكن هؤلاء من التراجع في طريق مسدود ، فلم يجدوا بداً من النفاذ باتجاه ميمنة خالد ، ففتح لهم الطريق ليعبروا ويتشردوا في طول البلاد وعرضها .

٨ ـ اجبار الروم على ترك مواقعهم الدفاعية المحصنة :

رأينا ان خالدا وصل الى ميدان القتال والروم متحصنون في مواقعهم ، فعمم على قادته ان لا يبدأوا القتال ، بل ان يتركوا الروم

يهاجمونهم تاركين مواقعهم الدفاعية المحصنة ، فكان له ما اراد . وقد استهدف الروم من هجومهم تطويق المسلمين ، فشغلوا ميسرتهم ثم ضربوا ميمنتهم ، ثم ضربوا ميسرتهم ، ثم عادوا فضربوا ميمنتهم ثانية لعلهم يخترقونها وينفذون منها الى مكان يطوقون منه جند خالد. ولكن المسلمين صمدوا وثبتوا ، فارتد الروم على اعقابهم ، وكرّ خالد عليهم بعد ان ارهقهم الهجوم فانتزع النصر منهم انتزاعاً .

٩ ـ دور النساء في المعركة :

لقد كان لنساء المسلمين في مختلف مراحل هذه المعركة دور أساسي وهام وحاسم كما سبق وقدمنا في اثناء شرحنا لمراحل المعركة ، بل كن ، بالفعل ، سبباً لأنتصارهم فيها ، اذ كان لهن فضل كبير في تثبيت اقدام المسلمين في ميدان القتال وصمودهم وعودتهم الى القتال بعد كل هزيمة كانوا يمنون بها . ولا عجب فقد ساهمت المرأة المسلمة ، الى حد كبير ، الى جانب الرجل ، في معظم حروب المسلمين وفتوحهم ، بل وقاتلت الى جانبه في كثير من المعارك كما فعلت في اليرموك .

١٠ ـ الفصل بين فرسان العدو ومشاته :

وهذه الخطة متبعة في الحروب الحديثة اذ يعمد الخصم اول ما يعمد الى الفصل بين المشاة وما يحميهم من مدرعات . وقد عمد خالد الى ذلك ففصل بين مشاة الروم وفرسانهم ثم صرف الفرسان من المعركة ليتسنى له ان يسحق المشاة ، وكان له ما اراد .

١١ ـ الحركة الافراجية :

وهي افضل حركات خالد في هذه المعركة واكثرها ذكاء وعبقرية ، اذ افسح لخيالة الروم مجال الهرب من الفرجة التي تعتبر المنفذ الوحيد

لهم ، فانصرف الفرسان وبقي المشاة وحدهم في ميدان القتال ، ولو لم يفعل خالد ذلك مع الفرسان لاستمات هؤلاء في القتال وكلفوا المسلمين كثيراً من الجهد والدم للقضاء عليهم .

١٢ ـ استخدام الاحتياط :

وككل قائد من قادة الحرب الحديثين احتفظ خالد لنفسه باحتياط من الخيالة المتحركة بقيادته وكان يستخدمه كلما دعت الحاجة الى ذلك .

١٣ ـ الحشد المادي والمعنوي في المعركة :

تعتبر اليرموك افضل مثال على « حشد » القوى المادية والمعنوية في المعركة :

أ ـ حشد القوى المادية :

يظهر الحشد « المادي » للقوى في اليرموك في إقدام خالد على اتخاذ المبادرة بخوض المعركة ضد جيش سرجيوس الذي كان يرابط بمواجهة جيش عمرو بن العاص في اجنادين ، وذلك كي يحرر جيش عمرو ويضمن لنفسه حرية العمل في المعركة الكبرى : اليرموك . كما ظهر في التنظيم الذي رتب خالد به جيشه (التنظيم بالكراديس) ، وفي اختيار المكان الذي تمركز فيه (في نقطة سدت على العدو سبل الخروج كافة) ، وفي جمعه الجيش الاسلامي ، بفرقه الأربع ، تحت قيادات منظمة ووضعها جميعاً بامرته ، واخيراً في حشد النسوة في مؤخرة الجيش لمهمة دقيقة (اعادة المنهزمين من جند المسلمين الى الصفوف) .

ب ـ حشد القوى المعنوية :

وقد بيّنا فيما سبق كيف اعدّ خالد جنده وقادته الاعداد المعنوي اللازم للقتال ، وكيف انه عيّن ، في اركان حربه ، خطيباً وواعظاً وقارئاً لسورة الانفال (وهي سورة القتال والجهاد والشهادة في القرآن الكريم) واتى بالنسوة ليرجمن الجند المنهزمين ويدفعنهم الى القتال دفاعاً عن « عرضهم ودينهم » فيعودون الى ساحة الحرب بروح لا اسمى ولا اعلى .

١٤ ـ المباغتة التكتيكية :

تعتبر الحركة الافراجية التي نفذها خالد نموذجاً مثالياً للمباغتة التكتيكية في القتال ، اذ بينما كان الروم يعانون من ضغط خالد وحصاره لهم رغب فرسانهم في الهرب ، وبكل بساطة فتح خالد لهم الطريق فولوا الادبار ، وكان يهدف من عمله هذا الفصل بين فرسان الروم ومشاتهم ، وكان له ما اراد ، وعزل المشاة ثم حمل عليهم بجيشه حتى هزمهم بعد ان اهلك كثيراً منهم .

١٥ ـ الحشد الاقصى للقوى :

وقد ظهر ذلك عندما اشتد ضغط الروم على ميمنة المسلمين حتى ازالوهم عن مواقعهم فانبرى عمرو بن معد يكرب الزبيدي ونادى قومه ان « التفوا حولي » فالتف حوله ما يقارب الخمسماية مقاتل ، ثم برز ابو هريرة صاحب الرسول (ﷺ) ونادى قبيلة (الازد) وكانت قد ازيلت من مواقعها كذلك فالتفّ رجالها حوله . وكان عكرمة بن ابي جهل يقاتل امام فسطاط خالد فرأى

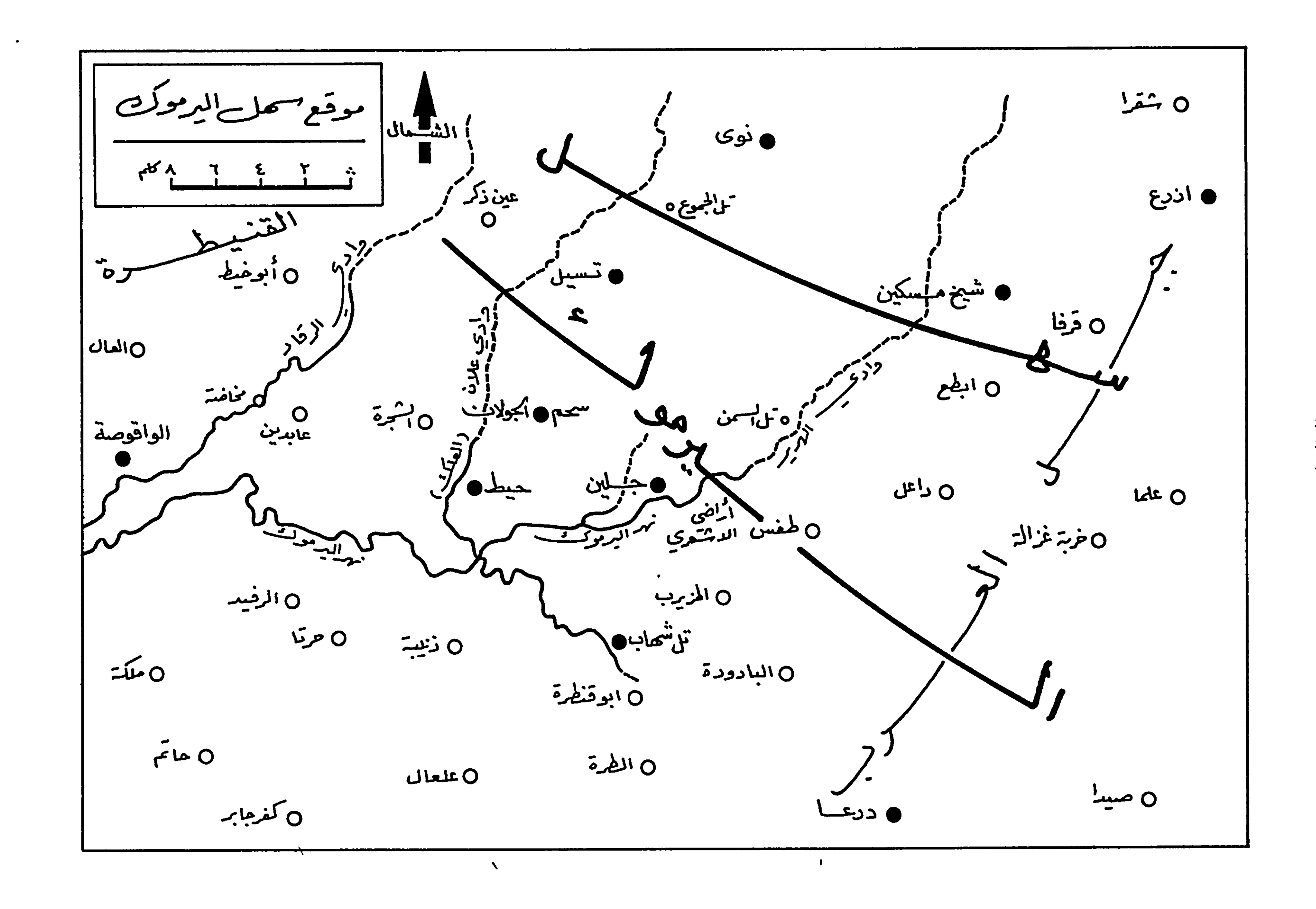
المسلمين في حرج فصاح « قاتلت مع رسول الله ﷺ في كل موطن وافرّ اليوم ؟ من يبايع على الموت ، ؟ » فبايعه اربعماية مقاتل منهم ابنه عمرو وضرار بن الأزور والحارث بن هشام وغيرهم من ابطال المسلمين وفرسانهم ، وكروا على الروم فأعادوهم الى مواقعهم . اما النساء فلم يقصرن عن اداء دورهن كاملاً في المعركة بل كن عاملاً هاماً من عوامل انتصار المسلمين في اليرموك . فيكون خالد قد حشد ، بالفعل ، في هذه المعركة ، اقصى قواه المادية والمعنوية .

١٦ ـ تنسيق الجهد العسكري في المعركة :

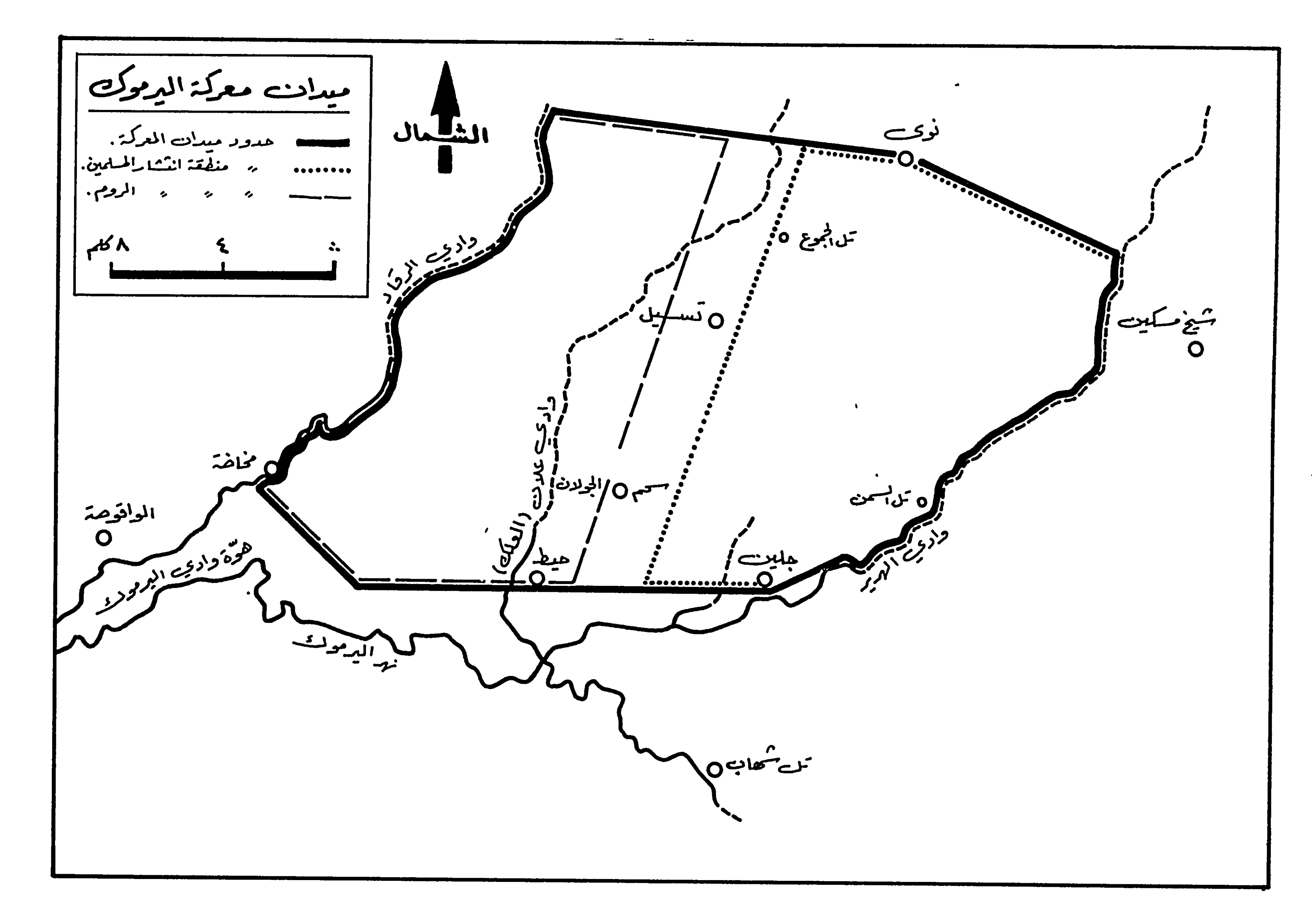
كانت اليرموك نموذجاً رائعاً من نماذج التنسيق في الجهد العسكري والتعاون والتفاهم التامين بين القائد ووحداته في المعركة ، اذ كان خالد يحرك كل وحدة من وحدات جيشه بدقة متناهية ، فبينما القلب ينشب القتال تقف الميمنة ترد هجمات العدو ، فينثني عليها القلب ليعضدها ويساندها ، ثم تتراجع الميسرة امام هجمات العدو فتقف النسوة في طريق المنهزمين تردهم الى ساحة القتال فينحسر الروم عن مواقعهم وتتقدم ميسرة المسلمين نحوهم . ويلاحظ القائد سير المعركة ببصيرة نافذة حتى اذا ما رأى الروم يتراجعون في الميسرة والقلب والميمنة امر بالهجوم العام ، ففصل بين مشاتهم وفرسانهم ثم افرج عن فرسانهم بحركة بارعة واقتحم على مشاتهم خنادقهم فهزمهم .

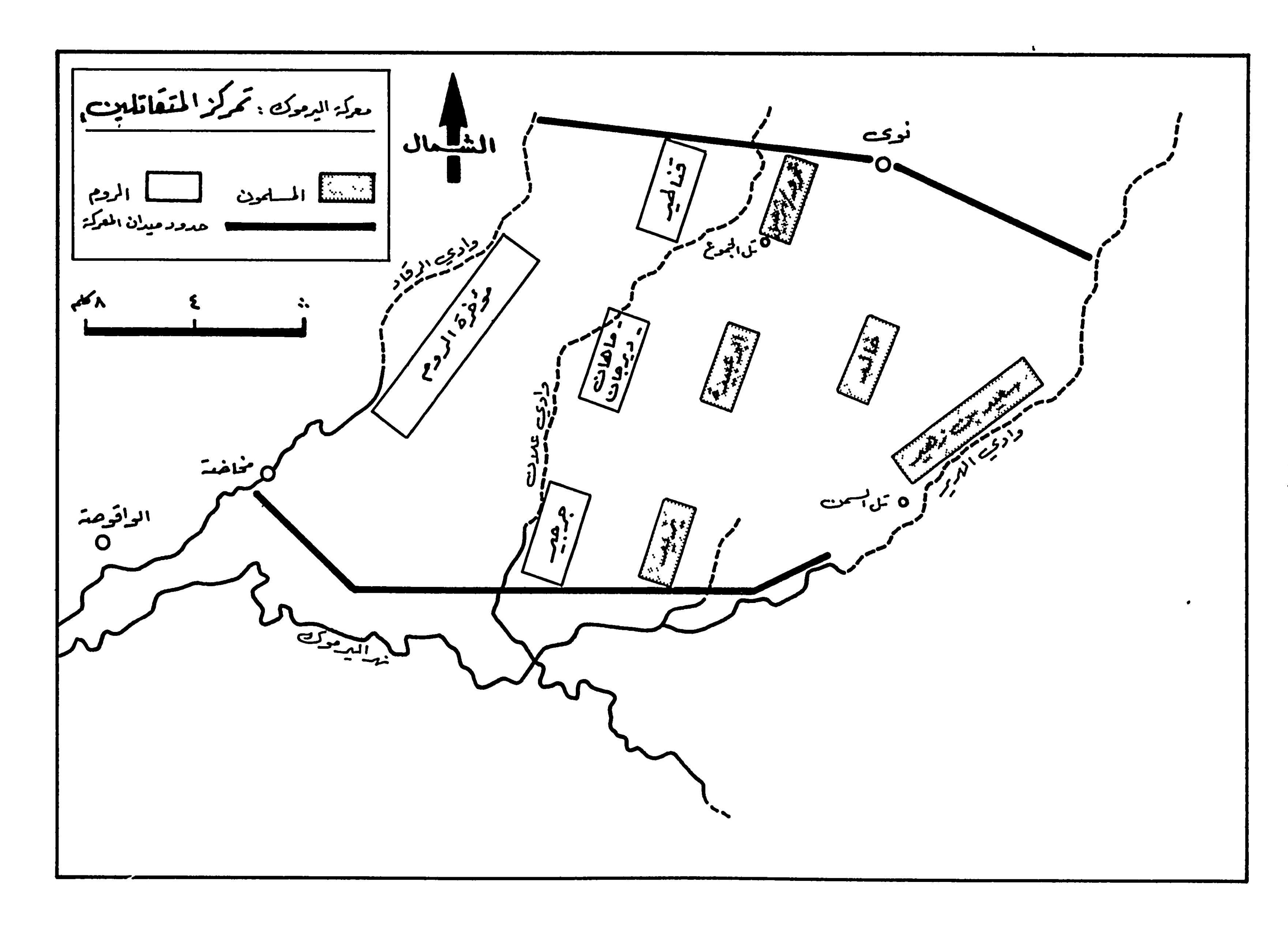
١٧ ـ الاختيار الملائم للمكان والزمان :

لقد احسن خالد اختيار مكان تمركز جيشه في مواجهة جيش الروم في اليرموك ، مستفيداً من اخطاء الروم في تمركزهم ، فعوض بذلك عن قلة عديد جيشه بالنسبة الى كثرة عديد جيشهم . ثم احسن اختيار

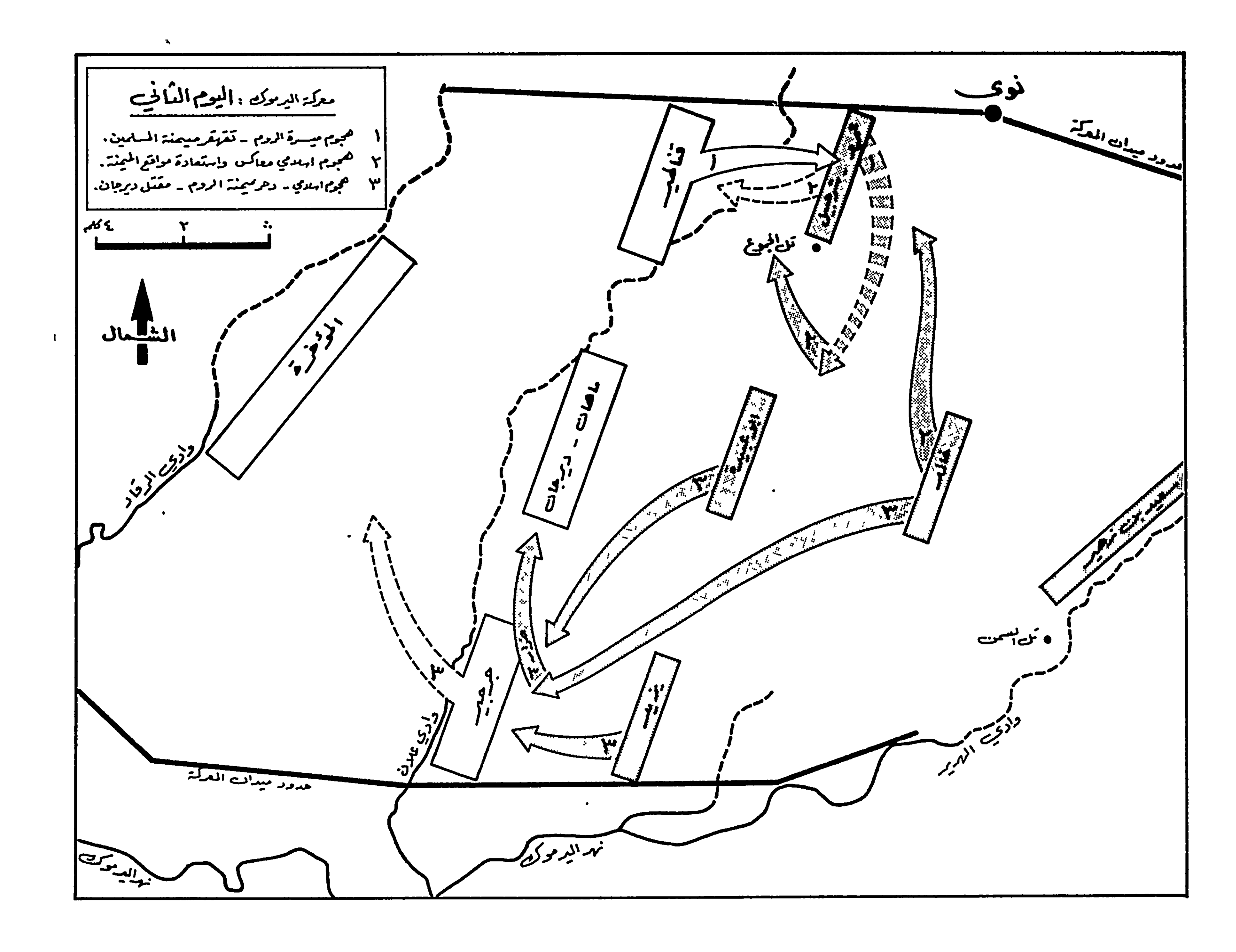


موقع سهل اليرموك
الشمال
٨ كلم
القنيطرة
أبوخيط
وادي الرقاد
العال
مخافضة
الواقوصة
عابدين
الشجرة
عين ذكر
تسيل
وادي علان
سحم الجولان
حيط
جلين
تل السمن
تل الجموع
نوى
شيخ مسكين
قرفا
ابطع
وادي الحرير
طفس
أراضي الأشعري
نهر اليرموك
المزيريب
تل شهاب
البادودة
ابوقنطرة
الطرة
علعال
زنيبة
حرثا
الرفيد
ملكة
حاتم
كفرجابر
داعل
خربة غزالة
علما
درعا
صيدا
اذرع
شقرا

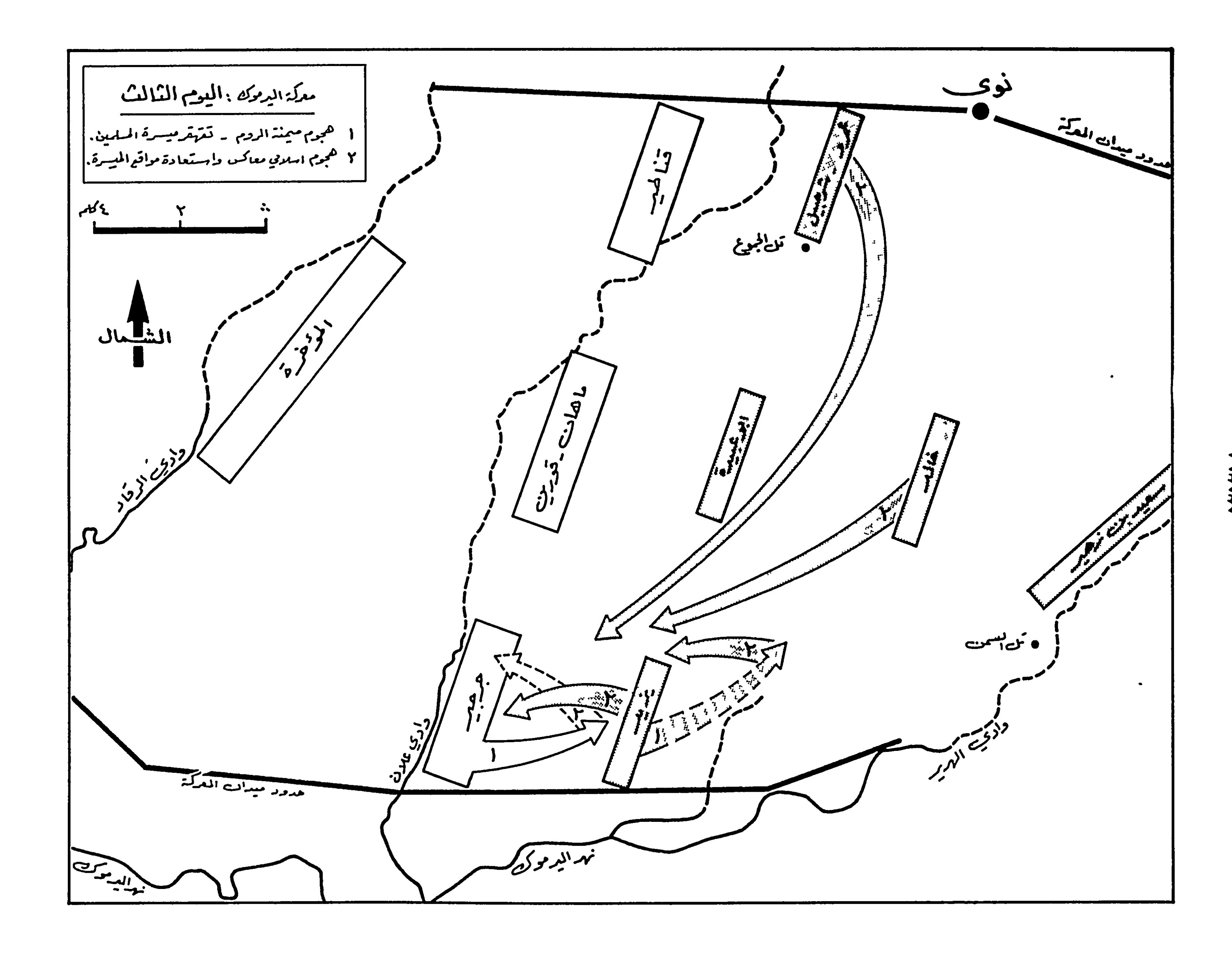

ميدان معركة اليرموك
حدود ميدان المعركة.
منطقة انتشار المسلمين.
الروم.
٠ ٤ ٨ كلم
الشمال
نوى
تل الجموع
تسيل
شيخ مسكين
وادي الرقاد
مخاضة
الواقوصة
هوة وادي اليرموك
نهر اليرموك
وادي علان (العلان)
سحم الجولان
حيط
جلين
تل السمن
وادي الهرير
تل شهاب

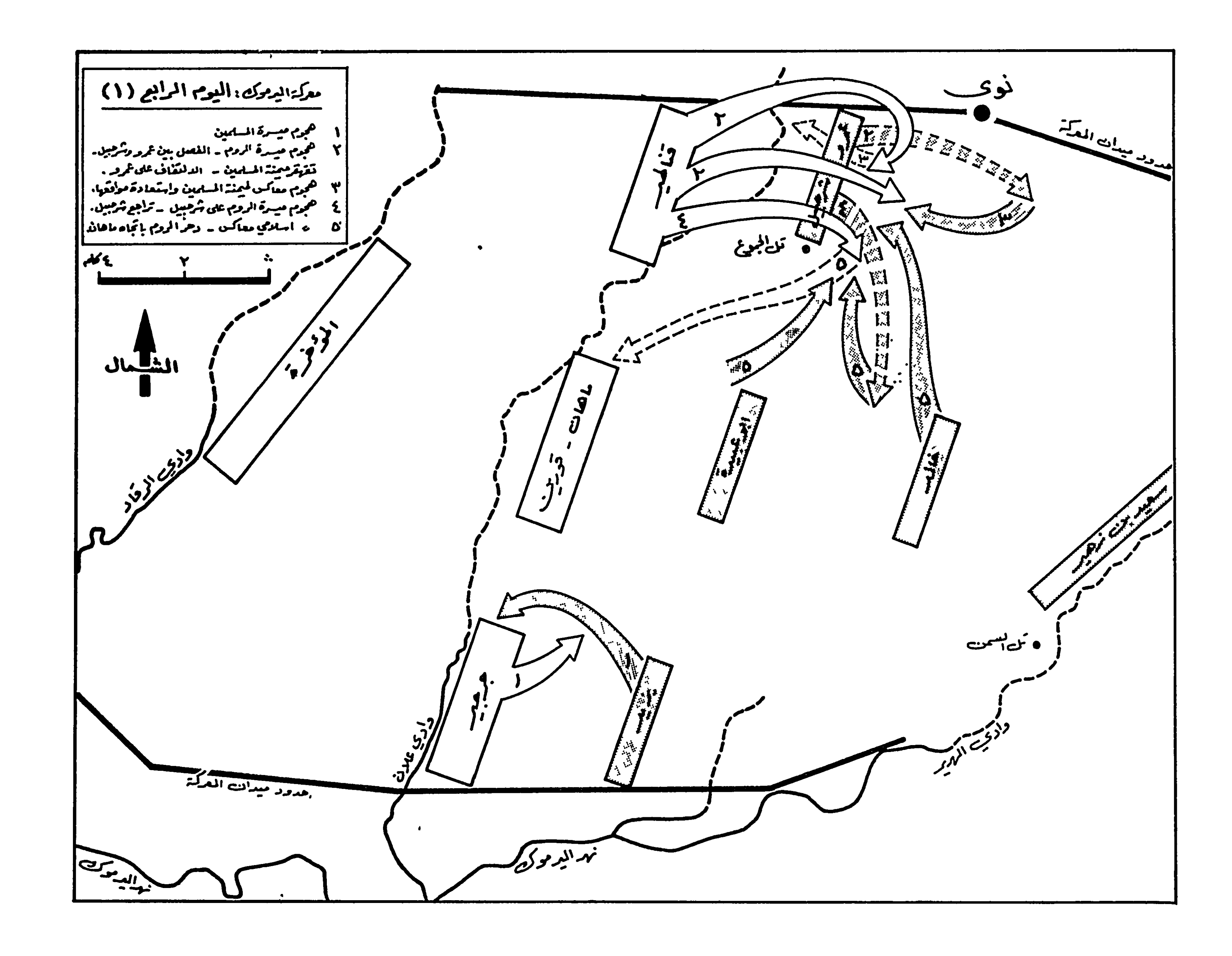


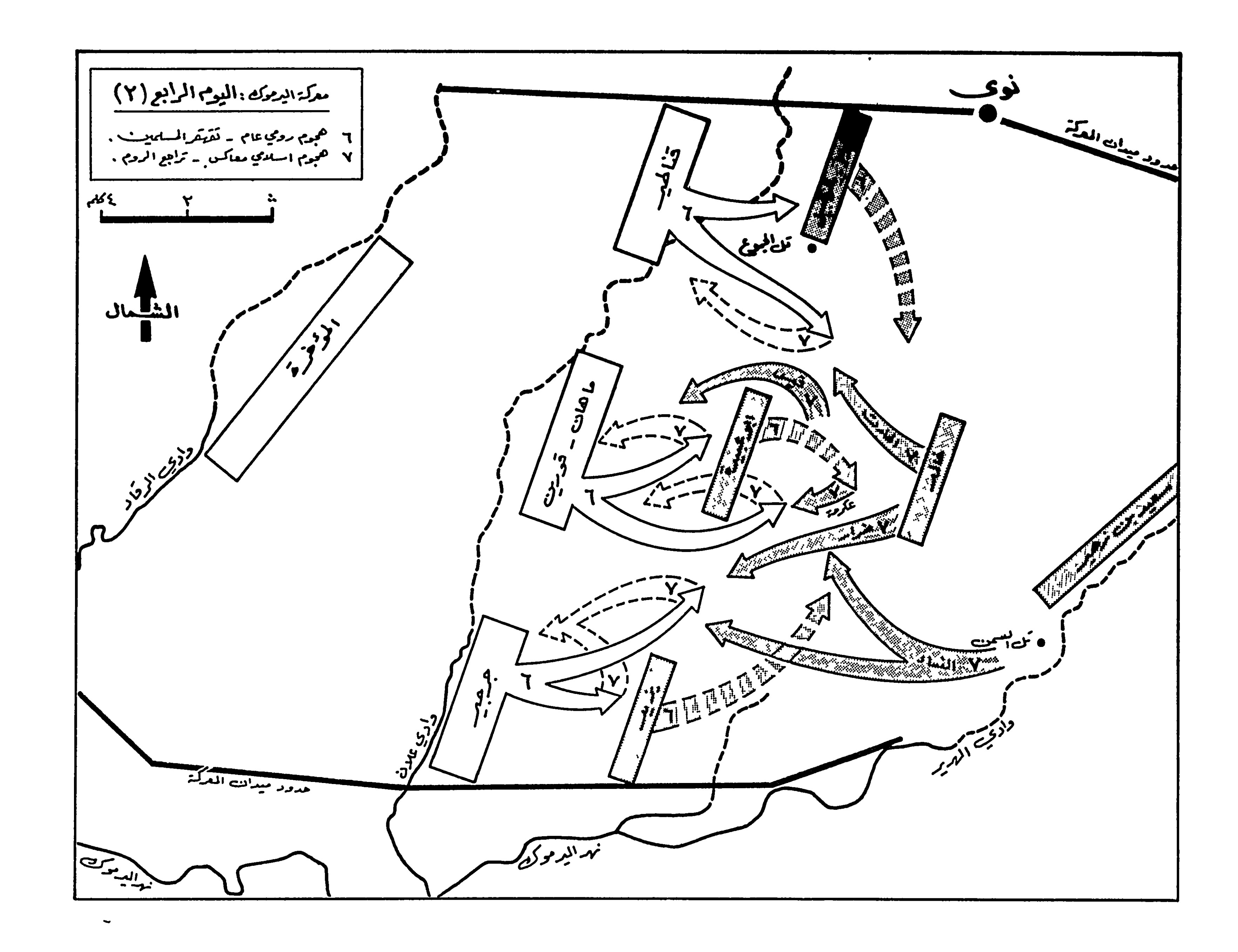
معركة اليرموك : تمركز المتقاتلين
الروم
المسلمون
حدود ميدان المعركة
الشمال
٠
٤
٨ كلم
نوى
قناطير
تل الجموع
مؤخرة الروم
وادي الرقاد
ماهان
ديرجان
وادي علان
خالد
وادي الحرير
تل السمن
جرجير
مخاضة
الواقوصة
نهر اليرموك



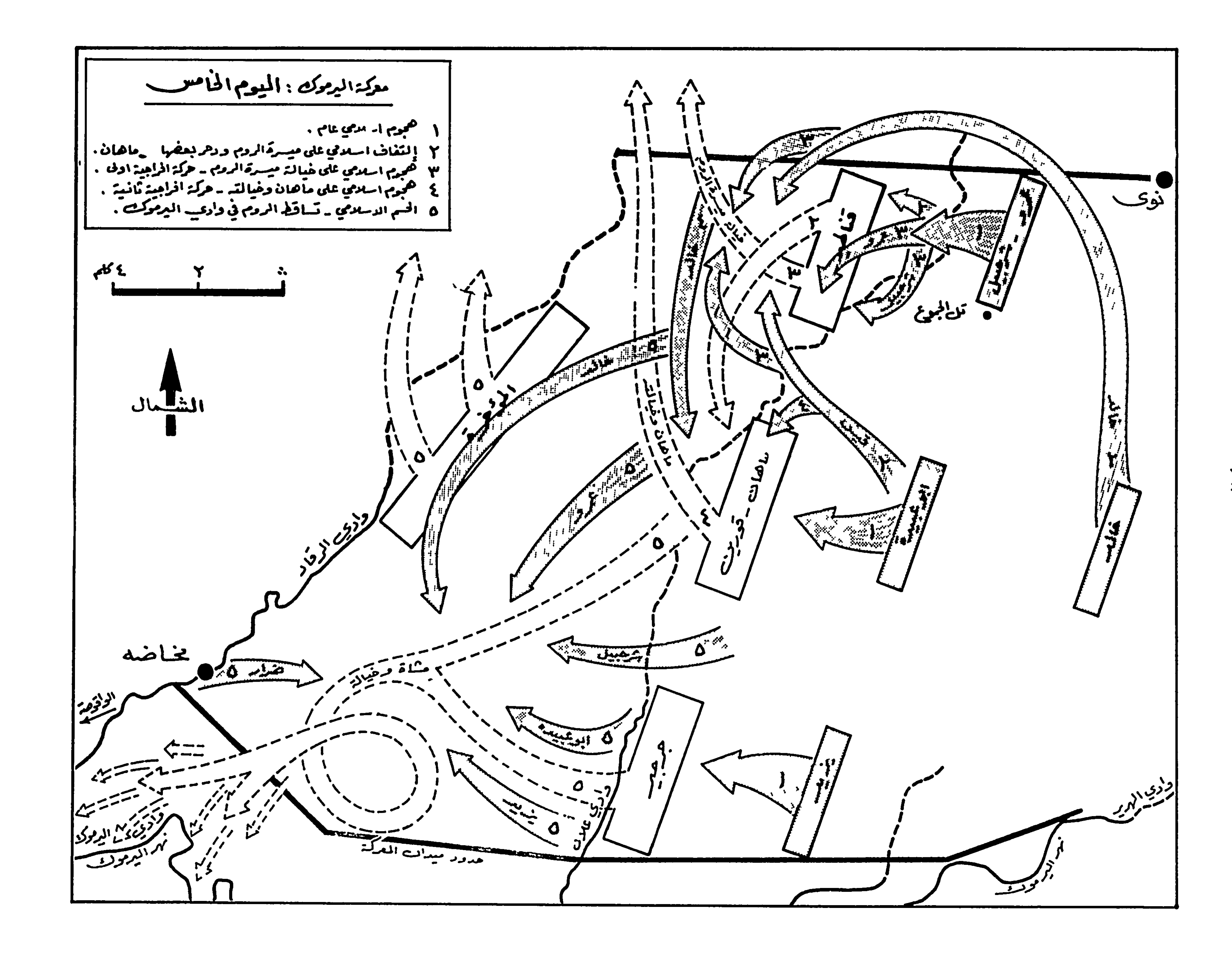
معركة اليرموك : اليوم الثاني
١ هجوم ميسرة الروم - تقهقر ميمنة المسلمين.
٢ هجوم اسلامي معاكس واستعادة مواقع الميمنة.
٣ هجوم اسلامي - دحر ميمنة الروم - مقتل دريجان.
٤ كلم ٢ ٠
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
قناطير
تل الجموع
الوخرة
ماهان - دريجان
خالد
جرجير
يزيد
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الحرير
تل السمن
نهر اليرموك


معركة اليرموك: اليوم الثالث
١ هجوم ميمنة الروم ـ تقهقر ميسرة المسلمين.
٢ هجوم اسلامي معاكس واستعادة مواقع الميسرة.
٤كلم
٢
٠
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
قناطير
ماهان ـ قورين
المؤخرة
وادي الرقاد
تل الجموع
عمرو شرحبيل
أبو عبيدة
خالد
سعيد بن زيد
تل السمن
وادي الحرير
جرجير
يزيد
وادي علان
حدود ميدان المعركة
نهر اليرموك
نهر اليرموك


معركة اليرموك: اليوم الرابع (١)
١ هجوم ميسرة المسلمين
٢ هجوم ميسرة الروم - الفصل بين عمرو وشرحبيل. تقهقر ميمنة المسلمين - الالتفاف على عمرو.
٣ هجوم معاكس لميمنة المسلمين واستعادة مواقعها.
٤ هجوم ميسرة الروم على شرحبيل - تراجع شرحبيل.
٥ ، اسلامي معاكس - دحر الروم باتجاه ماهان
٤ كلم
٢
الشمال
المؤخرة
نوى
حدود ميدان المعركة
قناطير
تل الجموع
ماهان - قورين
القعقاع
خالد
سعيد بن زيد
تل السمن
جرجير
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الهرير
نهر اليرموك



معركة اليرموك: اليوم الرابع (٢)
٦ هجوم رومي عام - تقهقر المسلمين.
٧ هجوم اسلامي معاكس - تراجع الروم.
٤كلم ٢ ٠
الشمال
المؤخرة
وادي الرقاد
قناطير
تل الجموع
نوى
حدود ميدان المعركة
ماهان - قورين
جرجير
وادي علان
حدود ميدان المعركة
نهر اليرموك
نهر اليرموك
وادي الهرير
تل السمين
عكرمة



معركة اليرموك: اليوم الخامس
١ هجوم إسلامي عام.
٢ إلتفاف إسلامي على ميسرة الروم ودحر بعضها _ ماهان.
٣ هجوم إسلامي على خيالة ميسرة الروم _ حركة التفافية أولى.
٤ هجوم إسلامي على ماهان وخيالته _ حركة التفافية ثانية.
٥ الحسم الإسلامي _ تساقط الروم في وادي اليرموك.
الشمال
٤ كلم
نوى
تل الجموع
مخاضة
وادي الرقاد
وادي اليرموك
نهر اليرموك
وادي الهرير
وادي علان
حدود ميدان المعركة
الواقوصة
خالد
أبو عبيدة
شرحبيل
يزيد
عمرو
ضرار
جرجير
ماهان _ قورين

توقيت « الحركة الإفراجية » والهجوم العام على العدو فاستطاع بذلك ان يحرز النصر المبين في معركة حاسمة من اهم معارك التاريخ .

عزل خالد

وصل ، في اثناء القتال باليرموك ، رسول الخليفة « محمية بن زنيم » يحمل رسالة منه الى خالد . وقابل الرسول خالداً وسلمه الرسالة وفيها نعي ابي بكر واختيار عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين ، وفيها كذلك عزل خالد من قيادة الجيش الاسلامي في الشام وتعيين ابي عبيدة مكانه . وخشي خالد ان يهلع المسلمون لهذه الاخبار فيضطربوا وينهزموا ، فطوى الكتاب في كنانته وتابع القتال غير متأثر ولا منفعل . وما ان انتهت المعركة حتى جمع قادة الجيش واصحابه واولي الأمر من المسلمين وتلا عليهم رسالة الخليفة ، ثم تقدم من ابي عبيدة وقال له : « مرني يا اميري ، فأنت القائد العام » . ثم قال كلمته المأثورة : « انا لا اقاتل من اجل عمر ، ولكني اقاتل من اجل رب عمر » . اما عمر فقد قال فيما بعد ، وفي مجال تبريره لعزل خالد عن جند قنسرين الذي كان قد وُلِّيه بعد ان أنهى المسلمون فتح بلاد الشام[1] : « اني لم اعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به ، فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع ، والا يكونوا بعرض فتنة » .

ولن نطيل البحث في اسباب عزل خالد وقد افاض الباحثون فيها واطالوا ، حتى أن بعضهم عزاها الى ضغينة في قلب عمر على القائد

---

(١) سوف نأتي على ذكر هذا العزل في نهاية الفصل القادم .

المسلم . ولن نبحث في اختلاف المؤرخين في زمن العزل ومكانه ، هل حصل في اثناء معركة اليرموك ام بعدها ، وفيمن تسلّم كتاب العزل : خالد ام ابو عبيدة ، فذلك كله خارج عن نطاق بحثنا[1] .

إلا أنه لا بد لنا من ان نبدي رأينا في سبب العزل ، فنؤيد ما ورد على لسان الخليفة عمر من مبررات لا يسعنا إلا الأخذ بها ، لما اشتهر به الفاروق من عدالة ونزاهة وجرأة في قول الحق تنزهه عن الوقوع في حمأة الحقد والضغينة ، وهو الذي عرف في التاريخ بترفّعه عن الصغائر ، وبتقديمه مصلحة الإسلام والمسلمين على كل ما عداها[2] .

---

(١) اورد الطبري روايتين عن عزل خالد وتولية ابي عبيدة ، فقال في رواية عن ابن حميد ، عن ابن اسحق ، ان ابا عبيدة هو الذي تسلم كتاب توليته ، وانه تسلمه بعد اليرموك وقبل فتح دمشق ، وانه « استحى ان يقرىء خالداً الكتاب حتى فتحت دمشق وجرى الصلح على يد خالد » (الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، جـ ٤ : ٥٥) . وقال في الأخرى عن سيف ان خبر موت ابي بكر وتأمير ابي عبيدة قد وصل الى خالد في اثناء القتال باليرموك ، فأخفى خالد الخبر عن جنده كي لا تضطرب صفوفهم (المصدر نفسه ، ص ٣٤) .
ونحن نميل الى تصديق الرواية الثانية لاتفاق معظم المؤرخين على تأييدها من جهة ، ولأنها اقرب الى المنطق من جهة ثانية ، باعتبار ان خالدا كان لا يزال هو القائد ، وان الخليفة لا بد ان يوجه الكتاب اليه ، وان على الرسول ان يسلمه كتاب الخليفة وان كان هذا الكتاب يقضي بعزله ، وهو امر تعودناه في آداب المراسلة عند المسلمين في ذلك الحين .

(٢) تجدر الاشارة الى ان خالد بن الوليد هو خال عمر بن الخطاب (هيكل ، الفاروق عمر ، جـ ١ : ٨٢) .

الفصل الثالث

ما بعد اليرموك :

أوامر الخليفة :

إنقسمت فلول الروم التي هزمت في اليرموك الى قسمين : قسم انسحب نحو فحل في فلسطين (شرق الاردن اليوم) وآخر انسحب نحو دمشق .

وكتب ابو عبيدة ، القائد الجديد ، إلى عمر بن الخطاب ، الخليفة الجديد ، يستأمره ، فأجابه الخليفة بقوله له : « إبدأوا بدمشق فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم . **وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم**[1] ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب ، وان تأخر فتحها وفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل . فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، ودع شرحبيل

(١) في هذا الأمر تطبيق صحيح لمبدأ المناورة بالخطوط الداخلية الذي تحدثنا عنه سابقاً .

وعمراً وأَخْلِهما بالأردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته »[1] .

يُستنتج من كتاب الخليفة هذا أن أوامر الفتح الجديدة تتلخص بما يلي :

١ ـ الهدف الرئيس الأول : دمشق . التجهيز : الجيش بكامله ما عدا قوة مشاغلة .

٢ ـ هدف مشاغلة : فحل . التجهيز : قوة مشاغلة .
٣ ـ الهدف الرئيس الثاني : فحل . التجهيز : الجيش بكامله .
٤ ـ الهدف الرئيس الثالث :

أ ـ حمص . التجهيز : نصف الجيش .
ب ـ الاردن وفلسطين . التجهيز : النصف الآخر من الجيش .

٥ ـ تعيين حاكم وحامية لكل مدينة تُفتح .

وقعة مرج الصفَّر :

باشر ابو عبيدة بتنفيذ اوامر الخليفة فور وصولها إليه ، فأبقى في اليرموك بشير بن كعب الحميري ، ومهمته حماية الجيش من الخلف ، ثم بعث فرقة لحصار فحل بقيادة ابي الأعور السلمي ،بينما انطلق هو نحو

---

(١) الطبري ، جـ ٤ : ٥٧ .

دمشق فوصل إلى مرج الصفَّر[1] في أوائل محرم سنة ١٤ هـ[2] . وكان الروم قد حشدوا للقائه فيها جيشاً لجباً ، فدار بين الفريقين قتال عنيف « حتى جرت الدماء في الماء وطحنت بها الطاحونة » . وانتهى القتال بهزيمة الروم وانتصار المسلمين ، بعد ان كلفهم هـذا الانتصار زهـاء أربعة آلاف جريح عدا القتلى .

حصار فحل :

ولما وصل ابو الأعور السلمي بفـرقته إلى جـوار « فحل » أطلق حاميتها وأهلوها مياه بحيرة « طبرية » في السهول المحيطة بها ، وكانت ارضها ترابية موحلة ، فأوحلت وكادت خيول المسلمين تغرق فيها ، فاكتفى ابو الأعور بأن ضرب حول البلدة نـطاقاً من الجنـد . وبقي حصار فحل قائماً حتى فرغ ابو عبيدة من فتح دمشق .

---

(١) مرج الصفر : بين دمشق والجولان (ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ : ٣٦٧) ، وهو المرج او السهل الواقع جنوب نهر الاعوج على بعد ٢٥ كلم غرب دمشق بجنوب ، وفيه هـزم خالـد بن سعيد بن العـاص ايام ابي بكـر (امين سعيـد ، حروب الاسـلام والامبراطورية الرومية ، ص ١٣٥) .

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٢ ، ويخالفه في ذلك الطبري الذي ذكر ان هذه الوقعة كانت عام ١٣ هـ (الطبري ، م . ن . جـ ٤ : ص ٤١) . والملفت ان كلاً من البلاذري والطبري (رواية سيف) يذكـر هـذه الوقعة قبل اليرموك ، بينما ذكر ابن الاثـير (جـ ٢ : ٤٠٩) ان قتالاً جـرى في « مرج راهط » قبـل وصول خـالـد الى اليرموك ، إلا انه لم يذكر ان قتالاً جرى في مرج الصفر بعد ذلك . ونحن نميل الى اعتبار ان هذه الوقعة جرت بعد اليرموك لا قبلها ، اذ انها ذكرت عند البلاذري بعد فحل وقبل دمشق ، (وقد فتحت المدينتان بعد اليرموك) ، كما ذكر ابن الأثير (جـ ٢ : ٤٢٧) انه ، لما هزم اهل اليرموك ، سار ابو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر « فأتاه الخبر ان المنهزمين اجتمعوا بفحل » .

فتح دمشق[1] :

بعد وقعة « مرج الصفَّر » فُتحت طريق دمشق لأبي عبيدة ، فسار فيها حتى وصل إلى ضواحي المدينة ، وكانت قوية ومحصَّنة . ولم يكن المسلمون قد أتقنوا فن الحصار بعد ، فأخذ يستعد بجيشه لهذه العملية الشاقة ، ورسم الخطة التالية :

١ ـ منع وصول أيّ مدد لحامية المدينة من الخارج ، على النحو التالي :

أ ـ منع طريق دمشق ـ حمص ، وعينَّ فرقة بقيادة ذي الكلاع الحميري لهذه المهمة .

ب ـ منع طريق دمشق ـ فلسطين ، وعينّ فرقة بقيادة علقمة بن حكيم ، يعاونه مسروق بن العيسي ، لهذه المهمة .

٢ ـ التقدم نحو دمشق ، بالترتيب التالي :

أ ـ في القلب : خالد بن الوليد .
ب ـ على المجنَّبتين : أبو عبيدة وعمرو بن العاص .
ج ـ قائد الفرسان : عياض بن غنم .
د ـ قائد المشاة : شرحبيل بن حسنة .

٣ ـ توزيع مهمات الحصار والدخول الى دمشق ، كما يلي :

أ ـ باب الجابية (تجاه حورانَ) : أبو عبيدة .

---

(١) يرى بعض المؤرخين ان فتح دمشق تم قبل اليرموك (البلاذري) ، ويرى البعض الآخر انه تم بعدها (الطبريَ وابن الأثير) ويرى البعض الثالث (ومعظمه من المستشرقين والمؤرخين الاجانب) ان العرب فتحوا دمشق مرتين : الأولى قبل اليرموك والثانية بعدها .

ب ـ باب توما (شمالاً بشرق) : عمرو بن العاص .

ج ـ باب الفراديس (شمالاً) : شرحبيل .

د ـ باب كيسان ، أو الباب الصغير (جنوباً) : يزيد بن ابي سفيان .

هـ ـ الباب الشرقي : خالد بن الوليد .

٤ ـ ضرب نطاق من الجند حول اسوار المدينة ، ومحاولة دخولها بكل وسيلة ممكنة صلحاً أو عنوة . ويقول بعض المؤرخين[١] إنه في ١٦ محرم سنة ١٤ هـ بدأ حصار المسلمين لدمشق ، وكان حول المدينة سور عظيم يحيط به من الخارج خندق يُملأ بالماء في حالة الحصار ، فضربوا حول سورها نطاقاً من الجند وحاصروها حصاراً شديداً « بالزحوف والترامي والمجانيق »[٢] . ودام الحصار سبعين ليلة[٣] ، وقيل ستة أشهر وقيل حولاً كاملاً . وكان على حامية المدينة قائد رومي يدعى نسطاس بن نسطوس ينتظر مدداً من هرقل الذي كان في حمص . وجاءت خيول هرقل لتغيث حامية المدينة ، ولكن خيول ذي الكلاع

---

(١) البلاذري ، م . ن . ص ١٦٥ .

(٢) يقول امين سعيد في كتابه : « حروب الاسلام والامبراطورية الرومية » ، ص ١٥٥ ، إن المسلمين لم يكن لديهم ، في حصار دمشق ، سوى السيوف والرماح والسهام والحراب ، وإن المنجنيقات ونيران النفط (الترامي) لم تكن مستعملة الا في الجيش الرومي ، رغم ان النبي ﷺ استعمل المنجنيق للمرة الأولى في حصار الطائف . ويعتقد المؤلف ان المسلمين عدلوا عن استعمالها فيما بعد . ولكن الطبري وابن الاثير أكدا ما ورد في النص اعلاه ، فقال ابن الاثير (م . ن . جـ ٢ : ٤٢٨) : « وقاتلوهم بالزحف والمجانيق » ، وقال الطبري (م . ن . جـ ٤ : ٥٧) : « فحاصروا (أي المسلمون) أهل دمشق نحواً من ٧٠ ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق » .

(٣) ابن الأثير ، م . ن . جـ ٢ : ٤٢٨ ، والطبري ، م . ن . جـ ٤ : ٥٧ .

الحميري منعتها وفرَّقتها ، فأيقن الروم المحاصَرون ان أيَّ مدد لن يتمكن من الوصول إليهم ، فوهنت مقاومتهم ، وفقدوا الأمل بفك الحصار عنهم. فبدأوا يفكرون في الصلح .

دور خالد :

قلنا ان مهمة خالد كانت محاصرة المدينة من الجهة الشرقية ، وهي أكثر الجهات تحصيناً . وكان خالد حذِراً ويقظاً ، فكان « لا ينام ولا ينيم » كما قال عنه ابن الأثير . ونمي إلى خالد (وكان له جواسيس وعيون يطوفون المدينة ويراقبون أحوال الروم وأوضاعهم ، ويفيدونه عن كل حركاتهم) أنه وُلِد لبطريق المدينة ولد ، وفي مثل هذه المناسبات تعيّد المدينة بأسرها ، ويشرب أهلها الخمور ، ويرقصون ويلهون . وبالفعل لها أهل المدينة وسكروا ، فنسوا انهم في حرب مع عدو لا ينام ، وانهم محاصَرون . ولها معهم الضباط والجند وسكروا ، فترك الكثيرون منهم مراكزهم وذهبوا ليرقصوا مع الراقصين . واغتنم خالد الفرصة ، فما ان جن الليل حتى جمع بعضاً من اعوانه وجنده ، ومنهم القعقاع بن عمرو ، ومذعور بن عدي وسواهما . فأتى بالسلالم والاوهاق (والوهق حبل ذو انشوطة) ، ثم أسرَّ لمن بقي من قادته مع الجند أن « إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقَوْا إلينا واقصدوا الباب » .

وكان خالد ، طوال مدة الحصار ، قد درس حالة السور والخندق المحيط به والمملوء بالماء ، فراقب مواطن الضعف فيهما ، وإمكان إجتياز الخندق وتسلق السور ، فانطلق ومن معه واجتازوا الخندق ورموا الحبال على السور فعلق منها فيه حبلان تسلقهما القعقاع ومذعور ، فأثبتا بقيَّة السلالم والحبال . وتسلق الباقون السور ، ومنهم خالد ، فقتلوا من

خلفه من الجند . وتوجه خالد إلى الباب ، فداهم حراسه على حين غرة وقتلهم ثم فتحه . ونادى المنادي من على السور « الله اكبر » . وسمع من بقي خارج السور من القادة والجند النداء (كلمة السر) ، فانطلقوا إليه يتسلقه بعضهم ويندفع البعض الآخر نحو الباب . وأفاقت المدينة السكرى مذعورة على جند المسلمين يلجونها ويمعنون في جندها تقتيلاً وتمزيقاً ، فهرع أهلها إلى ابي عبيدة (على باب الجابية) يلجأون إليه ويعرضون عليه الصلح ، فقبل أبو عبيدة عرضهم ، ودخل كل قائد من قادة الجيش الاسلامي من الباب الذي هو عليه صلحاً إلا خالد فقد دخل دمشق عنوة . واجتمعت الفرق الخمس في وسط المدينة ، واجرى أبو عبيدة مع أهل المدينة صلحاً عاما[1] .

وأما تاريخ فتح دمشق فقد اختلف المؤرخون في تحديده . فمنهم من قال إنه تم في أواخر العام ١٣ هـ[2] (الطبري وابن الأثير) ، وفي

(١) الفرق بين فتح مدينة صلحاً وفتحها عنوة عند المسلمين هو في المعاملة . ففي فتحها صلحاً تترك المدينة وشأنها ولا يتعرض الفاتحون لها بسوء ، بل يكتفي منها بالجزية فقط . اما فتحها عنوة فيبيح للفاتحين اموالها وكل ما فيها غنيمة حرب . ويروي الدكتور فيليب حتي ، في كتابه « تاريخ العرب المطول » (جـ ١ : ٢٠٣) ، ان دمشق « قد سلمت في اول ايلول ٦٣٥ م بعد حصار دام ستة أشهر ، وكان تسليمها على اثر « خيانة » ـ والكلمة هنا في غير محلها (المؤلف) ـ قام بها بعض ارباب السلطة المدنية والروحية ومنهم الأسقف جد القديس يوحنا » . والواقع ان ما يقصده الدكتور حتي هو ما ورد عند البلاذري من ان اسقف المدينة وقف على اسوارها ونادى خالداً وقال له : « يا ابا سليمان ، إن أمركم مقبل فصالحني على هذه المدينة » ، فرضي خالد وكتب له عهداً . ويضيف البلاذري ان الاسقف جاء وأخبر خالداً ان المدينة في عيد ، وقدم له السلالم والحبال ليرتقي بها السور ، فكان لخالد ما كان من النصر والفتح (البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦) .

(٢) اورد ابن الأثير ، وكذلك الطبري ، فتح دمشق ضمن أحداث سنة ١٣ هـ (ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ : ٤٢٧ ، والطبري ، تاريخ الامم والملوك ، =

هذه الحالة تكون وقعة مرج الصفَّر قد حصلت قبل هذا التاريخ ، أي عام ١٣ هـ ايضاً ، لأنها كانت قبل فتح دمشق . ومنهم من قال ان الفتح تم في رجب عام ١٤ هـ[١] (وإذا صحَّ هذا القول ، مع القول بأن حصارها بدأ في ١٦ محرم سنة ١٤ هـ ، تكون مدة الحصار ستة اشهر وليس سبعين ليلة كما ورد عند الطبري وابن الأثير) . وللرأي الأول انصار يُعتدّ بهم (الطبري وابن الأثير) ، كما ان للرأي الثاني انصاراً كثيرين ، منهم ياقوت في « معجم البلدان » ، والبلاذري في « فتوح البلدان » .

فتح فحل[٢] :

لو تُرك لأبي عبيدة ، بعد فتح دمشق ، ان يختار لاختار واحداً من أمرين :

= جـ ٤ : ٥٥ ، خبر دمشق ، عن رواية سيف) . الا ان الطبري اورد كذلك ثلاث روايات اخرى ، **الأولى** عن ابن حميد (ص ٥٥) ، **والثانية** عن محمد بن اسحق (ص ٥٨ و٥٩) **والثالثة** عن الواقدي (ص ٥٩) ، وفي هذه الروايات الثلاث يذكر ، على لسان الرواة ، ان فتح دمشق تم في سنة ١٤ هـ . ويروي الطبري ، كذلك ، عن الواقدي ، ان اليرموك كانت سنة ١٥ هـ ، بعد دمشق ، وانه « لم يكن بعد اليرموك وقعة » (ص ٥٩) . الا ان رواية سيف التي يرويها الطبري نفسه (ص ٥٩) ، والتي نظن انه أيدها لأنه اورد فتح دمشق ضمن احداث سنة ١٣ هـ ، هي ان وقعة اليرموك كانت في هذه السنة ، وان كتاب نبأ وفاة ابي بكر وتسلم عمر الخلافة وعزل خالد قد ورد في آخر يوم من ايام اليرموك ، وان عمر امر المسلمين بالمسير الى دمشق بعد فراغهم من اليرموك .

(١) روايات الطبري عن الواقدي وابن حميد وابن اسحق ، والبلاذري في فتوح البلدان ص ١٦٨ (نقلاً عن الواقدي في كتابه فتوح الشام) .

(٢) يقول بعض المؤرخين ، ومنهم البلاذري في (فتوح البلدان ، ص ١٥٨) ، ان فتح فحل تم قبل فتح دمشق . وهذا القول غير صحيح اذا اعتبرنا ان اوامر الخليفة قد نفذت وان ابا عبيدة وخالداً اشتركا في فتحها .

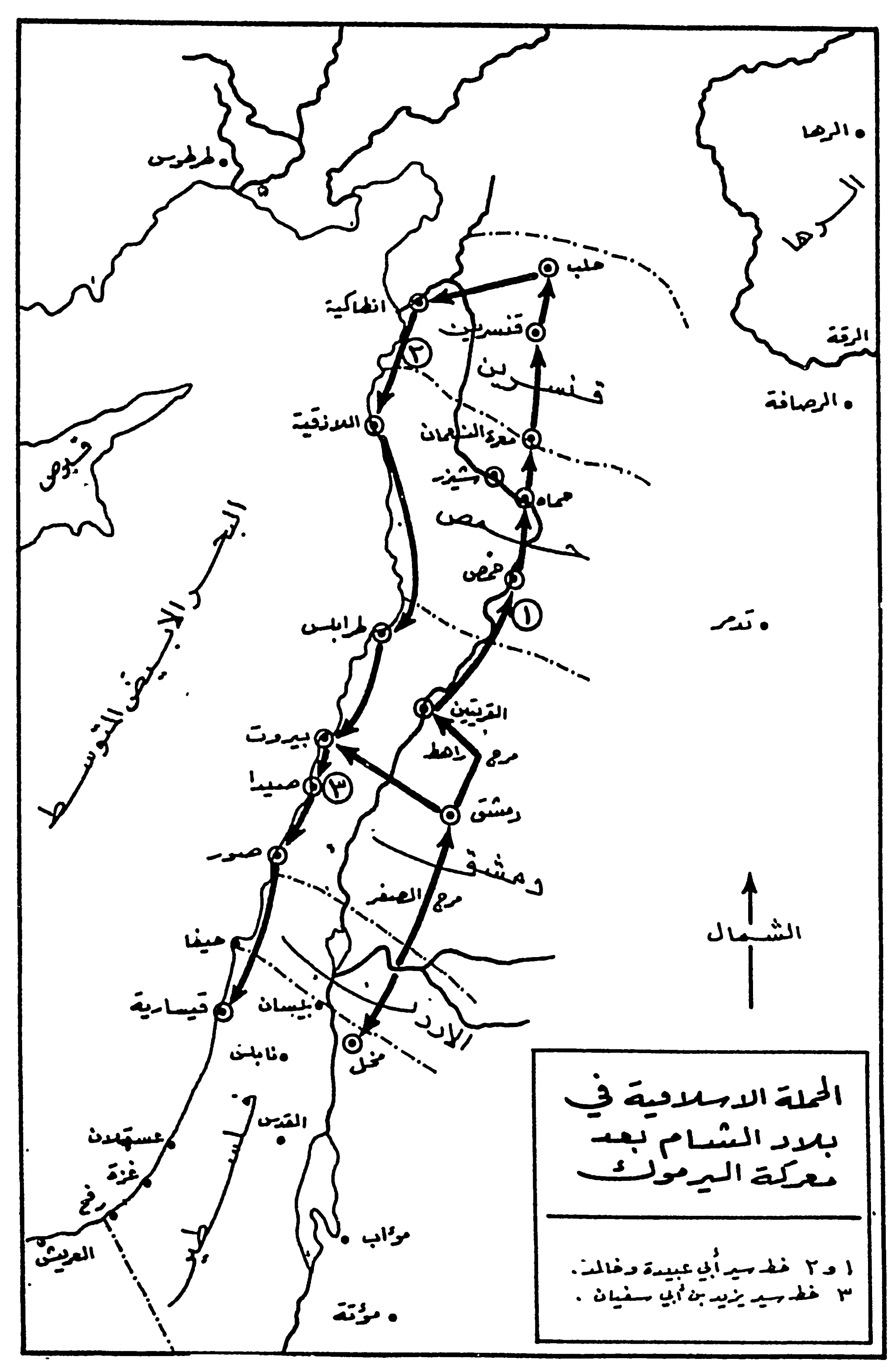
أ ـ إما أن يتوجه إلى حمص ويقضي على قوة الروم الرئيسة هناك .
ب ـ أو ان يتوجه إلى فحل فيتعاون مع ابي الأعور السلمي (قائد الفرقة التي تحاصرها) على فتحها .

ولكن ابا عبيدة لم يكن مخيراً ، فقد حدد له الخليفة خط سيره . فتوجه تواً إلى فحل ، وكانت حامية الروم لا تزال محاصَرة فيها وقد بلغت زهاء ثمانين ألف مقاتل بقيادة « سقلار بن مخراق » . فسار ابو عبيدة إليها ، بعد ان خلَّف على دمشق يزيد بن ابي سفيان مع فرقة من فرسان اليمن . وسلَّم ابو عبيدة إمرة الجيش السائر نحو فحل الى شرحبيل بن حسنة ، فرتَّب شرحبيل جيشه على النحو التالي :

١ ـ في المقدمة : خالد بن الوليد .
٢ ـ في المجنَّبتين : ابو عبيدة وعمرو بن العاص[1] .
٣ ـ على الفرسان : ضرار بن الأزور .
٤ ـ على المشاة : عياض بن غنم .

وخطر لسقلار ، قائد الروم في فحل ، ان يباغت المسلمين قبل ان يصلوا إلى اسوار مدينته ، فاخترق حصارهم ذات مساء متسللاً دون أن يشعر به أحد ، ثم واجه قوات شرحبيل في سهول بيسان بجوار فحل (على مقربة من مصب اليرموك بالاردن) وفي اعتقاده انه اخذهم على حين غرة . ولكن شرحبيل كان حذِراً ، وكان ، كخالد ، لا يسير ولا يبيت إلا على تعبئة . فلقيه اشد لقاء وأقساه ولقَّنه في الحرب درساً مريراً ، إذ دارت بين الطرفين رحى معركة عنيفة استمرت حتى الظلام

(١) يقول الطبري ان شرحبيل « بعث خالداً على المقدمة وابا عبيدة وعمراً على مجنبيته) ، مما يؤكد ان ابا عبيدة سلم أمرة الجيش في هذه الحملة الى شرحبيل .



الرها
الرها
طرطوس
حلب
انطاكية
قنسرين
قنسرين
الرقة
الرصافة
اللاذقية
معرة النعمان
شيزر
حماه
قبرص
حمص
حمص
البحر الابيض المتوسط
تدمر
طرابلس
القريتين
مرج راهط
بيروت
صيدا
دمشق
دمشق
صور
مرج الصفر
الشمال
حيفا
بيسان
قيسارية
الاردن
فحل
نابلس
القدس
عسقلان
غزة
رفح
فلسطين
العريش
مؤاب
مؤتة
الحملة الاسلامية في بلاد الشام بعد معركة اليرموك
١ و ٢ خط سير أبي عبيدة وخالد.
٣ خط سير يزيد بن أبي سفيان.

وانتهت بأن قذف المسلمون بالروم في الوحول التي حاول الروم قذفهم فيها . وهُزم سقلار وجنده ، وقُتل منهم ما يقارب العشرة آلاف مقاتل . ولم يكن لخالد في هذه المعركة دور رئيس بل كان شرحبيل بطلها .

ثم تابع شرحبيل سيره إلى فحل وقد تحصَّن اهلها ، فلما علموا بهزيمة سقلار وجيشه طلبوا الامان ، فأعطي لهم ، وفتح المسلمون فحل صلحاً[1] . وقيل إن فتح فحلٍ كان في ذي القعدة سنة ١٣ هـ ، كما قيل إنه كان سنة ١٤ هـ .

وقعة مرج الروم (سهل البقاع) :

وتنفيذاً لأوامر الخليفة توجه أبو عبيدة ، مع خالد ، بعد فحل ، نحو حمص بعد ان ضم اليه ذا الكلاع الحميري مع فرقته التي كانت ترابط على طريق دمشق ـ حمص . فلما علم هرقل بانحياز ابي عبيدة بجيشه نحوه اراد أن يلاقيه في منتصف الطريق ، فأعد لملاقاته جيشاً عظيماً بقيادة اثنين من خيرة قادته واكفئهم هما توذر وشنس . والتقى الجيشان في مرج الروم (سهل البقاع في لبنان حالياً) ، وقد وصله أبو عبيدة من فحل فدمشق ، ووصله جيش هرقل من حمص فبعلبك[2] .

---

(١) وفي رواية اخرى ان المسلمين ، لما وصلوا الى سهول بيسان بجوار فحل ، وقد اوحلت ارضها ـ وكانت تلك السهول تسمى « ذات الروغة » ، والروغة تعني الوحل ـ ، وحلت خيولهم ولقوا عناء شديداً كي يخلصوها ، ولكن الروم لم يخرجوا لقتالهم وهم في هذه الحالة ، بل بقوا في حصونهم داخل المدينة حتى وصل المسلمون الى اسوار فحل وشاركوا المحاصرين في حصارها ، عندها خرج سقلار لمقاتلتهم فقاتلوه وهزموه (ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٤٢٩ ـ ٤٣٠) .

(٢) يعتقد امين سعيد ، في كتابه « حروب الاسلام والامبراطورية الرومية » ، ان الروم وصلوا الى سهل البقاع من احدى الطرق الآتية : ١ ـ اما براً من طريق الفرات ، ٢ ـ =

وكان المساء ، فلم يكن بين الفريقين صدام . وقرر ابو عبيدة وخالد ان يتوزعا مهمة منازلة خصميهما في مطلع اليوم التالي ، فينازل أبو عبيدة شنس وينازل خالد توذر . وفي الصباح لم يكن لتوذر في مرج الروم وجود ، فقد تستّر بجنح الظلام وغادر المكان[1] .

دور خالد :

قدّر خالد ، بحسه العسكري ، خطة الروم وحيلتهم ، فأفضى بذلك إلى أبي عبيدة وطلب منه أن يسمح له باللحاق بتوذر على طريق دمشق ، فاقتنع أبو عبيدة برأيه وسمح له . وكان ما قدره خالد صحيحاً ، فقد كانت خطة الروم كما يلي :

أ ـ ان يُشغَل الجيش الاسلامي بقتال مع فرقة شنس في مرج الروم ،

ب ـ ان تنطلق في اثناء ذلك فرقة توذر الى دمشق لاستردادها من يد المسلمين .

فلما علم يزيد ، حامي دمشق ، باقتراب توذر منه استعد لمقاتلته ، وما ان وصل هـذا الى ابواب دمشق حتى خرج يزيد لقتاله . وفي هذه الأثناء وصل خالد بجيشه ، فأخذه من الخلف وأصبح توذر بين

= واما بحراً من ميناء بيروت او اي ميناء آخر كانوا يسيطرون عليه ، ٣ ـ واما من الشمال على الساحل الشامي ، ويرجح انهم وصلوا بطريق الساحل مخترقين القوات الاسلامية القليلة التي كانت تحتله (ص ١٧٠ ـ ١٧١) . ولكن الساحل الشامي لم يخضع للمسلمين الا بعد احتلالهم المدن الداخلية (حمص وحماة ومعرة النعمان) كما جاء في الكتاب نفسه (ص ١٦٦) .

(١) ابن الأثير، م.ن جـ ٢ : ٤٩٠ .

نارين : نار يزيد من أمامه ونار خالد من خلفه ، فقُتل وهُزمت فرقته . وعاد يزيد الى دمشق ، كما عاد خالد الى مرج الزوم ليجد ابا عبيدة قد قتل شنس وهزم فرقته .

فتح بعلبك :

انتهت معركتا « دمشق » و« مرج الروم » بانتصار خالد وابي عبيدة ، فانضم خالد الى قائده وتابع الجيش سيره نحو بعلبك ، فحاصرها وطلب اهلها الامان والصلح ، فكان لهم ما ارادوا ودخلها المسلمون بلا قتال .

فتح حمص :

وانتقل ابو عبيدة الى حمص فحاصرها . ويظهر ان الحصار كان في فصل الشتاء ، فاعتقدت حاميتها ان المسلمين لن يصمدوا فيه طويلاً وصاروا يقاتلونهم في كل يوم بارد . فلقي المسلمون في حصارهم لحمص برداً شديداً ، ولكنهم صبروا لعل الروم يفقدون الأمل بالخلاص . وصبر كذلك الروم لعل البرد والبرسام (الوافدة) يفتكان بالمسلمين ، واملاً بأن يصلهم مدد من هرقل كان قد وعدهم به . ولكن انتظار الروم طال دون جدوى ، اذ لم يصلهم اي مدد[1] ، ولم يمت المسلمون برداً ولا برساماً . واصيبت المدينة بزلزال صَدّع ابنيتها

---

(١) وفي رواية ان هرقل بعث مدداً الى حامية حمص ليعاونها على فك حصار المسلمين عنها ، ولكن سعد بن ابي وقاص ، وكان في العراق ، سير جنداً من عنده فلاقوا المدد في الطريق وفرقوا شمله (ابن الأثير ، م.ن. جـ٢ : ٤٩١) ، إلا اننا نستبعد حصول ذلك .

وهدّم منازلها ، فتنادى اهلها وأولوا الرأي فيها وتقدموا بطلب الصلح من المسلمين فوافقوهم عليه[1] .

فتح حماة وشيزر[2] ومعرة النعمان :

خلّف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت مع فرقة من الجند لحمايتها ثم تابع زحفه نحو حماه ، فصالحه أهلها ، وأسرع أهل شيزر فصالحوه . وتابع زحفه شمالاً حتى مدينة معرَّة النعمان[3] ففتحها ، وبفتح معرة النعمان أتم المسلمون فتح « سورية الوسطى » ولم يبق عليهم لإتمام فتح الشام سوى شمال سوريا ومدنها الساحلية .

فتح قنِّسرين[4] وحلب ومرعش وحصن الحدث :

يظهر ان الجيش الاسلامي لم يلقَ مقاومة تُذكر في اثناء زحفه من حمص إلى حماة فشيزر فمعرة النعمان . ولم يكن ذلك لأن الروم تخلوا

---

(١) وفي رواية اخرى ان حمص فتحت قبل دمشق ؛ ويرى اصحاب هذه الرواية انه ، في اثناء حصار المسلمين لدمشق ، قدمت قوة رومية من حمص لمعاونة حاميتها ، فصدها ذو الكلاع الحميري وقاتلها وهزمها ولحق بها حتى حمص فاستسلم اهلها دون قتال ، ولما فتح ابو عبيدة دمشق وتوجه نحو حمص اقر الصلح الذي تم على يد ذي الكلاع (انظر امين سعيد ، م . ن. ص ١٦٣) ، إلا أننا لا نميل الى تأييد هذه الرواية .

(٢) شيزر : مدينة قديمة شمال حماة بغرب ، على طريق بانياس ـ اللاذقية الحالي . وهي الآن قرية صغيرة بجانبها قلعة قديمة هي قلعة « شيزر » البائدة (امين سعيد ، م . ن. ص ١٦٣) . وشيزر قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم (ياقوت ، م . ن. جـ ٥ : ٣٢٤) .

(٣) معرة النعمان : شمال حماة ، وهي مسقط رأس الفيلسوف العربي ابي العلاء المعري ولا تزال موجودة .

(٤) قنسرين ؛ مدينة قديمة من مدن الشام ، كانت تقع جنوب حلب بغرب ، بينها وبين حماه (امين سعيد ، م . ن. ص ٧٧) .

نهائياً عن المقاومة ، بل لأنهم كانوا يحشدون قواهم لملاقاة المسلمين في « قنّسرين » وهي من اكبر معاقلهم في شمال بلاد الشام . وعلم أبو عبيدة بتجمعهم ، فأرسل إليهم خالداً على رأس قسم من جيشه . فلما علم الروم بقدوم خالد إليهم اختاروا للقائه « ميناس » ، أكبر قائد في امبراطوريتهم بعد هرقل . فخرج ميناس للقاء خالد على رأس جيش كبير ، وانتظر في « الحاضر » وهو موضع قريب من قنسرين ويسمى « حاضر قنّسرين » . وبينما هو كذلك ، يُعِدّ جيشه للمعركة الفاصلة ، انقض عليه خالد فقتله وشرَّد جنده[1] . وفر الذين نجوا من جيش ميناس نحو قنسرين ليعتصموا بها ، فأنذرهم خالد قائلاً لهم : « والله لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا »[2] .

وما لبث المحاصَرون في البلدة أن بعثوا يطلبون الأمان ويعرضون الصلح ، ولكن خالداً أبى إلا أن يهدم مدينتهم عقاباً لهم على مقاومتهم إياه ، فهدمها وفر أهلها إلى انطاكية .

ولما علم عمر بن الخطاب بخبر هذه الوقعة قال : « أمّر خالد نفسه . رحم الله ابا بكر فقد كان أعلم بالرجال مني » .

وبعد قنسرين تابع خالد زحفه إلى حلب ، ففتحها وصالح أهلها بما صالح عليه أهل دمشق وحمص وسواهما .

---

(١) وفي رواية اخرى ان الروم هلكوا جميعهم في هذه المعركة ، اما اهلها من العرب فقد بعثوا الى خالد يخبرونه انهم عرب ، وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم (الطبري ، م.ن. جـ ٤ : ١٥٤ ـ ١٥٥) .

(٢) وكان خالد يعلق أهمية كبرى على فتح قنسرين لأنها طريقه الى انطاكية عاصمة الروم في الشام .

ثم سيّر ابو عبيدة جيشاً ، بقيادة خالد ، إلى مرعش (وهي مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم) وحصن الحدث (وهو قلعة حصينة قريبة من مرعش) ففتحهما .

واختلف المؤرخون في تحديد الزمن الـذي تمت فيه هـذه الفتوح (قنسرين ، وحلب ، ومرعش وحصن الحدث) ، فقيل انها كانت سنة ١٥ هـ ، وقيل سنة ١٦ هـ .

فتح الساحل الشامي :

بعد ان فتح ابو عبيدة مرعش والحصن اتجه بأنظاره نحو الساحل الشامي ، وهو الساحل الممتد من خليج اسكندرونة شمالاً حتى حدود عريش مصر جنوباً . فتوجه الى انطاكية ، عاصمة الروم في بلاد الشام في ذلك الحين ، فوجد هرقل قد اخلاها إلى القسطنطينية . فاستولى عليها صلحاً بعد حصار غير طويل ، ثم سار الى اللاذقية وما جاورها من مدن وقرى مثل : معرَّة مصرين (شمال مدينة ادلب) ، وسرمين (من اعمال حلب) وبوقا (شرق الـلاذقية) ثم بـانياس والخـراب وطرطوس ، ثم سلك طريق الساحل باتجاه الجنوب ، فاستولى عـلى طرابلس حتى وصل الى بيروت .

وبينما كان ابو عبيدة (وخالد معه) يحتل الثغور والمدن والقـرى المنتشرة على طول الساحل السوري في الشمال، كان يزيد بن ابي سفيان يحتل الثغور والمـدن والقرى المنتشـرة على طـول الساحـل اللبناني في الجنوب ، وكان معاوية ، اخوه ، يحتل الثغور والمدن والقرى المنتشرة على طول الساحل الفلسطيني . فاحتل يزيد بيروت وصيدا ، واتصل

بالقوات الاسلامية التي كانت قد احتلت صور وعكا[1] ، واحتل معاوية قيسارِيّة في أقصى الجنوب من الساحل الشامي . وهكذا اصبحت بلاد الشام كلها ، بعد فتح بيت المقدس في العام نفسه ، من انطاكية شمالاً الى قيسارِيّة جنوباً ، ومن البحر المتوسط غرباً إلى حدود العراق والجزيرة العربية شرقاً ، في يد المسلمين. واتصل عرب الشام ، للمرة الأولى في تاريخهم ، بعرب الجزيرة والعراق في ظل دولة إسلامية واحدة .

اما الروم فقد افلت شمسهم عن ارض الشام كلها، وتحرر عرب الشام من نيرهم إلى الأبد . وقد اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي تم فيه للمسلمين فتح هذه البلدان ، فقيل سنة ١٥ هـ ، وقيل سنة ١٦ هـ وقيل كذلك سنة ١٧ هـ[2] .

نهاية خالد :

بعد ان تم للمسلمين فتح الشام تفرَّغ ابو عبيدة لتنظيم هذه البلاد ادارياً ، فقسمها أربعة أجناد (اي ولايات) هي : جند دمشق ، وجند الاردن ، وجند فلسطين، وجند قنسرين . وولى خالداً جند قنسرين تقديراً لجهوده وتضحياته في سبيل فتح هذه البلاد . ولكن ولاية خالد على قنسرين لم تدم طويلاً ، اذ نمي الى الخليفة عمر ان خالداً قد اسرف في العطاء لرجل منها يدعى « الأشعث بن قيس » فأعطاه عشرة آلاف درهم ، كما أسرف في العطاء لآخرين في قنسرين « من ذوي البأس وذوي الشرف وذوي اللسان » . فكبر ذلك عند الخليفة

---

(١) سعيد ، أمين ، حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، ص ١٤٤ .

(٢) يؤرخ الطبري فتح كل من حمص وقنسرين وقيسارية وبيت المقدس سنة ١٥ هـ .

وكتب الى ابي عبيدة يأمره ان « أقم خالداً واعقله بعمامته ، وانزع عنه قلنسوته حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم انه من اصابة اصابها فقد أقر بالخيانة ، وان زعم أنها من ماله فقد أسرف » . وأمر ابا عبيدة كذلك بأن يعزله على كل حال ، وان يضم اليه عمله (أي جند قنسرين) وان يقاسمه ماله نصفين .

ونفَّذ ابو عبيدة أمر الخليفة ، فجمع الناس ودعا خالداً اليه وقال له : « يا خالد ، أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من إصابة ؟ » ، فلم يجبه ، وابو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة . فوثب بلال ، مؤذن النبي ﷺ ، الى خالد وقال له : « إن امير المؤمنين أمر فيك كذا وكذا » ، ثم اخذ عمامته وفكَّها وعقله بها وخالد لا يمنعه . فلما انتهى سأله : « ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ » ، فقال خالد : « لا بل من مالي » . فأطلقه بلال وعممه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخِّم ونخدم موالينا » . ثم قوسم خالد على ماله حتى بقيت نعلاه .

وقصد خالد المدينة وقابل الخليفة وقال له : « لقد شكوتك الى المسلمين ، وبالله انك في امري غير مجمل يا عمر » . فسأله الخليفة : « من اين هذا الثراء ؟ » ، فقال : « من الأنفال والسهمان ، ما زاد على الستين ألفاً فهو لك » . فزادت عشرين ألفاً ضمها الخليفة الى بيت مال المسلمين ثم قال : « يا خالد ، والله انك عليّ لكريم ، وانك الي لحبيب ، ولن تعاتبني ، بعد ، على شيء » . ثم ارسل الى الأمصار يأمر الولاة بأن يعلنوا باسمه « إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن

خيانة ، ولكن الناس فُتنوا به فخشيت ان يوكلوا اليـه ويبتلوا ، والا يكونوا بعرض فتنة »[1] .

وقيل ان عزله عن ولاية قنسرين كان عام ١٧ هـ ، أو في العام نفسه الذي وليها .

وفي حمص قضى خالد ، بعد عزله عن ولاية قنسرين ، ما تبقّى له من عمره الزاخر بالبطولات ، وهو اربع سنوات عاشها بين أهله وذريته ، وفي حمص وافته المنية . وقد اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي توفي خالد فيه ، فقيل إنه مات عام ٢١ هـ[2] ، وقيل عام ٢٢ هـ ، وكان له من العمر ستون عاماً . وكان آخر ما فعله ، قبل وفاته ، أن بكى وقال : « لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسمي موضع شبر الا وفيه ضربة ، أو طعنة أو رمية . ثم ها انذا اموت حتف انفي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء »[3] . وقال ايضاً : « لقد طلبت القتل في مظانّه فلم يقدّر لي الا ان اموت على فراشي . وما من عمل شيء ارجى عندي ، بعد (لا إله إلا الله) ، من ليلة شديدة الجليد ، في سرية من المهاجرين ، بتُّها وأنا متترِّس والسماء تنهلُّ علي ، وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على الكفار ، فعليكم بالجهاد » . ثم قال : « اذا انا مت فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدّةً في سبيل الله » .

---

(١) العقاد ، عبقرية خالد ، ص ١٥٠ .
(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، جـ ٥ : ١١٣ .
(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ ١ : ١٣٩ .



القسم الرابع : عبقرية خالد العسكرية

منذ حوالى أربعة عشر قرناً ، يوم كانت البندقية قوساً ، والرصاصة سهماً ، والمدفع منجنيقاً ،والدبابات فيلة وصناديق خشبية ، والسيارات إبلاً وخيلاً ، وقف خالد بن الوليد في صحراء العرب وتأمّل ، من حوله ، أصقاعاً من الأرض لم يألفها هو ولا بنو قومه ، تسيطر عليها دولتان من أكبر دول العالم يومذاك : الفرس في العراق ، والروم في الشام ، فجمع الرجال ، وشدَّ الرحال ، ونهد إلى القتال بعزم وثقة بالنفس لا يتزعزعان .

وبديهي أن خالداً لم يكن يعرف ، يومذاك ، مبادىء القتال وقواعد الحرب التقليدية السائدة اليوم ، ولكنه اكتشفها واستعملها بالحس والفطرة ، ومن هنا كان خالد ما كان في عصره ، وفي التاريخ العسكري. وسوف نحاول ، في ختام دراستنا هذه عن خالد بن الوليد ، أن نبحث في مبادىء الفن العسكري لعصرنا الحاضر ، ونبين

ما طبَّق خالد منها منذ أربعة عشر قرناً وما أضاف إليها من لمحات بارعة تجلت فيها عبقريته الخلاقة المبدعـة ، معتمدين مـا سبق وبحثناه من معاركه في كل من الجزيرة والعراق والشام .

تتلخص مبادىء الفن العسكري الحديث بما يلي[1] :

أولاً ـ التوازن النسبي بين الأهداف والوسائل .
ثانياً ـ حرية العمل .
ثالثاً ـ النتاج الأقصى للوسائل .

أولاً ـ التوازن النسبي بين الأهداف والوسائل :

ينبغي أن نفهم من الهـدف « مجموعـة القوى العـدوة التي يـراد سحقها » . فمفهوم « الهدف » يجب أن لا يكون لاصقاً بالأرض ، أو (الموقع) أو (المركز) الذي تحتله تلك القوى ، وإنما بالقوى نفسها . وقد قيل : « إن احتلال البلدان والحصون في حرب ما لا يفيد المحتل شيئاً ما لم يقضِ على مقاومة العدو ويسحق قواته » .

و« القوى » ، بمفهومها المجرد العام ، هي « مجموعة القيم المعنوية والمادية والفكرية في الامة والجيش معاً » ، أمـا بمفهومهـا الموضـوعي الخاص فهي « مجموعة التجهيزات العسكرية ، من جند وسلاح وآلات وأعتـدة ، التي تتحصن في موقـع مـا مستخـدمـة مـزايـاه الـطبيعيـة

---

(١) انظر شرحاً وافياً لهذه المبادىء عند :
Bernard, leçons d’histoire militaire, T. 1, P. 5-12.
مع الاشارة الى اننا لم نأخذ بالاعتبـار ما أحدثته التطورات التقنيـة والعلمية الحـديثة (النووية مثلاً) من تأثير في التطبيق العملي لهذه المبادىء ، لقناعتنا بأن المبادىء نفسها لم تتأثر بهذه التطورات .

والاصطناعية حسب خطة دفاعية معيّنة ، أو تتحرك على محور ما حسب خطة معيَّنة كذلك ، يسيّرها حافز معنوي يعظم أو يضؤل بمقدار إيمان القادة والرتباء والجند بسمو الدوافع ونبلها » .

وللحافز المعنوي أثر فعّال في القتال مهما تباين حجم المتقاتلين ، ومهما اختلف المكان والزمان . ويتغير هذا الحافز من زمن إلى آخر ، ومن مكان إلى آخر ، ولكنه يظل ، مهما تغيَّر ، أساساً من أسس النصر وعاملاً قوياً من عوامل النجاح في المعركة . فماذا كان اصاب « الامبراطورية البريطانية » في حربها مع المانيا عام ١٩٤٠ لو ان شعب لندن لم يستطع مقاومة الذعر في اثناء غارات الالمان الرهيبة عليه ، فاستسلم لليأس والهزيمة وتقاعس عن الصمود ؟ . وماذا كان اصاب الولايات المتحدة الاميركية ، بل الحلفاء جميعاً ، لو ان الطبقة العاملة في أميركا لم تستمر في انتاجها الغزير والشاق للكميات الهائلة من المعدات العسكرية حين كان هتلر المنتصر ينتقل في اوروبا وافريقيا من غلبة إلى غلبة ومن نصر الى نصر ؟

من هنا يجب أن نفهم أن دور « الأمة » أو « الشعب » في تعبئة القوى المادية والمعنوية للقتال هو دور رئيس وأساسي لا يمكن فصله عن دور الجيش او الوحدات المقاتلة .

وأما « الوسائل » فتشمل كل ما يملكه المقاتل من « قوى » ، بما فيها « القوى المعنوية » و« الفكرية » فضلاً عن الخطة أو التكتيك .

و« التوازن بين الأهداف والوسائل » يعني ان يقارن القائد ، قبل بدء القتال ، « قواه » مجتمعة بـ « قوى » عدوه مجتمعة كذلك .

فهل كان خالد يقوم بهذه المقارنة ، أو يقيم هذا التوازن ، قبل القتال ؟

من المرجح أن خالداً كان يفكر بكل هذا ، ولكن امكاناته المحدودة وقلة عدد جنده بالنسبة الى امكانات العدو وكثرة عدد جنده كانت تضطره للجوء الى طرائق أخرى يستعيض بها عن الوسائل المادية لكي يؤمن تفوقاً على العدو .

فخالد الذي حارب الفرس في خمس عشرة معركة لم يُهزم في واحدة منها قط ، لم يكن في كل من هذه المعارك أكثر من عدوه عدد جند أو أكثر امكانات ووسائل ، بل كان في هذه المعارك جميعاً أقل بكثير من العدو عدد جند وعدة ، ولكنه كان أكثر منه إيماناً بالعقيدة التي يحارب في سبيلها والهدف الذي يقاتل من أجله .

قابل خالد الفرس في جميع معاركه ضدهم بعدد لم يتجاوز الثمانية عشرة ألف مقاتل (١٠ آلاف اصطحبهم من الجزيرة ، و٨ آلاف كانوا مع المثنى بن حارثة في العراق) ، بينما كانت دولة الفرس لا تزال مرهوبة الجانب قوية الشكيمة وإن كانت في وضع لا تُحسد عليه من حيث المنازعات الداخلية بين قادتها وزعمائها . ولكن ما ان أطل عليها خالد بجيشه حتى اتفق الزعماء المتنازعون ووحدوا كلمتهم ، واجتمعوا على هدف واحد هو : التصدّي للمغامر العربي الذي يتحدى امبراطوريتهم وملكهم .

حارب خالد في العراق جيوش الفرس التي كانت تفوق جيشه عدة وعدداً وتنظيماً ، تساندها القبائل العربية التي كانت تقطن العراق ، والتي كانت متحالفة مع الفرس آنذاك . إذ حاربته هذه القبائل بضراوة

وبأس شديدين ، بخلاف عرب الشام الذين انحاز قسم منهم الى المسلمين ، بينما وقف القسم الآخر على الحياد ، ولم يحارب منهم الى جانب الروم سوى قلة ضئيلة .

وقابل خالد الروم في الشام بستة وأربعين الف مقاتل ، بينما كان عدد جيشهم فيها يقارب الثلاثماية الف مقاتل ، قابل منهم في اجنادين جيشاً عديده ثمانون الفاً ، وفي اليرموك جيشاً عديده مايتا ألف ، ومع ذلك استطاع أن يهزمهم في المعركتين ، ثم راح يطاردهم في أرض الشام من دسكرة إلى دسكرة ، ومن مدينة الى مدينة حتى طردهم إلى خارج حدودها وإلى غير رجعة .

إننا نعي ولا شك ، المبالغة في هذه الأعداد رغم ورودها على هذا النحو عند معظم المؤرخين ، إلا أنه يجب أن لا يغرب عن بالنا أن هذه المبالغة ذات حدين ، إذ تصيب الخصمين وتطال الجيشين فتظل النسبة واحدة لا تتغير .

ونتساءل : بم كان خالد يستعيض عن التفوق العددي للعدو عليه ؟

لقد كان ، في معاركه كافة في العراق والشام ، وفي بعضها في الجزيرة العربية ، ضعيف العدد والعدة بالنسبة الى العدو الذي يواجه ، وكان ينتصر دائماً ، وما انهزم في معركة قط ، فكيف كان يتم له ذلك ؟

الجواب هو أن خالداً كان يستعيض عن التوازن النسبي بين وسائله وأهدافه بما يلي :

١ ـ المناورة وسرعة الحركة ،
٢ ـ المباغتة ،
٣ ـ المبادهة والمغامرة والشجاعة ،
٤ ـ قدر الظروف ، واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ،
٥ ـ إخفاء النيات عن العدو ، ومعرفة نيات العدو ،
٦ ـ تقوية الروح المعنوية لدى الجند والقادة .

وسنعالج كلاًّ من هذه الأمور بالتفصيل في خلال حديثنا عن عبقرية خالد العسكرية .

ثانياً ـ حرية العمل :

من القواعد البديهية لحرية العمل أن لا يضع القائد نفسه في وضع المكره على خوض المعركة ، المرغم على قبولها كما يفرضها العدو عليه .. وهذا ما كان يأباه خالد على نفسه ، لذا كان يختار دائماً ما يلائم وضعه العسكري ولا يقاتل إلا برضاه .

ويتفرع عن مبدأ « حرية العمل » هذا أربع نقاط مهمة وجوهرية هي :

١ ـ حشد القوى :

تُعتبر القوى « محشودة » عندما يسمح لها تنظيمها بخوض المعركة والاستمرار فيها ، أي عندما تكون منظمة بطريقة لا تتيح للعدو ان يشتبك بالقتال مع بعض وحداتها منفردة ، بل تمكِّنها من مواجهته ، مجتمعة ، في أيّ وقت .

ولكي تُعتبر قوة ما « محشودة » يجب ان تجتمع في بقعة من الأرض

لا يتعدى « الوقت الأدنى » لاجتيازها « الوقت الادنى » لدوام المعركة ، مثلاً :

أ ـ في زمن اليونان لم تكن المعركة لتدوم اكثر من عشر دقائق ، فقد كانت معركة صدام او انقضاض . فإذا انتشر جيش في بقعة مساحتها ٤ كلم مثلاً لا يمكن اعتباره « محشوداً » ، لأن المسافة التي يتوجب على احد جناحي الجيش المشترك في المعركة ان يقطعها ليصل الى ميدان القتال تستغرق وقتاً اطول من وقت دوام المعركة ، أي أن هذا الجناح لن يصل الى ميدان القتال إلا بعد انتهاء المعركة . وهكذا لا يكون الجيش « محشوداً » لأنه لا يستطيع إشراك وحداته كافة في المعركة إذا اراد .

ب ـ في عهد نابليون كان يمكن للمعركة ان تدوم ساعة وان تدوم ست ساعات ، لذا فإن جيشاً منتشراً في مثل الوضع الذي ذكرناه آنفاً يمكن اعتباره « محشوداً » ، لأن بامكان أي من جناحيه أن يشترك في المعركة في الوقت الذي يريده القائد .

ج ـ في الحرب العالمية الأولى كانت المعركة تستغرق اياماً ، بل اسابيع . فالحشد ، إذن ، قائم إذا كان الجيش في الوضع المذكور آنفاً .

د ـ في الحرب العالمية الثانية كانت المعركة تدوم اكثر من ايام واسابيع ، فالحشد اذن قائم ايضاً ، إذا كان الجيش في الوضع نفسه .

ولكن الحشد لا يتعلق ببقعة الأرض التي يحتلها جيش ما وحسب ، بل يتعلق كذلك بوسائل النقل وبفكرة القائد . إذ ان بامكان جيش آلي ان يحتل بقعة من الأرض أوسع من البقعة التي يحتلها جيش

غير آلي يماثله عدداً ، فيُعتبر الأول « محشوداً » بينما يُعتبر الثاني « غير محشود » . كذلك فإن فكرة القائد تؤثّر الى حد كبير في إمكان الحشد ، وسنرى فيما بعد كيف أثّرت فكرة خالد في إمكان حشد القوى الاسلامية ضد الفرس بدومة الجندل وضد الروم باليرموك .

ولا تكون للقائد حرية عمل ما لم يتمكن من حشد قواه كافة ، المادية منها والمعنوية والفكرية ، في ساحة القتال ، وامتلاكها جميعاً في قبضة يده بحيث يمكنه ان يتصرف بها بحرّية كيفما يشاء . والسؤال هو : هل كان خالد يحشد قواه قبل مباشرة القتال ، وكيف كان يتم له ذلك ؟

اما الجواب فهو : نعم ، وبطرائق متعددة نضرب عليها بعض الأمثلة :

١ ـ **في قتاله مع طليحة بن خويلد الأسدي** : لم يكن خالد يكتفي بحشد قواه ، بل كان يعمد الى تفكيك قوى العدو وتفتيتها لإضعافها وتعزيز مركزه . ففي قتاله مع طليحة بعث ، قبل القتال ، بعديّ بن حاتم الطائي إلى قومه ، وكانوا من أتباع طليحة ، ليغريهم بالانفضاض عن طليحة والانضمام الى خالد . وتمكّن عديّ من اقناعهم ، فعاد ومعه منهم خمسماية مقاتل . كما أرسل خالد عدياً الى بني جديلة للغرض نفسه ، فعاد ومعه منهم ألف مقاتل .

ب ـ **في قتاله مع مسيلمة الكذاب** : بعث خالد ، قبل القتال ، عمير بن صالح اليشكري الى قومه ، وهم من أهل اليمامة ومن أنصار مسيلمة ، لعله يقنعهم بالانفضاض عنه، فكان لعمير ما اراد . ثم بعث خالد أثامة بن أثال ، أحد اشراف بني حنيفة ، ليقنع قومه بالانفضاض عن مسيلمة والانضمام الى خالد ، فاستجاب بعضهم

له . وهكذا كان خالد ، بمهارته وفطنتـه ، يزيـد قوّتـه ويُضعف قوة خصمه. وأفعاله هذه ، وان كانت بمعنى « التجميع » اكثر منها بمعنى الحشـد كما سبق وشـرحناه ، فـإنها لا تخلو من أن تكون « حشـداً » للقوى .

ج - في مسيره من العراق الى الشام : لم تكن مغامـرة خالـد في الصحراء واجتيازه المفازة القاحلة بأقصى ما يمكن من السرعة إلا لغاية واحدة هي الاسراع بحشد القوى الاسلامية في الشام لمقابلة قوى الروم فيها . ولو سلك خالد طريقاً غير الذي سلكه لكان تأخر عن نجدة الفرق المتمركزة في جوار بصرى (كما سبق وبيّنا) ، بل لما كان تمكّن من الانضمام اليها في الوقت المناسب ، مما يؤدي ، حتماً ، الى تبعثر القوى الاسلامية بدلاً من حشدها .

د - في معـركـة اجنـادين (فلسـطين) : خـاض خـالـد هـذه المعـركة فـور وصولـه الى الشام بهـدف حشد قـوى المسلمين وحمـاية مؤخرتهم للحصول على حرية العمل في اليرموك ، وقد تم له ذلك .

هـ - في اليرموك : تعتبر اليرموك افضل مثل على « حشد » القوى المادية والمعنوية والفكرية لدى خالد القائد .

القوى المادية : يظهر الحشد « المادي » للقوى في اليرموك في إقدام خالد على اتخاذ المبادرة بخوض المعركة ضد جيش سرجيوس الذي كان يرابط بمواجهة جيش عمرو بن العاص في اجنادين ، وذلك كي يحرر جيش عمـرو ويضمن لنفسه حـريـة العمـل في المعـركـة الكبـرى : اليرموك . كما يظهر هذا الحشد في التنظيم الذي رتب خالد به جيشه (التنظيم بالكراديس) ، وفي اختيار المكان الذي تمركز فيه (في نقطة

سدت على العدو سبل الخروج كافة) ، وفي جمع الجيش الاسلامي بفرقه الأربع تحت قيادات منظمة ووضعها جميعاً بامرته ، وأخيراً في حشد النسوة في مؤخرة الجيش لمهمة دقيقة (إعادة المنهزمين من جند المسلمين الى القتال) .

القوى المعنوية :

كان التأثير المعنوي لخالد على جنده نموذجياً ، فقد كانت ثقتهم به مطلقة وطاعتهم له عمياء ، واقتناعهم بأن النصر حليفه اينما حل ورحل اقتناعاً لا يناقش فيه . وقد انتصر في كل معركة بفضل هذه الروح المعنوية العالية التي تحلى بها هو وجنده ، وبدا ذلك في اليرموك ، ساعة كان خالد يطوف على الصفوف يستحث الجند للقتال وسمع أحدهم يقول : « ما اكثر الروم واقل المسلمين » ، فأجابه باعتزاز واطمئنان : « ما أقل الروم واكثر المسلمين ، انما تكثر الجيوش بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال » .

يضاف إلى ذلك انه عينّ في اركان حربه خطيباً وواعظاً وقارئاً لسورة الأنفال ، وهي سورة القتال والشهادة في القرآن الكريم ، وأتى بالنسوة يرجمن المنهزمين (كما قدمنا) ويحضّنّهم على العودة الى القتال دفاعاً عن « عرضهم ودينهم » فيعودون اليه بروح لا اسمى ولا اعلى .

القوى الفكرية : وتعني فكرة القائد واسلوبه ومناورته . وقد أجاد خالد كل ذلك في اليرموك ، وكانت حركته الافراجية عن فرسان الروم للفصل بينهم وبين المشاة عنصراً أساسياً من عناصر انتصاره في المعركة .

٢ ـ حماية خطوط المواصلات :

تعتبر خطوط المواصلات لكل جيش الشريان الرئيس الذي يربط هـذا الجيش بقلبـه وفكـره ومعـدتـه، فيتلقى بـواسـطتـه الأوامـر والتعليمات ، والغذاء والعون .

وكان خالد حريصاً دائماً على حماية خطوط مواصلاته مع القيادة العليا التي هي مركز الخلافة من جهة ، ومع بقية رِعال جيشه من جهة أخرى ، فهو :

أ ـ في معركة اجنادَين : خاض المعركة ضد سرجيوس في فلسطين ليحمي خطوط مواصلاته مع عاصمة الخلافة : المدينة المنورة ، فضلاً عما اوردناه من اسباب . إذ لو لم يعمد خالد إلى سحق سرجيوس في ذلك الحين ، وقبل اليرموك ، لتمكّن هذا ، في حال قضائه على فرقة عمرو أو انسحابها من طريقه ، من ان يقطع خطوط المواصلات التي تربط خالداً بالجزيرة ، فيقطع صلته بالخليفة ، القائد الأعلى للجيش ، ثم ينقض على خالد من الخلف ، وربما في اثناء القتال ، فيوقعه بين نارين .

ب ـ وفي العراق : دأب في فتوحه على أن يترك في كل بلدة يفتحها حامية من جنده تحتل هذه البلدة وتحمي خطوط مواصلاته ومؤخرته ، وفيما يلي أمثلة على ذلك :

١ ـ قبل وقعة « الوجلة » أمـر سويـد بن مقرِّن « بلزوم الحفـير » لا يغادرها كي « يحمي له ظهره » ، كما أمر من استبقى « في اسفـل دجلة » بالاحتفاظ بمراكزهم ، وأوصاهم بأن يكونوا على حذر « فـلا يؤتى من قبلهم » .

٢ ـ بعد ان فتح « الحيرة » واستتب له امرها أقام فيها وجعلها مقراً لقيادته ومعقلاً لجيوشه ، ثم عين ثمانية من قادته حماة للثغور ، مهمتهم المحافظة على خطوط مواصلاته في البلدان التي فتحها ثم حماية ظهره[١] .

٣ ـ إستبقى على « الأنبار » ، بعد فتحها « الزبرقان بن بدر » للمهمة نفسها ، وفتح بعدها « عين التمر » فاستبقى عليها « عويمة بن الكاهل الأسدي » . وهكذا كان كلما فتح بلداً استبقى عليه حامية من جنده قصد حماية ظهره ، والمحافظة على خطوط المواصلات بينه وبين ما سبق من الحاميات . وقد اعتمد ابو عبيدة الطريقة نفسها بعد ان تسلّم قيادة الجيش الاسلامي في الشام بعد معركة اليرموك .

٣ ـ الحيطة :

يُفهم بـ « الحيطة » استطلاع أخبار العدو والاحتياط القريب والبعيد كي لا تباغَت القوى من قِبَله ، ويكون ذلك بأن توضع العناصر المكلفة الانذار والمحافظة على التماس معه في الأماكن المحددة ، أو بأن ترسَل إلى المحاور المخصصة لها للقيام بالمهمات الموكلة إليها في الوقت المناسب ، كي يتسنى للجيش ، في حال اصطدامه بالعدو ، ان يتخذ التدابير اللازمة ويكون لديه الوقت الكافي للتهيؤ والاستعداد ، وإلا أُخذ على حين غرة وفقد حرية العمل .

وتتحقق الحيطة كذلك بإرسال عيون وجواسيس إلى مراكز العدو وبلدانه للتعرف على تلك المراكز والتحدث إلى أهل تلك البلدان في

(١) سبق ذكر هؤلاء القادة في بحث (خالد في العراق : فتح الحيرة) .

سبيل الحصول على أقصى ما يمكن من المعلومات ، كما تتحقق بقطع الطريق على العدو ، وتعزيز المؤخرة والتيقظ الدائم المستمر ، وقد برع خالد في ذلك كله :

أ ـ ففي اليرموك ، إستطاع أن يضمن « الحيطة » بوسائل عديدة . فقد كانت طليعة جيشه (قباث بن اشيم) عيون ذلك الجيش ومخافره الأمامية ، وكان في مؤخرته « سعيد بن زيد » مع خمسماية مقاتل لحماية الظعن والمؤخرة . وما كانت معركته في « اجنادَين » إلا لضمان « الحيطة » للمعركة الفاصلة العتيدة في اليرموك .

ب ـ وفي حصار دمشق ، كان ، كما قيل عنه ، « لا ينام ولا ينيم » . فكان في يقظة دائمة ، وكانت يقظته هذه « حيطة » دائمة . وبالغ في الحيطة حتى ارسل الى داخل اسوار المدينة عيوناً له وجواسيس . وقد أتته العيون بالخبر اليقين ليلة وُلد للبطريق مولود وسكرت المدينة ، فاغتنم الفرصة واقتحم اسوارها وفتحها . وفي اثناء الحصار ، وقبل الفتح ، لم يغفل خالد (والأمر كان يومئذ لأبي عبيدة ولكن الرأي لخالد) عن إرسال من يقطع الطريق بين دمشق وحمص ، والطريق بين دمشق وفلسطين ، كي لا يؤخذ المسلمون من مدد ربما يأتي الروم من الشمال أو الجنوب . وكان أن أرسل الروم جيشاً من حمص لإمداد المحاصَرين في دمشق ، فصدَّه ابو الكلاع الحميري على الطريق قبل أن يصل الى اسوار المدينة . وهكذا تبيَّن صواب رأي خالد وصدق حدسه .

ج ـ وفي العراق ، إذا عدنا إلى البند السابق من بحثنا هذا (حماية خطوط المواصلات) وأمعنّا النظر في الفقرة (ب) منه ، تبيَّن لنا أن كل

ما ورد فيها من تدابير اتخذها خالد كان يقصد بها « الحيطة وسلامة القوى » ، كما كان يقصد بها « حماية خطوط المواصلات » بين هذه القوى وتلك الحاميات ، فلا داعي للرجوع إليها .

د ـ وفي قتاله مع طليحة أتته قبائل العرب ، بعد القتال ، تائبةً مستسلمة ، فجمع سلاحها وأعطاه لجنده ، ولم يسمح لرجالها بأن ينضموا إلى جيشه ويحملوا السلاح معه خوفاً من غدرهم ، وما ذلك إلا من قبيل الحيطة والحذر .

٤ ـ إخفاء فكرة المناورة عن العدو :

أجاد خالد ذلك وأتقنه ، وتفنن في أساليب اخفاء فكرة مناورته عن العدو ، فكان ذلك :

أ ـ إما بالكمائن ، كما حدث في « الولجة » وقد اجتمع لقتال خالد جيشان ، احدهما بقيادة الاندرزعز والثاني بقيادة جاذويه .اوقرر خالد أن يفاجىء الجيشين ، فقسم جيشه ثلاث فرق ، سار هو على رأس واحدة منها لملاقاة العدو وجعل من الاثنتين الباقيتين كمائن تهاجم العدو في أشد اوقات القتال حرجاً وتأخذه على حين غرة . وكان لخالد ما اراد ، فصُعق الجيشان للمباغتة ، وخُذلا ثم هُزما .

ب ـ وإما بالحيلة ، كما حدث في « مؤتة » إذ كان المسلمون قلةً فغُلبوا على أمرهم وكادوا يُفنون . فلما رأى خالد ان جيش المسلمين مهدد بخطر الفناء عمد إلى حيلة رائعة عندما ارخى الليل سدوله ، فأتى بالخيالة لتثير ضجيجاً في مؤخرة الجيش ، ثم استبدل الميمنة بالميسرة تحت جنح الظلام ، واستبدل كذلك المقدمة بالمؤخرة .وما أن انبلج

الصبح ورأى العدو أن الوجوه غير الوجوهِ ، والرايات غير الرايات، حتى دخل في روعه ان مدداً عظيماً قد وصل إلى جيش المسلمين في الليل ، فبهت وفترت حماسته للقتال ، معتقداً ان الانتصار على جيش المسلمين بات مستحيلاً وهو الذي صمد طوال النهار بشجاعة وبأس لا مثيل لهما ، فكيف به الآن وقد تلقّى المدد والعون .

ج ـ وإما بمناورة تراجعية ، ففي « مؤتة » نفسها قام خالد صباح اليوم الثاني من المعركة بهجمات سريعة ومتلاحقة على العدو ليوهمه بأن أزره قد اشتد ، وبأنه مستعد للقتال اكثر من أي وقت مضى ، ثم عمد الى الانسحاب وفصم القتال فجأة . فكانت مناورته التراجعية هذه من اكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحاً ، إذ بُهت العدو وأُسقط في يده ، وأنقذ خالد جيش المسلمين من فناءٍ محتم .

د ـ وإما بالمباغتة ، والمباغتة عند خالد اسلوب اتقنه وأجاده ، وقد عرفها بنوعيها الاستراتيجي والتكتيكي :

١ ـ المباغتة الاستراتيجية ، وتجلت في انتقاله من العراق إلى الشام ليَظهر للعدو من مكان لم يكن ينتظر ظهوره منه قط ، وفي انتقاله من بصرى إلى اجنادَين ليباغت سرجيوس ويقاتله،وفي انتقاله من عين التمر إلى دومة الجندل لإنقاذ عياض بن غنم .

٢ ـ المباغتة التكتيكية : ففي « أُحُد » باغت المسلمين وهم في أوج انتصارهم وبعد ان ترك رماتهم مراكزهم ، فكرَّ عليهم وهزمهم شر هزيمة . وفي « الولجة » باغت الفرس بالكمائن . وفي « الحيرة » باغت عدوه ابن المرزبان عند « فرات بادقلي » ، فقتله وجنده وأعاد مياه

الفرات الى مجراها . وفي « دمشق » باغت عدوه المحاصَر بأن اقتحم عليه السور في ليلة من ليالي سكره ولهوه . وفي « قنِّسرين » باغت ميناسٍ وهو لا يزال يستعد للقائه ، فقتله وهزم جنده ، الخ . . .

هـ ـ وإما بمناورة تكتيكية ، ففي « اليرموك » تُعتبر « الحركة الافراجية » التي قام بها خالد ليُفسح لخيل الروم طريق الهرب قمة من قمم عبقريته العسكرية . فبينما كان الروم يعانون من ضغط خالد وحصاره لهم رغب فرسانهم في الهرب ، وبكل بساطة فتح خالد لهم الطريق فولوا الادبار . وكان يهدف من عمله هذا الى الفصل بين فرسان الروم ومشاتهم ، فكان له ما اراد وعزل المشاة ، ثم حمل عليهم بجيشه وافناهم . وكان خالد ، بفطنته ، يستشفّ نوايا عدوه ، فبينما كان « توذر » ، قرب حمص ، يغافل خالداً وينطلق بجيشه نحو دمشق ، إذا بخالد يدرك نيته فيلحق به ويباغته قرب اسوار المدينة وقد دارت رحى معركة قاسية بينه وبين يزيد ، حامي دمشق ، فيأخذه خالد من الخلف ويجهز عليه .

ثالثاً ـ النِّتاج الأقصى للوسائل :

ويُفهم بهذا المبدأ : التوزيع المنسجم والمتناسق للقوى تبعاً للمهمة ، والإرض ، والعدو والوسائل ، بحيث نبلغ الهدف بأقل ما يمكن من الخسائر ومن الوقت . ولكي نتمكن من الحصول على النتاج الأقصى للوسائل يجب ان نطبّق القواعد التالية :

١ ـ حشدَ أقصى الوسائل ، ويعني أن نحشد أكثر ما يمكن من القوى للمعركة ، مع خفضها في النقاط الثانوية الى ما هو ضروري فقط لضمان حرية العمل .

أما « الحشد » عند خالد فقد تحدثنا عنه في مطلع درسنا لعبقريته العسكرية (مع طليحة ومسيلمة ، وفي مسيره من العراق الى الشام ، وفي اجنادَين وفي اليرموك) ، فلا نرى داعياً لتكرار الحديث عنه .

٢ ـ **حشد أقصى الفعالية** ، أي أن تقوم القوى المحشودة بدورها في المعركة بأقصى درجة من القوة والفعالية ، وأقصى درجة من الحماسة والاندفاع .

وفي معارك خالد أمثلة كثيرة على تطبيقه لهذه القاعدة ، فالحماسة والاندفاع لا ينتجان إلا عن الايمان بالغاية التي يحارب الجيش من اجلها ، وهما بدورهما يُنتِجان الفعالية والقوة . وكلما كان إيمان الجيش بغايته قوياً كلما كان صموده في المعركة أطول . وتُعتبر معارك خالد كافة (في الجزيرة العربية ، وفي العراق والشام) أبلغ أمثلة على تطبيق هذا المبدأ :

أ ـ ففي مؤتة كان واضحاً قبل المعركة أن توازن القوى بين الجيشين المتخاصمين مفقود تماماً ، وان المسلمين سيخوضون معركة « فُرضت عليهم» ولا أمل لهم فيها بنصر، وأنهم في وضع لا مفر لهم منه هو الصمود والثبات في وجه العدو القوي القادر ، والقتال المستميت المشوب بالخطر الثابت الأكيد .

واستبسل المسلمون في أثناء المعركة أيما استبسال ، فقاتل قائدهم زيد بن حارثة حتى قُتِل ، وتبعه جعفر في القيادة فقاتل أيضاً حتى قُتِل ، وتبعه عبدالله بن رواحة فقاتل أيضاً حتى قُتِل . وكان النبي ﷺ قد عيَّن هؤلاء الثلاثة لقيادة الجيش بالتتابع ، فلما قُتِلوا جميعاً اختار المسلمون

خالداً ، (أو هو أمّر نفسه) فعمد إلى الحيلة في تضليل العدو بإيهامه أن مدداً قد أتى الى المسلمين ، ثم قام بمناورته التراجعية البارعة كما مر معنا .

ب ـ وفي قتال مسيلمة سار خالد للقتال بعشرة آلاف مقاتل، وكان مع مسيلمة أربعون الفا . ويقول المؤرخون إن المسلمين قاتلوا في هذه المعركة قتالاً شديداً، إلا أنهم هزموا وتوغّل جيش مسيلمة في مضاربهم حتى بلغ فسطاط خالد. ولما رأى المسلمون ما أصابهم من هزيمة تداعوا للقتال من جديد واستنهضوا الهمم ، فصاح ثابت بن قيس بن شماس قائد جيش الأنصار : « بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ، هكذا عني حتى أريكم الجِلاد » ، ثم قاتل حتى قُتِل . وصاح زيد بن الخطّاب قائد جيش المهاجرين: « لا نحور بعد الرجال، والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو أُقتل » ، ثم قاتل حتى قُتِل . وقاتل أبو حذيفة حتى قُتِل أيضاً . وطلب خالد من المقاتلين أن يحموا ظهره ، ثم كرّ على جند مسيلمة بجنده فردّهم إلى أبعد مما كانوا عليه . ودام القتال سجالاً بين الفريقين حتى كاد المسلمون ييأسون من النصر . وفكّر خالد ثم أمر المسلمين : « إمتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ، ولنعلم من أين نؤتى » . فامتاز المسلمون : الأنصار يحاربون مستقلين ، وكذلك المهاجرون ، وأخذت كل فرقة تنافس أختها في الإقدام على الموت والاستشهاد .

ورأى خالد أن المعركة لن تنتهي ، والنصر لن يُكتب له إلا بقتل مسيلمة ، فكرَّ عليه . ولما وصل إليه دعاه إلى الاسلام ، (وكان مرتدّاً) ، فأبى وأعرض بوجهه عن خالد . فلحقه ، فهرب من أمامه . فركبه خالد بجنده ، وما زال به حتى قتله فتفرَّق قومه وانهزموا .

أفيمكن أن يكون هنالك مثل على « حشد أقصى الفعالية » أبلغ من هذا المثل ؟

ج ـ وفي اليرموك ، لما اشتد ضغط الروم على ميمنة المسلمين وأزيلوا عن مواقعهم ، انبرى « عمرو بن معد يكرب الزبيدي » ونادى قومه أن « التفوا حولي » ، فالتف حوله ما يقارب الخمسماية مقاتل . ثم برز أبو هريرة صاحب الرسول ﷺ ونادى قبيلته « الأزد » ، وكانت قد أزيلت عن مواقعها كذلك ، فالتف رجالها حوله . وكان عكرمة بن ابي جهل يقاتل امام فسطاط خالد ، فرأى المسلمين في حرج فصاح : « قاتلت مع رسول الله ﷺ في كل موطن وأفرّ اليوم ؟ من يبايع على الموت ؟ » ، فبايعه أربعماية مقاتل منهم ابنه عمرو ، وضرار بن الأزور ، والحارث بن هشام وغيرهم من أبطال المسلمين وفرسانهم ، وكرّوا على الروم فأعادوهم إلى مواقعهم . أما النساء فلم يقصِّرن في أداء دورهن كاملاً في المعركة ، بل كن عاملاً مهماً من عوامل النصر كما سبق وبيّنا .

٣ ـ **التعاون** : التعاون ، في المفهوم العسكري الحديث ، هو تنسيق الجهود في مختلف الأسلحة ، وتنظيم العمل فيما بينها حسب فكرة القائد وفي سبيل الهدف المشترك . فيُستعمل كل سلاح حسب إمكاناته واختصاصه ، من غير ازدواجية في الاستعمال ، ومن غير تفرُّغ سلاح على حساب انهماك سلاح آخر دون وجه حق .

أما مفهوم التعاون في زمن خالد فلم يكن كما هو اليوم ، إذ لم يكن هناك تنوع في الأسلحة ، بل كان التعاون يعني تنسيق العمل وجعله منسجماً بين مختلف الوحدات المشتركة في القتال حسب فكرة القائد وفي

سبيل الهدف المشترك . ونرى في معارك خالـد أمثلة رائعة عـلى هذا التعاون :

أ ـ ففي مؤتة استجابت وحدات الجيش كلها لخالد في تطبيقه لخطته التضليلية ثم التراجعية ، وكان انسجـام العمل فيـما بينها عـاملاً من عوامل نجاحه .

ب ـ وفي الحيرة وزع خالد المهمات على قادة الفرق ، فأمر كل قائد بمحاصرة موقع من مواقع العدو على أن لا يباشر القتال إلا بعد إنذار العدو وإمهاله فترة محددة . ونُفِّذت اوامر خالد تنفيـذاً دقيقاً ، وأنشب كل قائد القتال من جهتـه بعد انقضـاء المهلة المعطاة للعـدو ورفضه قبول شـروط خالـد . وكان النصر حليف المسلمـين في هذه المعركة بفضل التعاون التام بين القادة جميعاً .

جـ ـ وفي دومة الجندل كان التعاون بين عياض وخـالد نمـوذجاً للتعاون بين القادة ، إذ قطع خالد مسافة اسبوعين بأقل من عشرة أيام وباغت العدو من الخلف فحصره بين نارين : ناره ونار عياض ، فقضى عليه .

د ـ وفي المصيَّخ والحُصيد والخنافس كان التعاون تاماً بين خالد وفرقه كافة ، وفي كل من الوقعـات الثلاث كـان هنالـك انسجام في العمل وتناسق في الهجوم على العدو .

هـ ـ وفي المسيرة من العراق الى الشام كان تعاون القادة والجند مع خالد ، وتحمَّلهم العطش وحرّ الصحراء ومشاق السير فيها رغم وجود طرق أُخرى توصل إلى الشام بجهد أقل ، وقطعهم المفازة في خمسة أيام

بلا تذمر، ثم وصولهم الى الشـام وانطلاقهم فـوراً الى فلسطين لقتـال سرجيوس دون ان يستريحوا من عناء الرحلة الشاقة ، كان ذلك كله مثلاً رائعاً من أمثلة التعاون الصادق المخلص بين القائد العام وقادته وجنده ، وتفانيهم في خدمة الهدف الذي يقاتلون من أجله، ودليلاً على مدى ارتفاع الروح المعنوية لديهم .

و ـ **وفي اليرموك** كانت المعركة نموذجاً حياً من نماذج التعاون بين خالد وقادة فرقه وجنده ، حتى ذهل الروم من روعة هذا التناسق وهذا الانسجام في العمل اللذين كان خالد يحرك بهما كل وحدة من وُحدات جيشه بدقة وبإشارة منه . انهما الانسجام والتناسق المؤديان الى وحدة الفكر والعمل، طريق النصر . فبينما القلب ينشب القتال تقف الميمنة مدافعة ترد هجمات العدو ، فينثني عليها القلب ليعضدها ويساندها . ثم تتـراجع الميسـرة أمام هجمـات العدو ، فتقف النسـوة في طريق المنهزمين تردُّهم الى ساحة القتال ، فينحسر الروم عن مواقعهم وتتقدم ميسرة المسلمين نحوهم . ويلاحظ القائد سير المعركة ببصيرة نـافذة وعين حذرة ، حتى اذا مـا رأى الروم يتـراجعون في الميسـرة والقلب والميمنة امر بالهجوم العام ، ففصل بين مشاتهم وفرسانهم ثم أفرج عن فرسانهم بحركة بارعة واقتحم على مشاتهم خنادقهم فهزمهم .

٤ ـ **اختيار الوقت** : وكان خالد يحسن اختيار وقت العمل :

أ ـ **ففي أُحد** أحسن اختيار الوقت المناسب للهجوم على المسلمين وضربهم ساعة ترك رماتهم مراكزهم .

ب ـ **وفي مؤتـة** أحسن اختيـار الـوقت المـلائـم للتـراجـع والانسحاب .

ج ـ وفي الولجة أحسن اختيار وقت بروز الكمين للعدوّ .

د ـ وفي المَصيَّخ والثِّني والخنافس أحسن اختيار وقت الهجوم على الاهداف الثلاثة في المعارك الثلاث .

هـ ـ ومعركة اجنادَين أحسن توقيتها ، فجعلها قبل اليرموك ليتفرغ للعدو بكامل قواه .

و ـ وفي حصار دمشق أحسن اختيار وقت اقتحام السور إذ كان العدو سادراً عن خصمه لاهياً عنه .

ز ـ وفي اليرموك أحسن اختيار توقيت الحركة الافراجية والهجوم العام على العدو . وهناك كثير غير هذه من الأمثلة حيث أبدع خالد في توقيت اللحظات التي اتته بالنصر المبين .

٥ ـ اختيار المكان : وأروع مثل على حسن اختياره للمكان هو اختياره لكاظمة في اول معركة له بالعراق، حيث قسم جيشه ثلاث فرق وواعَدَها جميعاً (الحفير) وكان هو على رأس احداها . فلما علم هرمز بخروجه اراد أن يسبقه إليه ، ولكن خالداً قدر الموقف فقرر الانحياز الى كاظمة . ذلك ان كاظمة بلدة تقع في طرف الصحراء من جهة الجزيرة، فإذا انحاز المسلمون إليها فإنهم يحمون ظهورهم بصحراء الجزيرة ويسهل عليهم القتال في الرمال ، الأمر الذي يصعب على عدوّهم . وكان لخالد ما اراد ، فاضطر هرمز لموافاته إلى كاظمة ، حيث سبق خالداً إليها واستولى على نبع ماء وحيد فيها . فكان ذلك حافزاً جديداً لجند خالد على الاستبسال في القتال للحصول على الماء ، إذ قال خالد لهم ، وقد رأى ان الفرس سبقوه الى مكان المعركة وعسكروا هناك

على الماء : « إنزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين » . ودارت رحى معركة لقي في نهايتها هرمز الموت ولقي جنده الهزيمة .

٦ ـ **المباغتة** ، وهي أهم ما يستطيع قائد أن يفعله ضد خصمه في كل معركة ، فهي ، دوماً ، عامل اساسي من عوامل النصر إذا أُتقن تنفيذها . وقد اعتمد خالد المباغتة في اكثر معاركه ، يعوِّض بها عن قلة عدد جنده بالنسبة الى جند العدو .

والمباغتة قاعدة مهمة من قواعد « النتاج الأقصى للوسائل » ؛ بل هي وسيلة من وسائل النجاح نادراً ما يخفق من يتقن استخدامها ، وغايتها ان نضرب العدو ضربة لم يكن ينتظر وقتها ولا مكان حصولها ، فنرمي الذعر في صفوفه ولدى قيادته ثم ننصرف الى ضمان النصر الكامل بسحقه ، بعد أن نشلّ حركته ، ونمنعه من حرية العمل .

والمباغتة نوعان : ١ ـ المباغتة الاستراتيجية ، ٢ ـ والمباغتة التكتيكية ، وقد سبق أن تحدثنا عن هذين النوعين في مكان آخر من بحثنا هذا . ولا يغربن عن بالنا أن المباغتة التكتيكية يمكن ان تتحقق بظهور اسلحة جديدة في ميدان القتال (قنبلة هيروشيما في الحرب العالمية الثانية) ، أو بظهور أسلوب قتالي جديد (أسلوب خالد في احتضان قائد جيش العدو وأخذه أسيراً أو قتله ، والحركة الافراجية في معركة اليرموك) او بظهور تنظيم عسكري جديد (تنظيم خالد لجيشه بالكراديس والفرق ، على غرار تنظم الروم لجيشهم) . ولن نكرر الحديث عن اسلوب خالد في المباغتة وقد استخدمها في معظم معاركه .

ولكن المباغتة تكون عديمة الجدوى والفعالية ان لم تقترن بالسرعة والاستمرار .

٧ ـ السرعة والاستمرار : ـ ان السرعة وحدها هي التي تتيح الاستمرار الذي هو ناتج السرعة وحصيلتها . والسرعة والاستمرار هما اللذان يتيحان للمقاتل المباغِت استثمار مباغتته الى اقصى حد ، وإلا اصبح بامكان العدو المباغَت ان يستعيد المبادرة فيستجمع قواه ويستثمر عامل الوقت ليفشل عملية الهجوم . فعلى القوات المهاجِمة، إذن ، ان لا تترك للعدو المهاجَم مجالاً للتجمع والاحتشاد والتنظيم من جديد ، وأن لا تترك له فرصة للنجاة إلا لخطّة معيَّنة (خطة خالد في حركته الافراجية باليرموك) ، وأن يكون عمل هذه القوات المهاجمة سريعاً ومستمراً بلا انقطاع ، فإن الانقطاع هو ثغرة في جنب المهاجِم المنتصر ينسلُّ منها العدو المباغَت فيتركز لينقضَّ من جديد . فإذا أراد المهاجِم أن يستمر في استثمار المباغتة عليه أن يستمر في حركاته القتالية كي لا يدع للعدو فرصةً للتنفس ، ولو أدى ذلك إلى الاستعانة بقوات أخرى تصل الى ساحة القتال في الوقت المناسب وتتولى الاستمرار في القتال .

وكما يعني الاستمرار عدم الانقطاع عن القتال فإنه يعني كذلك استمرار تفوّق القوات المهاجِمة سواء بالعون والمدد أو بالاسلوب والخطة . وبهذين العاملين : السرعة والاستمرار يتعلق نجاح الخطة أو اخفاقها ، كما يتعلق نجاح التدابير المضادة التي يتخذها المُدافع أو إخفاقها . فقاعدة السرعة ، إذن ، متصلة اتصالاً وثيقاً بقاعدة الاستمرار ، لا تنفصل عنها .

ولقد أتقن خالد هاتين القاعدتين وأجادهما في معاركه كافة .

فالسرعة في سيره من عين التمر الى دومة الجندل ، ومن العراق الى بصرى في الشام ومن بصرى الى اجنادَين ، ثم السرعة في لحاقه بـ « توذر » على اسوار دمشق، والسرعة في الانقضاض على « ميناس » قبل أن ينقضَّ هذا عليه في معركة « قنسرين » ، تلك الأمثلة على السرعة في حركة خالد ، واستمراره فيها وتتويج هذه الحركات (السريعة والمستمرة والمباغِتة) بالنصر ، إنما هي دليل على إتقانه استخدام قاعدتي « السرعة » و« الاستمرار » ، وعلى استثماره لقاعدة « المباغتة » التي قلنا إنه أجادها كل الاجادة . ولا شك بأن « التعبئة المستمرة » التي كان خالد عليها سهَّلت له سرعة الحركة والمناورة واستمرارهما .

* * *

تحدثنا عن المبادىء الثلاثة في الفن العسكري الحديث وكيف طبَّقها خالد بن الوليد منذ أربعة عشر قرنا . على أن هنالك لمحات رائعة تضيء سيرنا الطويل مع خالد في معاركه الجريئة التي خاضها في الجزيرة والعراق والشام ؛ وهي لمحات تستوقفنا ولا تدعنا نكمل مسيرتنا دون أن نتأملها لنلمح من خلالها عبقرية خالد العسكرية وفطنته الفذة . فخالد قائد لا كقادة عصره ، بل هو قائد أذهل الاعداء ورمى في قلوبهم الذعر والرعب حتى باتوا يعتقدون أن الله أنزل على النبي سيفاً من السماء فأعطاه اياه ، فلا يسلُّه على قوم إلا هزمهم[1] .

فلنُعدد تلك اللمحات ، مستخلصين منها ما يمكن استخلاصه من الفن العسكري عنده :

---

(١) حديث جرجة مع خالد في مستهل معركة اليرموك وقبل ان يعلن جرجة اسلامه ، وقد سبق ان ذكرنا هذا الحديث مع مصادره .

١ ـ الاستطلاع ، وطلب المعلومات عن العدو :

لقد تعود خالد أن يعمد إلى استطلاع أخبار العدو وجمع المعلومات عنه قبل بدء كل معركة معه . فها هو ، قبل قتاله مع « طليحة بن خويلد الاسدي » ، يرابط بالبزاخة ثم يرسل بعثة استطلاعية من عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم الانصاري لجمع المعلومات عن العدو . ولكن العدو ، كان لهذه البعثة بالمرصاد ، فقضى عليها قبل ادائها مهمتها .

وفي غزوة « الانبار » بالعراق طاف خالد بنفسه حول الخندق قبل القتال ، وقد تحصّن أهل البلدة داخل اسوارها وفي حصونها مطمئنّين إلى ان الخندق المحفور حول السور سوف يمنع خالداً من الوصول إليهم . ولكن خالداً اكتشف نقطة الضعف في الخندق ، فما أن تمكّن من شل مقاومة رماة الأنبار برمي عيونهم بالسهام وفقئها حتى نحر الابل في ذلك الموضع من الخندق وصنع من جثثها جسراً عبر عليه جنده إلى المحاصَرين وهزموهم .

وفي اثناء حصاره لدمشق لم يكن خالد لاهياً عن عدوه ، بل كان يراقبه من الداخل والخارج . فقد أرسل عيونه وجواسيسه الى داخل البلدة ، تطوف فيها وتتجول بين أهلها وحاميتها وتحادثهم وتأخذ أسرارهم لتنقلها اليه ، كما كان يطوف بنفسه بالاسوار من الخارج ليكتشف مواطن الضعف فيها ، حتى إذا أزفت ساعة اقتحامها لم يتكلف جهداً في البحث عن الموضع الذي يمكنه تسلقها منه . وفعلاً تسلّق وجنده ، في الوقت المناسب ، السور من المكان الذي سبق أن عيّنه ، واقتحم المدينة ، فكان أول من دخلها من قادة المسلمين .

ولما التقى خالد وابو عبيدة توذر وشنس قرب حمص ، ثم غافل توذر الجيش الاسلامي وانطلق تحت جنح الليل قاصداً دمشق ، علم خالد ، بحدسه وبواسطة عيونه وأرصاده ،بقصد توذر ، فتبعه بفرقة من الجيش ادركته عند ابواب دمشق وقضت عليه .

٢ ـ قدر الظروف ، واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، والمبادهة :

إشتهر خالد برباطة جأشه ، والسيطرة على اعصابه ساعة الحرج والضيق ، فما كان الموقف الحرج يسلبه رجاحة فكره وسداد رأيه . حتى انه في « مؤتة » ، أصعب مواقفه حرجاً ، تمكّن من انقاذ جيش المسلمين والخروج به من المعركة بعد أن كان مقدراً له الفناء المحتم . وفي كثير غيرها من المعارك كان خالد يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، فيأتي قراره ليزيد جنده ثقة به وبحصافة رأيه وعبقريته ويؤكد لهم أن هذا القرار هو سبب انتصارهم . فسيره من العراق الى الشام ، ومن بصرى إلى اجنادين ، وحركته الافراجية عن فرسان الروم في اليرموك ، واقتحامه اسوار دمشق في الوقت المناسب ، ولحاقه بتوذر الى دمشق تاركاً أبا عبيدة يقاتل شنس ، وصعوده الى « فرات بادقلي » ليقضي على ابن المرزبان وزمرته ويعيد ماء الفرات الى مجراها كي تتابع سفنه سيرها نحو الحيرة ، وقراراته الغريبة المباغتة بمبارزة قادة جيوش العدو عند بدء القتال ثم احتضانهم وقتلهم إذا لزم الأمر[١] ، وهو أسلوب قلما عرفته الجيوش قبل خالد (بارز خالد هرمز في وقعة ذات السلاسل ثم احتضنه

---

(١) كان خالد يعتبر ان قتل رأس الجيش او اسره يضعضع الجيش كله ، كما فعل بمسيلمة وطليحة في حروب الردة .

وقتله . وبارز معقل بن الأعشى ، من قادة جيش خالـد ، قارن بن قريانس ، من قادة جيش الفرس ، في وقعة المذار وقتله . وبارز عاصم بن عمرو ، في الوقعة نفسها ، الانـوشجان وقتله . وبـارز عدي بن حاتم ، في الوقعة نفسها ، قباذ وقتله . وبارز خالد مالك بن قيس ، من عرب العراق المناصرين للفـرس ، في وقعة أُلَّيس وقتله) ، تلك كلها أعمال خطيرة ولا شك ، رسمت لخالد خطاه الثابتة الواضحة على طريق النصر . وكان خالد سريع البديهة ، يـراقب تحركـات خصمه ويقدر نواياه ثم يتصرف بسرعة وحزم ، فيسبق بتصرُّفه ما كان ينوي العدو تحقيقه ، بينما يفاجأ ذلك العدو بتحرك خالد غير المنتظر (اللحاق بتوذر إلى اسوار دمشق) .

٣ - الإعداد للمعركة :

ما أُخذ خالد مباغتةً قط ، فقد كان دوماً مستعداً للقتال ، قادراً على خوضه . وكان لا يسير إلا « على تعبئة » . وكان ، كما قال عنه احد المؤرخين ، « لا ينام ولا ينيم » ، وكما قال عنه عمرو بن الغاص « في أناة القط ووثبة الاسد » . فجيشه ، دوماً ، طليعة تستكشف ، وقلب ينشب القتـال ، ومجنَّبتان تحميـان القلب وساقـة تحمي الجيش كله . وكان ، بتنظيمه هذا ، قادراً على خوض المعركة في كل لحظة يلقى فيها العدو متمركزاً أو سائراً ، وما انتصر عليـه عدو قط . وكـان يحسب للمعركة قبل بدئها ويوازن بين وسائله واهدافه ، فإذا رأى العدو متفوقاً عليه استعاض عن ضعفه بالحيلة والمناورة ، فينجح في ذلـك دائماً . وكان يفتنُّ في إعداد المعركة ، من توزيع للأهداف (توزيع الأهداف على قادته في وقعتي اليرموك والحيرة) إلى توزيع للمهمـات (توزيـع

المهمات على اركان حربه في اليرموك) ، إلى تقسيم الجيش فرقاً كل فرقة تهاجم من مكان محدد وفي ساعة محددة (المصيَّخ والثِّني والزميل) ، إلى نصب الكمائن (الولجة) ، قاصداً من ذلك أن يخلخل توازن العدو في بدء المعركة ، أو في وقت محدد منها لكي يسهل القضاء عليه بعد ذلك .

وكان هذا الإعداد للمعركة عاملاً مهماً من عوامل النصر الذي رافق خالداً في معاركه كافة .

٤ ـ التطويق او الحصار :

اعتمد خالد ، في معظم معاركه بالجزيرة والعراق والشام ، اسلوب الحصار او التطويق كلما اتيح له ذلك . ففي قتاله للمرتدين ، وعندما فر رجال مسيلمة إلى «حديقة الموت» وتحصَّنوا بداخلها ، طوَّقها خالد بجنده وحاصرهم فيها ثم اقتحمها والتحم جنده بجند مسيلمة حتى انتصروا عليهم .

وفي « دومة الجندل » أحاط خالد بأهلها وحاصرهم من جهة ، بينما اطبقت عليهم قوات عياض من الجهة الأخرى . ولما فروا إلى داخل الحصن اقتحم خالد عليهم بابه فاقتلعه ودخل الى الحصن فاحتله .

وفي « الثِّني » حاصر خالد جند ربيعة بن بجير التغلبي من ثلاث جهات ثم قاتلهم وهزمهم . واشترك في حصار « دمشق » ، كما حاصر حمص وغيرها من المدن الشامية .

٥ ـ المطاردة :

لم يفت خالداً أن يستثمر انتصاره كلما قيِّض له ذلك ، إذ كان كثيراً ما يعمد إلى مطاردة العدو بعد هزيمته . فبعد أن قضى على « طليحة » طارد فلول جنده وشتتها . وفي قتاله مع « هرمز » ، في وقعة « ذات السلاسل » ، أمر خالد جنده بأن « يركبوا أكتاف العدو » ، فركبوها حتى الليل وفتكوا به ، واستمرت المطاردة حتى « الجسر الأعظم » . وفي « فحل » بالشام شاء « سقلّار بن مخراق » ، قائد الروم ، مباغتة خالد الذي يحاصر مدينته ، فتخيّر مكاناً من الحصن اجتازه بجنده وخرج لقتال خالد في ضواحي فحل . ولكن خالداً كان على حذر ويقظة ، فتنبه له وتغلّب عليه . ثم أمر خالد جيشه بأن يطارد فلول جيش سقلّار ، فطاردها حتى رماها في وحول فحل .

٦ ـ المغامرة ، واقتحام المخاطر ، والثقة بالنفس، والروح المعنوية العالية :

كان خالد ، ولا شك ، محباً للمغامرة ، شغوفاً بالمخاطرة ، يتتبعهما أنى يجدهما ، ولا يتوانى عن خوضهما إذا رأى في ذلك النصر وقهر العدو . وما مغامرته في الصحراء ، بين العراق والشام ، إلا الدليل الأكيد على حبه للمغامرة واقتحامه للمخاطر ، كما انها دليل على ثقته بنفسه ، وعلى طموحه العظيم وروحه المعنوية العالية . ذلك الطموح ، وتلك الروح ، اللذان شعَّا في نفوس جنده في كل وقت وفي كل معركة ، واللذان لم يكن يتوانى عن تغذيتهما بإعطاء الجند المزيد من النصائح والوصايا ، وبتشجيعهم وحثهم على القتال في سبيل العقيدة التي يحاربون من أجلها، وبأن يجعل سلوكه مثلاً لهم وقدوة في التضحية والتفاني والصبر الطويل .

٧ ـ التواضع ، والانضباط ، والطاعة ، والضمير المهني الحي :

وبالرغم من انتصارات خالد وفتوحه ، وَأكاليل الغار التي توجت هامه ، فقد بقي ذلك الانسان الطيِّب الهادىء ، المتواضع المنضبط ، يطوف بجنده قبل القتال يتفقد أحوالهم ، ويشجعهم ويشد أزرهم ، ويدير المعركة بكل جرأة وفطنة ، وبكل صدق وتفان ، حتى إذا أتاه أمر الخليفة بالعزل لم يضطرب ولم يحقد ، ولم يتخلَّ عن مسؤوليته في أثناء المعركة ، بل تابع قيادة الجند بالصدق والتفاني اللذين قادهم بهما قبل وصول امر العزل إليه ، حتى إذا انتهت المعركة بانتصاره تقدَّم من القائد الجديد قائلاً : « مرني يا أميري فأنت القائد العام » ، ثم قال عبارته المشهورة : « أنا لا أُقاتل من أجل عمر ، ولكني أُقاتل من أجل رب عمر » . وحين ورد أمر الخليفة بمحاكمته في اثناء ولايته على قِنِّسرين لم يتبرم ولم يتذمر ، بل ترك بلالاً يعقله بعمامته ويحاكمه ككل ظنين من بني قومه امام أي حاكم ، حتى إذا ثبتت براءته فك بلال عقاله ثم عممه من جديد قائلاً : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخِّم ونخدم موالينا » .

٨ ـ خالد وقادة آخرون في التاريخ :

أ ـ خالد وهرقل ، خالد ومحمد شاه ملك خوارزم ، خالد ونابليون ، خالد وفريدريك الثاني ملك بروسيا (المناورة بالخطوط الداخلية) : ذكرنا فيما سبق من معارك خالد بن الوليد (مسير خالد من العراق إلى الشام ووقعة اجنادَين) ان خالداً ، لما وصل إلى اليرموك ، ودرس وضع الفرق الاسلامية المتمركزة هناك ، ووضع جيشي الروم المتمركزين في فلسطين وانطاكية ، قرر أن ينطلق أولاً نحو جيش الروم في فلسطين فيهزمه في آجنادين ، ثم يعود فيهزم جيشهم الكبير في

اليرموك ، وقد تم له ذلك . هذه المناورة ، التي تسمى « المناورة بالخطوط الداخلية » ، حاول هرقل استخدامها ضد الفرق الاسلامية المتمركزة في الشام قبل وصول خالد ، ولكنه لم يفلح بالنظر إلى صعوبة تحرك قواته وثقل أحمالها ، وبالنظر الى تنبه قادة العرب لخطته تلك وانكفائهم جميعاً إلى جوار بصرى وتجمّعهم هناك . كما استخدمها ، بعد خالد ، قادة كثيرون مثل : محمد شاه ملك خوارزم ، ضد جنكيزخان في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، (ولكنه فشل بسبب سرعة جنكيزخان وبطء حركته هو) وفريدريك الثاني ، ملك بروسيا (الذي استخدمها في معركة « لوثن » عام ١٧٥٧) ونابليون بونابرت (في معاركه ضد جيوش التحالف الثالث 3e Coalition التي انتصر عليها في وقعتي اولم واسترليتز عام ١٨٠٥ كما سنرى)[1] .

ب ـ خالد ورومل ، خالد وايزنهاور (عمليات التضليل) :

تحدثنا عن عملية التضليل التي نفّذها خالد لإنقاذ جيش المسلمين في غزوة « مؤتة » ، وكيف أنه أجرى في اثناء الليل ، لفرسان المسلمين ، حركات مسرحية وراء صفوف مشاتهم ، ثم استبدل الميمنة بالميسرة ، والمقدمة بالمؤخرة ، وكرَّ في الصباح على العدو بهجمات متتالية لكي يوهمه بأنه تلقّى عوناً وإمدادات ، ثم ثبَّت القلب وسحب الجناحين ، وعاد فسحب القلب بحماية الجناحين .

اننا نجد لهذه العملية التضليلية مثيلاً في الحرب العالمية الثانية ، فقد عُيِّن رومل قائداً للجيش الالماني في افريقيا الشمالية ، وكان عبقرياً يتمتع ببراعة فائقة وذكاء حادّ . وفور وصوله الى مسرح العمليات ، في

(١) Bernard, Leçons d'histoire militaire. T:1. P. 63-64. 98-99. 127-144 .

٢٤ آذار (مارس) من العام ١٩٤٢ ، عمد الى تحدي الانكليز بطردهم من مخافرهم الأمامية في « العقيلة » ثم بملاحقتهم الى « مرسى بريقة » و« اجدابية » حيث كانت قواتهم المدرعة قد تمركزت في موقع دفاعي حصين . وفي ٣١ آذار هاجم رومل الموقع المحصَّن هجوماً جبهياً ، فلقي مقاومة شديدة . عندها لجأ إلى الحيلة ، فاستدار حول الموقع عبر ممر رملي صعب وضيِّق ، ثم موَّه الشاحنات فبدت كأنها دبابات ، وجعل بعض الآليات تثير سحباً كثيفةً من الغبار حتى ظن العدو أن جحافل جرارةً قادمةٌ باتجاهه فآثر الانسحاب[1] .

وفي نيسان من العام نفسه كان الجنرال « ريتشي » قائداً للجيش الثامن البريطاني المتمركز في القطاع الممتد من « عين الغزالة » إلى « بير حكيم » . وكان رومل عازماً على شن هجوم على قوات العدو المتمركزة في ذلك القطاع ، إلا أنه لم يكن يملك التفوق اللازم . فعمد من جديد الى الحيلة ، وبينما كانت طائرات الاستكشاف البريطانية ترصد أرتال المدرعات الالمانية المتجمعة في ناحية « غزالة » ، بحيث اصبح لدى « ريتشي » اقتناع تام بأن رومل سوف يهاجم من تلك الناحية فاستعد لصد الهجوم المنتظر ، وبينما كان الجنرال الالماني « كروفيل » ، الصديق الشخصي لرومل ، يقوم بالفعل بهجوم من أمام « عين الغزالة » ، كانت قوة رومل الأساسية تظهر فجأة امام « بير حكيم » . وقد ظهرت الحقيقة لريتشي بعد فوات الأوان ؛ إذ ان الأرتال التي رصدتها طائراته في النهار كانت تعود أدراجها في الليل ، والدبابات التي رصدت تجمعاتها كانت من القماش ، وسحب الغبار الكثيفة التي شاهدتها كانت

(١) ريمون كارتيه ، الحرب العالمية الثانية ، تعريب سهيل سماحة وانطوان مسعود ، جـ ١ : ١٩٣ - ١٩٤ .

تثيرها محركات طائرات قديمة وغير مستعملة ؛ رُكِّبت فوق شاحنات وأديرت فأثارت تلك السحب[1] .

وهناك عملية تضليلية أخرى مماثلة قام بها الجنرال ايزنهاور في اوروبا . ففي ليل ٥ ـ ٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٥ شوهدت عمليات إنزال تقوم بها جيوش الحلفاء على شاطىء « بادي كاليه » . ولم تكن هذه العمليات سوى مسرحية تضليلية قام بها ايزنهاور ، قائد جيوش الحلفاء في تلك المنطقة حينذاك ، بغية صرف نظر الالمان عن موقع عمليات الإنزال الحقيقية . فثبَّت الألمان عدداً كبيراً من فرقهم عند شاطىء « بادي كاليه » شمال نهر السين ، وبعد ستة أسابيع فقط ، تمت ، بنجاح كبير ، عمليات الإنزال الشهيرة على شاطىء « النورماندي » ، بينما كانت قيادة الجيش الألماني تصرّ على أن العمليات الحقيقية هي عمليات « بادي كاليه » فتمسك بقسم كبير من جيوشها عند هذا الشاطىء[2] .

ج ـ خالد ونابليون (مسيرٌ في مفازة) : فصَّلنا ، في بحث مستقل ، مسير خالد من العراق إلى الشام في مفازة مهلكة طولها خمس

---

(١) ريمون كارتيه ، م . ن . جـ ١ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠ ؛ وقد حذا مونتغمري حذو خصمه رومل في اغتماد هذا النوع من التضليل في تشرين الأول (اكتوبر) من العام ١٩٤٣ ، قبل معركة العلمين ، وفي وجه رومل بالذات ، حين وضع في منخفض « القطارة » دمى من المطاط على شكل دبابات ، بينما اعطى الدبابات الحقيقية المحشودة في بقعة الهجوم الرئيس أشكال شاحنات عادية ، ليوهم خصمه بأن الهجوم سينطلق من « القطارة » جنوباً وليس من الشمال (م . ن . جـ ٢ : ٢٦ ، وقارن : شكري محمود نديم ، حرب افريقيا الشمالية ١٩٤٠ ـ ١٩٤٣ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١) .

(٢) Bernard, Leçons d'histoire Militaire, T.2.P. 383-384 .

ليال . واننا لنجد مثل هذا المسير في التاريخ العسكري عند نابليون بونابرت في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ففي العام ١٨٠٤ ، بعد أن توّج نابليون بونابرت إمبراطوراً على فرنسا ، استغلّ معاهدة « أميان » التي وقّعت في العام ١٨٠٢ ليجهّز في بولونيا (Boulogne) ، وهي مرفأ على شاطىء المانش ، اسطولاً ضخماً دعاه بـ « الجيش الكبير » (La grande armée) ، وكان طموحه ان يُنزل هذا الجيش على الساحل الانكليزي ليغزو به خصمه اللدود « انكلترا » في عقر دارها . ولكن ما فتىء أن علم بأنباء الحلف الذي قام ضده ، والذي جمع بين انكلترا والنمسا وروسيا واسوج ونابولي ، وهو ما سمي بالتحالف الثالث (3e Colalition) [١] ، فقرر عند ذاك صرف النظر عن اجتياز المانش ، واستبدل « لندن » بـ « فيينّا » كهدف له ثم استدار ليواجه خصومه المتحالفين في اوروبا الوسطى ، حيث هزم جيوشهم في وقعتين شهيرتين هما « اولم » (Ulm) ، في تشرين الأول من العام ١٨٠٥ ، و« اوسترليتز » (Austerlitz) في كانون الأول من العام نفسه .

ولقد نفّذ نابوليون ، للوصول الى ميدان القتال في أولم ثم في اوسترليتز ، خطة انتقال مدهشة[٢] لجيوش غير محشودة بلغ عديدها نحو اربعماية وخمسين الف مقاتل موزعين بين اوروبا الغربية (في معسكر

---

(١) قام التحالف الأول ضد فرنسا عام ١٧٩٢ من كل من النمسا وبروسيا وانضمت اليهما عام ١٧٩٣ كل من انكلترا وهولندا وسردينيا ونابولي واسبانيا وروسيا . وقام التحالف الثاني ضد فرنسا ايضاً عام ١٧٩٨ من كل من انكلترا وتركيا وروسيا والنمسا .

(٢) كان على بعض هذه الجيوش (الفيالق الثالث والرابع والخامس والسادس) ان يقطع مسافة ٥٥٠ كلم (من معسكر بولونيا) ليصل الى ميدان القتال في جبهة كارلسروه - شلستادت (Carlsruhe-Schlestadt) ، وذلك بمدة شهر تقريباً (من ٢٦ آب الى ٢٣ ايلول) (Bernard, Ibid., T.1, P. 129) .

بولونيا Boulogne ، وفي بريتانيا Bretagne وهولندا وهانوفر) وايطاليا (لومبارديا وكورسيكا) ، بحيث يسلك معظم فيالق هذه الجيوش طرقاً ، وان كانت شبه آمنة بين بولونيا وبريتانيا وباريس حتى نهر الرين عند استراسبورغ ، إلا أنها لن تظل كذلك بعد اجتياز الرين نحو نهر النيكر (Neckar) في المانيا عند جبهة شتوتغارت - ورزبورغ (Stuttgart-Wurzbourg) ، وبعد اجتياز النيكر نحو نهر الدانوب عند جبهة هايدنهايم - دونوورث - انغولستات - Heidenheim) (Donauwarth - Yngolstadt ، إذ يغدو الإنتقال في هذه المناطق خطِراً ومليئاً بالمفاجآت ، لأنه انتقالٌ في أرض العدو ، وعلى جنبه وقرب مؤخراته[١] .

د - خالد وفون ساندرس (الحركة الافراجية) : ان الحركة الافراجية التي قام بها خالد في اليرموك في القرن السابع الميلادي (حين أفرج عن فرسان الروم مفسحاً لهم مجال الهرب بغية عزل مشاتهم عنهم ثم ضرب هؤلاء المشاة) نجد من يقوم بمثلها في التاريخ العسكري الحديث ، اي بعد خالد بثمانية عشر قرناً . فعلى جبهة فلسطين للجيوش الالمانية - التركية المتحالفة في الحرب العالمية الأولى ، وفي معركة « السلط » شرق نهر الأردن ، وفي ايار من العام ١٩١٨ ، استولت فرقة من خيالة الجيش الانكليزي الذي كان بقيادة « اللنبي » ، على موقع « السلط » ، وطردت الحامية التركية منه . فقرر الجنرال الالماني « ليمان فون ساندرس » ، قائد تلك الجبهة يومذاك ، طرد هذه الفرقة من الموقع واسترداده ، فهاجم السلط بالجيش التركي

---

(١) Bernard, Ibid., T.1.,P. 124-143 .

الرابع وبفرقة الخيالة التركية الثالثة، هجوماً جبهياً من الشرق ، بينما كانت قوات تركية أخرى قد عبرت جسر دامية لتشد الخناق على الفرقة الانكليزية المتمركزة في هذا الموقع من الشمال والغرب . ورغم ان تطويق هذه الفرقة كان من السهولة بمكان، إلا ان القائد الالماني فضّل أن يسهِّل لها سبيل الانسحاب ، وذلك لأسباب عدة أهمها انه ربما كان جيشه المتعب لا يقوى على تحمُّل الضربات القاسية التي قد توجهها اليه الخيالة المحاصَرة ، مما يكبده خسائر فادحة . فآثر ان يستولي على الموقع دون قتال ، وهكذا فقد ترك للخيالة المحاصَرة مجالاً للخلاص نفذت منه ، وكان له ما أراد[1] .

ولن نجد غرابة في أن يكون القائد الالماني قد استمد خطته تلك من تاريخ خالد العسكري اذا ما علمنا أن قائداً المانياً آخر ، وهو الجنرال غولتس[2] قائد إحدى الجبهات التركية الالمانية خلال الحرب العالمية الأولى ، قال عن خالد : « إنه أستاذي في فن الحرب » .

بعد كل ما تقدَّم في بحثنا هذا عن خالد بن الوليد،هل يلام الخليفة ابو بكر (رضي) اذا قال فيه : « عجزت النساء ان يلدن مثل خالد » ؟

---

(١) عمر كحالة ، سيف الله خالد بن الوليد ، ص ٢٦١ (محاضرة القائمقام اركان حرب احمد بك اللحام) الملحقة بالكتاب ؛ وقارن : شكري محمود نديم ، حرب فلسطين ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ . الا ان شكري محمود نديم (العميد الركن) يرى ان الاتراك لم يستطيعوا « التأثير على الانسحاب البريطاني لتعب قطعاتهم ولما عانوه من خسائر فادحة » .

(٢) فون درغولتس ، جنرال الماني ومؤلف كتاب (الامة المسلحة) ، ولد في العام ١٨٤٣ ، وكلف مهمة تنظيم الجيش العثماني في العام ١٨٨٣ ، ثم قاد الجيشين التركيين الأول والسادس خلال الحرب العالمية الأولى ما بين العامين ١٩١٥ و١٩١٦ (Nouveau Larousse Universel T.1, Goltz) .



الفهـــارس

فهرس تواريخ الوقعات والغزوات والمعارك والفتوح

اليوم والشهر (او الشهر)	السنة (هـ)	الوقعة او الغزوة او المعركة او الفتح	ملاحظات
السبت منتصف شوال	٣	وقعة أحد	ضد النبي
جمادي الأولى	٨	غزوة مؤتة	ضد قريش
٢٠ رمضان	٨	فتح مكة	
اواخر كانون الثاني	٦٣٠ م		
-	١١	معركة عقرباء أو حديقة الموت	ضد مسيلمة الكذاب ، وقيل انها كانت سنة ١٢ هـ
محرم	١٢	وقعة ذات السلاسل	
-	١٢	وقعة الثني او المذار	
صفر	١٢	وقعة الولجة	
صفر	١٢	وقعة أليس	
ربيع الأول	١٢	فتح الحيرة	
-	١٢	فتح الأنبار او وقعة ذات العيون	سميت كذلك لكثرة ما فقأ فيها رماة المسلمون من عيون الفرس
-	١٢	وقعة عين التمر	
-	١٢	وقعة دومة الجندل	
-	١٢	وقعة الحصيد والخنافس	

-	١٢	وقعة المصيخ	
-	١٢	وقعة الثني والزميل	
-	١٢	وقعة الفراض	آخر معارك خالد في العراق
١٨ جمادي الأولى ٧ تموز	١٣ ٦٣٤ م	معركة اجنادين	وقيل ٢٨ جمادي الآخرة
١٢ رجب ١١ أيلول	١٣ ٦٣٤ م	معركة اليرموك	وقيل انها كانت في رجب سنة ١٥ هـ
اول محرم	١٤	وقعة مرج الصفر	وقيل انها كانت سنة ١٣ هـ
رجب	١٤	فتح دمشق	وقيل انه كان في اواخر العام ١٣ هـ
-	١٤	فتح فحل	وقيل انه كان في ذي القعدة سنة ١٣ هـ
-	١٥	وقعة مرج الروم	
-	١٥	فتج بعلبك	
-	١٥	فتح حمص	
-	١٥	فتح حماة وشيزر ومعرة النعمان	
-	١٥	فتح قنسرين وحلب	وقيل انه كان سنة ١٦ هـ
	١٦	فتح الساحل الشامي (انطاكية . اللاذقية ـ طرابلس بيروت ـ صيدا ـ صور ـ قيسارية)	وقيل ان هذه الفتوح كانت سنة ١٥ هـ ، كما قيل انها كانت سنة ١٦ أو ١٧ هـ



فهرس المراجع والمصادر

ابراهيم ، محمد ابـو الفضل ـ ايـام العرب في الاسـلام ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٠ ، القاهرة .

ابن الأثـيرـ الكامـل في التاريـخ ، دار صادر ودار بيـروت للطباعـة والنشر ، ١٩٦٥ ، بيروت .

ابن تيمية ـ رسالة القتال ، ضمن مجمـوعة رسـائل ، مـطبعة السنّـة المحمدية ١٩٤٩ .

ابن تيمية ـ السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، تحقيق محمد البنا ومحمد عاشور ، مطبعة الشعب ١٩٧١ ، القاهرة .

ابن الجـوزي ـ سيرة عمـر بن الخطاب ، المكتبـة التجاريـة الكبـرى ١٣٣١ هـ ، القاهرة .

ابن حنبل ، احمد بن محمد ـ المسند . الطبعة الرابعة ، دار المعـارف ١٩٥٤ ، القاهرة .

ابـن خلدون ـ تـاريـخ ابـن خلدون ، دار الـكتـاب الـلبنـاني ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، بيروت

ابن خلدون ـ المقدمة في تاريخ ابن خلدون . الطبعة الثالثة ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧ ، بيروت .

ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ، دار صادر ١٩٥٧ ، بيروت .

ابن سيده ـ المخصص . الطبعة الأولى ، بولاق ١٣١٧ هـ ، القاهرة .

ابن عبد ربه ـ العقد الفريد . الطبعة الثالثة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٥ ، القاهرة .

ابن عساكر ـ التاريخ الكبير ، مطبعة روضة الشام ١٣٣٢ هـ ، دمشق .

ابن القيِّم الجوزية ـ احكام اهل الذمة . تحقيق صبحي الصالح ، الطبعة الأولى ، مطبعة الجامعة ١٩٦١ ، دمشق .

ابن القيِّم الجوزية ـ الفروسية ، دار الكتب المصرية ١٩٤١ ، القاهرة .

ابن كثير ـ البداية والنهاية . الطبعة الأولى ، مكتبة المعارف ١٩٦٦ ، بيروت .

ابن هشام ـ سيرة النبي ﷺ . طبعة كتاب التحرير ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ هـ ، القاهرة .

ابو داود ، سليمان بن الأشعث ـ سنن ابي داود . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ١٩٥٠ ، القاهرة .

ابو النصر ، عمر ـ سيوف امية ، المكتبة الأهلية ١٩٦٣ ، بيروت .

ابو يوسف ـ الخراج . الطبعة الثانية ، المطبعة السلفية ١٣٥٢ هـ ، القاهرة .

الاصفهاني ، ابو الفرج ـ الأغاني ، دار الثقافة ١٩٥٥ ـ ١٩٦١ ، بيروت .

اكرم ، أ.ي (جنرال) ـ سيف الله خالد بن الوليد ، تعريب العميد الركن صبحي الجابي ، دمشق ، ١٩٧٦ .

باشميل ، محمد احمد ـ غزوة أحد . الطبعة الثالثة ، دار الفتح للطباعة والنشر ١٩٦٤ ، بيروت .

البخاري ـ صحيح البخاري ، مطبعة البابي الحلبي ١٣٤٥ هـ ، القاهرة .

البستاني، بطرس ـ معارك العرب ، دار المكشوف ١٩٤٤ ، بيروت .

البستاني ، المعلم بطرس ـ محيط المحيط ١٨٦٧ ـ ١٨٧٠ ، بيروت .

البلاذري ـ فتوح البلدان ، تحقيق عبدالله وعمر الطباع ، دار النشر للجامعيين ١٩٥٧ ، بيروت .

بوفر ، اندريه ، الردع والاستراتيجية، تعريب : اكرم ديري ، دار الطليعة ١٩٧٠ ، بيروت .

بوفر اندريه ، مدخل الى الاستراتيجية العسكرية ، تعريب اكرم ديري والهيثم الأيوبي ، دار الطليعة ١٩٦٨، بيروت .

بينز ، نورمان ـ الامبراطورية البيزنطية . تعريب حسين مؤنس ومحمود زايد ، الطبعة الثانية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ، القاهرة .

الجاحظ ـ البيان والتبيين . تحقيق حسن البندولي ، الطبعة الثانية ، المطبعة الرحمانية ١٩٣٢ ، القاهرة .

جاد المولى ، محمد احمد ـ ايام العرب في الجاهلية ، مطبعة البابي الحلبي ١٩٦١ ، القاهرة .

الجندي ، علي ـ شعر الحرب في العصر الجاهلي . الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة العربية ١٩٦٦ ، بيروت .

حتي ، فيليب ـ تاريخ العرب المطول . الطبعة الرابعة ، دار الكشاف ١٩٦٥ ، بيروت .

حداد ، جورج مرعي ـ فتح العرب للشام ، المطبعة الأدبية ١٩٣١ ، بيروت .

الحلبي ، برهان الدين ـ السيرة الحلبية ، المكتبة التجارية الكبرى لات ، القاهرة .

الحنبلي ـ القواعد . الطبعة الأولى ، مطبعة الصدق الخيرية ١٩٣٣ ، القاهرة .

خدوري ، مجيد ، الحرب والسلم في شرعة الاسلام ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ .

الخضري ، محمد ـ محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية . الطبعة الثالثة ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٤ ، القاهرة .

خطاب ، محمود شيت ، لواء ركن ـ قادة فتح العراق والجزيرة ، دار القلم لات ، القاهرة .

خطاب ، محمود شيت ، زعيم ركن ـ الرسول القائد . الطبعة الثانية ، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة ١٩٦٠ ، بغداد .

خطاب ، محمود شيت ، لواء ركن ـ الفاروق القائد . الطبعة الرابعة ، دار الفكر ١٩٧١ ، بيروت .

الدرة ، محمود ـ تاريخ العرب العسكري . الطبعة الأولى ، دار الكاتب العربي ١٩٦٤ ، القاهرة .

الدسوقي ، عمر ـ الفتوة عند العرب ، مكتبة نهضة مصر ١٩٥١ ، القاهرة .

الدينوري ، عبدالله ،مسلم بن قتيبة ـ عيون الأخبار ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) ، سلسلة « تراثنا » لات .

رودانسون ، مكسيم ـ الاسلام والرأسمالية . ترجمة نزيه الحكيم ، دار الطليعة ١٩٦٨ ، بيروت .

الزحيلي ، وهبه ـ اثار الحرب في الفقه الاسلامي ، دار الفكر ١٩٦٢ ، دمشق .

زكي ، عبد الرحمن ، قائمقام ـ السلاح في الاسلام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥١ .

الزمخشري ـ الكشاف . الطبعة الثانية ، المطبعة الكبرى الاميرية ١٣١٨ هـ . بولاق .

زيدان ، جرجي ـ تاريخ التمدن الاسلامي ١٩٢٢ ، القاهرة .

السامرائي ، عبد الحميد ـ القائد الخالد خالد بن الوليد ، دار المعرفة ١٩٥٥ ، بغداد .

سعيد ، امين ـ حروب الاسلام والامبراطورية الرومية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٣٥ ، القاهرة .

السيوطي ، جلال الدين ـ أسباب النزول ، بهامش القرآن الكريم ، دار المعرفة بيروت لات .

السيوطي ، جلال الدين ـ تاريخ الخلفاء ، الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ١٩٥٩ ، القاهرة .

الشافعي ـ الأم . الطبعة الأولى ، المطبعة الاميرية ١٣٢٢ هـ . بولاق .

الشلبي ، ابو زيد ـ سيف الله خالد بن الوليد . الطبعة الثالثة ، دار الكتاب العربي ١٩٥٢ ، القاهرة .

الصالح ، صبحي ـ النظم الاسلامية . الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ١٩٦٥ ، بيروت .

الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك . الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ . القاهرة .

الطيباوي ، عبد اللطيف ـ محاضرات في تاريخ العرب والاسلام ، دار الاندلس ١٩٦٣ ، بيروت .

العبادي ، عبد الحميد . وزيادة ، محمد مصطفى . والعدوي ، ابراهيم ـ الدولة الاسلامية ، تاريخها وحضارتها ، مطابع المصري ١٩٥٤ ، القاهرة .

العظم ، رفيق ـ أشهر مشاهير الاسلام في الحروب والسياسة . الطبعة الثانية ، المطبعة الهندية ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨ ، القاهرة .

العقاد ، عباس محمود ـ عبقرية خالد ، دار الهلال ، لات ، القاهرة .

العقاد ، عباس محمود ـ عبقرية عمر . الطبعة السادسة ١٩٦٠ ، القاهرة .

العقاد ، عباس محمود ـ عبقرية محمد . الطبعة الثالثة ، مطبعة الاستقامة ١٩٤٣ ، القاهرة .

علي بن ابي طالب ـ نهج البلاغة . تحقيق صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٧ ، بيروت .

عون ، عبد الرؤوف ـ الفن الحربي في صدر الاسلام ، دار المعارف ١٩٦١ ، القاهرة .

غلوب ، جان باجوت ـ الفتوحات العربية الكبرى . تعريب خيري حماد ، مكتبة المثنّى ١٩٦٣ ، بغداد .

فرج ، محمد ـ السلام والحرب في الاسلام ، دار الفكر العربي ١٩٦٠ ، القاهرة .

فرج ، محمد ـ سيف الله خالد ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، القاهرة .

فرح ، محمد ـ العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، دار الفكر العربي ١٩٥٨ ، القاهرة .

الفيروز آبادي ـ القاموس المحيط ، دار المأمون ١٩٣٨ ، القاهرة .

فيصل ، شكري ـ حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، دار العلم للملايين ١٩٦٧ ، بيروت .

القرآن الكريم .

القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن . الطبعة الثالثة ، عن طبعة دار الكتب المصرية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧ ، القاهرة .

قدورة ، زاهية ـ عائشة ام المؤمنين ، مطبعة مصر ١٩٤٧ ، القاهرة .

كارتييه ، ريمون ـ الحرب العالمية الثانية . تعريب سهيل سماحة وانطوان مسعود ، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر ١٩٦٦ ، بيروت .

كحالة ، عمر ـ سيف الله خالد بن الوليد ، مع محاضرة عن أوائل فتوح الشام للقائمقام احمد بك اللحام ، المكتبة العربية ١٣٥٣ هـ ، دمشق .

كريستنسن ، آرثر ـ إيران في عهد الساسانيين . ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧ ، القاهرة .

لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ـ المعجم العسكري الموحد ، القسم الثاني ١٩٧٠ ، القاهرة .

لمواساني ، احمد ـ نظرات جديدة في تاريخ الأدب ، ١٩٧١ ، بيروت .

لوبون ، غوستاف ـ حضارة العرب . تعريب عادل زعيتر ، الطبعة الرابعة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦٤ ، القاهرة .

ليدل هارت ، الاستراتيجية وتاريخها في العالم . تعريب : الهيثم الأيوبي ، دار الطليعة ، ١٩٦٧ ، بيروت .

الماوردي ، ابو الحسن - الأحكام السلطانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٠ ، القاهرة .

المتقي الهندي - منتخب كنز العمال ، بهامش مسنِد الامام احمد ، المطبعة الميمنية ١٣١٣ ، القاهرة .

مسلم - الجامع الصحيح . القاهرة ، طبعة كتاب التحرير ١٣٨٤ هـ . (مصورة عن طبعة اسطنبول المحققة والمطبوعة سنة ١٣٢٩ هـ) .

نديم ، شكري محمود ، عميد ركن - حرب افريقيا الشمالية ١٩٤٠ - ١٩٤٣ ، الطبعة الثالثة ، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦١ ، بيروت .

نديم ، شكري محمود - حرب فلسطين ١٩١٤ - ١٩١٨ ، منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٦٥ ، بيروت .

النويري ، شهاب الدين - نهاية الارب . الطبعة الأولى ، دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، القاهرة .

النيسابوري ، الامام الشيخ ابو الحسن - اسباب النزول ، دار الكتاب العربي ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ ، بيروت .

الهرثمي الشعراني - مختصر سياسة الحروب . تحقيق عبد الرؤوف عون ، مراجعة مصطفى زيادة ، المؤسسة المصرية العامة ، لات ، القاهرة .

هيكل ، محمد حسين ـ حياة محمد، مطبعة مصر ١٩٣٥ ، القاهرة.

هيكل ، محمد حسين ـ الفاروق عمر، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣، القاهرة .

الواقدي ـ المغازي . تحقيق مارسدن جونس ، مطبعة جامعة لندن ١٩٦٦ ، لندن .

الواقدي ـ فتوح الشام . الطبعة الأولى ، منشورات المكتبة الأهلية ١٩٦٦ ، بيروت .

ياقوت ـ معجم البلدان . الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ١٩٠٦ ، القاهرة .

Beaufre, A. **Stratégie de l'Action**, Ed. Colin, Paris 1966.

Bernard, H. - Lecons d'Histoire Militaire. Imprimerie Medicale et Scientifique, 2ème édition Bruxelles 1951.

Clausewitz , Carl von, **De la guerre,** Ed. de Minuit, Paris 1955.

Dermengham, E - La vie de Mahomet. Crété-Corbeil 1950.

Encyclopedia of Islam. Leyden, Brill 1927.

Khadduri, Magid - War and Peace in the law of yslam, Baltimore. The Johns Hopkins Press, third Printing 1962.

Larousse du XXème Siècle. Librairie Larousse, Paris 1933.

Paul Augé - Nouveau Larousse Universel. Librairie Larousse, Paris 1948.

Sokolovsky, Vassili Danilovitch **Stratégie militaire soviétique**, Ed. de l'Herne, Paris, 1984, (3e Ed.).

الفهرس العام

الموضوع الصفحة

الموضوع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

فهرس
الرسوم والخارطات

الرسم (او الخارطة)	الصفحة

تصميم الغلاف: ناصر عاصي

المؤلف والكتاب

المؤلف:

● ضابط في الجيش اللبناني برتبة «عميد ركن» ● مجاز في الحقوق من الجامعة اللبنانية. ● دكتور دولة في التاريخ من جامعة السوربون بباريس ● أستاذ مادة «التاريخ العسكري» في الجامعة اللبنانية وعضو في اللجنة الدولية للتاريخ العسكري ● من مؤلفاته: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين (جزءان) باللغتين العربية والفرنسية، والفن العسكري الإسلامي (أصوله ومصادره) ● أسهم في تأليف كتاب «التنشئة الوطنية» الصادر عن قيادة الجيش اللبناني (عام ١٩٦٣)، وكتاب «القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني» الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية وقيادة الجيش اللبناني (عام ١٩٧٣) ● كما أسهم في تأليف الموسوعتين العسكرية والسياسية الصادرتين عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر والموسوعة الفلسطينية الصادرة عن هيئة الموسوعة الفلسطينية ● نشر عدداً من الأبحاث والدراسات التاريخية والعسكرية في عدد من المجلات والصحف اللبنانية والعربية.

الكتاب:

● دراسة تاريخية عسكرية شاملة لمعارك خالد بن الوليد في الجزيرة العربية والعراق والشام، في مطلع الفتوح الإسلامية ● يبرز خصائص الفن العسكري الذي تميز به القائد العربي، ويقدم تحليلاً لمعاركه من الوجهتين: الاستراتيجية والتكتيكية ● يعتمد النهج العلمي الحديث في التحقق من الحوادث وتحليلها واستخلاص نتائجها، وذلك بأسلوب موضوعي رصين ● يتناول الباب الأول من الكتاب الفن العسكري الإسلامي عند العرب في العصر الإسلامي الأول، ويتضمن الباب الثاني منه بحثاً موثقاً ومستفيضاً في معارك خالد، وتحليلاً لعبقريته العسكرية.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ
ت ٨٠٧٩٠٠/١ برقياً «موكيالي»
بيروت ـ ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت
تلكس: LE/DIRKAY ـ ٤٠٠٦٧.